د. علي كريم سعيد

العراق البيريّة المسلحة

حركة حسن سريع وقطار الموت 1963







مكتبة النهضة العربية
للطباعة والنشر والتوزيع

العراق
البيريّة المسلحة

حركة حسن سريع وقطار الموت ١٩٦٣
من تاريخ العراق السياسي المعاصر
مدرسة العرفاء

د. علي كريم سعيد

اسم الكتاب: العراق البيريّة المسلحة حركة حسن سريع وقطار الموت ١٩٦٣

اسم المؤلف: الدكتور علي كريم سعيد

الطبعة الأولى: بيروت - ٢٠٢١

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد : ٧٨٣ / ٢٠٢٠

ISBN: 9789922913193



مكتبة النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع

العراق- بغداد - مدخل شارع السعدون- عمارة فاطمة

00964| 07901378602 - 07713000191

alnhtha co@yahoo.com

د.علي كريم سعيد

العراق
البيريّة المسلحة

حركة حسن سريع وقطار الموت ١٩٦٣

من تاريخ العراق السياسي المعاصر

مدرسة العرفاء



مكتبة النهضة العربية

الإهداء

إلى السياسيين العراقيين،

الضحايا وجلاديهم!

من أجل التأمّل الجدّي فيما حصل،

وما سيحصل

المحتوى

تمهيد:

إن أهم حقائق الصراع الذي مازال يدور على أرض العراق، منذ تأسيس دولته الحديثة، هو توافق وتناغم بعض الاستعدادات المَرَضية المحلية التي كانت منتشرة بين موظفي الإدارة العثمانية وبعض المقربين منهم في العراق من جهة، وبين الحاشية التي رافقت رحلة الأمير فيصل من سوريا إلى الحجاز فالعراق، والمتكونة من موظفين؛ عرب وترك وكرد وأبناء قوميات آسيوية أخرى من كتبة وإداريين وفنيين، وضباط عاملين في الجيش التركي أَسَرَهم الجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى ضد الألمان وحلفائهم العثمانيين من جهة أخرى.

وسواء أكانوا موظفين محليين قدامى أم مواكبين لرحلة فيصل الأول، فقد حافظوا على ميولهم وثقافتهم العثمانية، حتى بعد انتقال موالاتهم إلى المحتل الإنكليزي الجديد. وسواء كانوا تحت حكم العثمانيين أم الإنكليز، فقد التزموا تنفيذ أوامر المستعمر في بلادهم.

وسرعان ما تشكلت، من توافق المصلحة الذي أشرنا إليها، طبقة جديدة حاكمة، انعزالية، ومتعالية، تعززت الأواصر بين أفرادها، مع مرور الوقت، بالتزاوج والتقارب و"تخادم" المصالح، فميزت نفسها عن بقية ألوان المجتمع العراقي.

وحمل هؤلاء في رؤوسهم، بعض المؤثرات السياسية والنفسية القادمة من الخارج، على شكل أسلوب حياة مختلف، ومثيرات أيديولوجية وافدة من أوربا، رغم إن بعضها حسن النية وتقدمياً أو يسارياً، لكنه لم يَدرْ في خَلَد واضعي تلك الأيديولوجيات: أولاً، رسوخ وتنوع التقاليد في بعض بلدان الشرق، وبين أهمها العراق العريق، المتمسك بتقاليد قديمة يصعب اختراقها، وإنْ بدا ذلك (الاختراق) للناظر السطحي ممكناً أحياناً. وثانياً: ما قد ينجم عن التدخلات النظرية المدرسية غير الموفقة، من ملابسات وتأزم في الوضع السياسي والاجتماعي الداخلي.

وتحت إشراف وتوجيه المندوب السامي البريطاني المباشر، تدربت هذه الطبقة المستحدثة الحاكمة على تسيير البلاد، وأقامت الدولة الجديدة على قاعدة شَكَّلَ

عمادها الاجتماعي الطبقة القَلقة التي ذكرناها سابقاً، فضلاً عن تحالفها مع بعض العشائر القاطنة بأطراف البلادَ، لتحصل منها على مراتب لشرطتها وجيشها الفتيين، وجاءت من المنطقة الكردية والموصل بجنود وضباط وموظفين محايدين نسبياً، أي لا يهمهم كثيراً ما يجري ببغداد، من صراعات حول مشاكل سياسية واجتماعية، ولا يعلمون شيئاً عن أحوال أبناء الوسط والجنوب وأطراف وحواضر العراق الأخرى.

وقد آثرت الطغمة الحاكمة المؤتلفة حول مصالح ضيقة، أن يكون شكل ومضمون الدولة العراقية الجديدة متغيراً، ويتميز بدستور وأعراف وقوانين غير ثابتة بالنسبة لها، ولكنها ثابتة وتتغير نحو التشدد بالنسبة لبقية المجتمع العراقي، بل وجعلوا الدولة العراقية منذ تأسيسها وحتى الآن مدمجة، غصباً عنها، في الحكومة وخاضعة لها. أي إن تلك الطبقة الطغمة لم تَغْر يوماً على ثبات مؤسسة الدولة بقدر غيرتها على مصالحها وعلى ثبات شكل الحكومة (السلطة) التي بين أيديها.

فقامت في العراق "الحكومة- الدولة" التي التوَتْ لها أعناق الثوابت الوطنية. ورغم الادعاءات والشعارات المبالغة للحكومات ولقادة الانقلابات العسكرية في الاعتزاز بالسيادة الوطنية، جاءت أفعالهم، منذ الاستقلال الوطني وحتى الآن، جميعها مهينة للدولة، وفي مصلحة الطبقة أو الطغمة السياسية الحاكمة.

ورغم ذلك لم يعنِ نجاح الانقلابات والمناورات التي برعوا في إخراجها بانتظام؛ إن العراق قد استقر يوماً بين أيديهم، بل ظلت الحكومات من أجل استمرارها في السلطة، تعيش حالة خوف دائمة من الشعب المتربص بها، وتكرّس كل وقتها وطاقتها وكل خيرات البلاد على كسر شوكته، ووظفت من أجل ذلك وسائل مبتكرة للتضييق والقسوة، حتى وصلت إلى حد تبني مفهوم "الجريمة غير الشخصية"، معاقبةً بهذا الأسلوب، عائلات وأقرباء المعارضين السياسيين، على اهتمام أبنائهم بالشأن الوطني العام.

ولكن ورغم ما ألحقته المعادلة السياسية العثمابريطانية الفاسدة، بالبلاد من أذى وأزمات غير منتهية، ظل المجتمع السياسي العراقي حتى اليوم منقسماً إلى نمطين: **الأول** ويمثله أكثر أبناء البلد وأهل الرأي منهم، الذين أظهروا منذ الاستقلال الوطني وحتى اليوم، صبراً عنيداً غاضباً، واستعداداً للتطور والتقدم رغم الحرمان، وعدم الاستسلام رغم الإرهاب، وبالتالي تمكنوا من الصمود والبقاء أو عدم الانقراض، شاءت الحكومات أم أبت. **والثاني** ويمثله أولئك المستفيدون من الحقبة الاستعمارية

الغربية. والغريب أنهم مازالوا حتى اللحظة يَجدّون السعي بطرق ملتوية ومكشوفة أحياناً، سواء كانوا في السلطة أم في المعارضة، للحفاظ على مكاسب غير مشروعة حققها لهم المستعمرون، وهي مكاسب وامتيازات لم يجر استقطاعها من حساب المستعمر بل من حساب وحقوق غالبية أبناء البلد.

ما جدوى نبش الماضي الأليم؟

ورغم إن ما تقدم يستدعي بالضرورة العودة إلى قراءة تاريخ الماضي بكل ما حمله من هواجس ورغبات ودماء، فقد خاطبني كثير من الأصدقاء المحبين و "المشفقين!!" متسائلين حول أهمية مراجعة الماضي لمعالجة الحاضر؟ أو لماذا نبش الماضي الأليم؟ وحول جدوى توثيق مثل هذه القضية المثيرة للصراعات والعصبيات، خصوصاً عندما لا تكون لها أهمية تاريخية تذكر؟

وبعد تقليب الأمر أجدني أكثر إصراراً لأسباب كثيرة بينها:

أولاً: ليس صحيحاً إن الكتابة ستثير المزيد من الصراعات، فهي نوع من الغسل والتطهر وتخليص النفس من هموم وأوهام الماضي المريضة، ومما تثيره الخطايا المكبوتة من سخط داخلي في ذواتنا. وفي كل الأحوال، وسواء كتبنا أم لم نكتب، فالصراعات موجودة أساساً وبالفعل، والمزورون لا يتوقفون عند حدود، وقد علّمتنا التجربة إن سكوتنا لم ولن يُقابَل من طرف المستفيدين مادياً من اللفلفة، بالتوقف والتسامح، بل عَنى وسيعني دائماً فرصة مواتية للإمعان في التزييف وقمع الآخر بشدة أكبر.

ثانياً: إن حركة ٣ تموز ١٩٦٣ كانت قد وقعت فعلاً، أي إنها ليست من بنات أفكارنا. وحري بنا كأمة وشعب أن نؤرخ لكل ما يحصل في بلادنا، لكي نسهم في صنع ذاكرة سليمة وشريفة لمجتمعنا. وإن تغييب أي حدث أو جعله سرّياً لم يكن يوماً من الأساليب المعتمدة لدى الأمم والشعوب المحترمة الناشدة لأسلوب تربوي صحيح. كما أن ما جرى تغييبه سابقاً، من تاريخنا وتراثنا، قد عاد رغم كل أساليب التعمية والقمع الدموية إلى الظهور بصورة انفجارية ومدوية أحياناً. وكان كبته الذي لم ينجح أبداً قد كلّفنا وسيكلفنا حتماً، جهداً وخسائر أكبر بكثير من محاولة كتابة الحدث المقموع وإعلانه، والتبرؤ من عُقده ومِنْ ما نراه سيئاً فيه، وتبني الإيجابي منه.

وما تقدم من نصيحة في عدم الخوض بالأمر، يذكرني بدعوة إعادة كتابة التاريخ المشروطة، التي تبنتها بعض الحكومات العربية: أي كتابته "بما يكفل وحدة الأمـــة"، في حين لا أرى جدوى من الخوف على وحدة ليست قائمة، فلا الأمة موحدة ولا هي قوية، وليس جَـــرُّها للموافقة على أخطاء وخطايا ماضية أو حاضرة، سيدفع إلى بناء قيم وأخلاق تساعد أبنائها على التخلص من حياة القطيع. ذلك القطيع الـــذي يندفع باتجاهات غير مضمونة عندما يتطلب الأمر الثبات.

ويبدو أن العرب والمسلمين، كانوا "قد بدءوا بالتراجع السياسي والحضاري منذ أن وافق رجالهم المهمون – أهل الحل والعقد – تحت ضغط السيف والمـــال علـــى الباطل علانية وهم يعلمون أنه باطل!! وأخفوا في سرهم الحقيقة، ففقدوا انســـيابية الرأي المتدفق الصريح الذي عُرِفوا به. فصار الرجل منهم يحمل ميزاناً يزن فيه الربح والخسارة الشخصية، أكثر مما يزن فيه الحق من الباطل، وبدأت روح المنفعة الذاتيـــة الصغيرة تتسلل إلى كيانهم الاجتماعي ونظامهم القيِّمي، وأخذ الكفاح يـــدور مـــن أجل استمرار الفرد، وليس من أجل المجتمع والمبادئ.

لذا لن يكون هناك وعي صحيح ومجد، إذا لم نسعَ بشرف لحفظ الحقيقة، وإثبات إمكانية الإرادة العادلة، وإمكانية الصبـــرً في أن يعيد للناس، مرة أخرى، حقوقهم أو على الأقل ولعهم في الاستماع لكلمة الحق.

ثالثاً: إن ما يشجع على إشهار سلاح التاريخ، إن عدداً غير قليلٍ مـــن الـــذين ساهموا بتجربة ٨ شباط ١٩٦٣ مازالوا، حتى اللحظة، لم يدركوا خطر ما حصـــل لبلادهم بسبب المفاهيم الغربية، التي حملتها حينذاك مختلف أطراف الصراع. ورغـــم عبور أكثرهم ساحة المعارضة، وجدنا بعضهم مازالوا يأملون تكرار التجربـــة، بـــل ويأملون وراثة السلطة القائمة من صاحبها!! وتجريب حظوظهم في بناء «ديكتاتورية عادلة!!» ؛ لأن المجتمع العراقي، من وجهة نظرهم، غير قابل لتطبيق الديمقراطية، أي إنهم يرغبون بإعادة المحاولة من حيث فشلت تجربة الحكم الطويلة الســـابقة، والـــتي شكلت حكومة صدام حسين ذروتها، رغم كل ما حشدته لتجنب الفشل من أموال وسلاحٍ وروح مبادرة وقسوة شرسة وجبـــروت لا يرحم.

رابعاً: لم أكن لأهتم بموضوع بحثي هذا، لو لم أجد في حركة الجنود المتمـــردين ظاهرة سياسية غريبة تتجاوز المحلية إلى العالمية، ووجدتها أيضاً واحدة من الأدلة على حدة ذكاء عقل أبناء الرافدين، وعلى تطور وعيهم السياسي، فالجندي، في العادة، إذا

ما غضب واشتكى من حالته البائسة ووصل حد الأزمة الشديدة، لن يذهب أبعد من الهرب من الخدمة العسكرية أو ارتكاب حماقة ضد أحد الضباط، مَثَلَهُ في ذلك مَثَل العامل الذي إذا ما وصل إلى أسوأ حالاته يلجأ إلى الإضراب أو إلى تخريب آلته للإضرار بالإنتاج وبرب العمل، لتصوره إنهما متضافران على اضطهاده ومصادرة حريته.

لكن المفاجأة كانت في إقدام جنود وعمال منشآت صغيرة (مخابز وورش خياطة ومطابع وغيرها) على تسييس ذلك الغضب والطَفَرْ عندما وصل غضبهم إلى حدود إنسانية لم يحتملوها، وتحويله إلى فعل شامل يستهدف الاستيلاء على السلطة السياسية حتى لو غامروا من أجله بحياتهم، رغم إن العراق بلد لا يعاني فقراءه بشدة من أزمة وجود، أو من شظف العيش أي من أزمة ثورية بالمعنى الماركسي للكلمة، بمعنى إن الإنسان العراقي رغم ظروفه الاقتصادية الصعبة نسبياً، لم يكن قد توقف عن قدرة الاستمرار في الحياة لأسباب مادية أولاً ثم روحية بالدرجة الثانية، حتى يُضطَر للثورة أو الموت جوعاً؟ بل فعل ذلك طلباً للكرامة كما تصورها هو أولاً وقبل كل شيء.

خامساً: وبسبب عدم التوافق المزمن بين خصوم الطغمة المهيمنة على البلاد، ظل العراق منذ الاستقلال الوطني حتى الآن، البلد الأول في العالم الذي يتمكن فيه المجرمون السياسيون النجاة من العقاب بامتياز، بل ويعودون مباشرة بعد نجاتهم إلى وسط المجتمع بدعاوى مختلفة، ويحتلوا مواقع قيادية فيه، ويسعى بعضهم عندما يصبح خارج البلاد للانخراط في صفوف المعارضة، والإصرار على الحصول على مراكز فيها تتناسب مع المكانة الوظيفية التي كانوا يحتلوها عند الديكتاتور. وكلامي طبعاً لا يشمل سوى المجرمين وهم نسبة ضئيلة من المسؤولين الممتازين، الذين تركوا مائدة صاحب الحكومة. وكي لا نُخْدع، مرة أخرى، حري بنا أن ندون ونؤرخ.

سادساً: ولكي لا ننسى!؟ وحتى نجعل الدولة منيعة من تلاعب المتجرئين، ومن أجل تشييدها مستقبلاً على أسس ثابتة، وإحباط مشاريع الانتقام والقتل المستقبلية، لابد أن نلجأ لجعل المقتولين ظلماً، يحضرون في كل الفرص والمناسبات العامة، ليتذكر القاتل فداحة جرمه، فقد نسي بعضهم وهم يرتكبون عمليات تزوير واغتيال الحقائق التاريخية، بأنهم إنما يتحدثون إلى شعب قامت بين نَهْـرَيه أعرق وأخصب الحضارات روحاً ورمزاً. ولذلك سيكون عسيراً على أبنائه أن يقبلوا بسهولة سخرية

المزورين، وهم وإنْ اضطروا للتظاهر بالقبول أحياناً فذلك لرغبتهم في أن يتجاوزوا مرحلة ضعف غير مؤاتية ومؤقتة يمرون بها، ولكي يستعدوا لجولة أخرى، بجيل آخر لم يشهد هزيمة الآباء.

وتاريخ العراق مليء بالأمثلة والشواهد على تساقط الظالمين ولو بعد حين، ودائماً كان دور المؤرخين والرواة حاضراً، وكان إشعاع الضحايا المظلومين يحضر أيضاً ليحرض وينير بالحق درب فلسفة العناد العراقية المزدهرة والمحرضة في الحاضر، كما كانت في الماضي شعراً وروايةً ولدى أصحاب السير.

لكل هذا قررت مخالفة القاعدة، والإسهام بتسجيل الحدث وصفياً لكي تتحقق العبرة ويضيق مجال الخديعة. وكان العرب يفعلون مثل ذلك، فيصفوا ويسجلوا الحدث شعراً ليظل دائراً على كل لسان، يؤرخ لعمل الخير والشر أو الجريمة بنفس الوقت، فيتشجع النبلاء ويزدادوا كرماً ولطفاً وشجاعة، وينغرز الخوف في قلوب الميالين لارتكاب الحماقات من العار الذي سيلحق بهم وبأبنائهم إذا ما ارتكبوا جرائم مماثلة بحق الأمة والشعب.

وهناك أسئلة كثيرة أخرى ستحاول الدراسة الإجابة عليها مثل:

هل كان ضرورياً قيام حركة ٣ تموز بمعسكر الرشيد؟ وكيف فكر قادتها حينذاك؟ وكيف يستطيع المحلل السياسي الآن تناولها بعد مرور أربعين عاماً؟

وهل أدركت قيادتها بأن التغيير إما أن يتم وفي تلك اللحظة التاريخية، أو لن يحصل أبداً؟ أي هل أدرك قادتها الشباب ما أراد سلام عادل تنفيذه أول مرة في ٥ تموز ١٩٥٩، ثم مرة أخرى عندما سعى قبيل ٨ شباط إلى توحيد إرادة قيادة حزبه، ورص تنظيمه المدني والعسكري بتخليصه من الانتهازيين والطارئين الكثر، ليكون على رأس قوة تستطيع التغيير؟

وهل خسر (سلام عادل) معركته، رغم ما كان بين يديه من قوة شعبية وعسكرية وسياسية عظيمة، لأنه كان قد خسر وقتاً ثميناً، بعد أن نجح خصومه داخل الحزب بتسفيره إلى موسكو[1]؟ فسعى بعد عودته لتحقيق نفس الهدف، لكن

١ ـــ يقول مقدم الجو منذر الونداوي في رسالة خاصة للمؤلف عام ٢٠٠٢: "الحادث (أي حركة حسن سريع) يشير إلى قوة وجماهيرية الحزب الشيوعي، فقد كان العراق سيكون بيده لو أراد أو بالأحرى لو سُمح له بأخذه. عيب الحزب الشيوعي أنه كان امتداداً للسياسة الخارجية السوفيتية، وغير مسموح له التحرك خارج نطاقها، ومهما كان التبرير فإن ذلك يعني أنه كان ينام في نعش جاهز، فالثورة تبدأ كجنين والجنين ←

الفرصة كانت قد اضمحلت، فلم يفلح سوى بقوله "نحن متأخرون والزمن أسرع"، فأراد جنود معسكر الرشيد استدراك الأمر قبل أن يفوت الأوان، فحصدوا مثل ما حصد.

فهل قُدِّر للشعب العراقي أن يعيش منذ استقلاله الوطني وحتى الآن بين طموحَيْن الأول يريد استمرار الهيمنة، والثاني يتوسل كل الوسائل لانتزاع السلطة، فيظل الوطن ميداناً للثورة والتمرد والصراعات الدموية، وتبقى سجونه مكتظة بالسياسيين المتآمرين والثائرين وبالموت والتعذيب المذل؟

منهج أو طريقة العمل

الطريقة التي اعتمدت في الكتابة والإستنتاج، وفي توصيل الخبر، وتصوير الفكرة للقارئ هي:

أولاً: استخدام كل الطرق والعمليات العقلية التي يقوم بها دماغ الإنسان لوضع أحكام منطقية سليمة في مواجهة الواقع، مثل الملاحظة، والأحكام والأفكار الأولية، التي يجري في مرحلة لاحقة تطويرها بأسلوب مقارن أو بالمنطق الصوَري أوالديالكتيكي، قياساً وعياناً، أو إستقراءاً وإستنباطاً، بحيث لا نستبعد من الاستخدام أية أداة للحكم، لأن كل الأدوات المنهجية تتعاون وتُكمِّل بعضها بعضاً في البحث العلمي، فالمحاكمات العقلية البسيطة تَستخدِم في أحكامها أوتوماتيكياً، أي بصورة لا إرادية، كل طرق الاستنتاج والاستنباط، في حين يستدعي الباحث بنفسه المناهج لتطبيقها عملياً عندما يتعلق الأمر بأفكار وأحكام أكثر تطوراً وتعقيداً.

ثانياً: أن يكون معيار الحكم المقارن، إما سُنة تَعاقَد الناس عليها، أو قانوناً اجتماعياً أو طبيعياً أعمى يعمل بصورة مغفلة أي عاماً وليس فردياً. وبهذا سيخضع الجميع للقانون، بنفس الصورة التي يخضعون بها لأحكام ونتائج أوراق انتخابية مغفلة، لا يحق لأحد الاعتراض على نتائجها حتى لو كان يملك منطقاً سليماً. فالناس لو خضعوا لقانون عَام يسري على الجميع، ويقع خارج قدرهم ورغبتهم الفردية

بنمو بحكم الطبيعة، فإنْ هو كَبـر فلابد له أن يخرج أو يموت، ولم تكن حركة حسن سريع سوى محاولة لاخراج الجنين بعملية قيصرية شجاعة، لكنها جاءت متأخرة، وقامت بعد أن كانت الأم قد ماتت وكذلك الجنين. ورغم فشلها فقد كانت محاولة جريئة نفذها عراقيون".

على التلاعب به، أو التدخل في أحكامه ونتائجه، أي قانون أعمى لا يخضع لتحليلاتهم المزاجية وليس من بنات أفكارهم المؤقتة، ولا تهمه سطوتهم ووجاهاتهم، فإنهم سيعيشون عدالة أكثر جدوى أخلاقياً من المعيار القيمي، ويضطر الجميع للخضوع لها، فيتحقق فيهم القانون، وتتحقق حيادية البحث، والديمقراطية أو صورة من صورها للمجتمع الذي لا غنى لانتعاشه عنها.

ثالثاً: الميل نحو الوصف، إذ إن الحالة العراقية منذ حوالي أربعين عاماً، وتنوع المآسي وفرادة صور المصائب التي تفوق قدرة الفنانين على نقلها، جعلت المؤرخين المعاصرين يميلون نحو الوصف الذي يستطيع دون إخراج ورتوش أن يكون كافياً لكي يعطي صورة فنية وإنسانية صارخة وصادقة، تفوق الخيال البسيط وتفي بالغرض. ويتخلل ذلك محاولات بسيطة للتحليل أو للفت النظر، ثم نترك للقارئ التفسير والتركيب ثم الاستنتاج والحكم.

. **رابعاً:** وكباحث يريد، على الأقل، أن يحترم نفسه ويرسخ عِبرةً صحيحةً وغير مخادعة للأجيال القادمة، عليه قبل كل شيء توحيد معاييره والنظر لكل من يشملهم الحدث والبحث بنفس النظرة والميزان ودون انحياز..

ولكن ليس علينا أن نتوهم بأن منهج الوصف المحايد ومنهج وحدة المعايير سيكون وحده كفيلاً في عدم الوقوع بأخطاء كثيرة، وفي عدم إهمال أحداث مهمة، ولو دون قصد، لكنه سيقلل حتماً منها.

ولن يكون هدفنا من العودة للتاريخ فضح الظالمين ووعي الذات فقط، بل وأيضاً جَرِّ المتسلطين الراهنين وأنصارهم إلى مفترق واضح المعالم: فهم إما أن يخوضوا معركة الدفاع عن جذورهم المريضة، في مكان وزمان وحول قضايا ليست من اختيارهم، أو أن يتراجعوا مهتدين. وربما ستتحول واحدة من هذه الإثارات التي نحن وكثيرون غيرنا بصددها، إلى مركز معركة، يضطر الطرف المتسلط إلى قبول التحدي المفروض فيها، فينكشف للرأي العام المحليّ والخارجي عن ضعف غير متوقع، وقد تشجع العلنية على أن يتبنى المواطنون الرأي المعارض علناً أيضاً، فيتوحد موقفهم حول القضية المثارة فترتبك السلطة، وبعكسها تتراص صفوف المعارضة، مما قد يساعد على تمركز قوتها المشتتة.

ويمكن لمثل هذه العملية أن تتكرر بنجاح حتى تتحول واحدة منها في يوم ما، إلى مركز جذب ينشدّ إليه الطرفان ليخوضا معركة فاصلة قد تعتق العراق المظلوم من

أسره. فكثيراً ما تدور حول مراكز ونقاط لا يبدو إن لها أهمية سابقة، معارك سرعان ما تتطور وتصبح حاسمة بسبب حالة التحدي التي يفرضها أحد الطرفين.

إنها ورقة نحفظ بها التاريخ، لإحياء حدث كاد أن يطوي النسيان بعض معالمـه، خصوصاً وإن الجيل الذي عاشه مباشرة يقترب بحكم الزمن من شوط عمره الأخير، ونأمل أن يستثير نشرها الأحياء الذين عاشوا تلك المرحلة لكـي لا يتمنعـوا مـن تزويدنا بالمعلومات، فيكتبوا لنا أو يردوا علناً. وبسبب ما أتوقعه مـن ملاحظـات سترد أو تنشر على سبيل التقويم والتصحيح والإغناء، فأنني أتهيأ من الآن لإضافة أي شيء مفيد قد يرد حتى نستكمل العمل نسبياً، أو نصل به إلى صورة قريبة من واقع ما حصل فعلاً، فهو أولاً وأخيراً تاريخنا ويجب أن نحتفظ به على سـبيل الفائـدة والعبـرة.

إذن فقد وضعنا هذا الكتاب لتقول أحداثه للحاكم الديكتاتور ولكل من يفكـر بإقامة ديكتاتورية مستقبلاً، بأنه سبب وسيسبب لأصحاب الرأي الآخر آلام كثيرة غائرة، لكن التاريخ الذي مضى والأيام الحاضرة واللاحقة أثبتت وستثبت بأنه أيضاً لم يكن مرتاحاً بل يخفي وراء مظهره الزائف والـمُدَبـر حيرةً وعويلاً.

وسيرد العراقيون التزوير ويدافعوا عن عقولهم ولن يقبلوا الهزيمة ولن يعطوا الظالم "عطاء الذليل"، ولن تخدعهم لباقة بعـض المتحـدثين، ولـن تكـون رشـقات الكلامولوجيا الفارغة بكافية لإرباك وخداع أقدم المتحضـرين علـى الأرض، لأن عراقتهم تعني أنهم أكثر أبناء هذا الكون عناداً، وسيكتشف الظالمون بعد كل جولة، وهذه المرة أيضاً، أي خطأ ارتكبوا وأي عدو أوجدوا!!؟

ولعل أفضل ما نقدمه في هذا المقام من تذْكرة وعبـرة هـو إن موسـى بـن جعفر(ع)، بعد أن قضى ١٦ عاماً في سجن الرَشيد الانفرادي، أبلغه الخليفة هارون الرشيد: أن يطلب العفو لنفسه منه فيفرج عنه. فكتب إليه موسى بن جعفر الصادق من داخل السجن يقول: "لن ينقضي عني يوم من البلاء، حتى ينقضي عنك يوم من الرخاء".

وإذ أعتذر من القراء عن عدم إحاطة الكتاب بتفاصيل كثيرة، لكـنني أشـعر في الوقت نفسه أنه يقدم محاولة جادة لوضع حركة المعسكر في سياق ومجرى تـاريخ العراق السياسي والاجتماعي المعاصر، ليمكن استكمال تفاصـيلها مـع خـلاص العراق، واستقرار وهدأة أبدان وأرواح أبنائه القلقة. وأعترف بأني محظـوظ دائمـاً

بأصدقاء أوفياء، وفروا لي المعلومات والفرص الممتازة للقاء كثيرين ممن كانوا شهوداً على جوانب من ذلك الدث الرمزي، وأخص بالذكر د. حامد أيوب العاني، مجيد حاج حمود، محمد رشاد الشيخ راضي، د. محمود أمين شمسة، عادل مراد، د. عدنان آل طعمة، د. أبو حيدر الدراجي، رشدي عبد الله، وجبار (أبو أيوب).

علي كريم سعيد عبد الله

الباب الأول

البـدايـات

الفصل الأول

حسن سريع
سيرته وبيئته

من بساتين التمر والرمان والتين والزيتون
إلى عبث الصراع الدموي في بغداد

لم يكن اختيار "حسن سريع" لحديث مختصر عن سيرته، إلا كواحد من المواطنين أو الجنود القلة الذين حصلوا على فرصة للتعبير عن ما كان يدور في أعماقهم من حوار ساخط، ذلك الحوار الذي كان حرياً بأرباب السلطة الاستماع إليه والسماح بخروجه بحرية، ولو لمرة واحدة في كل جيل، من أجل غسل العقول والقلوب التي اسودت، لدى جميع الأطراف، من شدة خوف أصحاب السلطة على مصالحهم الضيقة، ومن ظلمة وسديم الكبت الذي أصبحت الغالبية العظمى من أبناء الشعب العراقي تتصوره أزلياً، ولا تأمل بزواله إلاّ بطريقة انفجارية مدمرة للحاكم والمحكوم سواء بسواء، وعلى شكل لحظة من لحظات دورة العنف القاسية التي تلف البلاد كل عشر سنوات تقريباً.

هو شاب نحيف البنية متوسط القامة أسمر السحنة، عيناه سوداوان صغيرتان وحادتان، شعره أسود و لم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين (ولد في أوائل الأربعينات بمنطقة قضاء شثاثة (عين التمر)، وكانت أكثر عائلات المنطقة لا تسجل المواليد، بل تعتمد الذاكرة التي بدورها تضمحل مع تراكم وتزايد صعوبات وهموم الحياة التي كانت حينذاك تتزايد بمتوالية هندسية، فضلاً عن إنها تُحفَظ شفاهاً بتقويم هجري، كان استعماله قد بدأ يضمحل أيضاً، ويحل محله التقويم الميلادي.

متزوج وله ابنة وحيدة كان عمرها ستة أشهر، اعتقد متفائلاً قبيل إعدامه إنما ستكبر وتثأر له، لأنه كان يعرف جيداً إن عقوبة ما ينوي الإقدام عليه في حالة الفشل هي الموت..

ويبدو إن عائلته تنتمي إلى بني حجيم أو حجام، جاءت أصلاً من مدينة السماوة للعيش في منطقة شثاثة (مدينة التمور) ذات الجو الصحراوي الملتهب إثر "جلوة" تسببت فيها المشاحنات العشائرية التي كثيراً ما كانت تحصل في مناطق الفرات الأوسط، بل وفي أكثر أرياف العراق، ويرى آخرون إنه من آل زيرج. في حين يقول الصديق المهندس عدنان عيسى إنه من منطقة تقع بين الحُر وشثاثة، وإنه (أي عدنان) كان يلتقي في كربلاء بأخيه كثيراً.

ويقول الكربلائيون إنه ينحدر من عشيرة اليسار وهي من أقدم عشائر كربلاء

التي عُرِفت بالكفاح والجهاد، وهم العراعرة من طَيء القحطانية، ويسكن القسم الأعظم منهم غرب كربلاء ويوجد كثيرون منهم في المهناوية والنجف، وأكبر زعمائهم في القرن العشرين هو "بحر الشبيب" الذي نصبه زعيم الثورة العراقية الشيخ محمد تقي الحائري رئيساً للعشيرة[١].

و في كل الأحوال فإن تغير مقر عائلته يعني، دون شك، تراجع مكانتها الاجتماعية ومواردها المالية. لكن ظروفه الصعبة، بدلاً من أن تؤدي إلى إحباطه، دفعته للتعويض وجعلته صلباً "صل صحراء لا يهاب الخصوم"، وقلب لا يستكين ولا يخاف[٢]. وفي رسالة خاصة للمؤلف قال عنه نعيم الزهيري الذي كان قد شاركه زنزانته: "كان حسن ذو شخصية فذة، الكل يحترمه في وحدته العسكرية، ويستمع إليه بتقدير حتى المراتب الذين هم أعلى منه رتبة. وقد تميز بقدرة فائقة على الحوار والإقناع، ربما بسبب لهجة الصدق المتدفقة الظاهرة"، وقد تمكن فيما بعد من البرهان على إنه كان مخلصاً لوعوده باحتفاظه بأسرار رفاقه وبروح التحدي الهادئة التي لازمته حتى وهو يرحل نهائياً. ويذكر بعض المقربين من الحركة إن حسن سريع كان شيوعياً ومؤمناً متديناً بنفس الوقت، إذ شاهده بعضهم يصلي مع إخوانه الجنود عندما يحين موعد الصلاة. وكان الشيوعيون قد استقطبوا ألوف الفلاحين والعمال في الفرات الأوسط والجنوب قبل غيرهم من الأحزاب العراقية الأخرى وكان الغالبية منهم يقيمون الشعائر الدينية.

وفي شثاثة درس الابتدائية، وكان أكثر أبناء العراق، يضطرون قبل إكمال دراستهم إلى العمل كموظفين صغار ومستخدمين بسطاء أو يلتحقون بسلك الجندية، باستثناء جزر سكانية قليلة ترتبط عائلاتها بإدارة الدولة وبعض الشيوخ الإقطاعيين وتوابعهم. ولم يكن وضع عائلة حسن سريع مختلفاً عن بقية العائلات الكادحة، وسرعان ما تطوع بمدرسة قطع المعادن المهنية بمعسكر الرشيد في بغداد، وأصبح معلماً في نفس المدرسة وترفع إلى رتبة نائب عريف (جندي بخيطين).

ومن أجل تلبية طموحه للخروج من دائرة المنسيين، إلتحق أيضاً بثانوية مسائية لإكمال دراسته وتطوير مستواه العلمي، وحتى يكون أمر الدراسة ممكناً استأجر كوخاً قريباً من المدرسة في منطقة الشاكرية الشعبية بالكرخ.

---

١ ـــ سلمان هادي آل طعمة، عشائر كربلاء وأُسرها ١٩٩٨، دار المحجة بيروت.

٢ ـــ رسالة العراق العدد ٢٠ نعيم الزهيري، لندن.

أثر البيئة في تكوين شخصية سريع

أما كيف يكون ممكناً لشاب أن يمتلك كل ذلك الإيمان والثقة بالنفس الكافيين لكي يحاول قلب واحد من أشد وأقوى أنظمة الحكم في تاريخ العراق المعاصر؟

ربما استطاع ذلك لأنه ينحدر من منطقة قامت فيها حضارة قديمة، وعند أفولها نجت من السقوط في عالم متخلف معزول، بسبب قربها وعلاقتها المتينة بواحدة من أهم المراكز السياحية الدينية والحضارية العراقية "مدينة كربلاء"، وبدرجة أقل قربها من الحلة والنجف وبغداد.

وإذا اعتبرنا إن تاريخ مستقبل الشخص يمكن نسبياً قراءته مرتبطاً بعائلته وبثراء بيئته، فعين التمر أو شثاثة التي انحدر منها أو من محيطها حسن سريع، تبعد حوالي ٦٠ كيلو متراً جنوب غرب كربلاء، ويمر المسافر إليها ببرية حقيقية لا حدود أو ضفاف لها، ثم بعد حين ينكسر الطريق هابطاً بانحدار شديد، وانطلاقاً من المكان المرتفع نسبياً "منطقة الطار" يمكن رؤية كتلة صغيرة أو نقطة سوداء بعيدة وداكنة في قلب واد سحيق شديد الانحدار. وككل الأشياء الأخرى، كلما تقترب منها تتبدد أمامك "وحشة المكان" وتتضح معالم وقسمات جديدة تتجاوز انطباع النقطة السوداء التي تكونت من بعيد، وعندما يصل المسافر سيفاجأ بمدينة حافظت نسبياً على وجودها رغم الإهمال والخمول والانعزال الذي لفَّ المنطقة قروناً عديدة في شق صحراوي بعيد.

ويرى الأديب العراقي محي الأشيقر: "إن سبب بقائها على قيد الحياة هو الماء، إذ ماتت الحضارة وبقيت عين التمر". فللمدينة ضفتين واحدة قريبة من المسطح المائي الكبير المسمى بحيرة الرزازة، والضفة الثانية تشرف على هور أبو دبس، وهي مدينة عيون مياهها صالحة للسقي، ولكن نوع أملاحها تجعلها غير صالحة للشرب، ولذلك يشرب أبناؤها مياهاً صافية مسحوبة من كربلاء، كما إنها وبامتياز مدينة بساتين الرمان والتمر، فتنتج كميات تجارية كبيرة من الرمان الحلو و"الخوشي" ذي القشرة الرقيقة جداً التي تتفطر بمجرد نضجها، وكذلك التين، كما كانت المنطقة الوحيدة على الفرات التي تزرع الزيتون.

وتكتظ بأجود أنواع التمور العراقية مثل: عوينة أيوب، ونوع نادر من الخستاوي

إسمه أزرق أزرق، والأشرسي والسلطاني والمعسل والديري ونوع متميز من البربن إسمه "أم البلاليز" وهو لا يتلف بسرعة، فضلاً عن الزهدي. ومن العوامل المفيدة اقتصادياً هو تصادف موعد زيارة مقام السيد أحمد بن هاشم (وهو جد السادة آل طعمة وآل نصر الله وآل ضياء الدين) الذي يئمه سنوياً عشرات الآلاف من الزوار مع بداية موسم جني التمر (الگصاص)، فتشكل زيارة المقام بالنسبة للفلاحين سوقاً ممتازة لبيع منتوجهم، ويقارن بعضهم زيارة أحمد بن هاشم بزيارة السيد "محمد" على طريق سامراء في بَلَد.

وتنقسم مدينة "عين التمر" اجتماعياً إلى طبقة الشيوخ وطبقة الفلاحين البسطاء، وإدارياً إلى قصور، مثل قصر المالح، وقصر ألبو حمد، وقصر الدراوشة، وقصر شمعون..، وكل قصر يعادل حي أو محلة ولكلٍ منها شيخ لديه ديوان وأراضٍ واسعة ومردود أكثر، ولكل قصر أو محلة موكب عزاء حسيني يمثل نزوله في عاشوراء إلى كربلاء طقساً وسياحةً ومهرجاناً للتسوق بنفس الوقت.

أما الأدوات ذات العلاقة بالإنتاج فكلها بسيطة عدا طاحونة الدقيق.

غير إن هناك عوامل أخرى ساعدت نسبياً على رفع مستوى الوعي والنضج السياسي والثقافي بين أبنائها، بينها استخدام السلطة لشثاثة (عين التمر) كمنفى للسياسيين، مثلها مثل نقرة السلمان وبدرة وجصان في محافظة الكوت، وكان أكثر المنفيين إليها من الطبقة المثقفة مثل عامر عبد الله وعالم الاقتصاد الدكتور إبراهيم كبة، كما كان الموظفون العاملون فيها من المثقفين وشبه مبعدين سياسياً.

ومن اللافت إن عدداً غير قليل من أبنائها كانوا من أوائل الملتحقين بالثورة الفلسطينية.

كما انتشر الفكر الماركسي بين أبنائها.

وفيما بعد مالَ عدد كبير منهم نحو الحركات الإسلامية الجديدة.

ويذكر إن القائد العربي الإسلامي موسى بن نصير (فاتح شمال أفريقيا والأندلس) وعالم النفس الإسلامي الكبير ابن سيرين وآخرين غيرهم جاءوا من عين التمر، وكانوا هدية كربلاء وشثاثة إلى العالمين العربي والإسلامي[1].

---

١ ـــ أكثر هذه المعلومات سُجلت في لقاء خاص مع الصديقين الأديب محي الأشيقر، والمهندس عدنان عبسي، السويد ٢٠٠١.

الفصل الثاني

البـدايـــات

بقايا خلايا تائهة

كانت البذرة الأولى لحركة حسن سريع قد بدأت انطلاقاً من محاولات مغامرة أو ربما شجاعة، لاستعادة ولو جزء من التنظيم الشيوعي الكبير، بعد أن تعرض من قبل قيادة وأنصار حركة ٨ شباط لهجوم كاسح وغير متوقع من حيث الحجم والنوع، واستُخدم فيه لأول مرة في تاريخ العراق، بالإضافة للأجهزة الحكومية وآلة الدولة، مواطنونَ متطوعون من أحزاب قومية كانت قليلة الشعبية.

تلك المحاولات قام بها شيوعيون أفراد، لاستنقاذ خلايا ومنظمات حزبية قاعدية سرية، وقليلة نسبياً، في كل القطاعات المدنية والعسكرية، ظلت بعيدة عن أيدي السلطة وأجهزتها، رغم الضربات القاصمة والانهيارات التي قطعت أوصال التنظيم المركزي والمناطق والمحليات والمنظمات المهنية والخاصة الكثيرة المنتشرة في كل مكان.

وبنفس الوقت وكرد فعل طبيعي، جمد الناجون من الهجوم نشاطهم الحزبي. وبسبب قسوة الظروف ومقتل وهرب أو سجن المشرفين والمسؤولين المباشرين، ظلت تلك الخلايا بعيدة عن إمكانية تحقيق الاتصال بمركز قيادتها، فدبت الفوضى وكثرت الأعمال الفردية، حتى إن أحد الشيوعيين كتب بياناً بخط يده ووزعه بسرية بتوقيع "الحزب الشيوعي في الدوريين"(١).

كما حصل في الديوانية أن استولت مجموعة من الطلبة على رونيو من إحدى المدارس وأصدرت بياناً شعارهُ "طريقنا طريق سلام عادل"(٢).

وقاد عزيز الشيخ منظمة حزبية واسعة غير متصلة بالحزب لمدة شهرين قبل أن يُعتقل ويؤيد اعترافات خاله شريف الشيخ، ومن أجل بقاء المعنويات أَوْهَم أعضاء منظمته بوجود صلة مع قيادة الحزب، ويذكر إن عزيزاً كان قد ترك العمل السياسي الحركي فوراً بعد إطلاق سراحه، لأنه اكتشف في داخل معتقل قصر النهاية إنه غير قادر على تَحمُل أعباء شيءٍ يسمونه "سياسة" لكنه ليس سوى لعبة موت قاسية وجاهلة، القاتل والشرس فيها هو الأعلم.

---

١ ـــ الدكتور حامد أيوب العاني في لقاء شخصي بمدينة لاهاي في هولندا مع المؤلف عام ١٩٩٩.

٢ ـــ عدنان سيد جعفر العذاري، لندن عام ٢٠٠٠.

وكان إبـراهيم محمد علي[1] عضواً في اللجنة العمالية المركزية للحزب، وهـي لجنة عليا هامة وتتصل مباشرةً باللجنة المركزية للحزب الشيوعي، وينقسم هيكلـها إلى ثلاث لجان متفرعة هي:

العمالية الكبـرى: وتضم عمال المنشآت الكـبيرة كـالنفط والكهربـاء، والسكك.

والعمالية الوسطى: وتضم المصانع الكبيرة كالمياه الغازية والنسيج والمطاحن والجوت والبـريد وغيرها.

والعمالية الصغرى: وتضم عمال المطابع والأفـران والمطـاعم والعـلاوي والمخازن وسائر المنشآت والمصالح الحكومية والأهلية الصغيرة.

وهذه اللجان الثلاث كانت تُحرك حوالي خمسين نقابة رئيسية، تتبعهـا شـبكة واسعة من اللجان والجمعيات النقابية الفرعية، وتنتشر في مركز وأطـراف بغـداد، وتمتد اللجان العمالية المماثلة إلى كل جهات القطر، ويسيطر الشيوعيون بواسـطتها

---

١ ـــ جاء إبـراهيم محمد علي إلى بغداد من قرى أربيل، وينقل البغداديون عنه إنه كان متواضعاً بشوشاً، يتكلم العربية بلكنة كردية محببة ومميزة لكنها بطيئة وينتقي كلماته بدقة وعناية كي لا يخطئ، وكان قبلـها كادرا حزبياً يعمل بين صفوف مناضلي الشعب الكردي في شمال العراق، متنقلا بين المنظمات الفلاحيـة والعمالية، وكانت زوجته (رهيبة بنت محمد عبد اللطيف) قد اعتقلت أيضاً في ٨ شباط بسـبب نشـاطها السياسي في ملعب الادارة المحلية ببغداد، وبقيت هناك حتى حركةَ ١٨ تشرين الثاني التي قادها عبد السـلام عارف ضد حلفائه البعثيين، ثم نُقلت إلى سجن النساء، كما حُكم على أبيها محمد عبد اللطيف بالإعدام في عهد الزعيم عبد الكريم قاسم بسبَب اتهامه بدور ما في أحداث المَوصل و لم ينفذ الحكم. وفي بغداد أصـبح إبـراهيم محمد علي حزبياً محترفاً تحت اسم مستعار "جهاد"، وعمل في مطبعة عبد الفتاح إبـراهيم (مطبعة الرابطة)، وكانت أكبـر مطبعة في بغداد وتقع في العيواضية، وكان عبد الفتاح إبـراهيم يأتمنه ويطمئن إليه. وأصبح مسؤول هيئة المطابع في منظمة المَشاريع الصغرى بتنظيم الحزب الشيوعي، وكان مسـؤولها قبلـه "مهدي أحمد الرضي" الذي سُحب ليشرف مباشرة على مطابع الحزب الشيوعي السرية المنتشرة في الـبلاد لاسيما بغداد والنجف، وقد تم نَقل مهدي الرضي لهذة المهمة الخطيرة بناء على توصيةٍ من أخيه سلام عادل، نفذها مسؤوله إبـراهيم الحريري بعد أن أشاع بأن مهدي الرضي ترك الحزب نهائياً. ويقـول إبـراهيم الحريري: إن مهدي الرضي هو الذي رشح إبـراهيم محمد علي ليحل محله مسؤولاً عن الهيئـة العماليـة للمطابع. قُتل إبـراهيم تحت التعذيب عام ١٩٦٣، و لم يكن عمره قد تجاوز الثامنة والعشرين. ويعتقـد إن علي شكرَ وآرا خاجادور وصادق جعفر الفلاحي وسلام عادل "وأبو داود، صالح دكلة" يعرفون بحكـم عملهم الشيء الكثير عن هيئة المطابع وعن مواقفها السابقة الناقدة لممارسات وتدخلات بعـض القيـادات الحزبية "المثقفة" التي أثقلت العمل الحزبي والنقابي العمالي بكثير من القيود النظرية غير المستوعِبة للواقع المعاش.
[بعض هذه المعلومات حصلت عليها من الدكتور حامد أيوب العاني].

على الأغلبية الساحقة من الهيئات والجمعيات النقابية، التي ينتظم فيها آلاف المنتسبين.

وكان إبراهيم محمد علي عضواً في القيادة العليا لهذه اللجان الثلاث ومسؤولاً عن اللجنة العمالية الصغرى، التي نجا عدد غير قليل من أعضائها بعد أن عَبرهم التحقيق، فأصبحوا بقايا ناجين من منظمة مهدمة، وعندما تقطعت الاتصالات مع المركز، أبلغ إبراهيم عدداً من أعضاء هيئته الناجين بما حل بالحزب، واقترح الاستمرار بالعمل، مع اعتبار إن لجنتهم (الصغرى) هي الحزب، ريثما تنفرج الأمور. ويذكرإن غالبية المنتظمين في المنظمة المذكورة كانوا من الكوادر الوسطية أو المبتدئة.

وتتراوح أعمارهم جميعاً بين العقدين الثاني والثالث، وتنقصهم الحنكة والتجربة السياسية الكافية، لكن أكثرهم يتمتعون بدرجة عالية واستثنائية من الحماس والإيمان بما اعتنقوه واعتقدوا إنه صحيح.

وبحركية عالية أخذ إبراهيم محمد علي على عاتقه تغذية لجنته الحزبية والمتصلين بها بمعلومات كان يستقيها من الإذاعات، ومن مصادر اجتماعية وسياسية مختلفة، بعد أن يجري عليها التحوير والتأويل فيضيف أشياء ويحذف أخرى بهدف تمييزها وإضفاء شيء من السرية والرهبة على مصادرها، وذلك ينفع عادة في جعل العمل الحزبي السري متماسكاً. وقد استفاد أيضاً من خبرة الشيوعيين الاعلامية، ومن الإعلام القوي الموجه الذي كان في متناول أي عراقي إنْ شاء، عبر إذاعتين واحدة جديدة هي راديو "صوت الشعب العراقي" من بلغاريا، وأخرى قديمة موجهة لإيران والعراق من موسكو وأصبح تركيزها الأول بعد ٨ شباط على العراق. ولكن حكومة ٨ شباط والحكومات التالية لها تمكنت من طرد الشيوعيين ومؤيديهم من أهم دوائر الدولة، وبالتالي محاصرة الإعلام الشيوعي في الأحياء الشعبية والدوائر غير المؤثرة في الدول التي لاتعتمد الانتخابات والرأي العام الشعبي طريقاً للوصول إلى السلطة.

مخاطر البحث عن المركز

في البدء كان هدف نشاط المنظمة الأول: هو صيانة التنظيم والمحافظة على وجوده، وملء بعض الفراغ الذي تسببت به الضربات المتلاحقة، وقد بدا ذلك

ميسوراً خصوصاً بالنسبة لعمل يقوده رجال مغمورون أو غير متوقعين من قبل مراكز التحقيق الدءوبة. كما كان يمكن لعمل المنظمة أو اللجنة العمالية المذكورة أن يستقر طويلاً، لأن قيادتها وضعت خطة طوارئ أمنية ذكية، على شكل إجراءات فنية تقوم بدور الإنذار المبكر، وتقسيم التنظيم إلى اختصاصات وهيئات شبه مستقلة، فيضع كل قسم خطة عمله واحتياطاته بنفسه وبما يراه مناسباً، على أن ترتبط ببعضها بصورة خيطية قابلة للقطع متى تعرض أحد الخيوط للخطر، وهي طريقة متطورة لم تكن الأحزاب العراقية بحاجة لها في العهدين الملكي والقاسمي، عدا التنظيمات العسكرية وبشكل خاص منظمة الضباط الأحرار التي أسسها وقادها عبد الكريم قاسم منذ ١٩٤٨، ثم اتحاد العسكريين*.

لكن القلق ظل يلازم قيادة اللجنة الحزبية المذكورة بسبب نقص الشرعية الحزبية في عملهم، وبسبب حاجتهم أمام رفاقهم والذين لا يعلمون عدم اتصال قيادة منظمتهم بمركز الحزب، فضلاً عن خطر مسؤوليتهم عن أرواح منتسبيهم في حالة وقوعهم بأيدي الأجهزة الأمنية. ولذلك لم يقلل نجاحهم في ترتيب شؤونهم الحزبية بسرعة وقدرة فائقتين، من عزمهم في العثور على أية وسيلة للاتصال بمركز قيادة الحزب (جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي) التي ستتحمل حينذاك مسؤوليتها.. خصوصاً وأنهم كانوا قد عرفوا بصورة أكيدة بأن تماسك منظمتهم سيتفكك إذا ما علم أعضاؤها إنهم مجرد كتلة صغيرة لا يعلم أحد بوجودها، وتقف دون غطاء سياسي، في مقابل سلطة شديدة القوة والبأس. في حين كانوا يستظلون قبل ذلك تحت جناح حزب كبير تستغرق فعالياته السرية وشبه العلنية خريطة العراق بأكملها.

ويبدو، أيضاً، إن ما كانوا يطمحون إلى القيام به من أعمال ومواجهات مباشرة وغير مباشرة، وقف وراء بحثهم الملحاح عن "المركز"، لكي يشاركهم في تحمل المسؤولية السياسية الخطيرة التي كانت مازالت مجرد أفكار وكشوف تتشكل وتدور

* تنظيم خاص بالعسكريين الشيوعيين قام في منتصف الخمسينات، وكان الضابط الشيوعي عطشان ضيئول منذ أوائل الخمسينات قد بدأ يعمل لتشكيل خلايا داخل القوات المسلحة، وعندما أخذت تلك الخلايا شكل المنظمة ترأسها العميد إبراهيم حسن الجبوري. وكان هذا التنظيم الذي انتمى إليه العديد من الضباط شبه ملتحق بمنظمة الضباط الأحرار الرئيسية التي أسسها الزعيم عبد الكريم قاسم، ونفذ كثيرون منهم مهمات أساسية صبيحة يوم ١٤ تموز ١٩٥٨.

في قلب أدمغة بعضهم المتوترة، وقد حصل ذلك خصوصاً بعد أن أيقنوا إن القعـود السلبي والاكتفاء بتلقي الضربات هو أمر غير مجد.

أي إنهم كانوا يبحثون عن غطاء سياسي إضافي، فعزموا على إقناع قيادة الحزب على اللجوء للعمل المباشر، وعدم الخضوع إلى تحلـيلات ومفـاهيم أيديولوجيـة وسياسية مدرسية (حتى وإن لم يسموها بأسمائها)، تلك المفاهيم التي كانت تتحكم بها تقديرات ليست بالضرورة مرتبطة بالآلام والمعاناة التي يخلقها موضوع الاستئثار بالسلطة واستخدام وسائلها ووسائل الدولة، ضد شرائح اجتماعية واسعة، من قبل أقلية سياسية ما، أو من قبل طرف سياسي واحد ضد الأطراف الأخرى.

ولم يكن استخدام وسائل الدولة التي هي ملك عام للأمة كلها، لمصلحة قوة ضد أخرى، أمراً مقصوراً على البعثيين فقط، بل كانت الأحزاب والحركات السياسـية خصوصاً اليسارية كلها ستسلك نفس السلوك بأمر من أيديولوجياتها المعلنة. وهذه الحقيقة جعلت حالة العراق تبدو كأنها غابة، الأقوى والأكثر دهاءً فيها هو الـذي ينتصر ويسحق خصومه بلا رحمة، لتسود بين السياسيين الأكثر معرفة بأسرار اللعبة مقولة أو مبدأ: "حلال على الشاطر". ولذلك فكر محمد حبيب أن لا يكون غبياً.

ومن أجل توضيح الصورة أكثر؛ أتصور إن جنود معسكر الرشـيد، وقيـادة المنظمة المدنية التي يقف خلفها محمد حبيب محمد، لم يكن لديهم الوقت ولا الثقافة النظرية الكافيه للتوقف وسط الخطر المحدق بهم لمناقشة مفاهيم سياسية وربما فلسفية، لكن بعضهم أدرك بحس صاحب الحاجة المتنور، ونصف الغريق بأن الأيـديولوجيا السياسية، والشيوعية بشكل خاص، غالباً ما تتكون من منظومة مترابطة من المفاهيم والأفكار التي لا تسمح بحرية الاختيار، بل تشترط إما أن تُـؤْخَذ جميعها كمنظومة، فيصطدم غير المقبول منها بمفاهيم وأعراف وتقاليد عريقة وراسخة، أو تتخلى عنها كلها فيَكُف حامليها عن كونهم شيوعيين. ولذلك أحس بعضهم دون أن يجهـروا بالقول بأن أيديهم وعقولهم ستكون حرة أكثر مما لو كانوا مرتبطين بمركز هو ليس سياسي فقط بل أيديولوجي أيضاً.

لكن الأغلبية كانت متفقة على تسليم الأمر للمركز، وعلى ضوء هذا الالحـاح ونتيجة لذلك فقد وقع زعيمهم إبـراهيم محمد علي في شرك نصـبه لـه أحـد الشيوعيين المتعاونين مع لجان التحقيق الخاصة مدعياً القدرة على إيصاله إلى قيـادة الحزب (اللجنة المركزية)، وكان هؤلاء المتعاونون قد تحولوا إلى "قناصـة" يجوبـون

جهات بغداد المختلفة لاقتناص بقية الشيوعيين الذين كانوا ما زالوا أحراراً ونشيطين أو متخفين، وهو أمر لم تكن السلطة الخائفة من وجود معارضة سياسية قادرة على تحمله. وهكذا عاد إبراهيم محمد علي من لقائه ليبشر رفاقه بعثوره على صلة بالحزب*.

وفي اليوم التالي أعد نفسه وهندامه جيداً وذهب حسب الموعد للاتصال بمن اعتقد انهم صلة الوصل، فاصطادوه وقادوه إلى "معتقل محكمة الشعب". وكان إبراهيم نفسه يعتبر إن الوصول لمركز الحزب هو مهمة التنظيم المركزية، إذ أبلغ رفاقه ان "على كل من يعثر على شخص يدعي إمكانية الوصول لمركز الحزب، عليه أن يبلغنا لكي نحتاط ونطبق خطة الطوارئ المتفق عليها خشية أن يكون على صلة بالأعداء"[1]. وحين غادر لموعده أوصى بترتيبات أمنية تحذيرية في حالة اعتقاله، وتشاء الصدف أن يغلب القدر الحذر ويكون الصياد أول من يقع في المصيدة.

وهناك في مكتب عمار علوش عُذبَ حتى الموت دون أن يعترف أو ينطق حتى بكلمة واحدة!! ومما يؤكد ما ذهبت إليه، أن السلطة التي كانت تسابق الزمن من أجل كشف ما بدأت تستشعر بخطورته، لم تطارد أي من الأشخاص الذين كان يرتبط بهم، ولم تداهم أي عنوان من تلك التي كانت مراكز لتجمع ولقاء رفاقه، رغم حذرهم الشديد ومبيتهم في أمكنة أخرى خصوصاً بعد أن لم تتحقق الإشارات المتفق عليها معه.

---

* كانت لجان التحقيق الخاصة التي تشرف عليها القيادة العامة للحرس القومي وفيما بعد المكتب الخاص قد تمكنت من إمالة عدد غير قليل من كوادر الحزب الشيوعي للتعاون مع لجان التحقيق – خط مائل – مثل هادي هاشم الأعظمي (عضو سكرتارية الحزب الشيوعي) وهاشم حسين (مسؤول منظمة الموصل قبل وقوعه) وعباس الخفاجي عضو محلية الرصافة وميرو، وكاظم سعيد وهو عضو محلية البصرة وغيرهم كثيرين، ويمكن هنا مراجعة كتاب الدكتور علي كريم سعيد، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، لملاحظة احتقار النظام وعلم ثقته بهذه الشريحة من الشيوعيين المنهارين، وكيف إن صالح مهدي عماش كان يسوق مجموعة منهم للإعدام كلما سنحت فرصة لذلك. ويذكر إن كاظم سعيد تسلم في ١٩٦٣/٦/٢٢ من جاسم مطير الذي كان معتقلاً في البصرة رسالة تؤكد أن المعتقلين الشيوعيين قادرون على كسر باب السجن فور سماعهم البيان الأول للانقلاب المتوقع من جماعة حسن سريع، لذلك فإن على اللجنة المحلية أن تهيئ نفسها لتحريض الشارع بدلاً من انشغالها بإطلاق سراحهم، لكن كاظم سعيد سلم نسخة من الرسالة إلى فتحي حسين آمر الحرس القومي في البصرة الذي كان متسامحاً وساعد المعتقلين في لملمة القضية، إذ كان من السهل الربط بين تلك الرسالة وبين حركة سريع. (لقاء مع الأستاذ جاسم المطير. لاهاي عام ٢٠٠٠).

١ ـــ د. حامد أيوب العاني، لقاء خاص مع المؤلف عام ٢٠٠١.

الهدف الأوحد يفرض شكل التنظيم

وهكذا وبعد غياب أكثر الرجال إيماناً بأهمية أن يظل السعي للإتصال بالحزب هو القضية المركزية الأولى للعمل، استمر هذا الخط في نشاطه، دون أن يحظى بصلة بالمركز، فنفذ خطة خاصة بالتوسع فاتصل ببعض الطلبة والجنود وعدد من المنقطعين ولكن بحذر شديد جداً، يتناسب مع قسوة النتائج في حال انكشاف الأمر. كما نجح في ضم خلايا كثيرة تضم حزبيين بسطاء، كانت قد نجحت في البقاء بعيدا عن الخطر، بينها على سبيل المثال، من حيث علاقتها بموضوعنا، خلية ناجية ولكنها تائهة في منطقة الخندق بباب الشيخ في بغداد (بين سكتي القطار)، أعتقل مسؤولها فورا بعد ٨ شباط، ومات دون أن يعطي اعترافاً، فنجا أعضاؤها وأعادوا تشكيلها، وكان بينهم حافظ لفتة الخياط (أُعدم). وفاضل موسى الجايجي الذي كان الواسطة في صلة نعيم الزهيري وجماعته بتنظيم الانتفاضة[١]، و"محمد عليوي خليفة "أبو كريم" الذي أُعدم في عهد عبد السلام عارف في ٢٥ نيسان ١٩٦٤ بتهمة اشتراكه في انتفاضة المعسكر ". وهذه الخلية النشيطة وجدت طريقها للارتباط بمنظمة إبراهيم محمد علي عن طريق محمد عليوي خليفة وهو ابن عم محمد حبيب.

وبسبب تضخم التنظيم وقلة الكوادر القديرة والخوف من الانكشاف، تقرر توزيع المسئوليات بتخصيص العمل وتقسيمه إلى أجزاء، فجعلوا العسكريين في منظمة مستقلة تكلف بها محمد حبيب "أبو سلام"*، الذي تمكن بسبب مهمته الجديدة وبواسطة العسكريين المتقاعدين (لأسباب سياسية) العاملين في التنظيم المدني

---

١ ــ اتصال مباشر بين المؤلف والسيد نعيم الزهيري عام ٢٠٠٠.

*وهو عامل مخبز وكان أكبر المساهمين في الإنتفاضة سناً، (من سكان كمب سارة، الذين يتحدرون من عائلات معدمة تقريباً قَدِمَ أكثرها من جنوب وشمال العراق)، كان حزبياً نشطاً لسنوات طويلة، وثقافته جيدة بمقاييس ذلك الزمان، لكنه ومنذ عام ١٩٥٢ أظهر ميولاً للتمرد وعدم الرِضا، فقد اعتاد منذ ذلك الوقت أن يلتقي بصورة منتظمة بعدد من المثقفين بينهم طالب دهاش وعز الدين مصطفى رسول، والمحامي المرحوم حامد أديب بابان الذي كان له معه رفقة تناول المشروبات الروحية، رغم إن تعليمات الحزب الشيوعي في ذلك الحين كانت تحث بشدة على عدم تناولها. فكان محمد حبيب حسب تقدير كثيرين، بينهم عبد الغني جميل: مناضلاً أراد القيام بحركة كبيرة وقلب الأوضاع السياسية و لم تكن أمامه حينذاك غير الاتصال بأنصار حزبه في القوات المسلحة. ويذكر إن محمد حبيب قبل استلامه مسؤولية الاتصال بجنود معسكر الرشيد، كان مسؤولاً عن تنظيم عمال الأفران والمخابز. [بعض المعلومات جاءت من لقاء شخصي مع البروفسور د. عز الدين مصطفى رسول بمدينة السليمانية صيف عام ٢٠٠١].

من التعرف على حسن سريع.

ويبدو إن مجموعة نائب العريف حسن سريع كانت واحدة من تلك المنظمات التائهة، بحكم إن مسؤولي أكثر المنظمات الحزبية العسكرية، كانوا بين القتلى أو الهاربين والمعتقلين ويواصل بعضهم وجوده في السجن منذ ما قبل ١٤ رمضان١٩٦٣.

وفي سياق نشاطه الجديد بين ضباط الصف والجنود في معسكر الرشيد والمعسكرات الأخرى، بمن فيهم الهاربين والمطرودين من الخدمة أو المتقاعدين، تعرف محمد حبيب على آراء حسن سريع وجماعته وعلى استعدادهم للمشاركة بأي عمل من شأنه الإنقلاب على السلطة، وجرى تنسيق بينهما وبين جماعة معسكر "أبو غريب" والتاجي وغيرهم، حتى انتهى بهم الشوط إلى فكرة أساسية وهي استثمار مشاعر الجنود والعمال الشبان الشيوعيين التي كانت مازالت تدغدغها آمال استرداد "مملكة الجنود في عهد قاسم" التي استطاع حزب البعث، خلال أشهر، من تحويلها إلى مجرد أسطورة مجد غابر منذ زمن بعيد جداً. وأفضت الفكرة إلى هدف واحد محدد هو قلب الحكومة والاستيلاء على السلطة أو اشعال نار الثورة واطلاق سراح الضباط، ووضعهم في مواجهة واقع خيارين فقط: إما التعاون وأخذ المبادرة وقيادة الوحدات، أو الموت بتهمة التعاون مع المحاولة الانقلابية.

ولم يكن صحيحاً ما ردده بعض الذين ادعوا القرب من رجال الانتفاضة المسلحة، بأن حسن سريع كان قد انتمى للحزب الشيوعي وللجنة الثورية القيادية لحركة معسكر الرشيد قبل أيام فقط من قيامها، وإلاّ فكيف لمنتمٍ جديد أن يتصدر مسيرة حركة عسكرية سرِّية وهدفها خطير جداً، ويطيعه عرفاء ورؤساء عرفاء ونواب ضباط في عملية يحيط بها الموت من كل جانب؛ ولا يعقل أبداً أن ينتمي شخص ما إلى حركة سياسية سرية ثم يصبح حاضنها ويستلم قيادتها، وينفذ أوامره عسكريون أعلى منه رتبة وأكبر عمراً، بعد بضعة أيام فقط من انتمائه إليها!!

وفي رأيي إن الصحيح هو مسؤولية حسن سريع عن خط أو خيط حزبي عسكري تائه عن تحقيقات السلطة، وربما يكون خطاً صغيراً لكن أعضاؤه كانوا بالتأكيد مخلصين لانتمائهم كما يؤكد ذلك احتفاظهم بالسر وإقدامهم على التنفيذ وشجاعتهم أمام الموت ومعرفتهم بأساليب التنظيم السري.

ويذكر إن الحزب الشيوعي لم يكن لديه مكتباً عسكرياً بالتسمية والشكل

كالذي كان لحزب البعث، أي إن مكتب البعث العسكري كان هيئة قيادية تجتمع وتقرر بمرونة، رغم امتلاك كلا التنظيمين آلية تنظيمية متماثلة على مستوى القاعدة ومن حيث الاتصالات الخيطية. فقد كان للشيوعيين مسؤول للتنظيم العسكري على مستوى البلاد يتصل بمسؤولي الخطوط كل على حده، وكل واحد من هؤلاء يتصل بمسؤولي الوحدات والمراكز العسكرية التي هي تحت قيادته كلاً على حدة أيضاً، ويرتبط بكل واحد منهم مسؤولون أدنى وهكذا، فمسؤول بغداد مثلاً يرتبط به مسؤولي الوحدات الموجودة فيها كلٌ على حدة، وهو الشكل الخيطي الذي تتطلب إدامته جهوداً مضاعفة ويتميز بصعوبة وبطء الحركة عند الحاجة لردود فعل سريعة، مثل ما حصل في ٨ شباط ١٩٦٣، فكان الحزب الشيوعي يحتاج من أجل تحريك العدد الهائل من منتسبيه العسكريين وقتاً أطول من الفترة التي احتاجها ثوار ٨ شباط القليلي العدد لتحقيق المباغتة ولضرب أو قطع أية تحركات وتبليغات مؤيدة لعبد الكريم قاسم أو للشيوعيين وهي في المهد. وبذلك استطاع العسكريون البعثيون تنفيذ خطة وضع مرتكزاها مدنيون ليتغلبوا بعملية تعتبر من أذكى وأدق العمليات العسكرية الناجحة، إذ تمكن فيها عدد محدود جداً من الضباط والمدنيين مواجهة وخنق عشرات أمثالهم وانتزاع السلطة منهم، وإنهاء الصراع فوزاً بالكتف وباستسلام الخصم وسط حيرة المتفرجين والمستمعين.

من الفكرة إلى الفعل

كانت قيادة الحرس القومي المكلفة بحماية النظام قد أمعنت في تضييق الخناق على الشيوعيين، لأن القيادة السياسية للبعث استمرت حتى ما بعد استلامها السلطة في تشخيصهم كخطر أول على سلطتها، وبأنهم الوحيدون الذين يمتلكون قوة فعلية منظمة ومعادية على الأرض، ولأنها (أي قيادة الحرس) أدركت جيداً امكانية توسع تلك الجيوب الشيوعية الناجية المتركزة أساساً في العاصمة بغداد مرة أخرى.

ولم يلجأ ثوار معسكر الرشيد ومعاونيهم المدنيين إلى فكرة توسيع العمل بهدف التمرد والانقلاب، إلا بعد أن تصوروا بأن حكومة البعث الجديدة تعمل فعلياً على وضعهم في مفترق بشقين، لابد لهم من دخول أحدهما ؛ وهما: إما الإعتراف بالهزيمة والاستسلام المطلق، أي الموافقة على العيش في كنف الخصم صاغرين ولفترة لا يعلم أحد كم ستدوم. أو المغامرة لقلب نظام الحكم الآن وفوراً، وكما يعلم الجميع هو

خيار صعب ومواجهة غير مضمونة، وعاقبة الفشل فيها الموت الحتمي. لكن كلا الخيارين كان يعني شكلاً من أشكال الانتحار، فاختاروا الخروج والمواجهة، لعل النصر يحالفهم، قبل أن تصلهم التحقيقات فتقضي عليهم.

ويُذكر إن فكرة التحرك العسكري الواسع لم تنضج إلا بعد التقاء منظمة إبراهيم محمد علي الحزبية المدنية التي أعطاها قبل رحيله دفعة معنوية وحركية عالية، بمنظمةجنود معسكر الرشيد الصغيرة، ذات المعنويات العالية، والتي شكلت القوة التي سيحاول المدنيون بواسطتها وبواسطة التنظيمات العسكرية في معسكرات بغداد الأخرى إعلان التمرد العسكري على النظام القائم.

وبعد مقتل المدبر الأول (إبراهيم محمد علي) للمنظمة المختلطة (مدنيين وعسكريين)، حصل محمد حبيب على فرصته فتصرف بحرية أكبر، ليذهب في تعاونه مع منظمة الجنود وضباط الصف إلى أبعد من حدود رغبة الانتقام والرد هنا أو هناك بأعمال مربكة للسلطة. وفوراً بدأ يفكر، على طريقة الجنود، بالقيام بتحرك أكثر جدية وأكثر من مجرد جمع وتنظيم الأنصار، فأَعَدَّالعُدة ونسق مع نائب العريف حسن سريع الذي أخذ على عاتقه ترتيب الأمر وقيادة التحرك العسكري، شرط أن يأخذ المدنيون أمر تهيئة الأجواء السياسية والشعبية وإجراء الاتصالات وتحضير عدد من المدنيين والجنود المتقاعدين المستعدين والقادرين على حمل السلاح.

وفي كل الأحوال فإن مهمة محمد حبيب الجديدة أتاحت تحرير ميوله التمردية المكبوتة، وربما تكون قد سمحت بعرقلة وجود أو استقرار أي نوع من الصلة المباشرة بين قيادة حركة معسكر الرشيد ومركز قيادة الحزب الشيوعي، وقد فعل ذلك رغم سعي الطرفين الملحاح للقاء.

وكان، لاجتماع طموح محمد حبيب وصلابة وقدرة حسن سريع على الإقناع وحماسه المطلق لما ينوي القيام به، دوراً أساسياً في تجاوز، ولأول مرة، طريقة العمل الحزبية الشيوعية المعتادة في الاكتفاء بإقامة تنظيم شديد الدقة ولكن لأداء واجبات دفاعية، إلى عمل تنظيمي جديد يُدْعى الداخلون فيه إلى مهمة واحدة ومحددة ؛ هي قلب نظام الحكم، والإستيلاء على السلطة. ومن أجل ذلك أَقامت المنظمة الجديدة صلات واسعة في بغداد وخارجها.

ويعتقد نعيم الزهيري إن قيادة المنظمة الحزبية المدنية التي أشرفت على العملية العسكرية عبر رجل واحد فقط هو "محمد حبيب"، تتكون من هاشم الآلوسي

ومحمد حبيب و"أبو ثائر" و" أبو رسول"، قاسم محمد، ويحتمل أن يكون حافظ لفتة وجميل المشهداني أو الخشالي أعضاء فيها أصلاً. وما يتصوره الزهيري يطرح تساؤلاً هو: هل كان هؤلاء أعضاء في اللجنة العمالية الصغرى التي كان يقودها إبـــراهيم محمد علي؟ ويرى آخرون إن الدكتور حامد أيوب العاني وربما آخرين كانوا قــد لعبوا دوراً مهماً في بناء تلك الحركة[1]. لكن حامداً أو أي متعاون آخر لم يعلنــوا حقائق الأدوار التي لعبها أشخاص من خارج تنظيم الحركة، رغــم مــرور ســنين عديدة، وإذا كان ذلك صحيحاً فهل يكون سكوتهم بسبب الخوف مــن انتقــام السلطة أو من اتهامهم بــروح التمرد والمغامرة من قبل حزبهم..

ولم يكن أحد من غير مَنْ وردت أسماؤهم في هذه الفقرة يعلم حينــذاك بعــدم ارتباط تلك المنظمة بشقيها العسكري والمدني بمركز قيادة الحزب الشيوعي العراقي، بالطبع إضافة إلى جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبــار وهــبي وبــاقر إبــراهيم الموسوي وحسين شعلان ماضي والوسيطين عدنان عبد القادر وصــبيح مبارك.

كما إنّ عدم وجود حسن سريع في عضوية قيادة المنظمة المدنية الرئيسية الــتي أنشأها إبــراهيم محمد علي من عدد محدود من الخلايا العمالية التائهة، لا يقلل من أهمية دوره في ما حصل، لأن وقائع التمرد العسكري تثبت إنه كان ثائراً ومقتنعــاً ويعرف تماماً ماذا يريد، بل كان العنصر العسكري الأول قيادةً وتنفيذاً، وهو الذي أطلق الطلقة الأولى، وبقيادته تمّ احتلال أول وثاني موقع عسكري، ومنه تلقى الجنود الأوامر واتجهوا لتنفيذها. وذلك يعني أولاً نجاح حسن سريع في عمله، ويدلل ثانيــاً على عمق تأثير السياسة في حياة المواطنين العراقيين حينذاك بما فيهم الجنود والعمال البسطاء.

مراكز طيارة، ومعارضة بلا ملفات أمنية

بغداد تلك المدينة الكبيرة التي يكتظ فيها طلبة الجامعات والموظفــون والشــغيلة والعسكريون القادمون من المحافظات، وتنشط بينهم كل القوى السياسية لاســيما المعارضة، وهؤلاء يصعب جداً على أجهزة الأمن مراقبتهم وملاحقتهم، خصوصــاً

---

١ ـــ لقاء شخصي مع جاسم المطير ٢٠٠١.

وإن أكثرهم من فئة الشباب غير المتزوجين الذين تتغير عناوينهم باستمرار. لكن مراكز أعمالهم وسكناهم الطيارة أو المتحركة ظلت مقيمة داخل الأحياء الفقيرة، التي ما كانت الحكومة الفتية حتى ذلك الحين، قد فكرت جدياً أن تصل إليها أو تخترقها وتدرس بعمق نسيجها الاجتماعي والسياسي، لأنها لم تكن موضوعة في قائمة أولوياتها الأمنية، مثل مدينة الثورة وسعيدة والشعب والحرية وكمب سارة وغيرها.

وكانت بغداد منذ العهدين العثماني والملكي وحتى العهد الجمهوري (ولا يستثنى من ذلك غير الفترة الأولى من حكم عبد الكريم قاسم) تنقسم إلى قسمين رئيسين: الدولة؛ وهي مجال حيوي تنفرد به الحكومات وموظفوها الكبار وخدمها وحراسها ورعاة مصالحها ومصالح موظفيها الخاصة والعامة من جهة، والمجتمع بقضه وقضيضه، ويشكل مجالاً آخر للحياة وتهيمن عليه المعارضة بصورة شبه تامة من جهة أخرى. وذلك لا يعني عدم وجود فئات وألوان مختلفة أو محايدة صغيرة أخرى تقف في الوسط هنا وهناك. وقد فعل نظام صدام حسين كل ما في وسعه واستخدم وسائل وإمكانيات لم تتوفر لغيره، لكنه لم يستطع تغيير ذلك الواقع، ولا أرى إن هناك من سبيل لتغييره غير قيام الدولة الديمقراطية بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى دستوري وقانوني يستفيد من ثوابت التراث العربي الإسلامي والتجربة الغربية المتطورة.

لقد توسعت الخلايا والمنظمات المرتبطة بالمنظمة الحزبية المتصلة بجنود معسكر الرشيد حيثما يوجد شيوعيون شباب متحمسون ومقطوعو الصلة، لتشمل كامل التراب العراقي،، إلى درجة إن الأمر التبس على السلطة بمن فيها قيادة الحرس القومي، وعلى الشيوعيين الذين ارتبطوا بها أيضاً، فقد تداخل عملهم في بغداد والمحافظات مع عمل مركز الحزب الأساسي فصار الشخص يرتبط بهم وفي تصوره أنهم الحزب، أما قيادة الحرس القومي فقد شَكَكَتْ بالأمر لكنها تصورت أنها طريقة جديدة في العمل لضم الشباب الجدد الذين لا يملكون ملفات أمنية، فشنت حملة اعتقالات ضدهم شملت القطر كله لسحق المحاولة وهي في المهد، وأطلقت على المعتقلين الجدد اسم جماعة "التنظيم الجديد"، وكانت حملة الاعتقالات ضدهم قد جرت قبل تمرد معسكر الرشيد بأيام، ولم تعرف قيادة الحرس اطلاقاً بأنها أمام تنظيمين ومرجعيتين حزبيتين واحدة يقودها مركز جمال الحيدري، والثانية يقودها مركز محمد حبيب وهاشم الآلوسي وقاسم محمد وحافظ لفتة وغيرهم ومَنْ معهم.

وكان أحمد العزاوي (عضو القيادة العامة للحرس القومي) قد حدثنا في عام ١٩٧١ بدمشق، بأن قيادة الحرس القومي عندما علمت بوجود بعض خلايا "التنظيم الجديد" للحزب الشيوعي في بغداد وبعض المدن، لم يغمض لها جفن، واستنفرت كل قواها و لم تهدأ قبل أن تضع يدها على التنظيم وتتحكم في الأمر". وقد ذكر العزاوي ذلك في سياق حديثه عن الجهود والأرق الذي يصيب نظام بغداد القائم بسبب النشاطات السرية التي تقوم بها قوى المعارضة ضده حتى لو كانت ضرباتها غير مميتة أو غير مؤلمة.

الانقلاب العسكري طريقاً إلى السلطة

بهذه الصورة تشكلت الجماعة العسكرية – العمالية ووضعت أمامها هدفاً وحيداً هو "المؤامرة أو الثورة العسكرية"، أي قلب السلطة بواسطة القوات المسلحة، وهو نفس الطريق الذي بدا للجميع إنه أصبح سالكاً سواء بسواء لذوي النوايا الحسنة كما لأصحاب المصالح الضيقة، خصوصاً بعد انتصار حركة الضباط الأحرار بقيادة الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بإسقاط الملكية وتأسيس الجمهورية العراقية، ثم إسقاط حكومة قاسم بعملية عسكرية بسيطة لكنها خاطفة وذكية جداً في ٨ شباط ١٩٦٣، وربما يكون ذلك قد صوّر للجنود سهولة انتصار حركتهم، فبذلوا جهداً ملحوظاً لتوفير أسباب نجاح حركتهم، لكنهم لم يجتهدوا كثيراً بوضع برنامج سياسي للمستقبل، بل فكروا بأخذ السلطة وتسليمها للضباط والقادة السياسيين المعتقلين من ذوي الميول اليسارية، وهم لم يفعلوا ذلك إلاّ لأنهم يعلمون أولاً: إن أولئك الضباط يفكرون سياسياً واجتماعياً بنفس طريقتهم، وثانياً: إنهم إذا لم يفعلوا ذلك الآن فلن تكون هناك فرصة في المستقبل القريب.

تغير المواعيد يتسبب بأزمة في التنظيم

ولا شك إن الأسباب المذكورة سالفاً وغيرها، كانت وراء إلحاح المعارضة العسكرية لقلب نظام الحكم القائم بسرعة، ففضلاً عن محاولة ضباط حركة القوميين العرب لقلب الحكم والتي حصلت في نفس الفترة تقريباً، فقد أراد جنود معسكر الرشيد محاولة ذلك في ١٥/ ٥/ ١٩٦٣، ولم يتم التنفيذ بسبب حالة الإنذار التي كانت تعيشها القوات المسلحة بما في ذلك قوات الحرس القومي التي كانت حينذاك

في حالة صراع ضد القوى الناصرية الشريكة أو الحليفة مما أدى بعد أيام إلى إبعاد أنصار الأخيرة، وبصورة خاصة حركة القوميين العرب، عن المراكز الحكومية والعسكرية المهمة، وانفراد حزب البعث العربي الاشتراكي وحلفائه العسكريين* بالسلطة.

أما المحاولة الثانية فقد تقرر أن تنفَذ في ١٩٦٣/٦/٢٤، ويكون الانطلاق من موقع دبابات "أبو غريب" نحو الإذاعة في الصالحية لإذاعة البيان الأول، وبعد سماعه ستتحرك بقية المجموعات في المعسكرات الأخرى. وكانت كلمة السر هذه المرة "فهد" وهو كنية يوسف سلمان مؤسس الحزب الشيوعي العراقي، الذي أعدمته بالإضافة إلى حسين محمد الشبيبي وزكي بسيم حكومة نوري السعيد عام ١٩٤٩ وكانت الشارة التي يضعها المساهمون المدنيون هي قطعة قماش بيضاء يتوسطها مربع أحمر توضَع على الساعد الأيسر. وأُ جلت ليحل موعد جديد هو يوم ٥ تموز ١٩٦٣ الذي تغير إلى ٣ تموز لأسباب كثيرة بينها اعتقال قيادة الحرس القومي لضابطي صف قياديين في الحركة، وأيضاً بسبب نقل احدى الوحدات العسكرية في نفس اليوم إلى كردستان، لتساهم في المعارك الجارية هناك، وكان فيها عدد من الرجال الذين تعتمد الحركة عليهم في التنفيذ.

وفي حقيقة الأمر فإن مجموعات من الحرس القومي، كانت قد بدأت قبل يوم واحد أو يومين من اندلاع التمرد، بالمداهمات ضد بعض المنتسبين لما سمي بالتنظيم الجديد، وأخذ اعترافاتهم تمهيداً لتوجيه ضربة قوية ونهائية، فكانوا يأتون بهم بحاجاتهم الشخصية، ويأخذون اعترافاتهم مهما كلف الأمر، وعثروا مع بعضهم على قطع قماش يمكن شدها حول الذراع وكتب عليها حرفي (م.ش) أي مقاومة شعبية، فظن المحققون إن الشيوعيين يخططون لإعادة بناء مقاومة شعبية سرية، وذلك وإنْ كان خطيراً من وجهة هيئة التحقيق، لكنه لا يشكل خطراً فورياً داهماً.

---

* الضباط الذين تحالفوا مع حزب البعث في اسقاط قاسم واستمروا مع السلطة الجديدة حتى يوم سفر حازم جواد وطالب شبيب إلى بيروت في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣، كان أكثرهم مصلحيون وينتظرون نتائج الصراع على السلطة بين أجنحتها، ولذلك تقلبوا بين البعث والناصرية ففي ١١ تشرين كانوا أعضاء في المؤتمر القطري للبعث وهو أعلى هيئة حزبية، وفي ١٨ من نفس الشهر أصبحوا من عتاة الناصريين. وبين هؤلاء سعيد صليبي وطاهر يحيى التكريتي ورشيد مصلح التكريتي وطه الشكرجي والرائد عبد الله مجيد وغيرهم.

لكن قيادة المنظمة العسكرية للتمرد أدركت مقاصد هيئات التحقيق والمتابعة، خصوصاً وإن الحرس القومي كان قد تمكن من إلقاء القبض على عدد من نشطاء الحركة فأثار ذلك المخاوف من احتمال عدم قدرتهما على الصمود طويلاً، فاستعجلوا عمليتهم كي تُعلَن يوم ٣ تموز بدلاً من ٥ تموز[١].

مقرات للتنظيم والاتصالات

اعتمد الجنود أماكن مختلفة لاجتماعاتهم واتصالاتهم بينها:

ـــ محل خياطة حافظ لفتة وهو واحد من قياديي الحركة ويقع بين منطقة صرائف المجزرة (الميزرة كما يلفظها سكان المنطقة الجنوبيون) خلف السدة (أي المنطقة المسماة بالعاصمة) قرب مقبرة الغزالي وبين منطقة باب الشيخ. وكانت لحافظ لفتة سمعة شعبية جيدة ومحله مفتوح للجميع، كما إن أمر ميوله السياسية مكشوف أيضاً.

ـــ ستوديو شاهين للتصوير، وهو مكان بسيط في منطقة بغداد الجديدة وقد تحولت غرفة التصوير الخلفية إلى مقر للقاءات وأحياناً تتخذ مكاناً للمبيت.

ـــ كوخ صغير وبسيط بكمب سارة.

ـــ مخبز في منطقة الجوادر بالثورة.

ـــ مقهى أبو حسن "دي لوكس" في ساحة الطيران، مقابل البانزينخانة

ـــ إضافة إلى مقاه ودور سكنية كثيرة في مدن الثورة والشعب ومناطق معينة من مدينة الحرية (الهادي) وغيرها من أحياء المساكن الشعبية المحيطة ببغداد والتي كانت حركتهم فيها حرة، لا تنالها عين رقيب.

---

١ ـــ يقول طالب شبيب: كانت ترد إلينا بين حين وآخر معلومات من قيادة الحرس القومي وجهاز الأمن عن وجود تنظيم عسكري شيوعي يضم ضباط صف وجنودا، إضافة إلى وجود وقيام خلايا شيوعية مدنية قليلة العدد، بدأت نشاطها في بعض أحياء بغداد، وبعض المحافظات وفي أنحاء مختلفة من البلاد، وان قيادة الحرس القومي قد تمكنت من كشف بعض تلك الخلايا واعتقال عناصرها. ويضيف: لم تأخذ قيادة الحزب القطرية ذلك مأخذ الجد. لأن حزب البعث كان يسيطر على جميع أسلحة الجيش في بغداد ومحيطها، ويقود كتائب الدبابات الأربع ضباط بعثيون بعد أن تمّ تنقية كافة مراتبها من المشكوك في ولائهم. أما وحدات المشاة فتوزعت قيادتها بين ضباط بعثيين وآخرين موالين. وبضمانة الجيش، وهو أهم أدوات السلطة، كان من الطبيعي أن لا نشعر بالخوف، بل عشنا أجواء ظننّا إنها أمينة، قبل أن نفاجأ بما سمي بحركة أو تمرد حسن السريع. (يمكن مراجعة د. علي كريم سعيد، كتاب من حوار المفاهيم إلى حوار الدم..). كما يمكن مراجعة كتاب زكي خيري وسعاد خيري حول تاريخ الحزب الشيوعي العراقي الجزء الاول الذي يتحدث عن تقرير قدمه أحد قادة الانتفاضة إلى اللجنة المركزية للحزب.

الفصل الثالث

الخطة قبل التنفيذ

أُعدت خطة حركة ٣ تموز استناداً إلى فكرة تحرك عسكري شامل، يبدأه مركز الحركَة كرأس حربة، انطلاقاً من معسكر الرشيد، ويتبعه تحرك يشمل كل معسكرات بغداد، بحيث يكون هدف بعض التحركات السيطرة على المواقع والوحدات لتنفيذ مهمات محددة، وبعضها الآخر هدفه العرقلة والتشويش لهز معنويات أنصار السلطة. وتشكلت قيادة الحركة من جنود وضباط صف تحت اسم "القيادة الثورية"، ونشط المدنيون للقيام بمهامهم والتهيؤ للدخول إلى معسكر الرشيد والمعسكرات والمراكز الأخرى بمساعدة الجنود الموجودين بداخلها للمساهمة في التنفيذ.

وبين إعداد الخطة والبدء بتنفيذها واصل كل من حسن سريع ومحمد حبيب وقاسم محمد وآخرين غيرهم الليل بالنهار لتأسيس شبكة اتصالات واسعة ولتجنيد أكثر عدد ممكن من المتعاطفين من جنود معسكرات بغداد ومن بقايا الخلايا الشيوعية العسكرية والمدنية التائهة. وقد نجحت قيادة الحركة في تعبئة حوالي ٢٠٠٠ جندي موزعين على الوحدات والمعسكرات المحيطة ببغداد، بما فيهم ضباط الصف المتقاعدين لأسباب سياسية (منذ عهد الزعيم عبد الكريم) والهاربين وجنود مدرسة الهندسة الآلية وسرية حراسة معسكر الرشيد الذين كان أكثرهم من الموالين للحركة.

وكانت الخطة الأساسية تتألف من قسمين، الأول داخل معسكر الرشيد والثاني خارج المعسكر:

القسم الأول: معسكر الرشيد

ويتضمن السِيطرة على معسكر الرشيد والبدء من ثلاث نقاط هامة هي:

أولاً: كتيبة الدبابات الأولى

وكان أمر احتلالها مرتبطاً بتحرير الضباط المعتقلين في السجن العسكري رقم واحد ليتشكل من بين ضباط الدروع وهم كثيرون أطقم قيادتها، ولذلك ستتوجه فجراً وفي نفس الوقت قوتان، واحدة لاحتلال السجن رقم واحد وأخرى للسيطرة على دبابات الكتيبة الأولى.

ثانياً: قاعدة بغداد الجوية والمطار العسكري

لقد تضمنت خطة الحركة الاستيلاء على المطار والقاعدة الجوية وتهيئة الطائرات

التي سيستخدمها الضباط الطيارون بعد تحريرهم من السجن وكان عددهم يتجاوز العشرين طياراً، وأكثرهم كانوا عاملين بنفس القاعدة وعلى نفس الطائرات.

وكان يمكن الاستفادة أيضاً من جهاز الاتصال اللاسلكي الموجود في القاعدة الجوية للاتصال بالوحدات الأخرى عند التنفيذ، بعد تحويل موجته وفقاً لموجة إذاعة بغداد، ولذلك كُلف كل قائد ميداني أن يحمل راديو ترانزستر لكي يستطيع استلام إشارة البدء وبقية التوجيهات للتوافق مع الخطة العامة للحركة الموضوعة سلفاً أو لاستقبال التعديلات التي قد تطرأ عليها، ويمكن من خلاله إعطاء التوجيهات المباشرة لقادة الوحدات الميدانية بطريقة المناداة بأسماء رمزية وزعت عليهم.

وكانت الخطة قد وضعت في حساباتها إن طائرات الخفر كانت على غير العادة مجهزة بصورة منتظمة بالعتاد بسبب الحرب المعلنة ضد الثوار الأكراد، ولذلك لن يكون على الطيارين الخارجين تواً من المعتقل سوى ارتداء ملابس الطيارين الخاصة والطيران وضرب الأهداف الموضوعة سلفاً، دون الاهتمام بتركيب العتاد وتهيئة الطائرات لتصبح جاهزة للإنطلاق، وتلك كانت ستوفر فرصة ثمينة لمصلحة الثوار، لأن تركيب العتاد للطائرات هو أمر صعب وأحياناً مستحيل[1]، وقد أكد ذلك المقدم الطيار منذر الونداوي، لكنه أشار إلى عدم إمكانية إقلاعها إلاّ بعد السيطرة على كل معسكر الرشيد وهو أمر شبه مستحيل.

وكان قد حصل اتفاق بين قيادة الحركة داخل معسكر الرشيد وأنصارها في المعسكرات والوحدات الأخرى؛ بأن طيران الطائرات، لو حصل، فسيعني بمثابة إشارة بديلة بأن العملية العسكرية الرئيسية قد بدأت، أي ستكون بمثابة إشارة بديلة عن الإذاعة فيما لو فشل الثوار فبإذاعة بياناتهم، من أجل البدء بتنفيذ مهماتهم وتحضير المعسكرات لاستقبال الضباط الذين سيطلق سراحهم.

---

١ ــ ولابد لنا هنا من تذكر معاناة منذر الونداوي مع مسألة تجهيز طائرته بقاعدة الحبانية مما اضطر إلى الطيران دون استخدام القنابل في الطلعة الأولى على الأقل، ويذكر إن الونداوي كان قد استعان ببعض الجنود الفنيين المؤيدين لحركة ٨ شباط في قاعدة الحبانية لتجهيز الطائرات التي هاجمت وزارة الدفاع مقر الزعيم عبد الكريم، وبينهم العريف كامل ياسين مواليد ١٩٣٥ وهو ابن عم صدام حسين. وقد ساعدته تلك المساهمة على تسلق سلالم السلطة فأصبح بعد عام ١٩٦٨ عضواً في المكتب العسكري، الذي هو قيادة الظل للبلاد كلها، كما عُيِّن محافظاً لديالى ووزيراً للحكم المحلي، وبسبب انعدام الرحمة في تعامله مع المنتفضين العراقيين بعد حرب تخليص الكويت من قبضة الديكتاتور، صار عضواً في القيادة القطرية وهي حكومة البلاد العلنية.

ثالثاً: السجن العسكري رقم واحد

ويحتوي على مئات من الضباط المحتجزين الذين ينتمون لمختلف صنوف الأسلحة والوحدات، سيجد الثوار من بينهم حتماً متعاونين كثيرين.

وكانت قيادة الحركة قد نظرت إلى هذا الجزء من الخطة: احتلال السجن رقم واحد وإطلاق سراح معتقليه، على إنه أسهل وأخف جزء منها برغم أهميته القصوى لنجاح الحركة. رغم إنه كان سجناً عسكرياً لكنه كثيراً ما كان يستخدم كمعتقل للسياسيين المرموقين والذين لهم وضع خاص*.

ولكل تلك المزايا، فضلاً عن وجود العدد الأكبر من قادة الانتفاضة العسكريين والفنيين لاسيما النائب العريف النشط حسن سريع، وسيطرته المضمونة على كل من مدرسة قطع المعادن، ومدرسة الهندسة الآلية، وسرية حراستها (لكثرة الجنود الموالين فيها) والتي كان في مخزنها ١٥٠ بندقية سمينوف، تصلح كأسلحة شخصية أولية للانطلاق إلى الأهداف الأخرى، بعد تقسيم قوة السرية وجنود المدرسة الآلية إلى ثلاثة أقسام يتكلف كل منها بمهمة مرسومة ينطلق لتنفيذها.

كما تم اختياره (أي معسكر الرشيد) لوجود قوى ملموسة أخرى لدى الثوار فيه، مثل كتيبتي المدفعية ٣١ و ٢٤ وعدد كبير من فنييها، ومهمتها الأصلية هي دعم دبابات ومدرعات معسكر أبو غريب عندما تبدأ بتحركها إلى داخل مدينة بغداد.

أما مهمة قوات معسكر الرشيد بعد السيطرة عليه فكانت السيطرة على مدينة بغداد وضرب مراكز الحرس القومي التي جرى تشخيصها مسبقا(١).

ومن أجل أن يصبح ذلك ممكناً تقرر:

أولاً: عدم اعتماد الجنود الملتحقين بالحركة إلاّ بعد تزكية زملائهم في السلك والصنف، لأن زمالة المهجع ورفقة السلاح أقدر على تمييز العناصر المخلصة من تلك المتعاونة مع لجان التحقيق الخاصة، وبالتالي على منعها من التسلل إلى جسم الحركة. ومن الناحية الفنية يكونون قد فعلوا حسناً ونجحوا فعلاً بضم عناصر ليس لها سابقة

---

*ويتكون السجن حينذاك من ست ردهات كبيرة وحوالي خمسين زنزانة، وفي العراق لم تكن توجد قاعدة للاستيعاب، إذ يمكن للردهة المخصصة لعشرين شخصاً أن تضم مائة معتقلاً وأكثر في الظروف الاستثنائية وهي دائمة.

١ ـــ تقرير هاشم الآلوسي المرفوع للمكتب السياسي للحزب الشيوعي، سننشر نصه كملحق في آخر لكتاب.

سياسية داخل الجيش، ولا يشك بها أحد. وقد وفر هذا الأسلوب الجديد في كسب المتعاونين نوع من السرِّية في العمل، أعجزت الحرس القومي والأمن العسكري من التنبؤ بما كان يحاك، وذلك أعطى حجة إضافية هامة لخصوم علي صالح السعدي و منذر الونداوي والحرس القومي داخل النظام تؤكد تهمة التسيب الأمني، ومعلوم إن تلك الحجة استغلت في كل الصراعات القادمة بين جناحي حكومة حزب البعث العربي الاشتراكي، تلك الصراعات التي أدت إلى انفراط العقد الحزبي، ثم إلى خسارة البعث للسلطة بعد أقل من أربعة أشهر من قيام حركة حسن سريع.

كما ضموا لصفوفهم بعض الشباب، من ذوي الأعمار الصغيرة، المتعاطفين مع عهد عبد الكريم قاسم، وقد استخدموا في اتصالاتهم مع الآخرين ليس فقط التزكية السياسية الحزبية والعقائدية، بل الثقة التي كانت حتى ذلك الوقت موجودة ومتداولة بصورة طبيعية بين الناس، وداخل العلاقات الاجتماعية في المدينة و الريف وبشكل خاص بين أبناء العائلة والعشيرة والحي والناحية أو حتى المدينة الواحدة.

أما المجتمعات المتكونة حديثاً كمجتمع مدينة الثورة فقد استعاض سكانها عن الثقة التي كانت موجودة في المجتمعات القديمة التقليدية عموماً، بلجوء الأقارب، القادمين من مناطق بعيدة، غريزياً إلى التساكن إلى بعضهم حماية للنفس وبسبب حاجتهم إلى الثقة وهي تحيط بهم، تجنباً لأخطار مجهولة ولظلم وقسوة الإجراءات والقوانين الحكومية التي بدت لهم غريبة.

ثانياً: أهمية أن تكون حراسات المعسكر في ليلة القيام بالحركة أكثرها بين أيدي جنود شيوعيين أو من المتعاطفين مع حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم، أو كرد متعاطفين مع الحزب البارتي، وكان ذلك سيعطيهم فرصة جيدة لإدخال من يشاءون من أنصارهم إلى المعسكرات، لمساعدتهم في اعتقال الضباط الموالين للحكومة قبل انبلاج صبح اليوم التالي.

ثالثاً: أهمية نجاح الاتصال بالمنظمات الحزبية والمعسكرات الأخرى والتجمعات المتوقع تأييدها خارج مدينة بغداد لتبليغها بتغيير موعد التنفيذ الجديد.

القسم الثاني: المعسكرات والمنظمات المساندة

أولاً: التنسيق الدقيق مع مجموعات الجنود الموجودة في معسكرات بغداد الأخرى، والتأكد من قدرتها على الاستعداد لتنفيذ واجباتها وتوزيع المهام لتنفيذها فور وصول

الضباط من معسكر الرشيد أو عند مشاهدة الطائرات في سماء بغداد.

ثانياً: تنظيم التحاق المدنيين المؤيدين للحركة وهم كثيرون بالمعسكرات القريبة من أحيائهم السكنية، وتوزيع المهام عليهم، وتعيين الجنود الذين سيكونون ضباط اتصال بهم، فيتجه على سبيل المثال أهل مدينة الحرية ليتجمعوا على شكل مجموعات صغيرة غير متباعدة بالقرب من معسكر "أبو غريب" بانتظار الإشارة أو كلمة السر و..... و.....

مهمات الضباط المعتقلين

وكان إطلاق سراح معتقلي السجن رقم واحد سيضع بين يدي قيادة الحركة المئات من الضباط القادة والضباط الشباب من مختلف صنوف الأسلحة، فضلاً عن عدد كبير من الضباط الأطباء والصيادلة والقادة السياسيين المدنيين وقد تمرس بعضهم في مراكز حكومية قيادية هامة طوال عهد عبد الكريم قاسم. وسيوفر ذلك أيضاً إمكانية إرسال عدد كبير منهم إلى المعسكرات الأخرى، التي سبق لهم أن خدموا بها، أو كانوا أمراء لكتائبها وسراياها، ولهم فيها تاريخ وصداقات، ولبعضهم سمعة طيبة بين جنودها، مثل معسكرات التاجي والوشاش والخاويل وأبو غريب لتسلم قيادة الوحدات فيها، بعد أن يكون الجنود والمدنيون من أنصار الحركة قد قاموا حسب اتفاق مسبق، بتهيئة الأجواء فيها، واعتقال أو إرباك قياداتها، وربما سيكون ممكناً الاستفادة من الأسماء المعروفة لبعضهم عند إرسالهم إلى الوحدات المستقلة الأخرى أو لدفعهم للاتصال تلفونياً بمعارفهم من ضباط الوحدات الكثيرة الموجودة في أنحاء مختلفة من بغداد للتأثير عليهم أو إحباطهم.

فإذا كان مؤكداً بأن قيادة الحركة قد وضعت في مركز حساباتها مسألة إطلاق سراح الضباط المعتقلين في السجن رقم واحد، ونسقت مع أنصارها الجنود وضباط الصف في المعسكرات الأخرى، فمن غير المعروف لحد الآن بالضبط مستوى التنسيق الذي كان حاصلاً بين الطرفين (قيادة الحركة والضباط المعتقلين)، ولكن الواضح إن خطة أو فكرة طموحة لمساهمة عدد كبير منهم في الحركة بعد تحريرهم كانت موجودة في ذهن قيادتها.

ولا أتصور إن تنسيقاً جدياً كان قد قام بين الطرفين، كما لا أظن إنه قد تجاوز حد إعلام بعض الضباط القادة بتحضير أنفسهم وانتظار ما سيحصل قريباً، ودراسة

إمكانية المساهمة فيه. وقد حدثني أحد الضباط المعتقلين وأحد راكبي "قطار المـوت" قائلاً: "همس بأذني أحد جنود حراسة السجن عندما كنت قبل يوم واحد ذاهباً إلى المرافق قائلاً: بسيطة سيدي إن شاء الله بكرة (باچر) تروحون إلى بيـوتكم"[١]، ولم يفهم الضابط المذكور جيداً مغزى كلام حارسه الجندي إلا فجر اليوم التالي.

وعموماً فقد أفاد ضباط كثيرون بأن "القيادة الثورية" كانت قد تمكنت من إبلاغ ضابط واحد على الأقل في كل ردهة عن **قرب وقوع حدث كبير سيقرر مصيرهم ومصير البلاد بـرمتها، وعليهم الاستعداد للمساهمة فيه.**

إذن فقد كانت قيادة الحركة، فيما لو باغتت حراس السجن، وحشدت لاحتلاله قوة تتناسب مع أهمية إطلاق سراح الضباط المعتقلين (وقد كان ذلك بالنسبة للثوار من الممكنات)، لحصلت فوراً على كوادر عسكرية وسياسية لا تحلم بها، وليس لأية قوة سياسية أو محاولة انقلابية القدرة على جمعها في مكان واحد.

وكان الثوار الذين تصوروا إن أمر فتح السجن سيكون عملاً روتينياً، قد حزموا أمرهم ووضعوا خطتهم على أساس إشعال الفتيل وإطلاق سراح الضباط، ووضعهم أمام الأمر الواقع كشركاء في مؤامرة عقوبتها الموت حتى في حالة رفض المسـاهمة، ولم يفعل الجنود ذلك إلاّ بعد أن أدركوا صعوبة تحريك الضباط عن طريق الحـوار والإقناع، لأن أكثرهم كان سيسأل عن موقف قيادة الحزب، والذي سـيكون في حالة الحصول عليه متريثاً، وهو أمر يخالف فكرة الجنود التي هي: إما الآن أو لـن يكون أبداً.

وليس من شك بأن ذلك لو حصل، لكان قد وضع سلطة حزب البعث في ظرف صعب ولأصبح من الصعوبة التكهن بالنتائج.

ويشمل القسم الثاني من الحركة معسكرات:أبو غريب، والتـاجي والوشـاش والمحاويل والحبانية والديوانية فضلاً عن التنظيمات المدنية التائهة والسالمة والمتحصنة بالأرياف كالفرات الأوسط والكوت والأنصار، فضلاً عن المتطوعين الموثوق مـن تعاطفهم في بغداد وأطرافها، كما امتدت الاتصالات إلى أبناء بعض العشائر القاطنة في مناطق ومدن ريفية لصيقة ببغداد مثل عشيرة " ألبو عامر" الكثيرة العدد والـتي توجد بعض أصولها في مدينة النجف، والتي كان ولاء كثير من أبنائها موزعاً بين نهج

---

١ ـــ الرائد عزيز الحاج محمود، أمستردام ١٩٩٩.

الزعيم عبد الكريم قاسم، وبين الحزب الشيوعي، كما كان موقعها القريب من بغداد ومن بعض المعسكرات مثالياً لإثارة البلبلة في حالة قيام التمرد وارباك الحكومة[1].

١ ــ لقاء بين المؤلف و " م. ل " عام ١٩٩١ بدمشق.

الفصل الرابع:

بين المركز والفرع
محاولات للقاء وأخرى للفراق

لم ينطو الزمن، فكان أبطأ من القدر

في ذات الوقت الذي تقرر فيه البدء بالعمل الانقلابي المباشر، كان مركز قيادة الحزب الشيوعي يركز أعماله على مهام أخرى بينها: إعادة بناء التنظيم المشتت والمعنويات المحطمة، كي يكون ممكناً القيام ببعض النشاطات مثل إصدار الجريدة المركزية وتوزيعها (التي كان قد صدر العدد الأول منها فعلاً)، وأعمال أخرى تتجاوز المستوى المحلي البغدادي، وترقى إلى مستوى العراق، ويكون هدفها إعادة الاتصالات وتحقيق دفعة معنوية تساعد على صمود الأعضاء المشتتين في كل مكان، ولذلك طلب المركز من محمد حبيب "أبو سلام"، وهو الشخص المكلف من المنظمة الحزبية المدنية بالاتصال بقيادة الحزب المركزية، إرجاء عملية معسكر الرشيد ريثما تتم دراسة الأمر وتدقيقه، والتمكن من وضع قوى أخرى إضافية تحت تصرف قيادة الحركة.

لكن محمد صالح العبلي عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي المكلف بإدارة التنظيم والاتصال المركزي على مستوى العراق، لم يفلح في مساعيه لإيجاد اتصال مباشر لا بالمنظمة المدنية الحزبية ولا "بالقيادة الثورية" التي قادت ونفذت الحركة (الانتفاضة)، وذلك بسبب الحذر والخوف من خطر الموت المتربص، لكن العبلي حقق اتصالاً غير مباشر بهم، فأبلغهم بأن اللجنة المركزية ترى إن أي تحرك عسكري ضربٌ من الجنون والتسرع وقلة في التعقل، وقال للوسيط: "قل لهم نحن لسنا ضدكم ولا نقف بوجهكم. لكننا نرى عدم نجاحكم، وان ما تقومون به هو توزيع للقوة"[1].

ويذكر إن محمد العبلي الذي كان مكلفاً بتحقيق اتصال بمجموعة (حبيب-سريع)، لم يكن قد نجح حتى ذلك الوقت بغير موعد للقاء لم يتحقق بسبب تقديم موعد الحركة وملابسات أخرى، لكنه تمكن من إبلاغ رسالة غير مباشرة تضمنت نصائح وآراء عقلانية، لم يكن واضحاً بحسب ظروف تلك المرحلة، فيما إذا كانت مفيدة أم مثبطة؟

ويقال إن مضمون الرسالة نقل إلى جماعة حسن سريع بصورة تناسب الشكل

---

١ ــ لقاء في دمشق مع الأستاذ باقر إبراهيم الموسوي عام ١٩٩٩.

الذي أراده محمد حبيب، فانـزعجوا من تلك النصائح خاصة وهي صادرة من القيادة نفسها التي طالما اتهمها محمد حبيب أمامهم بالتقاعس وحمَّلها مسؤولية عدم المبادرة في استلام السلطة، وبالتالي السماح لحزب البعث بتنفيذ خطته، لكن محمد حبيب لم يذكر علناً عدم اتصاله بالحزب وإنما أظهر دائماً التبرم والعداوة للأفكار والأعمال ذا ت الطبيعة المتحفظة.

وكما يبدو فإن الجماعة الثورية كانت تنتظر المساندة والتعاون، ولكن مع عدم التدخل، خصوصاً وإن الثوار كانوا قد تصوروا بأن قيادة الحزب الشيوعي العراقي لم تكن تمتلك، حتى ذلك الوقت، أية مبادرة للدفاع عن نفسها وعن منتسبي حزبها. وكما قال الأستاذ باقر إبراهيم الموسوي: "وهكذا كانت الرؤوس حامية وسارت في تنفيذ الأمر"(١).

ومما ساعد محمد حبيب على تمرير أفكاره ونقده اللاذع هو عدم ظهور أي جدوى من خطة الطوارئ الموعودة، التي طالما تحدثت عنها القيادة الشيوعية وأجهزتها عندما فوجئت بحركة ٨ شباط ٦٣، فظل عشرات الآلاف من الأعضاء والأنصار الشيوعيين في بيوتهم لا يعرفون ماذا يفعلون، وكأنهم على موعد مع خصومهم لاصطحابهم إلى المعتقلات، وهناك سيكونون مضطرين لاختيار إحدى النهايتين: الاعتراف أو الموت.

وكما قلنا سابقاً، كان مركز الحزب يتكون من جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي، وتتركز أعماله (بالتشاور مع باقر الموسوي في الفرات الأوسط)أساساً على إعادة بناء تنظيم جديد ومحدود ليقوم بنشاطات مثل إصدار الجريدة المركزية وتوزيعها بحدود ضيقة هدفها إثبات الوجود، وتحقيق دفعة معنوية تساعد على صمود الأعضاء المشتتين في كل مكان(٢)..

ووقفت تلك المهمات التي تصدرت أولويات المركز وراء مطالبة كل من جمال الحيدري والعبلي لمحمد حبيب إرجاء حركة المعسكر ريثما تتم دراسة الأمر وتدقيقه ووضع قوى أخرى إضافية تحت تصرف قيادتها.

---

١ ـــ باقر إبراهيم، نفس المعطيات السابقة.

٢ ـــ أخبرني الدكتور عبد الحسين شعبان وكان حينها (١٩٦٣) معتقلاً مع عدد غير قليل من الشيوعيين النجفيين، إنه رأى في المعتقل العدد الأول من تلك الجريدة ووصفها لي.

وكان محمد صالح العبلي، بعد أن يئس من إقناع محمد حبيب "أبو سلام" بواسطة الوسيط، قد أخذ يخرج يومياً من مخبئه في حي كمب سارة متنكراً بزي عمال البناء الشعبي البسيط، راكباً دراجة هوائية ليحوم حول معسكر الرشيد الملاصق، ويفعل ذلك أيضاً كلما خرج أو عاد إلى مكمنه من مهمة حزبية كان عليه القيام بها، لعله يحظى بشخص من المعسكر يعرفه ويطمئن إليه فيحقق بواسطته اتصالاً مباشراً بالجنود الحركيين فلم يفلح. ولعله كان يدرس على أرض الواقع أيضاً الطريقة التي يمكن معها تقديم المعونة في حالة الاتفاق مع المشرفين على شؤون الحركة. وكان هدفه الأساسي محاولة تأجيل العملية العسكرية وقتاً قصيراً يكفي لترتيب التنسيق بين الحزب والمتمردين وبالتالي بينهم وبين أنصار المركز في معسكر الوشاش وكان للمركز فيه قوة معقولة من الجنود وضباط الصف.

ولكنه اكتفى بعد حين بانتظار حلول الموعد المضروب بينه وبين ممثل الحركة بنفاد صبر، وكان ذلك الموعد قد ضُرب بواسطة عدنان عبد القادر، وموعد آخر قد تقرر أن يتم عبر منظمة الفرات الأوسط، لكن الطرفين لم يصلا إلى الموعد أحياءً. إنه ذات المَوعد الذي مات من أجله سابقاً، وقبل أن يصل إليه، إبراهيم محمد علي مؤسس المنظمة الثائرة التي حال المكلف بالعلاقات فيها (محمد حبيب) دون التئامه، والتي كاد فرعها العسكري أن يأخذ البلاد إلى مسار آخر مختلف لا أحد يمكنه الآن توقع ما كان سيحصل للعراق لو كان قد فاز بسلطته، بسبب الروح المغامرة والتفكير المتطرف الغضبي لأهم زعمائها (محمد حبيب)، رغم تصوري شخصياً إنه لو حصل ذلك سيكون أفضل بكثير من بقاء السلطة دولةً بأيدي حفنة من الضباط والسياسيين الطامعين شخصياً بالسلطة والجاه، ليسلموها بعد أن عجزوا عن مواجهة المعارضة الوطنية، إلى قيادة البلاد الحالية دون أن يزأر أحدهم أو يأمر بالمقاومة أو حتى يعترض شكلياً، لكنهم مازالوا حتى اليوم وبعضهم في المعارضة يهددون ويزبدون ويفقدون منطقهم وتوازنهم بمجرد أن تلوح آفاق ديمقراطية حرة تتساوى فيها فرص الحياة، أو بمجرد أن يذكر أحد مقولة " الرحمة فوق القانون، وعفا الله عما سلف".

اعتقال العبلي والحيدري ووهبي

لكن حوار المنظمة المدنية للانتفاضة مع (العبلي – الحيدري) لم ينقطع تماماً، بل

تواصل بطرق مختلفة، بواسطة قيادة منطقة الفرات الأوسط، وبواسطة صبيح مبارك وهو كادر شيوعي قديم عاش في سوريا فترة طويلة ومات عام ١٩٩١ بموسكو، وكان يملك محلاً لبيع إطارات السيارات في شارع الرشيد ببغداد، ويعتبر محله محطة أو عنوان "خاص جداً" للحزب الشيوعي، كان يزوره سلام عادل وقادة آخرون بصورة مستمرة.

كما تواصل الاتصال أو المراسلة النادرة بواسطة المحامي عدنان عبد القادر الذي كان عضو قيادة منطقة بغداد، وقد تم اعتقال كل من صبيح مبارك وعدنان عبد القادر بعد إخفاق حركة معسكر الرشيد، ثم أُطلق سراحهما في عهد عبد السلام عارف.

ويذكر إن موعداً مباشراً كان قد تقرر بين محمد صالح العبلي وممثل عن قيادة التمرد المزمع قيامه، لكن الحركة سُحقت، وأعتُقل هو ومن معه (جمال الحيدري وعبد الجبار وهبي) في دار والد الدكتور عطا الخطيب قبيل أن ينطوي الزمن الضروري الفاصل لتحقق الوصل بينهما، **وهكذا كان الزمن أبطأ من القدر. إذ لم ينته شهر تموز إلاّ وكان الطرفان قد رحلا بصورة أبدية وخلفا ورائهما صراعاً بين أنصارهما وأنصار السلطة ظل قائماً حتى اليوم.** فلم يصل الطرفان إلى الموعد المضروب.

وقد أعتقل جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي في ٧ تموز ٦٣. وأُعلن عن إعدامهم في ١٩ تموز ١٩٦٣، وكان قد تم قتلهم بعد تعذيب قاس قطعت فيه رجل الصحافي عبد الجبار وهبي[١].

---

١ ــ يقول الضابط **محمد علي سباهي** الذي كان عضواً وأحد مؤسسي المكتب العسكري لحزب البعث العربي الاشتراكي قبل ٨ شباط: "في عام ١٩٦٣ زرت في قصر النهاية عمار علوش وكان مشرفاً على التحقيقات، فرأيت عنده عبد الكريم الشيخلي (وزير خارجية فيما بعد) وأنور وهي وحاشية صغيرة. وفوجئت بالصحفي عبد الجبار وهبي ممدوداً على الأرض وكان على وشك الموت ويطلب ماء. وبجنبه حامد طبرة (مدير عام فيما بعد): "ها كواد تريد مي (ماء)!!"، ولم يعطه. وكان **الدكتور فؤاد ماسان** قد أخبرني بمدينة السليمانية عام ٢٠٠١ قائلاً: كنت معتقلاً في قصر النهاية "ورأيت عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) منشور الرجل من تحت الركبة بآلة نشر خاصة، وكان إلى جانبه شخص آخر لديه يد وجمة معلق منها". ولقد أخذتني (المؤلف) تلك الرواية إلى أخرى عارفة في القدم أكدت لي إن المعدمين في تاريخ هم شخصية مشتركة، وإن التعذيب بقطع الأطراف كان معروفاً منذ بداية العصر الأموي "وأول من مارسه هو معاوية بن أبي سفيان ضد مسلم خارجي حاول قتله، إذ إن ثلاثة من الخوارج تعاهدوا على قتل الإمام علي

وعلى أية حال لم يبدأ الشهر الثامن حتى كان الطرفان العبلي والحيدري ووهبي وتنظيم حبيب ــ سريع قد سحقا وأعدم أغلبهم[١].

وفي هذا السياق أخبرني الأستاذ قاسم حوَلْ إن المرحوم صالح دكلة أخبره بأن حسن سريع كان قد التقى صالحاً بعد هروب الأخير من معتقل النادي الأولمبي وطلب منه المساعدة في تحقيق موعد مع العبلي، لكن دكلة الهارب من "قصر النهاية" كان موعد هروبه لإيران ثم للإتحاد السوفييتي قد حان أوانه، وربما هو لم يقدر إن أمر هذا الجندي خطير ومستعجل للحد الذي يتطلب تعريض حياة عضو لجنة مركزية للخطر بسببه[٢]، ويعني أيضاً، إن حسن سريع كان متوجساً من تصرفات محمد حبيب.

لا تنسيق مع قيادة الحزب

وذلك يعني إن محمدحبيب قرر ضمناً الإقدام على تنفيذ خطة التمرد قبل أن يحقق اللقاء بمحمد العبلي[٣]، الذي اعتقل مع جمال الحيدري وعبد الجبار وهبي (أبو سعيد،

ومعاوية وعمرو بن العاص، وأقبل الذي تعهد بقتل معاوية واسمه (النزال بن عامر)، فقام خلف معاوية ووجأه في خنجر، لكن الأخير لم يمت، فأمر به فقطعت يداه ورجلاه ونزع لسانه فمات"، راجع جريدة المؤتمر العدد ٢٦٨ مقالة للدكتور جليل العطية. وكان عمرو بن العاص قد قتل محمد بن أبي بكر الصديق بعد أن قطع جسده وهو حي، ومن أجل أن يبر بقسمه لله تعالى! أمر بإدخال جسد محمد بن أبي بكر المقطع في جوف دابة بعد أن يحشى فيها من دبرها، وتفرج على مشهد ابن أبي بكرِ الصديق وربيب علي بن أبي طالب وهو يقطع ويحشى في جوف حمَار منْ دبره، جيش المسلمين وتعداده ستة آلاف.

١ ــ يقول نعيم الزهيري إنه التقى في معتقَل السراي في بغداد مع شخصين من جماعة حسن سريع؛ أحدهما معلم من المدحتية وآخر من مدينة الحلة في عام ١٩٦٩ وكانوا تحت التعذيب من أجل التوقيع على تعهدات بعدم ممارسة السياسة في المستقبل، وقد أسرّاه بعد أن تعرفا عليه وعلى قضيته بأنهما يحتفظان برسالة جمال الحيدري لمنطقة الفرات الأوسط، ويضيف الزهيري: "ولما عرفا بموقفي أعطياني رسالة، لا أعرف كيف احتفظا بها، مكتوبة بآلة طابعة بحروف صغيرة على ورق رايز نسخة كاربون". وأضاف بأنه قرأ تلك الرسالة، وكانت تؤكد إن الظروف الموضوعية في العراق مهيأة تماماً للثورة، لكن الحيدري أشار فيها إلى أن حزبه مازال لم يستكمل استعداداته، ولذلك فالمهمة الأولى الآن هي لَمّ الشمل وتجميع القوى المعادية لحكومة ٨ شباط والبحث عن الخطوط الحزبية المقطوعة والمبعثرة خصوصاً العسكرية منها لإيجاد ركائز فعالة "للثورة".

٢ ــ لقاء خاص مع قاسم حول بمدينة لاهاي عام ٢٠٠١.

٣ ــ كان محمد صالح العبلي عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ومسؤول التنظيم، بل واحداً من أهم القادة التنظيميين في تاريخه. ولد لأب عامل (وليس مزارع كما ذكر حنا بطاطو) في منطقة ←

كاتب صحفي ساخر) وفاضل الخطيب وزوجته وولديهما الدكتور عطا والدكتورة عطرة الخطيب، وقبلهما الشاب، فاضل ولد نرجس الصفار (١٦ سنة)الذي كان يقوم بدور المراسل، و جميع هؤلاء اعتقلوا لأسباب كثيرة بينها ذيول حركة ٣ تموز ٦٣.

وقد تم اعتقال قيادة مركز الحزب بعد أن سلّمَ محمد صالح العبلي أول عدد يصدر من جريدة طريق الشعب، بعد انتكاسة الحزب لأحد كوادره "عدنان عبد القادر"، الذي كان وسيطاً بين العبلي ومحمد حبيب، في ساحة "كراج الأمانة" بباب المعظم،وبعد قليل أمسك الحرس بعدنان عبد القادر الذي اعترف باستلامه الجريدة، ورغم أنه أنكر معرفته أين يختبئ العبلي ورفاقه؟ لكنه اعترف بأن الأخير كان يأتي إليه في مخبئه بسيارة صبيح مبارك، وفوراً جلبت إحدى مفارز الحرس القومي صبيح

قنبر علي الشعبية ببغداد عام ١٩٢٧ وكان لها أثر كبير في نشأته، إذ يدخل سكانها في صميم تكوين المدني للعاصمة بغداد، فبعكس مجتمعات القلة والكدح البعيدة نسبياً عن الثقافة والحضارة، نجد أبناء "قنبر علي" يتعاملون مع الظلم والعسف الاجتماعي والاقتصادي الموجه ضدهم، فيرتقون على وضعهم السياسي البائس بطرق مختلفة، بينها محاولة تعويض خسارتهم السياسة بالتفوق العلمي والمهني ونشاطات ونشاطات الأخرى رغم شحة الفرص المتاحة!! وكذلك أكدت سيرة العبلي فقد حمل المسؤولية صغيراً، فكان يعمل ويدرس ويرصد محيطه بوعي. انتمى إلى الحزب الوطني الديمقراطي (كامل الجادرجي – محمد حديد)، لكن هذا الحزب لم يكن يلبي رغبات الشباب وحماسته الثائرة فصار شيوعياً في ١٩٤٥، وفتح مكتبة في شارع الكفاح (شارع الملك غازي حينذاك) فتحولت إلى ملتقى لشباب المنطقة المثقف وهي منطقة يقطنها كادحون ذوي مزاج ثوري، فأغلقتها السلطة وأحالته للمحكمة فسجن، وعندما أطلق سراحه في أول الخمسينات، تفرغ نهائياً للنشاط الحزبي ليتحول من صاحب مكتبة إلى منظم ومحرض نشيط، يلحق الليل بالنهار ويقود التظاهرات. وأصبح عام ١٩٥٥ عضواً في اللجنة المركزية وأسهم مع سلام عادل في توحيد الحزب عام ١٩٥٦ بعد إنقسامه إلى (باسميين نسبة إلى بهاء الدين نوري (باسم) وجماليين نسبة إلى جمال الحيدري أو القاعدة وراية الشغيلة). كما كان قد سافر في وفود عديدة إلى خارج العراق للإسهام في مؤتمرات ومهرجانات دولية، وكان قد عاد من آخر دورة دراسية حزبية له في عام ١٩٦١، وهي تقريباً نفس الفترة التي عاد فيها إلى العراق كل من سلام عادل وجمال الحيدري لإعادة تقويم سياسة الحزب على ضوء المتغيرات السياسية الجديدة، فأعيد تنصيبه عضواً في اللجنة المركزية والمكتب السياسي لما عرف عنه من حيوية النشاط، وموقفه المعارض من مجموعة عامر عبد الله وزكي خيري وبهاء الدين نوري المنافسة لقيادة سلام عادل، استناداً إلى موقفهم من سياسة الحكومة، و"الركض وراء سياسة عبد الكريم قاسم الفردية" بين ١٩٥٨ – ١٩٦٢. ومنذ صباح ٨ شباط ١٩٦٣، نظم وقاد المقاومة في شارع الكفاح "عكد الأكراد" و"التسابيل" بعد أن استولوا على السلاح من مركز شرطة "إمام طه"، لكنهم انهزموا بسرعة لعدم تكافؤ القوى. وكان قد اعتقل مباشرة بعد ٨ شباط ثلاث مرات ويطلق سراحه فوراً لأنه يجيد التخفي والمناورة، بل لا يذكر أحد حتى الآن إنه يحتفظ بصورة شخصية لمحمد صالح العبلي، كما إنه كان قد ترك منزله العائلي، وهي دار حربية، صباح يوم ٨ شباط.

مبارك الذي اعترف بأن محمد العبلي كان يأتيه إلى متجره دون موعد سابق، لكنه اعتاد أن يوصله إلى حي كمب سارة، ولا يعرف أين يسكن[١].

وهنا استنجد محققو الحرس القومي بهادي هاشم الأعظمي[٢] ليستعين بذاكرته للكشف عن وجود دار حزبية مهمة في تلك المنطقة فتذكرها تقريباً، لكن تغير المعالم المحيطة بها حالت دون العثور عليها، لكنه استطاع حصر وجودها بمنطقة صغيرة جداً، فأمر قائد القوة المرافقة بتمشيط المنطقة وتفتيشها بهدوء ودون ضجيج، فحالفهم الحظ وعثروا عليها بعد ست ساعات واعتقلوا قادة المراكز الثلاثة ومعهم صاحب الدار وعائلته والمراسل الحزبي الشاب، وكان ذلك في يوم ١٨ تموز ٦٣، وأعلن الراديو العراقي في اليوم التالي ١٩ تموز إعدامهم وكانوا في الغالب مازالوا أحياء. لكن العبلي كان مازال حياً عند إذاعة البيان[٣].

---

١ ـــ بعض هذه المعلومات من حامد العاني والآخر من كتاب "من حوار المفاهيم إلى حوار الدم".

٢ ـــ عضو مكتب سياسي وعضو سكرتارية الحزب الشيوعي العراقي،أي إنه يحتل المرتبة الثانية بعد سلام عادل، ولا يشاركه في هذا الموقع غير جورج تلو وجمال الحيدري، وكان هادي هاشم الأعظمي المعروف بصلابته وصبره وصموده المثير بوجه هيئات التحقيق في تجارب سابقة بمعتقلات بهجة العطية في العهد الملكي، قد انهار فور اعتقاله، وسلك سلوكاً غريباً إذ تطوع كدليل للمفارز المُسيَّرة من قبل قيادة الحرس القومي، والتي كانت في سباق مع الزمن، لملاحقة مراكز القيادة في الحزب الشيوعي لتحطيم كادراته وقدراته وكسر معنويات منتسبيه. وكان قد طلب فور اعتقاله مقابلة علي صالح السعدي الذي تربطه به صداقة قديمة، وأبلغه برغبته الإعتراف بكل شيء، دون أن يتعرض لأي نوع من التعذيب، لأنه ولا شك كان يتوقع ذلك، فرفض الموت واختار الحياة. وكما قال أحمد العزاوي بأحد الاجتماعات الحزبية القيادية في معرض تعليقه على انهيار بعض المناضلين السياسيين قائلاً: "تحت ظل الديكتاتورية يعاني المناضل من ضغط دائم، ولا أحد يستطيع التوقع كم سيصمد ومتى ينهار؟ ولكم بسلوك هادي هاشم الأعظمي بعد ٨ شباط ١٩٦٣ مثالاً". (سماع مباشر من الشهيد أحمد العزاوي، كما يمكن مراجعة هاني الفكيكي في أوكار الهزيمة).

٣ ـــ وقد روى لي الدكتور حامد أيوب العاني عن شركاء سجن محمد صالح العبلي بأنه، أي العبلي، كان مازال على قيد الحياة عندما أذيع نبأ إعدامه، وكان الهدف من بقائه حياً يوماً آخر هو مساومته، فقد جاء وزير الدفاع صالح مهدي عماش وأسمعه نبأ إعدامه مذاعاً من إذاعة بغداد، وساومه قائلاً: "لقد أُذيع خبر إعدامك، وأصبح في علم الناس جميعاً إنك في عداد الموتى". وأخرج من جيبه شيكاً موقعاً على بياض وقال: "ضع المبلغ الذي تشاء وبلا حدود، وأختر البلد الذي ترغب أن تعيش فيه، وأنا شخصياً أضمن لك ذلك، مقابل ترك العمل". وحتماً كان يقصد بترك العمل الإعتراف أيضاً. وبالنسبة لمحمد صالح العبلي كان ذلك أسوأ من الموت، رفض فقتل. وقد روى خالد طبرة (عضو هيئة التحقيق ومدير عام بعد ١٩٦٨) لصفاء الفلكي (سفير في أكثر من بلد، وعضو في حزب البعث وشارك بكل المراحل السابقة) قائلاً: "حفرنا أنا وسعدون شاكر (وزيرداخلية ومدير أمن عام بعد ناظم كزار) قبراً لمحمد صالح العبلي، وأنزلناه إلى القبر (الحفرة) وبعد مَدِّه بداخله، طالبه سعدون شاكر بالإعتراف أو الموت؟ فرد العبلي بشجاعة واتهمنا ←

ويذكر إن منظمة الفرات الأوسط كانت قد اقترحت على الحيدري والعبلي الخروج مؤقتاً من بغداد إلى الفرات الأوسط من أجل تجنب الخطر الداهم المحتمل جداً، لكنهما رفضا لأن مركزهما كان منشغلاً بإعادة إصدار جريدة الحزب المركزية، وفي سحب ما تبقى من الحزب إلى الخلف بأقل قدر من الضحايا، وبتوزيع النشرات وكتابة الرسائل لإثبات الوجود والمحافظة على المعنويات[١]، وهي واجبات ضرورية لحزب بحجم وثقل وادعاءات الحزب الشيوعي العراقي.

وكان الثلاثة، العبلي والحيدري وعبد الجبار وهبي، قد لجئوا إلى بيت فاضل الخطيب، وهي دار حزبية وسرية جداً تقع في كمب سارة، للاختفاء بها، و لم يكن على علم بمكانها غير سلام عادل ومحمد العبلي وجمال الحيدري وعبد الرحيم شريف (قتل تعذيباً) ولا يعرف كيف استدل عليها هادي هاشم الأعظمي، ويقال إن اختيار محمد العبلي لها كان بسبب وقوعها قرب معسكر الرشيد، بعد ورود معلومات عن قرب وقوع تمرد مسلح فيه.

وكان محمد العبلي قد حرص في التحقيق حتى الرمق الأخير أن يوحي بصورة مباشرة أو غير مباشرة بعدم حزبية فاضل الخطيب (الآلوسي)، قائلاً: "ليس للعائلة ذنب ونحن دخلنا دارهم كضيوف لأننا نعرف والدهم"[٢].

وكان المركز الحزبي الذي انتقل بعد مقتل سلام عادل إلى جمال الحيدري ومحمد العبلي، قد سعى إلى تنظيم انسحاب الحزب من المواجهة، التي أصبحت غير متكافئة منذ ظهيرة يوم ٨ شباط ١٩٦٣، وذلك بالقياس على وسائل الحركة الشيوعية غير المجدية في الصراع على السلطة. وكان هدفهما المحافظة ما أمكنهما ذلك على ما تبقى من الكوادر الحزبية، إما بتوفير أمكنة للاختفاء في بغداد والأحياء الشعبية المحيطة بها، أو بترحيلهم إلى الفرات الأوسط أو كردستان العراق.

وكان مركز الحزب الجديد قد نجح بسرعة قياسية غير متوقعة بالقياس للضربة

بخيانة الوطن. فأطلق عليه سعدون شاكر فوراً دون أن يعترف أو يتنازل، وحصل الأمر نفسه مع الضابط مهدي حميد وحمزة سلمان الجبوري.

١ ـــ لقاء في برلين مع المهندس سلام محمد صالح العبلي، ورسالة خاصة منه تضمنت شيئا عن السيرة الشخصية لوالده، عام ٢٠٠٠.

٢ ـــ د. شاكر اللامي، مجلة رسالة العراق، لندن، العدد ٦١ ص ١٦.

المدمرة التي تلقاها الحزب بإصدار الجريدة المركزية "طريق الشعب" في نهاية حزيران ١٩٦٣، وتوزيعها على نطاق ضيق في بغداد والمحافظات، حتى إن نسخة من عددها الأول اليتيم، كانت قد وصلت إلى الشيوعيين المعتقلين في سراي مدينة النجف. وكانت افتتاحيتها على شكل بيان أو نداء جاء فيه: "من أجل إنقاذ الوطن.. من أجل الديمقراطية والأرض والخبز والعمل... من أجل الرخاء والطمأنينة... من أجل الاستقلال والسلام... من أجل حق الشعب الكردي في الحكم الذاتي... من أجل تحقيق أهداف ثورة ١٤ تموز وإقامة جمهورية ديمقراطية تمثل إرادة الشعب الحرة ندعوكم جميعاً لتشديد النضال... ناضلوا بكل الوسائل والأساليب... نظموا أنفسكم.. بادروا إلى العمل... شكلوا لجان الجبهة الديمقراطية لإنقاذ الوطن... نظموا بحرارة ويقظة ما يمكن من أشكال المقاومة الجماعية والفردية... من أبسطها إلى أعلاها... رصوا صفوفكم... ساندوا نضال الشعب الكردي".

وتواصل الافتتاحية ندائها:

" أيها الجنود ورجال الشرطة الشرفاء، لا تطلقوا النار على شعبكم... لا تكونوا آلة تقتيل بيد الجلادين... لا تخضعوا لخطط وأوامر الضباط الفاشست وحرسهم القومي... عرقلوا وأحبطوا خطط حكومة المتآمرين... قاوموها... التحقوا بصفوف الشعب المناضل"*.

وفي النص السابق يمكن ملاحظة التشابه والتساوق بين دعوة البيان وبين طريقة رد فعل الحزب الشيوعي عبر بياناته الأولى التي كتبها سلام عادل بنفسه صباح يوم ٨ شباط ١٩٦٣، ذلك الرد الذي اعتمد أيضاً على قاعدة نظموا أنفسكم.. واعتمدوا على أنفسكم وقاوموا!!

وفي المقابل لجأ محمد حبيب وحسن سريع وحافظ لفتة وهاشم الآلوسي وغيرهم

---

*وقد ذُيّل النداء الذي استغرق صفحات جريدة طريق الشعب كلها، بكلمات تمجيد حارة لسلام عادل وقادة الحزب الشيوعي الذين قضوا دفاعاً عن أفكارهم ومبادئهم، وكتب نداء الجريدة جمال الحيدري بنفسه. ومن غرائب الصدف إن العدد الثاني من الجريدة ذاتها كان قد صدر ولكنه هذه المرة يحمل تمجيداً لجمال الحيدري ورفاقه بالاسم لمقتلهم تحت التعذيب بسبب عدم تفريطهم بأسرار حزبهم.

وقبلهم إبـراهيم محمد علي إلى أسلوب العمل المباشر باتجاه أهدافهم التي اقتنعوا بها. وربما يكونوا قد فعلوا ذلك، لأنهم كانوا قد توقعوا وتفهمـوا ضـعف معنويـات أنصارهم، فقرروا أن يبدأوا هم بأنفسهم إشعال الفتيل ثم دعوة الآخرين من ضباط المعتقل وغيرهم إلى المساهمة به.

الباب الثاني
البَيْرِّية المُسلحة



الفصل الأول

التـنـفـيـذ

الاجتماع الأخير: لا تقتلوا الأسرى، فسنحاكمهم

في كوخ صغير وبسيط بكمب سارة، وفي أجواء تموزية عراقية لاهبة، يغطيها دخان سكائر اللوكس القوية (حارة المذاق، ويدخنها الفلاحون وشغيلة المدن من ذوي الدخل المحدود)، وعلى حصير مصنوع من خصَاف النخيل، ومع الشاي الأسود، اجتمعت مجموعة من العسكريين والمدنيين الشباب لتناقش وتضع اللمسات الأخيرة لأخطر وآخر محاولة جدية لقلب نظام الحكم يقوم بها مواطنون من هذه الدرجة أو المرتبة الاجتماعية، الذين لن يشاركوا بعدها وحتى إشعار آخر في صنع سياسة ومستقبل بلادهم.

وكان المتحدث الرئيسي في الاجتماع نائب العريف حسن سريع، وبصوت خفيض وكلمات منتقاة أقسم قائلاً: **"نقسم بتربة هذا الوطن الغالي أن نحرره من الظالمين الطغاة"**، وردد وراءه رئيس العرفاء كاظم البندر شعارات دافع بها عن الشيوعية[1]، وحينذاك كان هدوء حسن سريع يوحي بأنه وجماعته قد عزموا وحسموا أمرهم بصورة قاطعة: **فإما حياة يرتضونها أو الموت!! ولا مكان للتردد.** فكانت حيوية وحماسة الشباب تجعل الدماء تجري في عروقهم حارة جارفة.

ويذكر إن حسن سريع، في آخر كلماته، أبلَغ المجتمعين بأن تعليمات جديدة كان قد أُبْلِغ بها وهي: **"لا تقتلوا أحداً بل اعتقلوهم وسنقدمهم للمحاكمة*.**

---

١ ــ نعيم الزهيري، ٢ آب ١٩٩٩، رسالة شخصية للمؤلف. وكان حديث رئيس العرفاء كاظم البندر يتضمن شعارات من النوع الدعائي الذي كان شائعاً حينذاك: بأن لدى الشيوعية أو الماركسية أجوبة على كل الأسئلة والمشكلات، وهي دواء لكل الأمراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

*وهنا تحضرني مقارنة ضرورية ربما تلقي بعض الضوء على كيفية جريان الصراعات شبه المستديمة داخل العراق، فنرصد طريقة تفكير الجندي حسن سريع قائد الحركة والمشير الركن عبد السلام عارف رئيس الجمهورية، الأول علّم رفاقه عدم انــزال العقاب قبل المحاكمة، وحتى يضمن التزامهم بالأمر قال إنها أوامر جديدة جاءت من قيادة الحزب ليضفي عليها الجدية والشأن الخاص، وبالمقابل أشرف الثاني بنفسه مباشرة على عمليات قتل وإذلال جماعية راح ضحيتها خلال الساعات الأولى من فشل التمرد بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ جندي ومدني قتيلا بعد استسلامهم!! رغم إن حسن سريع كان في حالة ثورة على حكومة رسمية قائمة، وكما نعلم إن الثورة هي في كل الأحوال خروج مؤقت أو فوضوي على القانون، مما يجعل كل ثوار التاريخ يبيحون لأنفسهم في البداية على الأقل ارتكاب أعمال غير قانونية إذا كانت تقربهم من أهدافهم التي يتصورون أنها نبيلة وتصب في مصلحة المجتمع، لكن سريع وجماعته لم يفعلوا رغم وقوع عشرات الضباط وبعض المسؤولين السياسيين الكبار أسرى بين أيديهم. في حين كان الأحرى برئيس الجمهورية عبد ←

وكان نعيم الزهيري قد أخبرني برسالة خاصة عام ١٩٩٩ بأن اجتماع كمب سارة واستناداً لحديث سريع كان قد أقر النداء التالي: "لا تقتلوا أحداً بل اعتقلوهم وسيقدموا للمحاكمة"(١).

انفض الاجتماع في الساعة الثانية عشرة والنصف (منتصف الليل) أي قبل ثلاث ساعات تقريباًمن بدء التنفيذ والعمل المباشر.

عاد حسن سريع مباشرة إلى المعسكر برفقة عدد من ضباط الصف المتقاعدين وغير المتقاعدين، وكان بعضهم قد جاء من معسكرات أخرى، فضلاً عن عدد من المدنيين وأكثرهم عمال مهن بسيطة، أو ما اصطلح على تسميتهم بالشغيلة الرثة، ليبيتوا ليلتهم في مهاجع مدرسة قطع المعادن، استعداداً لساعة الصفر التي ستعلن بعد حوالي ثلاث ساعات بإطلاق رصاصة تنويرية فوراً بعد اعتقال ضابط الخفر، والسيطرة على سرية الحراسة.

البَيْرِيّة* المُسلحة

فجر يوم ٣ تموز١٩٦٣(١) وكان الظلام مازال طاغياً خرج نائب العريف حسن

السلام عارف الذي يمثل الدولة العراقية، وتقع تحت تصرفه أجهزتها القانونية ومحاكمها الرسمية، أن لا يكون مضطراً لاستخدام وسائل غير قانونية في عملية الاقتصاص وأخذ الحق العام، خصوصاً وإن المعركة انتهت والإستسلام قد وقع، لكنه تصرف كطالب ثأر شخصي لا نهاية له، وهو أمر لايليق بثائر خرج يوماً ضد الاستعمار مضحياً بحياته، ولا برئيس دولة تدعي تمثيل الشعب كله وليس جزء سياسي أو ديني أو قومي أو جهوي أو عشائري منه.

١ ـــ نعيم الزهيري، رسالة خاصة للمؤلف عام ١٩٩٩.

* جاء لفظ بيرية من اسم جبال البيرينيز التي تقع في إقليم الباسك جنوب فرنسا وهي المنطقة المحايثة لأسبانيا ذات الجبال الشاهقة التي تعصف بها الرياح بصورة مستمرة مما يضطر سكانها منذ زمن قديم إلى ارتداء لباس الرأس (البيرية) التي أصبح أكثر الفرنسيون يضعونها كواقية تقليدية لرؤوسهم وبألوان مختلفة لاسيما اللون الخاكي، ويسميها الألمان "البيرية الباسكية". ولكن شهرتها كواقية رأس عسكرية ازدادت بعد أن لبسها الجمهوريون الأسبان خلال معاركهم ضد الزعيم الأسباني فرانكو. وكذلك ارتداها رجال المقاومة الفرنسية في كفاحهم ضد جيوش الاحتلال النازية الألمانية، ومنهم أخذتها أغلب جيوش العالم. ومازال المسنون الأسبان والفرنسيون يضعوها فوق رؤوسهم. كما يضعها على سبيل الافتخار بالمقاومة عدد كبير من المفكرين والأدباء والفنانين العالميين مثل بيكاسو وهاينريش بل وجان بول سارتر وتوفيق الحكيم.

سريع مع مجموعة من الجنود وضباط الصف (عاملين ومتقاعدين وهاربين)، وكـان بعضهم عمال مدنيون بزي الجنود ويجيدون استخدام السلاح، انطلاقاً من مهـاجع نومهم في مدرسة قطع المعادن بمعسكر الرشيد، صوب مدرسة الهندسة الآلية وقـد وضع بعضهم على بدلته رتب الضباط ووضع آخرون إشـارات علـى أذرعهـم. وعندما أصبح حسن على مسافة بحدية من حرس باب نظام الكتيبة رفـع بحركـة سريعة وذكية بيريته ماداً يده إلى الأمام وطالباً منهم بحزم وثقة إلقاء السلاح، مستغلاً ستار الظلام وجلبة الرجال الذين معه، ليوهم الحرس بأنه وبقية العسكريين المرافقين يحملون أسلحة وينفذون خطة مُحْكمة ومعدة سلفاً، وبأن ما يقومون به ذا شـأن كبير وجزء من تحرك انقلابي أوسع، فضلاً عن معرفته المختزنة ذاتياً بمشاعر الاغتراب السائدة بين الجنود، وبتدني معنوياتهم وعدم مبالاتهم بما يجـري حـولهم، فلمـاذا يتورطون ويضعون أنفسهم في مواضع الخطر، في حـين إن أحـداً لم يضـعهم في حساباته.

دار كل ذلك في خَلَدِ حسن سريع، فارتجل دون سابق تخطيط حركة البيرية* التي

---

١ ـــ تغير موعد تنفيذ الحركة من ٥ إلى ٣ تموز ١٩٦٣ بسبب انتشار الخبـر بين صـفوف العسـكريين الشيوعيين والمقربين منهم حول موعد الحركة، مما شجع الثرثرة وانتشار الشائعات في كل المراكز السكانية الشعبية الكبـرى في بغداد، فاستعجل القائمون بها خوفاً من الانكشاف، ويدعم هذا الرأي تصريح رسمي أدلى به صالح مهدي عماش للراديو قال فيه إن المتمردين حددوا يوم ٥ تموز ٦٣ موعداً لعمليتهم، ولكنـهم وبعد انكشاف أمرهم قَدَّموا الموعد إلى ٣ تموز لمباغتتنا. ويعتقد إن عماش حصل على هذه المعلومات مـن التحقيقات الجارية. ويرى آخرون إن محمد حبيب كان وراء تقديم موعد الحركة، لأنه أراد بـذلك قطـع الطريق على أي لقاء مباشر قد يتحقق بين المنظمة الحزبية المشرفة أو قيادة الحركة من جهة ومركـز قيـادة الحزب الشيوعي من جهة أخرى. ويرى غيرهم إنه يعود لأوامر جديدة وفورية كانت قد صدرت فعلاً لنقل إحدى الوحدات من بغداد إلى شمال العراق لدعم معركة السلطة ضد الحركة الكردية، وكان للحركـة في تلك الوحدة أنصار كثيرون. وأسباب أخرى مثل معرفة الثوار بوجود قرار لنقل وجبة كبيرة من الضـباط المعتقلين في سجن الرشيد العسكري إلى معتقل آخر بعيد وبدونهم لن يكون للحركة حظ بالنجاح، وهو ما نرجحه، وإن صَحَّ هذا الرأي فهو يفند قول هاني الفكيكي بأن رحلة القطار جاءت كرد فعل آني على سعي عارف والبكر وعبد الغني الراوي لقتلهم.

* في الجيش العراقي، ارتبطت البيرية بالجندي أكثر من الضابط، رغم إن كلاهما يسـتخدمها، لأن الأول يرتديها داخل وخارج المعسكر، في حين نادراً ما يضعها الضباط خارج معسكراتهم. وبسبب تلازم لفظي البيرية "وأبو خليل" وهو اللقب الذي يطلقه العراقيون على شخصية الجندي البسيطة الطيبة، طالت البيرية، في السنوات الأخيرة، بعض السخرية من جانب المواطنين نتيجة إلى ما آلت إليه حالة الجندي العراقي تـدريجيا خلال الأربعين سنة الماضية من هزائم ومن سخرية الضباط منه، خصوصاً بعد انقضاء العهد الملكي وسقوط

أوحت في أذهان الحراس البسطاء الدهشة والذهول فاستسلموا ورموا أسلحتهم أرضاً.

ولعل استسلام جنود الحراسة بسرعة ودون أدنى مقاومة يعود إلى عدم نسيان ما جرى في الأمس القريب، من الهيصة العنيفة التي رافقت إطاحة الملكية، ونجاح حركة ٨ شباط في إطاحة حكومة الزعيم عبد الكريم قاسم وإنزال العقاب الشديد بكل مَنْ قاومها أو حاول القيام بواجبه الرسمي التقليدي ضد ثوارها.

وكان نجاح حركة البيرية واستسلام الجنود، ظناً منهم إنها كانت سلاحاً موجهاً إلى صدورهم قد مَثَّل بداية انطلاق ما سمي فيما بعد "انتفاضة ٣ تموز أو حركة حسن سريع"، إذ تبعها فوراً اعتقال الثوار لعريف الخفر وضابط الخفر، واحتلال مدرسة الهندسة الآلية الكهربائية ومركز التدريب المهني، وكسر مشجب السلاح والاستيلاء على حوالي ١٥٠ بندقية سيمينوف نصف أوتوماتيكية جرى توزيعها بسرعة على الجنود الموالين. وكان أكثر جنود سرية الحراسة البالغ عددهم حوالي ٣٠٠ جندياً موالين لقيادة التمرد فالتحقوا بالحركة حسب الخطة المرسومة سلفاً.

سريع يطلق رصاصة البداية بنفسه

اشتعل المعسكر فوراً بعد الطلقة التنويرية، وبدلاً من الاستمرار في المبادرة المباغتة واحتلال كتيبة الهندسة قرر الثوار تجاوز هذا الهدف ووضعه خلفهم، وتركيز البداية

حكومة ١٤ تموز ١٩٥٨، فالعهد الأول حافظ على الجندي بعيداً عن السياسة، رغم استخدامه للجيش بين حين وآخر ضد المعارضة السياسية، والعهد الثاني تبنى الجيش ورفع من شأن الجندي، لكن الزعيم عبد الكريم ظل يخطب ويكرر في كل المناسبات عبارته الشهيرة: ليبق "الجيش فوق الميول والاتجاهات"، والاثنان "الملكية وعهد قاسم" جَهدا لإبعاد التنظيمات الحزبية من التفشي داخل القوات المسلحة، وحاولا وضع مؤسسة الجيش نسبياً خارج دائرة اللعبة السياسية. ولذلك نجد أصحاب الثقافة الشمولية يتهمون عبد الكريم قاسم باللعب على الحبال لمجرد رفضه لنداءات الاصطفاف مع قوة ضد أخرى اصطفافا تاما. ويذكر إن المعارضة الوطنية التي كانت متأثرة بالنمط السياسي اللينيني والناصري والعفلقي كانت قد استمرت في سعيها لبعث وتضخيم المشاعر الوطنية لدى أفراد الجيش العراقي، من أجل تمييزهم عن بقية أفراد القوات المسلحة (الشرطة والأمن) اللذان لا يَكُن لهما الشعب نظرة طيبة، بل لقد خاضا ضد تطلعات الشعب، بأوامر من الحكومات المتعاقبة، جولات دموية مؤسفة، ولا أقصد هنا تدخلاتهم لقمع القلاقل والمظاهرات الشعبية الاحتجاجية فقط، بل التدخلات المصيرية لتغيير ومصادرة إرادة المجتمع السياسية باستخدام القوة الغاشمة. وإذا كان الدافع الوطني والبحث عن حق المساهمة في السياسة الوطنية وراء أكثر الانقلابات، فلابد أن يكون إنقاذ سمعة الجندي فضلاً عن الأهداف المعتادة الأخرى وراء حركة الجنود العراقيين في ٣ تموز ١٩٦٣.

على أهداف أخرى، وكانت تلك واحدة من أخطائهم التكتيكية الكبيرة كما سنرى[1].

تلت طلقة البدء عملية توزيع المهام على قادة المجموعات، وأخذ كل عسكري مساهم دوره، ليبدأ بالتنفيذ ويتوجه بأقصى سرعة ممكنة نحو أهدافه:

ــ فذهب العريفان كاظم زراك وجليل خرنوب برفقة عدد محدود من الجنود لاحتلال الباب الشمالي للمعسكر وتم لهما ما أرادا باستسلام مفرزة الحراسة.

ــ وقبل النجاح في السيطرة على سرية حراسة معسكر الرشيد الرئيسية، تمكن بعض جنود السرية من قتل عدد من المتمردين (الثوار) بينهم عامل الكهرباء سعدون* الذي كان يرتدي بدلة عسكرية ويضع رتبة ضابط.

ــ وكانت المعركة التي دارت ضد سرية حراسة معسكر الرشيد حول باب النظام تعتبر أولى المعارك التي يسقط فيها ضحايا وكانوا جميعاً من الجنود الثائرين، ولكنها كانت معركة سريعة، تمكن الثوار بعدها بقيادة رئيس العرفاء كاظم البندر من إقناع المدافعين بالاستسلام مقابل تَفهم ورطة الحراس ورمايتهم، فتحقق للثوار السيطرة على الباب الرئيسية للمعسكر، وهو موقع استراتيجي مهم يتيح للثوار أسر كل الضباط الذين اعتادوا أن يبيتوا ليلتهم في منازلهم ببغداد، والعودة في الصباح الباكر إلى مقرات وحداتهم فيه، وبذلك أصبحت للثوار السيطرة على المداخل الرئيسية وأجزاء أخرى كثيرة من المعسكر، دون قتلى أو جرحى عدا مَنْ سقط منهم، دون قصد، في بوابة المعسكر المذكورة.

ــ توجه العريف كاظم شنوار ومعه رئيس العرفاء حسيب وجنديين لمعالجة شبكة التلفونات، فقطعوا الخطوط المباشرة المتصلة بالمعسكر، مع الاحتفاظ ببعضها ليستخدمها الثوار، واستخدموا لذلك سلماً خشبياً داروا فيه أنحاء كثيرة من المعسكر

١ ــ وفي هذا السياق يرى كل من زكي وسعاد خيري إن الخطة قد تغيرت من طرف حسن سريع، إذ بدلاً من التركيز على السجن رقم واحد، أعطيت بوابة الحراسة الرئيسية الأهمية الأولى. راجع كتابهما عن تاريخ الحزب الشيوعي الجزء الأول.

*سنلاحظ إن أسماء بعض المتمردين غير مكتملة مثل سعدون وحسيب وكاظم الذي احتل كتيبة الدبابات الأولى، والسبب إما نقص في المعلومات أو لأنهم جاءوا من مناطق أو معسكرات أخرى ليلة العملية فلم يعرفوا إلا بالاسم الأول الذي تقدموا به، ولما قتلوا لم يعرف رفاقهم عنهم غير فعلهم وطريقة موتهم واسما كانوا قد حملوه لساعات.

لفك أو قطع الأسلاك من الخارج. لكن رئيس العرفاء "حسيب" عبث في البدالة المركزية وبدلاً من النجاح في إبقاء بعض الخطوط مفتوحة لمصلحة الثوار أنجز مهمته بتعطيلها كليةً!

ـ وذهبت المجموعة المكلفة باحتلال مقر اللواء ١٥ فوجدت العريف كاظم فوزي قد أنجز المهمة، وكان فوزي، وهو شاب أسمر قصير وقوي البنية بلحية سوداء، بسببها أُطلق عليه أصدقاؤه لقب كاسترو، سجيناً مع مجموعة من رفاقه في مقر اللواء وبمجرد سماع ورؤية أنوار الطلقة التنويرية التي أطلقها حسن سريع بنفسه إيذاناً ببدء المعركة، بادر وجماعته الذين هم أساساً من أنصار الحركة إلى كسر باب السجن والسيطرة عليه، ثم على مقر اللواء ١٥ وكان المفروض حسب اتفاق مسبق مع قيادة الحركة أن ينتظروا حتى يأتي مَنْ يحررهم، لكن رغبة الخلاص واندفاع وحيوية الشباب استنفذا لديهم قدرة الصبر والانتظار.

ـ وفي واحدة من أخطر المهام تمكن العريف كاظم مع عدد من الجنود من الاستيلاء على كتيبة الدبابات الأولى واعتقال قائدها وعدد من الضباط الموجودين فيها، وظل ينتظر دون طائل وصول ضباط الدروع المعتقلين في السجن رقم واحد، من أجل وضع الكتيبة في سياق الخطة العامة للحركة وقيادتها.

ـ أما العامل وضابط الصف السابق عريبي محمد ذهب فقد توجه مع مجموعته نحو السجن العسكري رقم واحد لإطلاق سراح الضباط المعتقلين، وكان كغيره من قادة الحركة يعتقد إن الأمر سيجري بسهولة وروتينية. فما أنْ يُهَدِدَ حراس السجن حتى يسارعوا لفتح الأبواب من هول المباغتة. وفعلاً فقد وقف أمام مدخل السجن منادياً، يطلب استسلام الحراس حقناً لدمائهم. وبدلاً من التسليم دارت بين الطرفين معركة حاسمة سنذكر فيما بعد بعض تفاصيلها المهمة.

ـ وبسبب الارتباك المذكور في معركة السجن ظل الجنود المكلفين باحتلال قاعدة الرشيد الجوية، بعد سيطرتهم التامة على المطار والطائرات، ينتظرون عبثاً وصول الطيارين الذين يفترض حسب الخطة أن يكونوا قد تحرروا منه. وقد كان عدد الضباط الطيارين المعتقلين كبيراً، وربما أكثر من مجموع الضباط المنتمين للحزب الحاكم في القوة الجوية العراقية.

ـ كما كان قد التحق بالحركة عدد من المرضين من مدرسة التمريض العسكرية ومقرها مستشفى الرشيد العسكري يقودهم جبار شنافية وقريب له اسمه

"حسين" وكان أكثرهم شيوعيون أو ممن اختلط عندهم تأييد عبد الكـــريم قاســـم بالحزب الشيوعي.

مصادفات أزعجت أعصاب المتمردين

وهكذا وبسرعة أصبح أحد عشرة من أصل عشرين، هـــي مجمـــوع المقـــرات والمرافق والوحدات الأساسية الموجودة في معسكر الرشيد، تحت سيطرة المتمردين، وتم اعتقال الضباط الذين كان من المتوقع مقاومتهم. وماعدا السجن رقم واحـــد لم تكن المواقع الأخرى عصية جداً، بل تُركت لما بعد الانتهاء من معركة السجن.

وخُصصَت مجموعة مدنية يضع أفرادها إشارات علـــى أذرعهـــم لتســـاعد في الاستيلاءَ على جهاز اللاسلكي الموجود في مصلحة الكهرباء الوطنية القريبة، وعلى جهاز لاسلكي آخر متطور موجود في القوة الجوية من أجل استخدامه للبث علـــى موجة خاصة تستلمها إذاعة الحرية الواقعة على طريق سلمان باك، حيث كان قد تم ترتيب إمكانية دخولها لعدد من رجال الانتفاضة للسيطرة عليها، يعاونهم في ذلـــك مسؤول الحراسة فيها، ضابط الصف (م.غ)، لكنه منعهم من الدخول في آخر لحظة لأسباب فنية تافهة تتعلق بنوع التبليغ وبكلمة السر وما شابه ذلك، ولم يحصلوا على فرصة لإعادة الكرّة وتصحيح الأمر بسبب الارتباك والتطورات غير المناســـبة الـــتي حملتها للمتمردين معركة السجن العسكري رقم واحد المتعثرة، والتي كان بطلـــها حازم الصباغ (الأحمر).

وقد كانت في حوزة الثوار منذ البداية دبابة بـــرمائية وثلاث مدرعات كلفـــت بالتوجه إلى مرسلات الحرية لإذاعة بيانات الثورة. ويقول زكي خيري إن مهنـــدس الإذاعة كان يتعاطف مع الحركة.

ومن بين أسوء الأمور، كان تصرف عدد من الجنود المكلفين، حســـب الخطـــة الموضوعة، باحتلال مدرسة المخابـــرة الواقعة خلف السجن العســـكري، لأنهـــم تأخروا في التنفيذ بانتظار نتائج معركة السجن المتعثرة بســـبب مجاورتهـــا لهـــدفهم (مدرسة المخابـــرة)[1].

---

١ ـــ عثرت السلطات في جيوب بعض الجنود على عدد من البيانات والنداءات موقعة باسم " القيادة الثورية للجبهة الشعبية"، وتسمية الشعبية يلجأ إليها عادة الراغبون في التخفيف من قيود الأيديولوجيا، من أجـــل ←

في حين تصرف أنصار السلطة، بعد أن التقطوا أنفاسهم ووصلتهم النجدة من الخارج، إعلامياً داخل المعسكر بطريقة ذكية إذ استخدموا مكبرات الصوت لنقل برامج وبيانات ومارشات عسكرية مباشرة من إذاعة بغداد، للتأثير على معنويات القسم الأكبر من العسكريين، الذين عادة ما يظلون على الحياد حتى تبدأ إحدى كفتي الصراع بالرجحان.

معركة السجن العسكري رقم واحد
سجناء قلقون، يتركون للأذن والمنطق البسيط
مهمة تقدير ما يجري خارج زنزاناتهم

في ساعة مبكرة من الفجر حيث الوقت الوحيد المناسب للنوم في أيام تموز الحارة، ومع انطلاق الرصاصات الأولى، تعثرت دقات قلوب معتقلي سجن الرشيد العسكري رقم واحد، تلك الرصاصات التي سرعان ما تطورت إلى رمي شديد تَواصل بشدة متصاعدة خلال الساعات الأولى، ومع تصاعد الرمي كان الأمل وخفقان قلوب السجناء يتزايد. وبسبب عدم قدرتهم على استخدام كل حواسهم المباشرة والعقلية في الحكم عل ما يجري، ركزوا على السمع والمحاكمة المنطقية البسيطة، فمع صعود أو خفوت الرماية كان خفقان القلوب التواقة إلى الخلاص يرتفع أو ينخفض، خصوصاً وإن مصائر السجناء لم تكن، حتى تلك اللحظة، قد حسمت، بل كان خطر القتل مازال كامناً ويتهددهم في أية لحظة، من قبل بعض صقور السلطة الذين لا يبدو إن بالهم كان سيهدأ قبل التخلص وإلى الأبد، من خطر وجود الضباط المعتقلين على السلطة القائمة.

لكن وتيرة الرمي كانت قد بدأت تتغير مع وصول خيوط الشمس الحمراء الأولى، فأصبحت رغم ترددها وتغيرها هبوطاً وصعوداً في حالة انحدار تدريجي

توسيع التمثيل السياسي والاجتماعي ليشمل جنود ومواطنين غير شيوعيين، وفي تاريخ العراق محاولة سابقة قامت تحت اسم "جمعية الإصلاح الشعبي" أيام العهد الملكي وهدفها إسقاط الحكومة باستخدام القوة المسلحة وبتمثل فيها أغلب القطاعات الشعبية، ووافق على زعامتها جعفر أبو التمن بعد أن أقنعه كامل الجادرجي بجدية وخطورة الوضع، فحملت إلى السلطة بكر صدقي وحكمت سليمان وصالح جبر وناجي الأصيل، وتعاون لنجاحها طيف واسع ضم عبد الفتاح إبراهيم ومحمد حديد وحسين جميل وآخرين، وساندها جمهور واسع من أبناء الشعب العراقي.

متواصل، مما أربك حركة المعتقلين، وبعكس ما أَملُوا فقد طال أَمد المراوحة التدريجية إلى الخلف وأصبح مُملاً، وبدأ السامع يشعر بتراخي ووهن إرادة الطَلَق واضمحلاله وابتعاده، ثم انقطع نهائياً قبيل منتصف النهار بقليل[1].

حازم الأحمر كان خصماً عنيداً وغير متوقع

وكانت قوة من الثوار بقيادة عريبي محمد ذهب، وهو ضابط صف مطرود من الجيش لأسباب سياسية، قد توجهت إلى السجن رقم واحد لاحتلاله وإطلاق سراح مئات الضباط الشيوعيين والبارتيين وبعض العسكريين والسياسيين الموالين لعهد عبد الكريم قاسم، من أجل الاستفادة من قدراتهم وسمعتهم العسكرية والسياسية، واستثمار علاقاتهم ببعض زملائهم الضباط وهيبتهم بين الجنود، بعد توزيعهم على وحدات معسكر الرشيد ومعسكرات بغداد الأخرى.

ويذكر إن عريبي محمد ذهب هذا كان قد تسلل في منتصف ليلة ٣ تموز إلى معسكر الرشيد ونام فيه، وفي فجر اليوم التالي وضع رتبة ملازم على كتفه واتجه لإنجاز مهمته حسب الخطة الموضوعة والتي تصور إنها ستكون بسيطة وروتينية، لكنه وبدلاً من المباغتة وأخذهم على حين غرة، نادى على حراس السجن بأعلى صوته: **"أيها الأحرار أخرجوا فهذا يومكم، إننا نقوم بالثورة!!"**.

وهذا يؤكد :

---

١ ـــ يقول الضابط الدكتور رافد صبحي أديب بابان: بدأ الأمر مع طلقات "متسارعة وقوية بددت الهدوء الذي كان يسود المعسكر وبدأت أصوات أقدام مسرعة وهمهمات أشخاص يتراكضون بشكل يعكس اضطرابهم وهلعهم لما يحدث. وازداد أزيز الطلقات والمدافع الرشاشة. اقتربنا من حافة شبابيك الغرف التي كنا حبيسين فيها وسمعنا صوت العريف الذي كان مسؤولاً عن قاطعنا وهو يهمس بحذر قرب الشباك الذي كنت أتطلع منه إلى شارع السجن قائلاً: "سيدي.. ثورة.. إن شاء الله تنجحون". وناشدنا الحذر وعدم إظهار رؤوسنا فوق الشبابيك، ثم انتقل بهدوء إلى الغرفة المجاورة لينقل نفس الرسالة". ويضيف لكن: "الفضول يغلب الحذر! فتطلعنا إلى شارع السجن ورأينا حازم الأحمر آمر السجن وقد شحب لونه وهو يهرول تارة وينبطح تارة أخرى بنسبة تتراوح مع شدة الرمي وأزيز الرصاص، ويحث ضباطه الذين كانوا يدورون بلا هدف (...)، وسمعنا أحدهم يقترح قتل السجناء (أي نحن) قائلاً: "سيدي.. خلي ننهيهم هسة قبل أن تنجح الحركة". وبدأ صوت هدير دبابة يقترب فأسرع حازم الأحمر وزملاءه للاختفاء وراء حائط الغرف....." راجع الضابط الدكتور رافد أديب بابان، صفحة منزوعة من مذكرات ٣ تموز ١٩٦٣، مجلة المحرشة، تموز ١٩٩٣.

أولاً: اشتباه قيادة الحركة في أن جميع الجنود سيؤيدون حركتهم بمجرد سماعهم نداءها.

وثانياً: عدم تفريق الجنود الحركيون (القائمون بالحركة) بين التأييد بالعاطفة والتأييد بالفعل، وذلك جرَّ إلى ارتكاب خطأ التصور بأن المعارك يمكن أن تدار اعتماداً على التوقعات، وليس اعتماداً على خطة موضوعة ومدروسة سلفاً، خصوصاً في المعارك المهمة التي يؤثر نجاحها على خط سير المعركة كلها، كمعركة السجن التي يتوقف على نتيجتها مصير الحركة بكاملها. وأخشى أن تكون قيادة الحركة قد راعت في توزيع الأدوار لقيادة بعض المعارك المستوى الثقافي الأيديولوجي الماركسي اللينيني للمكلف بالمهمة أكثر من مراعاتها الخبرة والقدرة العسكرية.

وواضح إن الأمر لم يكن بالنسبة لعريبي محمد ذهب وجنوده أكثر من مناداة الجنود المتعاطفين قلبياً مع الحركة لغرض كسر باب السجن، ومن ثم اعتقال آمره وتحرير الضباط المعتقلين فيه، وتسليمهم شؤون قيادة الثورة!!

ولكن من أين لهم أن يعلموا بأنهم سيواجهون خصماً عنيداً لا يتراجع، خصماً أقسم أنه لا يستطيع الحياة مع الشيوعية في بلد واحد، وقد تأكد ذلك يوم دفع أخيه الشيوعي إلى الموت، ويوم أقدم على الانتحار في صباح ١٨ تشرين الثاني فوراً بعد أن قيل له بأن الشيوعيين يقودون الآن انقلاباً ناجحاً ضد ثورة ٨ شباط، فوجه على الفور فوهة مسدسه إلى صدغه وضغط الزناد، فمات قبل أن يستمع جيداً لبيانات الثورة الجديدة التي تهاجم قوات الحرس القومي وتتهمها بالحزبية المقيتة وبالشعوبية ومعاداة العروبة!!

وبدلاً من التحاق حراس السجن العسكري، جنوداً وضباطاً، بركب الانتفاضة، انتقلوا للتمترس خلف ساتر من أكياس الرمل ليعطوا لأنفسهم فرصة حساب الخسارة والربح، ثم استجابوا لنداءات الرائد حازم الأحمر المستمرة والمسموعة، وبدأوا مقاومة ضارية ضد الثوار بقيادته. وكان المقدم الأحمر قد أظهر حماساً غير متوقع وحرصاً شديداً على المقاومة، فتوسل بجنوده ووعدهم بمكرمات سخية وبرفعهم إلى رتبة الضباط إذا ما صمدوا بوجه التمرد، وأقسم للضباط بالترقيات والتكريم بلا حدود، فتحقق له ما أراد وتمكن من عرقلة سقوط السجن لفترة كانت مصيرية، وكافية لوصول دبابات من كتيبة الدبابات الرابعة الموالية لحزب البعث العربي الاشتراكي والتي تغير مقرها بعد ٨ شباط ٦٣ من معسكر "أبو

غريب" إلى القصر الجمهوري*. في حين ظلت كتائب الدبابات الثلاث الأخرى الموجودة في بغداد خارج الفعل، اثنتان منها لم تتحركا حتى اقتراب العملية من نهايتها، وواحدة سيطر عليها الثوار داخل معسكر الرشيد ولكن دون أن يكون لديهم أطقم فنية كافية لقيادتها.

كان يقود القوة الصغيرة المكلفة بحماية السجن رقم واحد الرائد حازم الأحمر[1]، أي إن معركة السجن التي توقعت "القيادة الثورية" للحركة إنها ستكون سهلة وروتينية، تمكن الرائد حازم الأحمر من جعلها مصدر ارتباك للحركة بكاملها، وقد استمر الارتباك إلى ما بعد وصول عبد السلام عارف بفترة طويلة نسبياً، مما أتاح وصول قوات أخرى من الحرس الجمهوري والحرس القومي وحينذاك أصبح ممكناً رؤية فشل وتراجع الحركة وانتصار المقاومة عليها، وبالتالي إطلاق سراح المسؤولين الأسرى وبينهم حازم جواد وطالب شبيب ومنذر الونداوي ونجاد الصافي وبهاء شبيب وآمر كتيبة الدبابات الأولى وسالم مريوش وعدد آخر من ضباط المعسكر البعثيين.

---

*ومن بين ضباط الكتيبة الرابعة البعثيين، هاشم السامرائي، رياض القدو، نعمة فارس المحياوي، سعدي طعمة الجبوري، محمد إسماعيل وفارس حسين وغيرهم.

١ ــ تسمية الأحمر اكتسبها حازم الصباغ بسبب لون شعره وبشرته الحمراء. قال عنه يونس الطائي: "كان حازم الأحمر ذا شخصية معقدة وسيئة، شرس يضرب المعتقلين ويعيدهم بعد جلسات التعذيب إلى زنزاناتهم محمولين على كيس من الجوت (كونية)"، ويضيف الطائي قائلاً: "عندما فشلت المفاوضات بين الزعيم عبد الكريم قاسم وقيادة انقلاب ٨ شباط وَصَلتُ إلى موقع بغداد عند العقيد (اللواء) عبد الكريم فرحان ثم انتقلت بمساعدة الضابط صلاح الطبقجلي إلى معتقل الخيالة ومنه نقلني العقيد رشيد مصلح التكريتي إلى السجن رقم واحد، وهناك اطلعت مباشرة على ممارساته القاسية ضد السجناء السياسيين، والتي كان يقوم بها متحمساً ومتطوعاً بغض النظر عن محتوى تعليمات رؤسائه [يونس الطائي، مقابلة شخصية مع المؤلف في دمشق في عام ١٩٩٩]. وفي كل الأحوال فقد كانت تصرفاته توحي بغرابة خاصة، وربما بثأر شخصي يربطه بالشيوعيين ويعود إلى الأحداث الدامية التي جرت في مدينته الموصل وراح ضحيتها من أطراف الصراع الوطني ضحايا كثيرون دون معنى، وبسبب ما تركه ذلك من تأثير على شخصيته اندفع بطريقة غير متوقعة وتمكن خلال المعركة من الصبر والصمود بوجه المهاجمين رغم قلة عدد ضباطه وجنوده. ومما يؤكد غرابة شخصيته، تنفيذه بنفسه قتل ضابط معارض كان فيما مضى صديقاً شخصياً له، وقد حصل ذلك عندما كانت معركة معسكر الرشيد قد انتهت، وعندما لم تكن هناك أية ضرورة عسكرية لتنفيذ القتل الفوري. ولم تمض على تلك الحادثة الدموية سوى أربعة أشهر ونصف حتى وضع بنفسه في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ حداً لحياته انتحاراً.

الضباط المعتقلون بين السلبية وانتظار النتائج

أما الضباط المعتقلون فلم يفعلوا كما فعل العريف كاظم فوزي بل اكتفوا بالانتظار، وهو أمر يصدقه رأي حازم جواد حول ضعف معنويات الضباط المعتقلين، وربما يؤكده أيضاً موقف قيادة الحركة في عدم إشراكها للضباط في ما أقدمت عليه. في حين يرى الضابط الطيار عبد النبي جميل إن الضباط كانوا سيشاركون دون تردد بحركة حسن سريع، وإن ترددهم في كسر أبواب قاعات سجنهم كان بسبب عدم معرفتهم لحجم ما كان يجري فعلاً في الخارج، ولأنهم كانوا يتوقعون أن تحصل الحركة يوم ١٩٦٣/٧/٥، إذ كان هناك اتصال فوري بين المعتقلين وقيادة الحركة عن طريق اثنين من حراس السجن العرفاء، وربما تكون قيادة الحركة قد أخطأت، بسبب ضيق الوقت، عندما لم تبلغ الضباط المعتقلين بنتائج اجتماع كوخ كمب سارة مما أسهم في حيرة وارتباك الضباط.

وفي هذا السياق يقول عبد النبي جميل: "لقد فكرت مجموعتنا جدياً بكسر باب السجن، ولم يكن هناك ما يمنعنا من فعل ذلك، وأظن إن جميع نزلاء السجن كانوا قد فكروا بنفس الطريقة، ولم يؤخرهم سوى عدم وضوح صورة ما كان يجري كماً وكيفاً في الخارج، فآثرنا الانتظار"[١].

في حين يرى التقرير الخاص الذي رفعه هاشم الآلوسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي؛ إن عذر الضباط المعتقلين بعدم كسر باب السجن بأنهم لا يعلمون من هو القائم بالحركة، إنما هو عذر "مردود حيث إننا حرصنا على إخبارهم قبل فترة بأننا ننوي القيام بالحركة في موعد محدد"[٢].

وكان نزلاء السجن مقسمون إلى ست مجموعات كبيرة شبه منفصلة عن بعضها، فضلاً عن زنزانات منفردة كثيرة.

ولا أحد يعرف ما الذي منع الجنديين (العريف س، والجندي الأول ص) العاملين ضمن حراسة وإدارة السجن، والمكلفين من قبل "القيادة الثورية" باعتقال أو حتى قتل ضابط الحراسة وكسر مشجب السلاح وتوزيعه على حوالي ١٢٠٠ معتقلاً بعد فتح أبواب الردهات، من تنفيذ مهمتهما التي تطوعا للقيام بها؟ وربما يكون الخوف

١ ــ الملازم الأول الطيار عبد النبي جميل، اتصال مباشر مع المؤلف عام ٢٠٠١.

٢ ــ هاشم الآلوسي، سننشر نص التقرير على شكل ملحق في نهاية الكتاب.

وراء تخلفهما، لكنهما، على أية حال، حاولا فيما بعد، على المستوى الشخصي على الأقل، التعويض أو التكفير عن تقاعسهما وعن ما تسببا فيه من خسارة لا تعوض، بتقديم خدمات جليلة إلى الجنود (سجناء الانتفاضة الفاشلة) الذين حلّوا معتقَلين محل الضباط المرحلين إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي.

وقد تفاقم الأمر أكثر عندما وصلت دبابة العريف راضي كاظم شلتاغ، وهو أحد أعوان حسن سريع، إلى السجن لكن قائدها بدل أن يرمي المدافعين عن السجن أو بوابته، استدار بدبابته نحو رفاقه موجهاً نار مدفعها نحوهم، فأحدث ذلك ارتباكاً بين صفوف الثوار، وأتاح للرائد حازم الأحمر أن يستثمر الوضع الجديد لرفع معنويات ضباطه بعد أن كاد عقدهم أن ينفرط، فجمع شملهم "وهاجموا الثوار الذين كانوا ينتظرون اختراق الدبابة لبوابة السجن لكي يقوموا بهجومهم لتحريره.. وبدلاً من ذلك أصبحوا هم الفريسة نتيجة خيانة رفيقهم سائق الدبابة الجبان"[١].

وقد أدى تأخر أو تلكؤ السيطرة "على السجن العسكري رقم واحد إلى نتائج وخيمة على العملية بكاملها، ومن بين أهمها تعثر سيطرة الثوار على مقر كتيبةالهندسة "حيث كان العديد من الضباط الأحرار سجناء فيها"[٢].

ويقول نعيم الزهيري الذي اشترك مع حسن سريع بزنزانة واحدة إن الأخير بصق على كلٍ من راضي كاظم شلتاغ وخلف رحيمة عندما التقى بهما في معتقل رقم واحد قائلاً: "بدلاً من تنفيذ الثورة قمتم بسحقها بالدبابات"[٣]، ويذكر إن الأول أحبط بتردده الهجوم على السجن، والثاني قاد دبابة عبد السلام عارف دون أن يفعل شيئاً لعرقلته.

بين حبيب ونصرت وصدام حسين

يقول حسين الركابي الذي كان معتقلاً مع مجموعة من رجال انتفاضة معسكر الرشيد وبينهم محمد حبيب وجميل الخشالي وهادي حسن في السجن العسكري "رقم واحد" عام ١٩٦٤، إن هؤلاء أخبروه بأن خلف رحيمة (أو راضي شلتاغ) لم

---

١ ــ نعيم الزهيري، اتصال شخصي مع المؤلف، في عام ١٩٩٩.

٢ ــ الدكتور رافد صبحي أديب، صفحة منـزوعة من مذكرات ٣ تموز ١٩٦٣.

٣ ــ نعيم الزهيري، رسالة خاصة.. مصدر سابق.

يكن خائناً، بل أوقعه أحد العرفاء في خطأ، فضرب جماعته بقذيفة من دبابته، فأربكهم وأوقع الذعر بين صفوفهم، في حين أنعش ذلك عدوهم وأعطاه وقتاً ضرورياً للتصرف، وأيضاً لوصول النجدة قبل أن يتمكن الثوار من حسم المعركة لصالحهم.

ويضيف الركابي إن قائد الفرقة المدرعة الرابعة العميد الركن عبد الكريم مصطفى نصرت، الذي اقتيد لنفس المعتقل بعد ١٩٦٤/٩/٥ بتهمة تدبير انقلاب عسكري لمصلحة حزب البعث العربي الاشتراكي ضد حكومة عبد السلام عارف، دار بينه وبين جماعة حسن سريع الموجودين في نفس الردهة، حوار قال فيه نصرت رداً على تهمة تعاون البعث مع أمريكا، وعلى تصريح علي صالح السعدي حول القطار ذي الماكينة الأمريكية: "إن قيادة البعث العسكرية لم تكن تخلو من الألغام، ولكننا سنعود إلى الحكم وسنُكَفر عن الأخطاء السابقة".

كما كان الملازم الأول الطيار عبد النبي جميل الذي كان مع نصرت والآخرين بنفس المعتقل ونفس الفترة قد قال لمؤلف الكتاب "إنه التقى بالعميد المظلي الركن عبد الكريم مصطفى نصرت في المعتقل رقم واحد بعد محاولته قيادة انقلاب ضد حكومة عبد السلام عارف في ١٩٦٤/٩/٥ وبعد جلسة عتاب معه أقسم نصرت: "بشرفي لو جئتم إلى السلطة وقتلتمونا بالدبابات، سيكون ذلك من حقكم، لأنه لم يبق شيء لم يستخدم ضدكم".

وقد أدى الحوار الهادئ بين نصرت وبين جماعة انتفاضة الرشيد إلى سيطرة أجواء معقولة ومشاعر مَنْ يشتركون في قضية واحدة أو سجن واحد. ولكن وبعد فترة قصيرة حصل بينهم ما عكر الصفو نسبياً فقد وقعت مشادة بين السجناء ومدير السجن، الذي كان يستخدم أسلوب "فرق تسد"، فقررت كل جماعة سياسية من المعتقلين انتداب ممثل عنها، فوقع اختيار البعثيين على صدام التكريتي (رئيس الجمهورية فيما بعد، وهكذا كان يدعى آنذاك) وقدروا إنه يجيد التعامل مع إدارة السجن، فوقف مخاطباً مدير السجن (العقيد علي الأشقر) قائلاً: **"نحن ثوار ١٤ رمضان رفعنا رؤوس الضباط وكنتم قبلها تُقَبِّلوا حذاء عبد الكريم قاسم، والآن أصبحتم أبطالاً علينا"، وأضاف: "سنعود للحكم قريباً ونحاسب المقصرين"**[١].

١ــ حسين الركابي، لقاء شخصي مع المؤلف بدمشق عام ٢٠٠٠.

وربما يكون مضمون وطريقة حديث صدام حسين ناجحاً في إغضاب مدير السجن، لكنه عكر صفو العلاقة التي كانت قد بدأت تتحسن مع بقية المعتقلين السياسيين وبشكل خاص جماعة الانتفاضة، الذين يعتقدون إن التفاخر بحركة ٨ شباط يعني عدم وجود رغبة حقيقية للمراجعة، ويعني إن الأمر بكل ما رافقه من فوضوية وتجاوزات سيتكرر إذا ما عاد البعثيون إلى السلطة مرة أخرى.

ويذكر إن معتقلين آخرين، أصبح لهم فيما بعد وضع سياسي خاص، كانوا موجودين وربما شهوداً على حوار نصرت وحبيب وصدام، مثل فارس حسين الذي أصبح فيما بعد عضو مكتب عسكري ثم سجين، وعدنان شريف التكريتي وأصبح قائداً للحرس الجمهوري ثم قُتل، وكريم الشيخلي وزير خارجية ثم قُتل، وحسن العامري وزير، وصلاح عمر العلي وزير ثم لاجئ، وحامد الدليمي قُتل، ومظهر الخيزران، وصفاء الفلكي، الذي أصبح سفيراً ثم لاجئاً وغيرهم كثيرين، وهؤلاء عدا صدام حسين نُقلوا من معتقل التاجي، وتخلف هناك أحمد حسن البكر وموفق غنام وعماد شبيب وآخرين. وفي نفس السياق يقول صفاء الفلكي: وعندما أصبحت معاملة إدارة السجن سيئة تبرع صدام حسين دون تكليف من قبلنا بالحديث مع مدير السجن بطريقة فيها كثير من التحدي، وأضاف لقد تبرع بذلك دون أن يكون مرَّحباً به من قبل المعتقلين، لأنه كان قد صادق على الاعترافات التي أعطاها كريم الشيخلي وسلم فيها كمية كبيرة من الأسلحة، و لم يكن الاعتراف ولا تصديقه مقبولاً لدى البعثيين.

كتيبة الدبابات الأولى

كانت هذه الكتيبة واحدة من أهم الأهداف التي ركز الثوار منذ زمن على كسب جنودها، و لم يقرروا موعد الحركة بكاملها إلاّ بعد أن تأكد لهم قدرة أنصارهم حتماً على احتلالها، إذ ظل أنصار الحركة في الكتيبة يدرسون ويُقَوِّمون يومياً خطتهم للسيطرة عليها. أما أهميتها ضمن الخطة الكلية للحركة فلأنها كانت ستكون رأس الحربة والذراع القوية التي تستند إليها كل الصنوف المساهمة في التحرك الانقلابي.

قاد عملية الاستيلاء على هذه الكتيبة بكاملها العريف كاظم ومعه أحد عشر شخصاً، وقد تم لهم ذلك بسهولة ووفق ترتيب سابق ومحكم، فاعتقلوا قائدها وعدد

من ضباطها الموجودين، وتعاون معهم الجنود وضباط الصف الفنيون في إعداد بعض الدبابات وتهيئتها، وكذلك ترتيب مقر الكتيبة ومركز قيادتها انتظاراً لوصول الضباط المفترض إطلاق سراحهم والذي ينتمي العشرات منهم إلى صنف الدروع، وهؤلاء كانوا سيكَلَّفون من قبل قيادة التمرد فنياً وعسكرياً بالإشراف على وضع خطة لدمج قوة الدبابات بجهد الحركة العسكري الكلي، وعلى توزيع المهام والأهداف التي ستتوجه إليها، وقيادتها بأنفسهم.

وبسبب تأخر احتلال السجن رقم واحد، ازداد قلق الجنود واستبطئوا وصول الضباط المحرَّرين من السجن، فقرر عدد منهم وعلى رأسهم قائد العملية العريف كاظم (أُعدِم)، الذهاب إلى مركز قيادة التمرد للاستفسار عن أسباب التأخير وأخذوا معهم أسراهم (آمر وضباط كتيبة الدبابات الأولى)، لكنهم فوجئوا بكمين تابع لكتيبة الهندسة[1]، فتم أسرهم وتحرير أسراهم من ضباط كتيبة الدبابات الأولى، ولم يكن ما حصل سوى واحدة من النتائج السلبية التي نجمت عن تجاوز الثوار عند بدء حركتهم لكتيبة الهندسة وتأجيل احتلالها. وتجدر الإشارة إلى أن عملية احتلال كتيبة الدبابات الأولى وأسر قائدها ومساعديه قد تمت وانتهت دون قتل أو جرح أحد.

آمر الحرس القومي ونائبه في الأسر

كان أول من علم بالحادث، حسب رواية مقدم الجو منذر الونداوي، هو الملازم الأول أحمد العزاوي، وكان ضابط خفر في مقر القيادة العامة للحرس القومي بالأعظمية، الذي اتصل بمنذر ليبلغه: "إن مسلحين يهاجمون محطة الكهرباء الوطنية في معسكر الرشيد وإن الحرس القومي يقاومهم"[2]. فرد الونداوي: "شجعهم على

---

١ ـــ كان يفترض أن يسيطر الثوار على كتيبة الهندسة منذ البداية، ولكن لا يُعرف ما الذي حصل وتسبب في إهمال قيادة الانتفاضة لأمر احتلالها. وفي كل الأحوال فقد أدى بقائها بيد أنصار حكومة ٨ شباط إلى عرقلة وإحباط الكثير من أعمال التمرد، ويرى زكي وسعاد خيري في كتابهما "تاريخ الحزب الشيوعي العراقي" الجزء الأول، إن مرتكب الخطأ في هذه القضية كان حسن سريع.

٢ ـــ رسالة من منذر الونداوي للمؤلف في ٢٠٠٢/٢/٢٢، وكانت ليلة ٢/٣- ٧- ٦٣ هي موعد احتماع مجلس قيادة الثورة فحضره وذهب بعد منتصف الليل مع بعض ضباط القيادة العامة لقوات الحرس القومي للعشاء في مطعم "فرج"، ثم إلى مقر القيادة ومنه إلى دار أخته خلف كلية الآداب لينام، و لم يمض وقت قصير ←

المقاومة وأنا قادم فوراً". وخلال دقائق كان منذر في مقر قيادة الحرس يطلب من عامل البدالة أن ينذر كافة مقرات الحرس القومي وخصوصاً المحيطة بمعسكر الرشيد كالكرادة وتل محمد ليتوجهوا إلى المعسكر. ويضيف منذر: "أخرجت من درج مكتبي قائمة التلفَونات السرية وأشّرتُ بسرعة كافة القطعات المهمة والمسؤولين وطلبت من أحمد العزاوي المباشرة بتبليغهم، وكانت القائمة تشمل الانضباط العسكري، استخبارات، نجدة، أمن، كتائب الدبابات، حرس جمهوري...إلخ مع وزير الدفاع ورئيس الوزراء وقطعات من معسكر الرشيد كاللواء ١٩ والمظليين".

ترك أمر التبليغات لأحمد العزاوي، واصطحب معه الملازم احتياط الذي وصل تواً خليل العزاوي (عميد ومدير الاستخبارات العسكرية فيما بعد) وانطلق يقود سيارته بأقصى سرعة نحو معسكر الرشيد، وكان يحمل مسدس نمرة ٦ في جيبه الخلفي ويحمل خليل العزاوي غدارة "بور سعيد". ويقول الونداوي: "اقتربت من معسكر الرشيد وأنا أحمل في ذهني إن الهجوم يستهدف محطة الكهرباء الوطنية فقط، وبدا لي إن المعسكر طبيعي حيث انتشر أمام بابه النظامي وفيها وداخلها جنود باللباس الرسمي ويحملون بنادق نظامية كلاشنكوف، وكان بين المجموعة في الباب شرطي يحمل مسدساً رسمياً أيضاً. لم يوقفني أحد أنا ترجلت لأسأل عن الموقف"(١).

كان منذر متعباً و لم يدرك أن ما شاهده كان كميناً بل قدَّر إن أحد الضباط الخفر نشر قواته بهذه الصورة بعد أن سمع الرمي في مصلحة الكهرباء الوطنية، وكانت خطته أن يأخذ أو يسيطر على قطعة عسكرية من المعسكر ليطهر بها المصلحة من المهاجمين، وفي المقابل حار الجنود لمشهد المقدم الطيار ورفيقه الملازم الأول، وظهر فيما بعد إنهم كانوا ينتظرون وصول نجدة من وحدات أخرى فتصوروهما طلائعها. لكن المقدم الطيار منذر الونداوي لاحظ فوهة بندقية أحد الجنود مصوبة نحوه وقريبة جداً من وجهه ويصرخ مرتبكاً "سيدي هذه ثورتنا نفديها بالدم.."، لم يلتفت منذر لصراخه بل ضرب بندقيته بالقرب من الفوهة ليحرفها، وزجره على طريقته في حمل البندقية. وحينذاك، ومع اتضاح الصباح، بدأ الجنود

"لا أستطيع تقديره الآن وإذا بالضابط الخفر الملازم الأول أحمد العزاوي يتصل على التلفون السري ليبلغني....". وكما يبدو كانت تلك خدعة من ثوار المعسكر لاستدراج قائد الحرس القومي ومساعديه.

١ ــ المقدم الجوي منذر الونداوي، رسالة مصدر سابق.

يتقاطرون "حتى صرنا وسط بحيرة من الكلاشنات"، لكن ذلك الجندي ظل يصرخ "هذه ثورتنا".

وأثناء ذلك صاح أحد الجنود القادمين من الخلف " هذا هـو الخـائن منـذر الونداوي"، فأدرك منذر الخطر الذي يحيط به، وكان عليه أن يتصرف بسرعة، وفوراً سأل الجندي الذي كان يردد إنها ثورتنا: "متى قامت ثـورتكم؟. أجـاب اليـوم. فعاجله: أين آمركم؟ قالوا إنه في الداخل يفتش. قال: خذوني إليه". فسـار منـذر للأمام، إلى عمق المعسكر بعد أن سلمهم مسدسه وغدارة رفيقه لأنه قَدَّر أن السلاح قد يشجع على قتال غير متكافئ في لحظة ما، والبقاء بدون سلاح سيجعلهما أعقل، وسار خلفه حوالي عشرة جنود حاملين بنادق، وكان الطرفان هادئين، وطلب منذر من رفيقه خليل العزاوي أن لا يقول ولا يفعل شيئاً غير ما يقوله هو، فالتزم بذلك.

يضيف الونداوي: "عندما وصلنا إلى ما يجاور مدرسة التدريب المهـني والـتي انطلقت منها حركة حسن سريع، عَبـرَ باتجاهنا جندي نشط السير يلوح ببندقيـة وينشد بيتاً للجواهري:

الشـعب في جـزع فـلا تسـتبعدوا
يومـاً تثـور بـه الجيـوش وتزحـف

وكان لهذا النشيد الثوري وقع شرارة نار على الهشيم فصاح أحد الذين خلفنـا: وين نودّيهم؟ خلينا نقتلهم، وسحب أقسام البندقية. لم نجبه بل بقينا نسير والعجيب إن أحداً لم يجبه حتى المنشد". يقول منذر: "في تلك اللحظة تمنيت لو أنـني فـوق صاروخ لأنطلق فيه إلى السماء هرباً من وابل الرصاص الـذي كـان سـيخترق ظهري.. لكنني وبكل هدوء أيضاً لم أجادله أو أرجوه أو أهرب فكلها أمور كانت ستثير غريزته القتالية أو سمها القتلية"[1] وقد فعل خليل الشيء نفسه.

ويستمر الونداوي: "وتشاء الظروف وحسن الحظ أن تتقدم نحونا سيارة قيـادة عسكرية وبسرعة تقف أمامنا وينـزل منها ملازم أول (قاسم محمد*) وقد ظهـر بكل وضوح أثر خيطين منـزوعين عن ذراعه وبقي اللون الأصلي للبدلة بـارزاً..

---

١ ـــ المقدم الجوي منذر الونداوي، رسالة... مصدر سابق.

* الاسم بين القوسين من المؤلف.

صاح بالجنود: لماذا هذا العدد خلفه؟ وبادرني: سامحنا مقدم منذر هــذه إجــراءات ثورة. سألته: إلى أين نحن ذاهبون؟ قال: إلى التوقيف مؤقتاً، وأوصى لي بغرفة خاصة، فاعتذرت لصعوبة قضاء الوقت وحدي وبأني أفضل أن أكون ضمن المجموع فوافق فوراً. بادرته بالقول: أني لا أشك بأنك تحب رفاقك وتحرص على ســلامتهم.. أود أن أفيدك بأنكم لا تملكون فرصة للنجاح وإن قوات هائلة قادمة نحوكم فاســحب جماعتك وأهرب بهم لتنجوا وتنجيهم. فأجاب: أنهم يتحملون المسؤولية وأنهم أهــل لها... فقلت: أنني أرحت ضميري، وأود أن أعيد عليك الطلب وأن تعتبــره كــل الصدق والنــزاهة. فكرر: سنتحمل المسؤولية مهما كان الثمن... فقلت إذن خذونا إلى السجن"[1]، وقد حصل ذلك.

وكان السجن ضمانة معقولة للبقاء على قيد الحياة حتى تصل القوات التي أبلغها الونداوي قبل مجيئه ليفوت بتصرفه الذكي على الثوار أهم عناصــر النصــر في أي انقلاب عسكري وهو المباغتة واستكمال أهم الترتيبات قبل أن يتنبه العدو للخطــر المداهم.

وكان الثوار قد استخدموا بناية مدرسة التدريب المهني ربما لأنها جديدة ولــيس فيها أثاث، "وكان آمر السجن شاب ذو لحية سوداء يطلق عليه جماعته اسم كاسترو (كاظم فوزي*). وكان في السجن حوالي ثلاثين ضابطاً وضابط صف..". وكــان أول عمل قام به الونداوي هو التخلص من الرتب وجناح الطيران والقبعة، والبحث عن منافذ للهرب ولما تأكد عدم وجودها قرر أن يحول ذلك النقص إلى عامل مفيد، ففكر أن يغلق باب السجن من الداخل عندما يتطلب الأمر، فلم يغلق الباب فــوراً لأنه توقع وقوع أسرى آخرين في الفخ. وبالفعل كان أول من وصل نائــب قائــد قوات الحرس القومي النقيب نجاد الصافي الذي وصل المعسكر بمفرده فأوقف سيارته خلف سيارة منذر أمام البوابة الرئيسية وسأل عنه، وبذلك كشف عن نفسه وصار صيداً سهلاً وسط غابة من الجنود المسلحين، "ووصل بعد نجاد ضباط آخرون منهم صاحبي معلم الطيران دريد إبــراهيم مظلوم (يعيش في انكلترا حالياً) وكان أكثــر الأسرى الموجودين معنا من ضباط القوة الجوية، لأن التدريب في تموز يتم مبكراً جداً

١ ـــ المقدم الجوي منذر الونداوي، رسالة، نفس المصدر السابق.

* الاسم بين القوسين من المؤلف.

بسبب حرارة الطقس، ووصل عدد المعتقلين إلى ٥٠ عسكرياً" وأضاف الونداوي: "لم نسمع كلمات نابية، و لم نلق معاملة سيئة، فقد كان السجان والسجين عقلاء، ويظهر إن كلا الطرفين كانا مقتنعين إن الحل والعقد ليس في السجن"[١]. وعذراً من الونداوي فمراقبة خط الحدث تثبت إن العاقل كان الجنود، فعندما تمكن الضباط قتلوهم بلا رحمة، و لم يفعل الجنود ذلك عندما كانوا قادرين، إلاّ إذا كان المقصود التصرف الحكيم الذي أظهره منذر والذي ظل بحسب رأيه مستاء لعدم تمكنه من إنقاذ بعض الجنود وبشكل خاص قاسم محمد[٢].

يضيف الونداوي: طال انتظارنا داخل السجن و لم نسمع تبادل إطلاق نار جدي يشير إلى بداية معركة حتى خُيِّل لمنذر الونداوي إن الثوار استجابوا لنصيحته وبدأوا بترتيب الانسحاب والنجاة، "وكانت قد مرت أكثر من ساعة ونصف ونحن في السجن عندما سمعنا أصوات أول الدبابات تدخل المعسكر ولكن لم تُثر ولا طلقة واحدة، وكان ذلك أمراً محيِّراً إلاّ أنني علمت فيما بعد أن الدبابات حيَّت الجنود الواقفين على جانبي الطريق، فصفق لها الجنود وهي تمر أمامهم (وهنا أقصد دباباتنا وجنود حسن سريع)، كلٌ تصور إن الآخر من جماعته، وكانت نقطة ضعف جماعة حسن سريع وقاسم محمد إن قواهم كانت موعودة بالتحاق قوات وأفراد من خارج المعسكر، وما في السجن من ضباط".

ومن الصوت قدَّر الونداوي إن الدبابات كانت في حالة حركة وقد ظلت تهدر ذهاباً وجيئة وتغير موضع هنا وهناك، لكن بلا رصاص. "ثم فجأة انطلق الرمي واستمر طويلاً وتقطع وتوقف.. كان هذا هو بداية نزول الحرس القومي من طرف سدة تل محمد ودخول قوات الحرس الجمهوري من الباب النظامي.. وكانت

---

١ ـــ الونداوي، مصدر سابق.

٢ ـــ سألت منذر الونداوي قائلاً: "وقعت أنت وحازم وطالب ونجاد وآخرين في الأسر، وأنتم تمثلون ذراع الدولة الأمنية (وزارة الداخلية والحرس القومي)، لكن الجنود لم يقتلوكم، فهل يمكن اعتبار ذلك دليلاً على أنهم غير راغبين في القتل؟". أجاب برسالة خطية: "من الصعب الجزم، فبعد قيام الثورات ونجاحها يكون أبوها وابنها شبه غريب، ويسود أو يحاول أن يسود أناس لست بعارف مَنْ هم؟ هناك لوبيات جاهزة كالصقور فوق التلال تنتظر القنص، ويصبح الثائر (وهو مغتصب للسلطة عملياً) بحاجة إلى مَنْ يحمي الوضع الجديد، وبحاجة إلى منْ يُرضي غروره ونزواته، وتعود الأمور من جديد تنسج خيوط وقوانين للثورة أو الحركة أو الردة القادمة، سمها ما شئت، ولا أريد أن أدافع أو اتهم أحداً، لكن بالتأكيد لم يكونوا أولياء ولا مجال لأنبياء بعد خاتم النبيين".

معركة ليست طويلة وانتهت في مكانها حول السجن العسكري والباب النظامي وأمام المعسكر... إلاّ أن حالنا لم يتغير وبقينا على هذه الحال لفترة تقرب من نصف ساعة... كل ما تغير هو إن السجانين كانوا قد أصبحوا ألطف والوجوم بادٍ على وجوههم. إنهم يخرجون ويشاهدون أكثر منّا، ثم يعودون.. ولأنني كنت أكبر المعتقلين رتبة ومركزاً فقد ترك المعتقلون الأمر لي للتصرف، فقررت الإبقاء على حالة الاحترام المتبادل والتهيب المتبادل".

وبعد فترة ليست طويلة من الحيرة، تجدد الرمي وأخذ يقترب من المعتقل ثم بدأ يزخ باتجاهه، فطلب منذر من الجميع الدخول للغرف والاستناد إلى الجدران خشية أن ينتقل القتال إلى ساحته ثم يصيب المعتقلين من الشبابيك المطلة على الساحة. وبعد لحظات دخل عسكر الحكومة "يقود حملتهم علاء الدين الجنابي (مساعد الونداوي) ويقود صولتهم صباح المدني الذي لم يتوقف إلا ورجله فوق صدر كاسترو (كاظم فوزي) الذي حمى نفسه بأن رمى سلاحه واستلقى على ظهره". ويقول منذر: "لم يعتدي أحد على الأسرى و لم يقتل أحد"(١).

اللقاء الثاني بين منذر الونداوي وقاسم محمد:

وفوراً ذهب الونداوي إلى مقر اللواء ١٩ وكان هناك رئيس الأركان طاهر يحيى التكريتي وعدد كبير من الضباط ففطر معهم، وكان الجميع قد يئسوا من بقائه على قيد الحياة ففتشوا عنه حتى في الخرائب، فذهب كل أعضاء مجلس قيادة الثورة و لم يبق غير طاهر يحيى. وعندما سأل منذر عن الملازم الأول قاسم محمد قيل له إنه الآن في مقر قيادة القوة الجوية، "فذهبت ووجدت القائد حردان التكريتي وعدداً من الضباط، وكان قاسم محمد مكتوف اليدين من خلف ظهره، فربّت على كتفه ومررت يدي فوق شعره وقلت: ألم أقل لك يا أخي أن لا أمل لكم، فمن ورطكم هذه المغامرة. فقال: والله سيدي غشّونا. فأوصيتهم به وأوصيته أن يتعاون مع التحقيق حفاظاً على كرامته وسلامته بعد أن ضاع كل شيء".

وفي مكان آخر من الرسالة الخطية يلخص منذر الونداوي: "عَرَفتني جماعة حسن

١ – المقدم الجوي منذر الونداوي، مصدر سابق.

سريع منذ الدقائق الأولى، وعرفني قاسم محمد فور رؤيته لي واعتذر عن اعتقالي، وعدا عن نعت أحدهم لي بالخائن، وسحب آخر لأقسام بندقيته دون أن يؤيده أحد، فقد سادت محبة واحترام بيننا. ومن جانبي فقد رفضت الإدلاء بشهادتي ضدهم كمتمردين ممسوكين بالجرم المشهود... وبعد أكثر من شهرين جيء لي بأحدهم وكان محكوماً بالإعدام غيابياً وقد أمسكت به قوة من الحرس القومي في قرى الفرات الأوسط، شكرت الحرس وصرفتهم، وبعد أن تأكدت أنه يستطيع أن يعيش في منطقة خاله، أعطيته عشرة دنانير وقلت له اذهب وإنْ تَعَرَض لك أحد قلْ لهم إن القائد بعثني في مهمة خاصة... ربما أردت بذلك التعبير عن عجزي عن إنقاذ قاسم محمد، فأرحت ضميري بذلك العمل، لأن المرء بعد التعمق في مسيرة الحياة يدرك بسهولة إن الأسوأ بين البشر غير موجود خصوصاً عندما يطغى الجرب السياسي ويصبح الكل يخشى الكل ويريد أن يلغيه"، **لكن منذر قال: لكني أشهد إن جماعة السريع كانوا "غير راغبين في القتل"**[١].

وزيرا الداخلية حازم جواد والخارجية طالب شبيب في الأسر

أثناء ذلك وفي ساعة مبكرة من صباح ٣ تموز ٦٣، رنّ جرس التلفون بدار وزير الخارجية طالب شبيب ليأتي صوت وزير الداخلية حازم جواد من الجهة الأخرى ويطلب إيقاظ شبيب وإبلاغه بأن الشيوعيين قاموا بحركة تمرد في معسكر الرشيد، وإنه علم بذلك من مكالمة هاتفية وصلته إلى منزله من أحمد العزاوي عضو القيادة العامة للحرس القومي لإبلاغه بما حصل، وعلى الفور اتفق حازم مع العزاوي أن ينتظره مع ما يتوفر من حراس قوميين في ساحة الفتح، وهي أقرب ساحة إلى معسكر الرشيد، كما أبلغه أن تعلن القيادة العامة للحرس الإنذار وتطلب من أفرادها الخروج إلى الشوارع.

حازم جواد ينزعج ويتبرم رغم تحسن الموقف

وبعد ذلك بقليل وصل حازم وأخوه الملازم الأول حامد جواد (المسؤول الحزبي

---

١ ـ منذر الونداوي، رسالة خطية... مصدر سابق.

للقوة الجوية العراقية) إلى دار طالب شبيب يرتديان زياً عسكرياً، ومنها أجرى حازم جواد اتصالاته بوزارة الدفاع فلم يجد الوزير صالح عماش، واتصل بالقصر الجمهوري فلم يجد رئيس الجمهورية عبد السلام عارف ولا رئيس الوزراء أحمد حسن البكر، لا في مكتبيهما ولا في مقر إقامتهما داخل القصر "المنامة"، واتصل برئيس الأركان طاهر يحيى التكريتي فلم يجده، لكن نائب رئيس الأركان خالد مكي الهاشمي أخبره إن الأمور أصبحت تحت السيطرة بعد أن أعطاه حقيقة الموقف وبعض التفاصيل.

وبعد تلك المكالمة ظهر التبرم والانزعاج جلياً على وجه حازم جواد خصوصاً حينما عَلِمَ من الهاشمي إن رئيس الجمهورية المشير الركن عبد السلام محمد عارف يقود بنفسه الآن كتيبة الدبابات الرابعة التي انتقلت بعد ثورة ١٤ رمضان ١٩٦٣ من معسكر "أبو غريب" وأصبحت كتيبة دبابات القصر الجمهوري، إذ صعد إلى الدبابة الأولى وقاد بنفسه رتلاً من الدبابات نحو معسكر الرشيد، في حين قبع أحمد حسن البكر في مقر فوج الحرس الجمهوري.

ويرى طالب شبيب إن تصرف عبد السلام عارف وتصدره للعملية كان وراء تحسس حازم جواد وإلحاحه على الذهاب فوراً إلى معسكر الرشيد لرؤية ما يجري على الأرض، وخاطب طالب شبيب: "لنكن موجودين هناك (في معسكر الرشيد) فقد تُتخذ قرارات عسكرية خطيرة وبذلك لا نترك الفرصة لعبد السلام عارف أن يظهر بمظهر المنقذ والحامي لحكم البعث". ويستمر طالب شبيب قائلاً: "ومع الأسف ثبت لنا بسرعة عدم سداد هذا الرأي، إذ كان من الأفضل أن نذهب إلى مقرات قيادة الجيش في وزارة الدفاع أو في القصر الجمهوري"(١).

---

١ ـــ وكان اقتراح أحمد حسن البكر الذي سيأتي فيما بعد، قد أثبت دقة وصدق تنبؤ وتخوف حازم جواد. بل إن حركة حسن سريع ودور عبد السلام في إخمادها، أضعفت في محصلتها النهائية، موقف القيادة المدنية في حكومة حزب البعث في العراق، ووطدت دور العسكريين، ليس فقط من جهة اقتراح البكر تسمية عبد السلام عارف رئيساً دائماً للمجلس الوطني لقيادة الثورة، بعد أن كانت الرئاسة دورية بين الأعضاء، بل وقد بدأ الضباط يطالبون بدور وصلاحيات وتمثيل أكبر في قيادة الدولة والحزب وفي المؤتمرات القطرية لحزب البعث، وكان سبيلهم للوصول وتحقيق تلك المطالب رجال يقف على رأسهم أحمد حسن البكر ويساعده صالح مهدي عماش وعبد الستار عبد اللطيف ومحمد حسين المهداوي، وحزبيون من الصف الثاني بينهم صدام حسين وطارق عزيز وعبد الكريم الشيخلي والتحق بهم فيما بعد سعدون حمادي، فضلاً عن بعض الضباط الذين انتموا للحزب مؤخراً مثل طاهر يحيى التكريتي وذياب العلكاوي التكريتي ورشيد مصلح ←

الكثير من رغباته وقراراته عندما تكون ذات طبيعة انتقامية أو غير مشروعة"*.

وفي حديثه مع علي كريم سعيد يقول طالب شبيب: ركبنا سيارة حازم جواد (جيب عسكرية) أنا وهو وأخي بهاء شبيب، ويقودها أخوه حامد جواد بملابسه العسكرية، وهو ضابط في القوة الجوية ومسؤولها الحزبي. ولم يكن معنا غير مسدساتنا الشخصية ورشاشة كلاشينكوف واحدة. "وعندما دخلنا معسكر الرشيد وجدنا أنفسنا وسط فوضى عارمة. وكانت الدبابات التي يقودها عبد السلام عارف قد وصلت أو دخلت قبلنا بقليل، والمدفعية ترمي بكثافة والقتال محتدم، ووحدات من الحرس الجمهوري موجودة تتخللها مجموعات من الجنود، وآخرون بملابس الحرس القومي. وكل هذه القوى تختلط ببعضها بصورة فوضوية عجيبة. ولم يكن هناك أي مظهر يدل على وجود قيادة أو تنظيم مركزي، بل لم يكن أحد يعرف إلى أي طرف ينتمي هؤلاء وأولئك، وكنا نعلم إن الحرس القومي متسيب، لكننا فوجئنا بمستوى ما تجسد أمام أعيننا من فوضى غير متوقعة وغير معقولة"(١).

وكان ركاب سيارة حامد جواد "الجيب العسكرية" قد شاهدوا في طريقهم نحو المعسكر الثائر أعداداً من الحراس القوميين بأسلحتهم متوجهين إلى المعسكر وقد

---

* وفي الحقيقة فإن اللوم في استغلال عبد السلام عارف للخلافات البعثية البعثية داخل القيادة القطرية وفي مجلس قيادة الثورة لا يتحمله أي شخص بمفرده مهما كان مستوى علاقته بعارف، لأن الخلافات ذاتها، فضلاً عن الخطورة المتحققة من السماح لضباط الوحدات التدخل بالسياسة، كان قد وفر مناخاً خصباً للتدخلات المغرضة. وأجد نفسي هنا أوافق هاني الفكيكي على قوله: "ولكن الغريب في الأمر أنهم شاركونا النسب البعثي ونابذوا من داخله، وكان تمسكهم بالبعث وهم يهاجمون مؤتمره القطري المشهد الأخير من مسرحية لا علاقة لها بصراعنا مع حازم". وذلك يعني إن المؤامرة كانت أكبر من خلاف علي وحازم؛ اللذان كانا كلاهما من وجهة نظر المتآمرين وأشباحهم لا يصلحان للمرحلة القادمة، بل سيسعيان لعرقلة ما يُخَطط لمستقبل العراق، البلد الخطير سياسياً والغني نفطياً. فلم تكن جائزة حازم جواد هي ضرب علي صالح السعدي ولا العكس، فعندما ضُرب علي صالح السعدي دَفَعَ حازم جواد الفاتورة، ولو كان المضروب حازماً لدفع علي الحساب. ولذلك أتصور إن ما حل بالعراق اليوم كانت قد وُضعت خطته منذ تلك الأيام. ولا شك إن علياً وحازماً ليسا ضالعين في المؤامرة، لكن الصراع داخل السلطة وبينها وبين المعارضة لا يستثني مسؤوليتهما ومسؤولية كل الأطراف الوطنية المتصارعة في تمكين المؤامرة من المرور. ولذلك لم تكن الأحزاب التي خسرت معركة العراق هي الأقل وطنية بل كانت الأقل نضجاً في استيعاب الأولويات الضرورية لتلك المرحلة.

١ ـــ د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط، نفس المصدر السابق. ويذكر إن طالب وحازم وصلا بوابة المعسكر حوالي الساعة السادسة صباحاً.

صفقوا لسيارة حازم جواد وطالب شبيب وهتفوا "بحياة الحزب والثورة"، لكن ما كان واضحاً إن تحرك أفراد الحرس لم يكن منظماً أو موجهاً، بل كان أشبه بالفزعة والتحدي غير المخطط له، الذي يخفي وراءه مشاعر الخوف من الانتقام المعاكس فيما لو خسر حزب البعث السلطة، فحينئذ كان كلٍ من يتحرك على أرض السياسة العملية (حاكم ومعارض) في العراق قد أصبح مدركاً لخطورة ما ارتكبه وما أُرتُكب باسمه، أو ما تم ارتكابه ضده وضد رفاقه، كما أدرك بأنْ ليس هناك من حل وسَط لمشكلة استباحة دماء الآخرين، وللوهلة الأولى، لم يتبادر لذهن أفراد الحرس القومي غير طريقين: إما الهزيمة المروعة والاستسلام الكامل للانتقام المضاد، أو الدفاع عن النفس بالإمعان في الهجوم والقسوة.

لم يَقْتِلوا فقُتِلوا..!؟

ويستمر طالب شبيب: "سرنا وسط تجمع من الجنود وأفراد الحرس القومي، فأوقفت سيارتنا من قبل مجموعة يرتدي أفرادها ملابس مماثلة لما يرتديه الحرس القومي، وطلبوا الهويات فقدمناها لهم ونحن نلومهم بشدة على قلة انضباطهم وعلى تصرفاتهم التي لا تدل على نظام أو تنظيم. وكان تقديرنا إنهم من شباب الحرس القومي، وفجأة تحولت رشاشاتهم إلى صدورنا وطلبوا منا النزول من السيارة"[1].

وفي تلك اللحظة الحرجة نفسها كان حامد جواد الذي يرتدي بدلته العسكرية قد ترجل تاركاً مقود السيارة، وتمكن من التملص وكأنه قد استل نفسه من المشهد المتوتر دون أن يعترضه أحد. ولا ندري هل تركوه يذهب احتراماً لبدلته العسكرية باعتبارهم جنوداً، أم لأن تركيزهم قد استقر على الوزيرين وكأنهما لُقيا أو صيدٌ ثمين (وزير خارجية، ووزير داخلية وأمين سر الحزب)، فأحاطوا بسيارتهم

---

١ — وفي رسالة للمؤلف من بهاء شبيب عام ١٩٩٨ يقول فيها: أُوقفت سيارتنا على المدخل الرئيسي للمعسكر " فأخذ حازم يجادلهم ويطلب منهم السماح لنا بدخول المعسكر لأنه عضو القيادة ووزير الداخلية ومعه طالب شبيب وزير الخارجية وبهاء شبيب عضو قيادة فرع بغداد وعندما سمعوا ذلك طوقوا سيارتنا ووجهوا رشاشاتهم صوبنا وطلبوا منا النزول من السيارة وحينئذ أدركنا بأنهم من الشيوعيين" وليسوا من الحرس القومي. ويذكر إن الجميع كانوا يرتدون الملابس الخاكي ولا أحد يستطيع التمييز بين الجندي والحرس القومي وأحيانا الضابط.

وأمروهم بالنزول بعد أن أطلقوا بضعة طلقات أصابت سقف السيارة، وكان طالب شبيب قد قال: " **أعترف إن أسلحتهم لم تكن موجهة عند الرمي إلينا مباشرة!؟**".

ويستمر شبيب قائلاً: "كانوا ثمانية أشخاص، اقتادونا نحن الثلاثة ـــ أنا وحازم جواد وبهاء شبيب ـــ نحو حائط قرب بوابة معسكر الرشيد الرئيسية. فأيقنا إننا سنقتل، ولا أستطيع الآن أن أصف لك شعوري، لأني لم اشعر بشيء، لا خوف ولا رهبة ولا أي شيء آخر، فالقضية كلها تمت في لحظات. والمفاجأة بحد ذاتها لم تترك متسعاً للخوف ولا لأي شيء آخر. لم تتجسد في أذهاننا سوى فكرة واحدة هي إننا سنُقتل، ومادامت النهاية محتومة فليس أمامنا سوى أن نتصرف بجلادة وصبر، والشجاعة أفضل من الضعف"[١].

وفي نفس الاتجاه قال حازم جواد: إنه ولأول مرة في حياته يتملكه شعور غريب بالخطر، ذلك الشعور الذي كان قد تزامن مع صوت النار الذي انطلق من بنادق آسريهم. ويستمر حازم قائلاً: "أحسست في تلك اللحظات إن ظهري قد بدأ يُنَّمل وكأن رصاصة قد اخترقته فعلاً "[٢].

وكان الملازم الأول حامد جواد الذي نزل من السيارة فور اكتشافه هوية الجنود السياسية قد تراجع مبتعداً عن باب المعسكر، وكان هدفه البحث عن نجدة سريعة. وهنا يذكر بهاء شبيب بانهم فوجئوا بوصول " أحد قادة التمرد نائب العريف حسن سريع والجندي الأول صباح ليلية وطلبوا من جماعتهم جلبنا إلى معمل البيبسي المجاور لمعسكر الرشيد لتنفيذ حكم الإعدام فينا"[٣].

---

١ ـــ د. علي كريم سعيد، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، دار الكنوز الأدبية بيروت ١٩٩٩، صفحة رقم٢٩٦.

٢ ـــ حازم جواد لندن٢٠٠٠. وفي رسالة للمؤلف من نعيم الزهيري وهو رفيق وقريب من موزان عبد السادة وهو الجندي المتطوع في مدرسة قطع المعادن أنه أخبره بأنه كان قد لاحظ ضعفاً أو ارتخاءاً في حركة وزير الداخلية بعد إطلاق النار الوهمي عليهم، بل إن موزان عبد السادة الذي كان حازم جواد أسيره قد ذهب في تفسيره للوهن الذي أصاب حازم جواد إلى أبعد من ذلك، ولذلك أرى إن حديث حازم جواد العفوي إلي حول الشعور الذي انتابه في تلك اللحظة يفسر الأمر، لأنه ليس لشخص مثل حازم، بأحلامه الكبيرة وسوابقه الجريئة ومواقفه الرجولية المتوازنة التي تلت ١٨ تشرين الثاني١٩٦٣، أن يضعف وهو في وسط التحدي.

٣ ـــ رسالة من بهاء شبيب للمؤلف ١٩٩٨.

أما طالب شبيب فيقول: "وقفنا باتجاه الحائط (حائط معمل البيبسي)، ووقف خلفنا الجنود وكان قد صدر لهم أمر بسحب الأقسام، من قبل عريف، مازلت اذكر اسمه "صباح ليلية" وهو آشوري. وكنت قد تدربت في دورة عسكرية لضباط الاحتياط واعرف ما يعنيه ذلك الأمر، فستكون الرصاصات قد اندفعت إلى سبطانة البنادق، وبعد فاصلة زمنية قصيرة جداً سيصدر الأمر بالرمي.

وفي ذلك الجو الفوضوي، يستطيع أي شخص ناقم أو متهور ودون مساءلة أن يقضي علينا بضغطة زناد. **وفجأة سمعنا صوت عسكري عالي النبرة، يأمر الجنود بالتوقف!!** فالتفت الجنود وراءهم ليكتشفوا إنهم محاطون بقوس يتكون من فصيل كامل من الحرس الجمهوري، وعلى رأسه ضابطان هما النقيب حامد الدليمي وكنا نعرفه ويرافقه الملازم الأول حامد جواد (سائقنا الذي ترَّجل منسلاً)، فكانت اكثر من أربعين رشاشة مصوبة إلى صدورهم".

"ومن حظنا الطيب، وحظ آسرينا العاثر انهم كانوا بسطاء ولم يدركوا إنّ الدليمي وجنوده لم يكونوا قادرين على الرمي، لأن مجرد إقدامهم على ذلك سيعني قتلنا، لأن آسرينا يقفون على خط مستقيم بيننا وبين محاصريهم. وهو أمر لم يكن حامد الدليمي أو حامد جواد قادرين على المجازفة أو التورط به. كما انهم رغم قراءتهم لهوياتنا ومعرفتهم لمراكزنا، لم يتشبثوا بنا ويساوموا علينا، وهو أمر كان سيساعدهم كثيراً، ويكسبهم الوقت الكافي للحصول على نجدة أو للهرب والاختلاط بفوضى الجنود المبعثرين داخل وخارج المعسكر. ويبدو إن الارتباك سيطر عليهم عندما وجدوا أنفسهم أمام عسكريين نظاميين يفوقونهم عدداً، فرموا أسلحتهم واستسلموا، فتمَّ إنقاذنا بما يشبه المعجزة، وفوراً أمر النقيب حامد الدليمي* بإعدام الجنود الثمانية!؟

---

* بعد عام ١٩٦٨ كوفئ حامد الدليمي فأصبح عضواً في المكتب العسكري وهو يعادل حكومة الظل، ثم عمل لفترة قصيرة بمحل مدير الاستخبارات العسكرية وساهم في مهرجانات القتل منذ ٨ شباط ٦٣، ثم عُيِن سفيراً للعراق بنيجيريا. وفي عام ١٩٨٠ أعتُقل داخل مطار بغداد وأُهين أمام المسافرين بدلاً من فتح قاعة الشرف للسفير العائد، وأرسل إلى معتقل أبو غريب، وفي عام ١٩٨٢ قُتل حرقاً إذ عُلِق على بار هادئة أوقدها سجانوه لمدة أسبوعين ثم قطعوا عنه الماء، فمات عطشاناً ونصفه الأسفل مشوياً، وقد تم ذلك طبعاً بأمر مباشر من حكومة صدام حسين.[أعتذر للقارئ من الإطالة ولكني لم اكتب هذا الهامش إلاّ كي أعطي ←

وفيما بعد أخبرنا حامد جواد إنه بعد إن تملص من سيارتنا بحث عن نجدة لتخليصنا، فوجد النقيب حامد الدليمي على رأس سرية من مشاة اللواء الخامس والعشرين من الحرس الجمهوري فأخبره بوقوعنا في الأسر وباحتمال أن نقتل، وفوراً تحرك الدليمي بفصيل منها ونفذ بعد استطلاع المكان عملية إنقاذنا".

ويقول شبيب: "كان وضع المعسكر حتى لحظة إطلاق سراحنا غير مستقر، يختلط فيه "الحابل بالنابل" والقتال محتدم ولا أحد يستطيع التمييز بوضوح بين الموالين والمعادين، ولم تكن السيطرة واضحة لأحد. وعلمنا أيضاً عدم وجود ضباط بين المتمردين بل كلهم من الجنود وضباط الصف وحزبيين مدنيين، وكان تركيزهم قد انصب على احتلال السجن رقم واحد، لإطلاق سراح الضباط، لكنهم واجهوا مقاومة غير متوقعة من سرية حراسته"[1]. وكان النقيب حامد الدليمي قد أخبر حازم وطالب بعد تحررهم من الأسر بأن الرئيس عبد السلام سيصل المعسكر بين لحظة وأخرى على رأس رتل من الدبابات، وإنه، أي حامد الدليمي، بانتظار وصول قوة كبيرة من فوج الحرس الجمهوري سيدخل على رأسها إلى معسكر الرشيد لتحرير المقدم الطيار منذر الونداوي القائد العام للحرس القومي ونائبه نجاد الصافي.

ويضيف لقد "علمنا إن قائد التمرد ضابط صف اسمه حسن سريع، وانه تمكن من الهرب، وان القوات الحكومية تمكنت الآن (الساعة السابعة صباحا) من تطويق التمرد، وهي في طريقها لسحقه وإخماده، وقد تحقق ذلك وأُلقي القبض على أكثرية المتمردين"[2].

نموذجاً للقسوة والشقوة التي يزخر بها (مع الأسف) تاريخ العراق الحديث، مثل نموذجي يوضح كم هو مسدود طريق سفك الدماء؟ فلا ينبغي لنا مستقبلاً استرخاص دماء الآخرين مهما كان السبب].

١ ــ هاء شبيب، رسالة، مصدر سابق.

٢ ــ د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم..... مصدر سابق، ص ٢٩٦.

الفصل الثاني

القصر الجمهوري يتدخل

الحصول على معلومات فورية

يرى البعض إن قيادة السجن العسكري كانت هي المبادرة في إبلاغ القصر الجمهوري بحجم وخطر ما يحدث عن طريق خط تلفوني خاص، وذلك ساعد القادة الحكوميون مبكراً على تقويم الحالة ونسبياً على تفويت فرصة المباغتة. كما أكد آخرون إن أحد الملتحقين بالحركة قبل أيام من انطلاقها كان قد راجع نفسه، وتسلل مع الطلقة الأولى ليبلغ القصر الجمهوري بواسطة تلفون خاص من "تل محمد" المجاورة.

ويقول الضابط محمد علي سباهي الذي كان يسكن في واحدة من دور الضباط الستة القريبة من مدخل المعسكر من جهة بغداد الجديدة بجوار دار طه الشكرجي، إنه اتصل من المنعة الكونكريتية المجاورة لتلك البيوت برئيس أركان الجيش طاهر يحيى التكريتي وأخبره بالموقف الذي شاهده من سطح داره وخصوصاً الرماية على الباب النظامي للمعسكر من جهة بغداد الجديدة، ونصحه قائلاً: إن الباب الرئيسي للمعسكر مغلق لأن المتمردين يحكمون سيطرتهم عليه ولا تستطيعون دخول المعسكر منه، وإذا كنتم ستأتون فتعالوا من مدخله المطل على بغداد الجديدة[١].

وإذا صح ذلك، فسيكون هذا من سوء طالع الحركة،لأن الضابط محمد علي السباهي كان منقولاً إلى وحدة أخرى ويعيش في تلك الدار بصورة مؤقتة. ومن حظهم العاثر وحظ الحكومة الطيب أن يوفر هذا الضابط، الذي لم يكن على وفاق تام مع حكومة البعث، لها فرصة امتصاص المباغتة وضرب التمرد وهو في المهد.

كتيبة الدبابات الرابعة مرة أخرى، عارف يصعد لدبابة يقودها منتفض

وسواء كان هذا أو ذاك وراء تحذير القصر الجمهوري، فقد تمكن الرئيس عبد السلام عارف ودون إبطاء من التوجه بثقة نسبية خصوصاً بعد أن حصل على

---

١ ـــ محمد علي السباهي، لقاء خاص مع المؤلف عام ٢٠٠٠، وهو أحد الضباط القوميين المعروفين في الجيش العراقي، وكان عضواً في أول مكتب عسكري جرى تأسيسه لحزب البعث العربي الاشتراكي في عهد عبد الكريم قاسم، ويعيش الآن في إحدى حواضر كردستان العراق بعيداً عن الطغيان.

معلومات عن حجم التحرك العسكري. فهو يسير الآن نحو المعسكر وهو يعرف إن مئات الضباط المعتقلين لن يتمكن الثوار من إطلاق سراحهم قبل وصول دباباته إلى معسكر الرشيد، كما إنه، وبعكس ما كان متوقعاً، سيباغتهم قبل ترتيب سيطرتهم على المعسكر وتحريكه.

وكانت في مقدمة دبابات الكتيبة الرابعة التي انطلقت من القصر الجمهوري دبابة صعد إليها رئيس الجمهورية عبد السلام عارف ويقودها أحد رجال الانتفاضة الذي كانت منوطة به مهمة الذهاب بدبابته إلى الإذاعة في كرادة مريم، بعد فترة من تطور الانتفاضة للمساهمة في السيطرة عليها.

وكان ضابط الصف سائق الدبابة قد فوجئ بالرئيس يمتطي دبابته ويأمره بالتوجه إلى معسكر الرشيد١، مما جعله عاجزاً عن القيام بأي فعل عدا قتل الرئيس نفسه، لكنه لم يفعل، ورغم ذلك فقد ورد اسمه خلال التحقيقات فأمر عبد السلام عارف بإعدامه مع الوجبة الأولى.

وصلت الدبابات إلى المعسكر عبر "كمب سارة" وهو حي شعبي يربط بين معسكر الرشيد ومعمل الزيوت النباتية وينتهي إلى ساحة كبيرة تفصل بين كمب سارة وسدة المعسكر الترابية. وكانت أول الدبابات الواصلة دبابة يقودها أحد الضباط

---

١ ــ كتبت وسائل الاعلام وتفاخرت بمرافقة السفير المصري لعبد السلام عارف في دبابته عند اقتحامها لمعسكر الرشيد. و لم يكن ذلك صحيحاً، وعلى الأغلب إنه صعد معه إلى الدبابة خلال استعراض النصر، أو لأخذ صورة صحفية لنشرها في وسائل الإعلام وإرسال نسخة منها إلى القاهرة. وكان السفير المصري لدى العراق أمين هويدي (وفيما بعد وزيراً ومديراً للمباحث العامة)، وكان قبلها أحد ضباط المخابرات العامة المصرية ومكلف شخصياً من قبل الرئيس جمال عبد الناصر بالملف العراقي المهم، وقد أساء صعوده للدبابة إلى جانب عبد السلام عارف، احتفالاً بالنصر على حركة معسكر الرشيد، إلى شعبية جمال عبد الناصر والحركة الناصرية في العراق، فقد تعاطف عراقيون كثيرون مع حركة الرشيد رغم عدم معرفتهم بـرجالها، وأتصور إن ذلك ربما يعود إلى عدم ميلهم لبعض ممارسات السلطة والحرس القومي الفوضوية في المدن والأحياء. وأظن إن ركوب السفير للدبابة كان واحداً من أخطر تدخلات وأخطاء عبدالناصر الكثيرة في العـراق. إذ ملأت تلك الصورة ذهن المواطن البسيط بفكرة استعداد مصر الناصرية لنصرة، أو كسب الأنصار والأصدقاء رغم معرفتها التامة بأعمال القمع الظالمة التي ما انفكت بعض الأجنحة الحكومية من ممارستها، وإن عبد السلام عارف نفسه يقف على رأس قائمة المطالبين بسفك الدماء، لأسباب سياسية لا تستوجب القتل في مطلق الأحوال. وبسبب التدخلات غير الموفقة لبعض المحسوبين على الناصرية هنا وهناك من الوطن العربي، أصبح للناصرية أعداء كثيرون أسهموا بإفشال مشروعها لقيادة الأمة نحو الوحدة تحت الراية المصرية. وأسوء ما في تلك الصفحة كان سكوت مصر عن أخطاء أنصارها.

وثانية يستقلها عبد السلام عارف الذي أطل من دبابته مرتدياً طقم مدني (موهير) فتسلقت السدة الترابية العازلة بين المعسكر وكمب سارة وسارت عليها بسرعة مخيفة.

وفي الجانب الآخر وقف آلاف المتفرجين على مشارف منطقتهم السكنية في مواجهة المعسكر وأكثرهم يتمنى سقوطه لصالح الثوار، رغم عدم معرفة الغالبية بهوية التمردالسياسية، وكانت تلك أيضاً رغبة أبناء المناطق القريبة الأخرى مثل "الزعفرانية" و "سعيدة"، بسبب ميل ساكنيها لشخص الزعيم عبد الكريم قاسم الذي تعود له، من وجهة نظرهم، قرارات توزيع الأراضي وبناء المساكن الشعبية وتوزيعها على الفلاحين والفقراء الذين يعيشون على هامش مدينة بغداد، بما في ذلك أحيائهم الشعبية القريبة من المعسكر، وكانت قد تأسست وبنيت في عهده، كما لا يستطيع أحد تجاوز تأثير الشيوعيين القوي عليهم فقد كانت برامجهم تتميز عن برامج بقية الأحزاب والحركات السياسية العراقية الأخرى باهتمامها وتركيزها على الحاجات والمطالب الشعبية الآنية للفئات الفقيرة من المجتمع. في حين كان خطاب البعثيين والقوميين حافل بالشؤون الوطنية العامة والقومية الاستراتيجية البعيدة المدى، وهي مطالب ذات شأن كبير يتطلب التفكير بها إلى عافية ووقت فراغ كاف، في حين تنشغل الأكثرية الساحقة من فئات المجتمع البسيطة بتحسين وضعها المعيشي وبالعدالة الاجتماعية والإنسانية الآن وفوراً.

ويذكر إن أبناء تلك المناطق الجديدة النشأة والفقيرة الحال جاء أغلبهم إلى بغداد من جهات العراق الأربعة بسبب ضيق الحال، وكان أكثرهم قد جاء من كردستان ومن الجنوب وبصورة خاصة (العمارة والناصرية)، لأن أبناء الفرات الأعلى والأوسط كانوا نسبياً أوسع حالاً من غيرهم.

وكانت قيادة حركة حسن سريع قد رتبت أمر تحريك هذه المناطق لتتضامن معها، وفعلاً تمكن بعض الجنود من السيطرة على قرية "سعيدة" ومعمل الإسمنت وشركة الجلود الوطنية وظلوا في بعض المناطق حتى نهاية يوم ٣ تموز ٦٣، وكان بين المساهمين النشيطين في أعمال تهيئة تلك المناطق للتمرد العريف طالب مزهر الكاصد، وهو ابن عم المرحوم عبد الكاظم ريسان الكاصد شيخ عشيرة حجام الجنوبية، ذات التاريخ الثوري المعروف، وحكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد أربعة أشهر بسبب القرابة الوثيقة بين زوجة أبيه وزوجة العميد عبد الرحمن عارف قائد الفرقة الخامسة ورئيس الجمهورية لاحقاً.

الرئيس المشير الركن والعريف وجهاً لوجه!!

وعندما وصل الرئيس بدبابته إلى البوابة الشمالية للمعسكر، التي كـــان يتـــولى حراستها عن الثوار العريف "جليل خرنوب"، وهناك عند البوابة تواجــه الـــرجلان "ضابط الصف" و"المشير الركن"، فبهت الجندي وعادت به الذاكرة لا إرادياً إلى الفارق الكبير بين الضابط والجندي، بلة جندي وضابط بمنصب رئيس جمهورية، فلم يتحمل ذلك المشهد وبدلاً من أن يطلق النار على ما يفترض إنه عدوه، ارتفعت يده اليمنى لا شعورياً ليأخذ لصيده الثمين (رئيس الجمهورية المشير الركن عبد الســـلام محمد عارف) تحية الأمراء، فتغلبت العادة عنده على الإرادة[1].

أضرت حركة يد العريف "جليل خرنوب" تلك بمعنويات الجنود المـــرافقين لـــه ضرراً كبيراً، فتردد بعضهم وانسحب آخرون لعدم معرفتهم بكيفية التعامل مع مثل ذلك المشهد، وانتشر الخبـــر بسرعة في المعسكر كله، ورغم إن ذلك قد شجع عبد السلام عارف على التقدم خطوة أخرى لكنه تصرف بحكمة وحذر وبقليل من الثقة إزاء ما صدر عن الجندي فخاطبهم قائلاً: "وِلْدي ماذا تفعلون....؟" ثم رجع فوراً إلى دبابته عائداً إلى السدة الترابية في حين توجهت الدبابة الثانية المرافقة لـــه صـــوب السجن العسكري رقم واحد وداست في طريقها عدد من المتمردين وفرمتهم، ممـــا أثار هلع أكثر المترددين من الجنود وضباط الصف.

ولا شك إن تلك الواقعة وتصرف العريف جليل خرنوب لم تكن كافية لتغـــيير رأي الجنود الثائرين، لكنها أثرت حتماً في معنوياتهم وفي ثقتهم ببعضهم.

أما عبد السلام عارف فبعد أن اطمأن إلى ضعف هذه الجبهة تركهـــا لغـــيره، واستدار ترافقه دبابة أخرى صاعداً مرة أخرى فوق السدة الترابية التي تفصل بـــين المعسكر وكمب سارة وسار بسرعة ملتفاً حول المعسكر، وإمعانـــاً في التخويـــف وإثارة الرعب بين صفوف المترددين وإشعاراً بالنتائج الوخيمة داست واحدة مـــن الدبابتين اثنين من الجنود ومزقتهما أشلاءً، وقبلها كان أربعة من أفراد الحرس القومي قد ظنا إنها دبابات المتمردين فرفعوا أيديهم مستسلمين وكـــان بينـــهم الحارســـان القوميان منير أسود ومحمود الحلو. وقد تفرج على هذا المشهد المرعب حشد كـــبير

---

١ ــ يقول نعيم الزهيري إن العريف كاظم زراك هو الذي أخذ تحية الأمراء لعارف وإنه كان في البـــاب الشمالي.

من أبناء المنطقة فضولاً ومحاولة لاستطلاع نتيجة الصراع المحتدم بين الطرفين داخل المعسكر.

أما مصير الجندي جليل خرنوب الذي تسببت تحيته لرئيس الجمهورية بانخفاض معنويات الثوار، وبحياة جديدة وقوة لعبد السلام عارف فقد نُفذ به حكم الإعدام رمياً بالرصاص حتى الموت مع الوجبة الأولى التي أُعدمَتْ في ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣.

وقد لعب الملازم الأول رياض القدو دوراً مهماً في معركة معسكر الرشيد، فبعد اتضاح تلكؤ الثوار أدرك بعض ضباط المعسكر من البعثيين المخلصين لحزبهم إن قيادة الحركة تعاني وهي في حيرة، فبادر القدو إلى السيطرة على بعض دبابات الكتيبة الأولى، وقد نظر البعثيون له بسبب ذلك الفعل المضاف إلى دوره الشجاع في ٨ شباط ١٩٦٣، على إنه أحد أبطال حزبهم المجلين[1].

وفي هذه الأثناء قامت قوات الحرس القومي باحتلال كافة المراكز الحساسة في بغداد وبعض مراكز المدن، وأُعلنَ الإنذار داخل القوات المسلحة تحسباً لأي طارئ، وبعد رجحان كفة القوات الحكومية حضر إلى المعسكر علي صالح السعدي يرافقه رئيس الوزراء أحمد حسن البكر ووزير الدفاع صالح مهدي عماش والعقيد خالد مكي الهاشمي معاون رئيس أركان الجيش. وهناك أَلَّفَ وزير الدفاع لجنة تحقيق برئاسة المقدم هادي خماس (معاون آمر الاستخبارات العسكرية). وتدريجياً مع دوران عجلة التحقيق الشرس بدأت الإذاعة تتحدث بتفصيلات أكثر.

ولم يمر وقت طويل حتى وصلت إلى المنطقة قوات أخرى ودبابات ومدرعات من كتيبة الدبابات الرابعة (قصر جمهوري)، ومن الفوج الآلي الثاني من اللواء الثامن الآلي في معسكر "أبو غريب"، يقود بعضها رئيس الأركان طاهر يحيى التكريتي*، كما وصلت قوات من الحرس القومي التابعة لمقر الكرادة، وجاءت مجموعات أخرى من الحرس القومي عبر منطقة "تل محمد"، بعد أن عبرت "شْطَيطْ" وهو نهر طيني ضحل محاذٍ للمعسكر.

---

١ ــ شارك بدور أساسي بحركة ٨ شباط، وأصبح بعد عام ١٩٦٨ قائد فرقة، ثم قتله صدام حسين عام ١٩٨٢ شر قتله مع مرتضى الحديثي وثمانية عشر آخرين كلهم قادة عسكرين وحزبيين وبعضهم وزراء.

* لاحظ إن كتيبة الدبابات الرابعة والفوج الآلي الثاني، كلاهما كان عماد القوة العسكرية البرية لحركة ٨ شباط ٦٣، وهما الآن ينفردان في الدفاع عنها.

أول بيان رسمي للحكومة حول الحادث

وكان أول بيان رسمي يصدر عن الحكومة قد قال: "إن الشيوعيين أخذوا يروجون الإشاعات عن الثورة ونظامها التقدمي العظيم، وصاروا يرددون أحاديث متعددة عن قرب النهاية، وعن النصر والثأر"، وقال البيان: "تمّ اكتشاف خلية شيوعية جُهِّز أفرادها بملابس عسكرية وشارات حمراء وبيضاء ظهر إنها كانت مخصصة لتحملها "المقاومة الشعبية"، ومن الاعترافات التي أدلى بها أفراد هذه الخلية، علمنا بأن فلول الشيوعيين قد قررت القيام بمحاولة انتحارية في الخامس من تموز، تبدأ في معسكر الرشيد الذي يحوي عدداً من الضباط والمدنيين الشيوعيين المعتقلين، وغرضها إطلاق سراحهم وتوزيعهم على الوحدات العسكرية لمحاولة السيطرة عليها. وبناءاً على هذه المعلومات، تقرر نقل الضباط الشيوعيين المعتقلين في معسكر الرشيد إلى سجن آخر في يوم١٩٦٣/٧/٣، وهذا ما جعل المتآمرين يُقدِّمون موعد مؤامرتهم".

ويضيف البيان الحكومي:"في الثالثة والربع من فجر الثالث من تموز شوهدت مجموعة مسلحة تتألف من عدد من الشيوعيين وقد تجمعوا في مركز التدريب المهني لقطع المعادن وخرجوا منه باتجاه سَرِيَة حراسة معسكر الرشيد والباب النظامي وكتيبة هندسة الميدان الخامسة وكتائب الدروع داخل المعسكر، كما توجه أغلبهم إلى السجن العسكري، وقد تمكنت هذه الزمرة من كسر مشاجب السلاح في مركز التدريب واستولوا على ما فيها من أسلحة".

ويستمر البيان الحكومي متجاهلاً ما أذاعه المجلس الوطني لقيادة الثورة الذي تحدث عن إبادة المؤامرة خلال نصف ساعة قائلاً إن "عبد السلام محمد عارف هرع إلى معسكر الرشيد وأشرف على المعارك بمعاونة الرئيس الأول حازم الصباغ، وإن طاهر يحيى التكريتي رئيس أركان الجيش قد توجه إلى المعسكر، كما توجهت إلى المعسكر قطعات الحرس القومي.. وفي الوقت نفسه كان أحمد حسن البكر رئيس الوزراء، وصالح مهدي عماش وزير الدفاع وخالد مكي الهاشمي معاون رئيس أركان الجيش يشرفون من ثكنة القصر الجمهوري ووزارة الدفاع على عمليات تحشيد القطعات العسكرية وخطة الأمن داخل العاصمة"، ويواصل البيان: إن "علي صالح السعدي نائب رئيس الوزراء، وحردان التكريتي قائد القوة الجوية، ورشيد مصلح التكريتي الحاكم العسكري العام، قد هرعوا إلى المعسكر إضافة إلى حازم جواد وزير

شؤون رئاسة الجمهورية ووزير الداخلية وطالب حسين الشبيب وزير الخارجية فهاجمتهما زمرة من المتآمرين وأطلقت عليهم النار قرب الباب النظامي لمعسكر الرشيد. فجردتهما من السلاح، وأصدرت حكماً بإعدامهما. كما اعتقلت الزمرة المتآمرة مقدم الجو منذر الونداوي القائد العام لقوات الحرس القومي والرئيس نجاد الصافي من قيادة الحرس القومي وسجنتهما في مركز التدريب المهني"(١).

وعلى أثر وصول وتجمع كل تلك القوات دارت هنا وهناك معارك غير متكافئة أغلبها معارك تغطية انسحاب، وكانت آخر الطلقات التي سمعها سجناء "رقم واحد" في الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، هي الطلقات الانتقامية الأخيرة الموجهة إلى صدور بعض الجنود الأسرى أو الذين حاولوا الهرب. ويذكر إن المحاولة كانت قد استمرت منذ أن بدأت حتى اتضحت مؤشرات هزيمتها حوالي ثلاث ساعات، وقد احتاج الأمر بعدها إلى فترة ساعتين تقريباً لاستكمال مطاردة فلول الثوار وتصفية الحسابات*.

بيانات الحركة

أعلن الناطق الرسمي باسم وزارة الدفاع عدة بيانات بينها بيان قال فيه: "انه تم العثور على ثمانية بيانات بحوزة المتآمرين، وانهم كانوا ينوون إذاعتها. وإن هذه

---

١ ــ مجلة الأسبوع العربي، تقرير من مراسلها في بغداد غازي عياش، تموز ١٩٦٣.

* أسرت الحركة ضباطاً بعثيين وآخرين موالين للحكومة بينهم قائد كتيبة الدبابات الأولى وبعض ضباطه الذين كانوا موجودين في مقرها، والعميد الملاح سالم مريوش، وعدد من الضباط الآخرين، وكان مريوش قد نقل جواً حازم جواد وطالب شبيب في ١٣ تشرين الثاني ٦٣ من بغداد إلى بيروت، بعد أزمة المؤتمر القطري الاستثنائي للبعث. وكان مريوش قد أخبرني في دمشق بعد مرور ربع قرن على حركة ٣ تموز: "إن كثيرين من الضباط سمعوا عتاباً من أقربائهم ومن أمهاتهم أحياناً وهي تتساءل: أتعذبون أبناء الناس وتقتلوهم... هل أنتم ظالمين...؟!". ومن الطريف إن مريوش عاد ونقل حازم وطالب إلى القاهرة بعد أن نكث عبد السلام عارف عهده ورفض دخولهما العراق، وكان قد نقل صالح مهدي عماش إلى القاهرة مبعداً أيضاً بعد أن لم يبق لديه ما يقدمه لعارف، ثم نقل جثمان عبد السلام عارف من البصرة، وعندما لجأ عارف عبد الرزاق (وهادي خماس) إلى القاهرة بعد محاولته الانقلابية أخذه معه، ونقل إبراهيم الداود وزير دفاع ١٧ تموز ١٩٦٨ إلى أسبانيا مبعداً بدرجة سفير بعد أن انقلب عليه البكر وصدام، وهناك استغرب الجنرال فرانكو من رتبة السفير الجديد العسكرية (فريق أول) التي لا تتناسب مع عمره!! وساهم مريوش بعد لجوئه إلى خارج العراق في كل معارك الجيش العربي السوري ضد الدولة الصهيونية بدءً من حرب تشرين التحريرية، ويعيش الآن بدمشق لاجئاً سياسياً.

البيانات كانت موقعة من قِبل ما أسموه بالقيادة الثورية للجبهة الشعبية"، وقد تضمنت بيانات المتآمرين:

البيان الأول: توضيح أسباب ودوافع وأهداف الحركة، وإعلان النظام الشيوعي، وانسحاب العراق من ميثاق القاهرة، كما كان يحمل تاريخ ٢٣ حزيران ١٩٦٣. ولهذا الموعد علاقة بتاريخ سابق لتنفيذ الحركة وقد تم تأجيله إلى موعد آخر.

البيان الثاني: ويأمر بعزل واعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء وأعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، وحل الحرس القومي وتأليف المقاومة الشعبية.

البيان الثالث: وهو البيان الوحيد الذي لم يُعثر عليه. ويؤكد عدد من المقربين من رجال الانتفاضة إنه تضمن قائمة بأسماء رئس الدولة والحكومة والزعامة الجديدة التي تقرر تعيينها. ويُعْتَقد إن هذا البيان هو واحد من بين عدد من أسرار الحركة التي حملها حسن سريع معه إلى القبر، وربما يكون قد احتفظ به شخصياً كي يُجَنِّب الرجال الذين وردت أسمائهم فيه الخطر في حالة فشل الحركة.

فقد روى رفاق السجن عن حسن سريع أنه كان يدعو لتجاوز الجدل حول الهزيمة وأسبابها، وانشغل كلية بأهمية المحافظة على الأسرار وحماية مَنْ لم تُكْشف أدوارهم، وأعتقد إن محمد حبيب كان قد تجاوب نسبياً مع دعوة سريع فنجا كثيرون من المدنيين المساهمين بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الحركة.

وتضمنت **البيانات الرابع والخامس والسادس والسابع** عزل قادة الجيش وتعيين قادة آخرين، مثل العميد هاشم عبد الجبار الهارب إلى شمال العراق ثم إلى تشيكوسلوفاكيا رئيساً للأركان، وكل من العقيد سعيد مطر اللاجئ إلى كردستان العراق قائداً للفرقة الرابعة، والعقيد غضبان السعد (موجود في سجن رقم واحد) قائداً للفرقة السادسة، والعقيد جلال بالطة قائداً للفرقة الثانية والعميد طه مصطفى البامرني قائداً للفرقة الثالثة، والرئيس الأول الركن عريبي فرحان الموجود بإيران قائدا للفرقة الأولى، والمقدم الركن سليم الفخري "لاجئ بكردستان" قائداً للفرقة الخامسة، والضابط المتقاعد المبعد من قبل حكومة عبد الكريم قاسم عطشان ضيئول

الإزيرجاوي* مديراً للأمن العام، والعقيد موسى كاظم الجبوري قائــداً للمقاومــة الشعبية". وأوامر بمنع التجول وإغلاق المطارات.ونوقش اسمي الزعيم الوطني كامــل الجادرجي والعميد محي الدين عبد الحميد للنظر في صــلاحهما لمنصــبي رئيســي الجمهورية والوزراء، ولم يكن بين المعينين الكبار أحداً من الجنود رغم إنهــم قــادة الحركة الفعليين.

والبيان الثامن: ونص على أمر بإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين.

وكان قد صاغ تلك البيانات والنداءات (م. ب) وهو طالــب شــاب قليــل الخبــرة ويدرس في كلية التربية ولذلك جاءت صياغتها ضعيفة.

* أُبعد عن الجيش في مطلع الخمسينات لأسباب سياسية، فتحول إلى كادر محترف في الحزب الشيوعي وتبوأ عضوية اللجنة العسكرية العليا فيه، وأظنه مؤسس التنظيم في الجيش، وله قصة غريبة تعكس أزمة المعارضــة المغتربة. فعندما أخبــر يونس الطائي الزعيم عبد الكريم قاسم بوجود حالات اعتداء على المعتقلين من قبل لجنة التحقيق الرسمية بوزارة الدفاع التي يرأسها هاشم عبد الجبار ويحضرها عطشان الأزيرجاوي رغم عــدم عضويته فيها، ثارت ثائرة الزعيم وأحال عدداً من الضباط الشيوعيين على التقاعد وطلب عطشاناً، مما اضطر الشيوعيون إلى تهريبه خارج البلاد، فوصل إلى موسكو بجواز سفر أردني مزور. وبعد سنوات من الخلافات مع قيادة الحزب وربما بسبب انتمائه للقيادة المركزية لحشم، فضل العيش بألمانيا وهناك توفي في سكن مؤقت، فأخبــر الجيران الشرطة وبعد التفتيش عثروا على جواز سفره الأردني، وبالتنسيق مع الدبلوماسية الأردنية تم شحن جنازته إلى الأردن فدفن في أحد مقابــرها وفق المراسم المعتادة لدفن مجهولي الهوية بعد إعلان نُشر في الصحف المحلية باسمه المزور فلم يدّعي أحداً معرفته. فطويت قصة رجل مازال بعض الشيوعيين العــراقيين يرونه أحد رموز حزبهم في نضاله ضد حكومات العهد الملكي التي يسمونها استعمارية.

الفصل الثالث

المناطق والمعسكرات الأخرى

معسكر أبو غريب

كان هذا المعسكر مرشحاً قبل معسكر الرشيد ليكون مركزاً لثـورة الجنـود، لوجود أنصار كثيرين للمنظمة الحزبية المختلطة (مدنيين وعسكريين) به، ثم رجحت كفة الرشيد لوجود القاعدة الجوية ومميزات أخرى فيه*.

وكانت مهمة أنصار الحركة من جنود وضباط صف في "أبو غريْب": "السيطرة على مخازن السلاح ومرسلات الإذاعة، ثم التحرك نحو معسكر الوشاش لمساعدة المكلفين فيه على السيطرة عليه، وقطع الطريق على القوات المحتمل مجيئها من الحبانية.."[1]، ومن مهماته أيضاً ضمان عرقلة الحركة من وإلى المعسكرات والمراكز التي قد يصعب السيطرة عليها. وكان لمخازن السلاح والعتاد في معسكري التاجي وأبو غريب أهمية فائقة في اكتمال خطة الانقلاب بسبب توقع زحف عدد كبير من المدنيين من مناطق قريبة مثل مدينة الحرية التي سيتطلب تجنيدها تزويدها بالسلاح. وكان الجناح المدني للحركة بقيادة محمد حبيب قد هيأ أعداداً كبيرة من بقايا الشيوعيين والمتعاطفين مع عهد قاسم خصوصاً الشباب، بطريقة الهمس في الآذان عن موعد تقريبي لثورة عسكرية، وسيتم دعوتها بواسطة الإذاعة للمساندة والقيام بمهمات تم الاتفاق عليها مع مؤيدين مدنيين نشيطين من سكان تلك الأحياء.

وكانت أعداد من الدبابات الموجودة في معسكر "أبو غريب" هي فعلاً تحت سيطرة أنصار الانتفاضة بانتظار الإشارة المتفق عليها، كما وصل تحت جنح الظلام عدد من المدنيين وانتشروا قرب المعسكر ينتظرون مَنْ سيستدعيهم للمشاركة ويستفيد من خدماتهم.

وكانت الخطة في المعسكر المذكور تقوم على إطلاق سراح عدد غير قليل من السجناء العسكريين بينهم نواب ضباط متعاونين مع جماعة (سريع ــ حبيب) أساساً، وكان يُؤَمَّل من نواب الضباط الفنيين نصب إذاعة مؤقتة من لاسلكي

---

*في سياق الحديث عن حجم المساهمة الكبير في حركة معسكر الرشيد قال الدكتور حامد العاني: دخلت سجن نقرة السلمان فوجدت بمجموعة كبيرة من المعتقلين يشتركون في قضية ٣ تموز، وعندما سألتهم من أين أنتم؟ اكتشفت أنهم جاءوا من معسكرات مختلفة كثيرة تشمل الأرض العراقية بكاملها، منها من ساهم فعلاً ومنها من كان يتهيأ للمساهمة أو لإثارة القلاقل.

١ ــ زكي وسعاد خيري، مصدر سابق صفحة ٤١٥.

موجود داخل المعسكر، وكان بعضهم خبيراً بذلك، كما يتم الاستفادة من عدد من المدنيين المدربين على حمل السلاح الذين كانوا قد وصلوا فعلاً من مدينة الكاظمية والحرية وغيرها*.

بعد ذلك ستنقسم قوة المعسكر إلى قسمين، الأول يذهب إلى مخازن العتاد والسلاح لتوزيعه على الجنود والمدنيين حسب الحاجة والطلب. ويذهب القسم الثاني للمساهمة في احتلال مرسلات الإذاعة التي لا تبعد سوى بضع عشرات من الأمتار وليس هناك من قوة معادية للحركة فيها، وبعد إتمام الأمر يتحرك الجميع أيضاً إلى معسكر الوشاش الذي ستجتمع فيه قوة مدرعة ومحمولة ومشاة كبيرة من المعسكرات الثلاثة أبو غريب والوشاش والتاجي، فتتحرك قوة كبيرة من هناك باتجاه مقر الإذاعة في الصالحية، وتبقى قوة أخرى مهمتها قطع الطريق على أية قوات يمكن أن تصل إلى بغداد من معسكر الحبانية.

معسكر الوشاش

أصبح هذا المعسكر في تلك الفترة من معسكرات بغداد الضعيفة أو شبه الفارغة، لأن أكثر وحداته كانت قد أُرسلت للقتال في كردستان ضد الحركة القومية الكردية. كما لم تكن القوة التي أعدها الثوار في معسكر الوشاش قوية كفاية، بل اقتصرت على تواجد جيد في فوج التدريب، وعلى وجود دبابتين من المفترض أن يقود كل منها عريف إلى حيث جسري الأحرار والجمهورية ويرافقها عدد من الجنود، لتكون كل واحدة منها أشبه بنواة للسيطرة على رأسيهما من طرف

---

* أخبرني عدد من الأصدقاء الذين التقيت بهم في سوريا وتشيكوسلوفاكيا وهولندا والجزائر بأنهم كانوا مبلغين منذ ما قبل ٣ تموز بأيام بالاستعداد لتلقي تعليمات الالتحاق بأحد المعسكرات الثلاث التاجي وأبو غريب والوشاش، وكل يلتحق بأقرب للمعسكرات إلى سكنه، فيلتحق على سبيل المثال أبناء الحرية والكاظمية وبعض التجمعات والأحياء الشعبية إلى أبو غريب أو التاجي. ومن المعلومات الراشحة من كل المبلَّغين بموعد الحركة، اتضح إن هذه المهمة كانت قد أُنجزت بدقة مقبولة نسبياً، فذهب أغلبية المبلَغين إلى مناطق قريبة من مواقع مهماتهم المفترضة، في حين شوهدت مجموعات من الشباب في تجمعات صغيرة (بين الثلاثة والخمسة) تنتشر في الشواكة والشاكرية وبصورة خاصة في مدينة الثورة ومحيطها وغيرها من أحياء بغداد الجديدة المتعاطفة مع عهد الزعيم عبد الكريم، تتحين ساعة الصفر التي تبدأ إما بإذاعة بيانات الحركة من الراديو أو مع طيران الطائرات التي ستغير على القصر الجمهوري ووزارة الدفاع، ولكن وبعد طول انتظار، أذاع راديو بغداد نبأ فشل التمرد بدلاً من بيان الثورة الأول.

الكرخ[1]، أما القوة الموجودة داخل المعسكر فحُددت مهمتها سلفاً: إما السيطرة عليه أو عرقلة حركة القوة المعادية فيه ريثما تصل النجدة المتفق عليها من معسكري (أبو غريب) والتاجي، وقد خصصت قيادة الحركة لهم عدداً من المدنيين والجنود المتقاعدين أو المطرودين ليدخلوا المعسكر بملابس عسكرية سبق إعدادها.. ويذكر كثيرون من القياديين الشيوعيين بأن مركز قيادة الحزب الشيوعي كانت لديه قوة واتصال بعدد كبير من الجنود وضباط الصف في معسكر الوشاش[2]، وكان هؤلاء سينسقون مع أنصار الحركة فيما لو تحقق أي نوع من التنسيق بين الطرفين (حبيب وعبلي)، أو حتى في حالة معرفتهم لنوايا وطبيعة الانقلابيين الجدد.

معسكر التاجي

وفي معسكر التاجي ذهب الثوار إلى سجن المعسكر في الساعة الرابعة فجر ٣ تموز ١٩٦٣ وأخبروا الضباط المعتقلين فيه بأنهم مستعدون لفتح الأبواب لكنهم ينتظرون الأخبار من معسكر الرشيد وليس هناك ما يمنعهم أو يعيقهم عن فعل ذلك، ولكنهم يفضلون انتظار وصول الإشارة من معسكر الرشيد والتي هي إما وصول الضباط المطلقين من السجن العسكري، أو سماع البيان الأول وكان بيدهم راديو ترانزستور، أو على الأقل رؤية الطائرات في الجو.

وكان المسؤول المؤقت عن التحرك هناك هو نائب العريف عبد الواحد راشد الزهيري الذي لم يكن عضواً في الحزب الشيوعي، ولم تختره جهة سياسية معينة، بل اعتمده الجنود أنفسهم، فوضع على كتفه رتبة عسكرية وذهب بسلاحه إلى الجندي الأول فالح حسن المسؤول عن جنود الخفر في تلك الليلة وطلب منه البدء بترتيبات السيطرة على المعسكر، لكن الأخير رفض التنفيذ قائلاً: ننتظر البيان ثم نقوم بواجبنا: "ما كو بيان ما كو تنفيذ!"، وكانت تجمع بين الاثنين صداقة حميمة وينحدران من ناحية واحدة.

وظلوا ينتظرون حتى وصلت أنباء فشل الحركة في مركزها، فتوزعوا رغم إنهم كانوا طيلة فترة الانتظار قادرين على السيطرة على المعسكر دون الدخول بمعركة

---

١ ــ زكي وسعاد خيري، تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، جزء أول، صفحة ٤١٥.
٢ ــ باقر إبراهيم الموسوي، لقاء شخصي مع المؤلف، السويد ٢٠٠١.

مباشرة، بل يقومون باعتقال بعض الضباط فيستتب الأمر داخل المعسكر النائم، وكان أنصارهم داخل المعسكر أكثر عدداً من أعدائهم، في حين ليس لأغلبية الجنود الساحقة شأن بالسياسة، وسينتظرون ليساندوا الغالب.

ولما لم يتأكد لهم وجود عمليات أو أحداث غير طبيعية تجري على الأرض، فضلاً عن عدم وصول الضباط المطلقي السراح إضافة إلى مؤشرات مثبطة أخرى دفعتهم في نهاية المطاف العودة بهدوء إلى مهاجعهم وكأن شيئاً لم يكن. ورغم ذلك فقد حكمت المحكمة العسكرية بإعدام أولئك الذين كانوا سيسهمون بالحركة الفاشلة فهرب بعضهم وأعدم آخرون بينهم نائب العريف عبد الواحد راشد الزهيري وزميله الجندي الأول فالح حسن (وكلاهما من أهالي المشرح ــ الحلفاية ــ محافظة العمارة) في ١٩٦٣/١٠/٢ في ميدان مدرسة المخابرة بمعسكر التاجي أمام مرأى جنود المعسكر ليعتبروا*.

ــ وشاركت عناصر من الفرقة الخامسة في إحداث قلاقل بمقرها في الكرنتينة، وكان هدفها إثارة الارتباك ونشر أخبار عن حالة من عدم الاستقرار تسود القوات المسلحة، للتأثير على معنويات الضباط الموالين للسلطة من جهة وتقوية استعداد التضامن مع التمرد المنتظر إعلانه من معسكر الرشيد من جهة أخرى، وقاد التحرك هناك بعض جنود المقر.. وأدى فشل الحركة في الرشيد إلى اعتقال غالبيتهم وإعدامهم فوراً.

معسكر الحبانية

تمكنت قيادة الحركة من الاتصال بخلايا باقية من تنظيم الحزب الشيوعي واتفقت معهم على السيطرة على المعسكر أو شل حركته، على أن يتعاونوا مع بعض المدنيين المتحمسين، لكنهم لم يعرفوا عن توقيت الحركة أكثر من أن يظلوا يوم ٣ تموز في حالة إنذار، غير إن أي شكل من أشكال الاستعداد لم يلحظ في الحبانية.

---

* ويقول نعيم الزهيري إن اتفاقاً كان قد حصل قبل قيام الحركة؛ بتنصيبه مسؤولاً سياسياً مؤقتاً عن معسكر التاجي، إذا ما تمت السيطرة عليه، ريثما يطلق سراح الضباط المعتقلين في معسكرهم (التاجي)، وريثما يصل الضباط الذين سيطلق سراحهم من السجن رقم واحد، لاستلام زمام القيادة منهم. ويقول التقرير الذي رفعه فيما بعد هاشم الآلوسي؛ إن أهم مهمات معسكر التاجي في حالة النجاح في السيطرة عليه كانت أيضاً التوجه نحو معسكر الوشاش للمساعدة في محاصرته والسيطرة عليه.

وأعتقد إن بعض الاتصالات التي أجرتها قيادة الحركة لم تكن كثيرة الجدوى، إلاّ إذا كان القصد منها نوع من طمأنة النفس وإرضائها بسبب قلقها من هول ما ستقدم عليه، ولا شك إن الحديث عن معسكر الحبانية كان واحداً من تلك الاتصالات غير الواقعية وغير المجدية.

وكانت مهمة معسكر المحاويل، في حالة نجاح الجنود المؤيدين للحركة السيطرة عليه، هي تقديم المساندة للتمرد، والسيطرة على منطقة الفرات حيث توجد فيه مدفعية قوس بعيدة المدى[1].

مقر الفرقة الأولى في محافظة الديوانية

قام بعض الجنود وأغلبهم شيوعيون بمحاولة تمرد في مقر الفرقة الأولى بالديوانية بنفس الوقت الذي بدأ فيه تمرد جنود معسكر الرشيد تقريباً، وكانت عملية التمرد قد استمرت أكثر من ساعتين وهي مدة ليست قصيرة، وأغلب الظن أن المحاولة جاءت مفاجئة لضباط المقر الذين تريثوا ليعلموا أكثر عن حقيقة الموقف في بغداد، قبل أن يتحركوا لإخمادها واعتقال مدبريها. وكانت تلك محاولة جريئة سببت الارتباك الكافي المطلوب من قيامها.

وهناك أسباب كثيرة، منها ما يتعلق: **أولاً**: بميول سكان المنطقة المحليين (الديوانية ومحيطها الريفي) التي تقاسم عبد الكريم قاسم والشيوعيين والمرجعية الإسلامية الممثلة بالسيد محسن الحكيم تأييد شرائح المجتمع الرئيسية فيها، في حين كان البعثيون والناصريون وبقايا حزب الاستقلال أقلية فيها. **وثانياً: ما يتعلق** بالميول السياسية للجنود وضباط الصف، وكلها تُشجِع الظن بأنه لو كانت أخبار انتفاضة الرشيد قد جاءت أفضل لهم، لأصبح احتمال سيطرة الجنود على مقر الفرقة ممكناً بالتعاون مع بعض الضباط المترددين والجمهور المتوقع خروجه بعد الاستماع للإذاعة وهي تذيع أنباء الحركة، كما إن منظمة الفرات الأوسط للحزب الشيوعي كانت قوية جداً في الديوانية وتمتلك خبرة كبيرة على التحريض، خصوصاً وإن الضباط كانوا قد أظهروا تريثاً أو تردداً قبل الرد على التمرد.

---

١ ـــ هاشم الآلوسي، تقرير من ثمان صفحات. راجع زكي وسعاد خيري، م. س، صفحة ٤١٥.

الشرطة

انخرط جزء من فصيل شرطة (شرطة الموسيقى)، وهم مفوض ورئيس عرفاء وعريفان وثمانية شرطة وكانت مهمتهم السيطرة على جهاز لاسلكي موجود في القصر الأبيض الذي هو مقر عملهم، حيث يشاركون في مراسم استقبال ضيوف الدولة ورؤساء الدول الزائرين. لكن العملية لم تنفذ بسبب الارتباك الذي حصل في معسكر الرشيد وبالتالي عدم وصول الإشارة المتفق عليها، فتم اعتقالهم جميعاً[1].

ومن ناحية أخرى كان عدد هائل من المراتب الدنيا للشرطة قد جاءوا من محافظات الناصرية والعمارة والكوت وقد أمِل الثوار بعدم قيام هذا السلك بتنفيذ أوامر ضباطه بجدية.

ـ كما انتشرت بين الجنود حكاية عن وجود صلة بين قيادة الحركة من جهة والمعارضة الكردية من جهة أخرى، وعن وجود اتفاق بين الطرفين بالتعاون بينهما في حالة إعلان الحركة. وأظن إن تلك كانت مجرد دعاية تميز مطلقيها بخيال خصب، وربما تصوروا ذلك بسبب وجود ضباط وكوادر حزبية مدنية لاجئة إلى منطقة الحزب الديمقراطي الكردستاني.

وكانت اتصالات أخرى كثيرة قد جرت أو أُعِّد لها مع مناطق مدنية أخرى كالناصرية والفرات الأوسط وأحياء وتوابع بغدادية أهمها مدينة الثورة، وذلك كله كان يهدف إلى التمرد المتزامن مع حركة معسكر الرشيد للتضامن أو على الأقل إثارة القلاقل وإرباك السلطات، والإيحاء بقوةِ واتساع الحركة من جهة وهشاشة النظام من جهة أخرى، مما قد يؤثر على معنويات رجال السلطة القائمة وقادة الوحدات العسكرية كي يتأخروا في نجدتها، وبذلك يتيحوا وقتاً ضرورياً تأمل الحركة خلاله بالتحاق أنصار كثيرين متوقعين، سواءبمعسكر الرشيد أو إلى المعسكرات الأخرى..

المناطق المتعاطفة مع الحركة في بغداد و محيطها.

مدينة الثورة

كانت قيادة الحركة قد خصصت مجموعة من مؤيديها المدنيين ممن خدموا

---

١ ـ نعيم الزهيري، رسالة خاصة للمؤلف، عام ٢٠٠٠.

العسكرية من أبناء مدينة الثورة للنـزول إلى كراج السيارات القريب نسبياً من ساحة الطيران في مركز مدينة بغداد تقريباً، بهدف الدخول إلى مدارس الشرطة المجاورة والاستيلاء عليها وغنم الأسلحة، ثم التوجه نحو سجن "الموقف العام" في السراي، لإطلاق سراح المعتقلين السياسيين. ويقع الموقف العام في قلب مدينة بغداد وقريباً من وزارة الدفاع ومن محكمة الشعب التي تحولت أيضاً بعد سقوط حكومة قاسم إلى معتقل ومركز للتحقيق والتعذيب وتنفيذ أوامر القتل الكيفية.

وكانت هذه العملية لو تمت لخلقت بلبلة كبيرة للحكومة القائمة، ولكن انتظارهم الذي دام طويلاً في موقف السيارات المزدحم ومحيطه كان دون طائل.

وكانت مدينة الثورة تعتبر المخزن الذي بحث بداخله المشرفون على الحركة عن الأنصار الشباب، من جنود وضباط صف هاربين ومسرحين من الخدمة العسكرية إلى سياسيين ملاحقين وأصناف أخرى، ولكل صنف منهم أسبابه الخاصة في تقويض الكيان الحكومي القائم، فاستعد عدد كبير منهم للمساهمة في تنفيذ المهام، التي بدأ نشطي الحركة التبليغ بها وتوزيعها منذ الصباح الباكر، وأكثرها يتركز حول السيطرة على مفارق الطرق ورؤوس الجسور، أو على الأقل إثارة القلاقل والزحف على المناطق المجاورة والقريبة، أو حتى على مركز مدينة بغداد إذا تطلب الأمر. وكان يمكن ملاحظة نشطين كثيرين في الأيام السابقة للحركة وليلتها، يستعدون ويتحاورون عن الحدث القادم مع المتعاطفين، ويوزعون أربطة أذرع من القماش كتب عليها "م. ش" أي "مقاومة شعبية" لربطها بمجرد السماع من الراديو نبأ إعلان التمرد أو الانتفاضة[1].

والمقاومة الشعبية هو اسم لمليشيا شبه شيوعية تشكلت بقرار حكومي لحماية الجمهورية الفتية، وكان العقيد طه البامرني وهو صديق للشيوعيين قد عُيِّن قائداً لها، وقد أسست هذه الميليشيا ولأول مرة في تاريخ العراق لوجود قوة شبه حكومية تنتشر على مفارق الطرق بين المدن وتفتش المسافرين، وما يصاحب ذلك عادة من تجاوزات على حقوق الناس، ومن المؤسف إن الحكومات والأحزاب الحاكمة التالية قد استمرت بنفس النهج ولكن بطرق أشد وطأة على الناس، وبقيود قانونية أقل ثم جرى تطويرها منذ عهد عبد السلام عارف إلى واحدة من المهمات الثابتة للجيش

---

١ ـــ هادي عاشور "أبو رافع"، لقاء بمدينة لايدردورب مع المؤلف في عام ١٩٩٧.

والأمن، فتحولت أرض العراق منذ أكثر من أربعين عاماً إلى شبكة كثيفة جداً من نقاط التفتيش ضد المواطنين، ويذكر إن عبد الكريم قاسم كان قد أحس في سنوات حكمه الأخيرة بعواقبها الوخيمة على مبدأ سيادة القانون فقلصها تدريجياً حتى ألغاها.

المناطق والأرياف المحيطة ببغداد

اتصلت "القيادة الثورية" للحركة بالأرياف المحيطة ببغداد، واستثمرت قيادتها وأنصارها شؤون كثيرة؛ أهمها العلاقات العشائرية والثقة التي تقوم عادة بين أبناء العشيرة والقرية والناحية الواحدة، وناشدوا في مناطق معينة، لاسيما في اليوسفية والمحمودية، عشائرمعينة بعضها متضررة من حركة ٨ شباط ٦٣ وأخرى كانت موالية لحكومة عبد الكريم قاسم، وأخبروا النشيطين وأهل الرأي فيها بوجود نية للقيام بحركة عسكرية انقلابية، فحصلوا على وعود من بعض أبناء تلك العشائر الموالين لهم والمختفين فيها، ومن رفاقهم الذين لجئوا إلى تلك المناطق بالالتحاق بالحركة فور إعلانها، وبأنهم سيستمعون صباح كل يوم إلى الإذاعة. وكان أحد أبناء تلك المنطقة المتنفذين حزبياً واجتماعياًوعشائرياً قد أخبرني بأنهم أبلغوا بأن موعد الحركة سيكون يوم ٥ تموز، وقد أدى تقديمه إلى يوم ٣ تموز إلى إرباك استعداداتنا.

ملتحقون ومتعاونون آخرون الآلوسي والبياتي والخفاجي

وفي حين كان الوضع التنظيمي الحزبي في مدينة بغداد كله منفرط وتسوده فوضى، ويجول عدد كبير من الحزبيين غير المرتبطين في طرقاتها وأحيائها الخلفية، ويلتقي هؤلاء مع بعضهم أحياناً ويتحدثون، فيعلم أغلبهم بوجود تحضيرات للقيام بحركة في تموز، حاول مدنيو الحركة الاستفادة من ذلك فاتصلوا بالحزبيين المقطوعين مدعين بأنهم يمثلون الحزب الشيوعي وعلى صلة بمركزه.

وفي ذلك يقول كل من زكي خيري وسعاد خيري في كتابهما "تاريخ الحزب الشيوعي": "كان هدف قيادة الانتفاضة: حشد الشيوعيين والأنصار والمؤيدين والاتصال بالمنقطعين عن التنظيم الحزبي للتحضير لحركة مسلحة ضد الحكم البعثي، والاستيلاء على السلطة باسم الحزب الشيوعي كما جاء في التقرير الذي قدمه أحد

قادتها إلى الحزب عن الإنتفاضة[1].

ويُذْكر إن هاشم الآلوسي الذي اعتبره زكي خيري في النص السابق "أحد قادة الانتفاضة"، كان قد قتل في عام ١٩٦٩ تحت التعذيب في قصر النهاية كمناضل في "القيادة المركزية" للحزب الشيوعي العراقي.

ورغم إن زكي خيري لم يكن ليقول عنه "أحد قادة الانتفاضة"، ولا كان باقر إبراهيم قد أكد لمؤلف الكتاب نفس الأمر لو لم يكونا متأكدان من صحة الأمر، وسواء كان هاشم شميس الآلوسي[2] "عضو محلية الرصافة"، مجرد متعاون مع الحركة "الانتفاضة" أو كان عضواً في قيادتها، فقد سعى لدى من اتصل بهم من القيادات لإقناعهم بوجهة نظر جنود معسكر الرشيد. ويعتقد عدد من المعاصرين الذين التقينا بهم إنه كان قد رتب أمر التنسيق بين جنود معسكر التاجي وجماعة معسكر الرشيد، لكن تسارع الأحداث وعوامل أخرى بينها اضطرار تقديم موعد الحركة خوفاً من الانكشاف كان قد أربك ذلك التنسيق.

نسق المشرفون على قيادة الحركة مع بقايا التنظيمات الشيوعية وبقدر الإمكان مع بعض الخلايا التي أُطلِق عليها اسم "التنظيم الجديد"، وقد لعب **هاشم الآلوسي**

---

١ ـ سعاد وزكي خيري، من تاريخ....، م. س، صفحة ٤١٤.

٢ ـ انتقل من آلوس التي كان والده يعمل فيها كرجل دين، وربما كان لخلفيته الدينية دور في استقامته وإخلاصه. سكن مدينة الحرية (الهادي) في بغداد عام ١٩٥٧، والتحق بخلية شيوعية وكان منظمه إبراهيم الحريري (لقاء خاص مع الحريري في أربيل عام ٢٠٠١) وتطور شأنه ليصبح بعد ثورة تموز ١٩٥٨ عضو لجنة مدينة الكاظمية وعندما أصبحت بغداد "منطقة" صار اسمها محلية الكاظمية. كانت ثقافته بسيطة أو متوسطة حسب تقديرات ذلك الزمان، وكان الآلوسي هذا ثائراً متمرساً، متمرداً وشجاعاً، وكانت اختياراته باستمرار يسارية ورافضة للظلم بكل أشكاله، ولذلك سنجده دائماً مع الحركات الثورية المتمردة أو المنشقة، وعندما قامت الانتفاضة كان عضواً في "محلية" الرصافة، وبنفس الوقت على صلة وطيدة مع المنظمة المدنية التي وظفت الجنود للقيام بانتفاضة عسكرية، كما سعى مع كل من التقى به من القياديين الشيوعيين غير المعتقلين لإقناعهم بقدرة الجنود على فعل شيء جدي. وعندما خرج من المعتقل كان أشد عزماً على مواصلة نشاطه وكأنه قد تعاقد مع العمل السياسي بصورة لا عودة فيها، وقدم للحزب الشيوعي تقريراً مفصلاً من ثمان صفحات (قطع كبير) حول ملابسات حركة حسن سريع، ومن غير المعروف إذا كان الحزب يحتفظ بها. وكان أهم استنتاج تضمنته تلك الوثيقة المهمة هو إن حركة سريع في ٣ تموز ١٩٦٣ كانت تمتلك حظاً كبيراً بالنجاح، و لم تكن لتفشل لولا بعض الملابسات والمفاجآت التي كان يمكن تلافيها.

و"**علي البياتي**"[1] دور الوسيط مع بعضها، كما توسط **عزيز الخفاجي** بين قياديين في الحركة وتنظيم الكاظمية ومناطق أخرى كتنظيم الكرخ، الذي كان عضواً قيادياً في محليته. وتعاون معهم وجيه السامرائي (وكان من الأشقياء "القبضايات" المسيسين) وقد تكلف بشراء نجمات ذهبية "تقليد" من محلات القرطاسية في سوق السراي بشارع المتنبي لوضعها على أكتاف بعض الجنود، ولا أحد يعلم هل كان وجيه السامرائي الذي توظف رسمياً بعد عدة سنوات في جهاز الأمن الحكومي متدرجاً إلى نائب مفوض شرطة ومنسب لجهاز الأمن، مدسوساً ومتعاوناً مع الأجهزة الأمنية الحكومية منذ ذلك الحين أم لا؟

وكان المتعاونون مع مجموعة (سريع — حبيب) يجوبون المناطق في مساء ٢ تموز ٦٣، ليبلغوا ثقاتهم بأهمية التواجد غداً منذ الفجر في مناطق الزعفرانية وكمب سارة والثورة وقرب ساحة الطيران وأبو غريب والتاجي والشاكرية والشواكة ليكونوا قريبين من إذاعة بغداد وغيرها، ولا بأس من المبيت في بيوت معارفهم القريبة من أهدافهم، دون إعلامهم بشكل صريح بتفاصيل ما سيحصل في الغد، ولذلك حلت الهواجس محل الوثوق لدى هذه الفئة من الأنصار.

وعلى سبيل المثال جاء إلى منطقة الهيتاويين ببغداد أحد عمال البناء (وهو معروف لأبناء المنطقة الرابعة وساحة النهضة وشارع الوثبة، وبعد عدة لقاءات أخذ مجموعة صغيرة منهم إلى جندي (رئيس عرفاء أو عريف) يعمل في سلاح الدبابات ومهمته حماية الإذاعة للتعرف عليهم، ومن أجل إقامة الدليل على وجود الرجال المستعدين للاسهام في الحركة الانقلابية. وفي ليلة قيام الحركة أبلغهم: "استعدوا لليوم التالي ومهمتكم إذاعة الصالحية، لكن لا شيء من ذلك سيحصل ما لم تسمعوا نبأ الثورة من إذاعة الحرية التي ظلت صامتة لا تقول شيئاً"[2].

مثال آخر: تم جمع مجموعة صغيرة من الحزبيين المنقطعين في مدينة الحرية (الهادي) من قبل مزارع كان على صلة حزبية سابقة بهم، واتفق مع المجموعة أن تقود ما

---

١ — علي البياتي وهو موظف في مصلحة المبايعات الحكومية وتمكن بعد فشل حركة حسن سريع من الهرب إلى كردستان العراق والتحق بجماعة سليم الفخري، ثم التحق في منتصف السبعينات بمنظمة الشيوعيين الثوريين، وأصبح الشخص الثاني في قيادة التنظيم، إلى أن تمكنت المخابرات العراقية من اصطياده في عام ١٩٨١ بعد استدراجه بواسطة أحد الخونة من ذوي الولاء المزدوج واغتياله.

٢ — د. عقيل الناصري، لقاء خاص مع المؤلف، عام ٢٠٠٠.

يتسنى من أشخاص مستعدين للمشاركة عبر طريق غير سالكة، ضحلة وملحية، تمتد من خلف مدينة الحرية إلى مرسلات "أبو غريب" وينتظرون على شكل مجموعات صغيرة تلوذ بأحراش وتكوينات صغيرة، وبمجرد سماع البيان الأول من الترانزسترز يدخلون المعسكر الذي سيكون مفتوحاً لهم للتعاون مع جنودها المبلغين بالتنفيذ.

منظمة الفرات الأوسط، بين النظرية المجردة والواقع

وكما قدَّمنا اهتمت قيادة الحركة بأمر تهيئة أجواء سياسية عملية مناسبة ترافق إعلانها، وضمن هذا المسعى تمكنت قيادة الحركة "القيادة الثورية للجبهة الشعبية" من إرسال مندوبين عنها إلى منظمة الفرات الأوسط للحزب الشيوعي، التي كانت هي ومنظمة كردستان البعيدة المحتْمية بالحزب الديمقراطي الكردستاني وبشخص الزعيم الملا مصطفى البارزاني، المنظمتان الشيوعيتان الوحيدتان اللتان حافظتا على كوادرهما وهيكلهما الأساسي الكبير سليماً، ففي الفرات الأوسط لاذ قادتها بمنطقة ريفية شاسعة وعميقة وشديدة الكثافة، تقطنها عشائر عربية عريقة في الوطنية اشتهرت بالبأس والكرم، وتقع بين، أو تحيط بها، أربع مدن رئيسية هي بابل (الحلة) شمالاً والنجف جنوباً وكربلاء غرباً والقادسية (الديوانية) شرقاً، ويستطيع المختفي فيها أن يتسلل بسهولة إلى بغداد والجنوب وإلى شرقي دجلة وصولاً لمحافظة الكوت، أو إلى إيران وكردستان وللبادية العراقية السورية السعودية.

وكانت المنظمة بقيادة باقر إبراهيم الموسوي[1] (عضو مكتب سياسي، ثم واحداً من أهم أعضائه فيما بعد)، وعضوية صالح الرازقي وحسين سلطان صبي وعدنان عباس ومحمد الخضري ومعن جواد ومعهم زكي خيري عضو المكتب

---

١ ــ ولد باقر إبراهيم في الكوفة في ٢٢ تموز ١٩٣٢ إنتسب للحزب الشيوعي عام ١٩٤٨، اعتقل وسجن مرات عديدة ولسنوات، وصار عضواً في اللجنة المركزية في ١٩٥٩ وعضواً في المكتب السياسي منذ عام ١٩٦٢، ثم مسؤول التنظيم المركزي حتى عام ١٩٨٤ حينما اختلف مع قيادة الحزب حول أساليب مكافحة الديكتاتورية الحاكمة في العراق، ويمارس منذ ١٩٨٩ العمل لتأسيس تيار ماركسي مستقل وفق مفهومه الخاص. أصدر عدة كتب ومقالات سياسية وينشغل منذ فترة في كتابة مذكراته أو تجربته التي عبر (اجتاز) بها واحدة من أخطر المراحل السياسية العراقية المعاصرة.

السياسي المعاقب أو المخفض العضوية.

وكما قلنا فقد تحقق الاتصال مع منظمة الفرات الأوسط العاصية والعصية، عندما استطاع ممثلين عن حركة حسن سريع اللقاء في مدينة الكوفة بأحد النشطاء الفراتيين "عبد الحسين شعلان ماضي" وهو شيوعي رغم إنه ابن لأحد كبار ملاك الأراضي، وكان هدف مندوب الحركة الحصول على سند وتضامن شعبي فعال من أبناء المنطقة، وعلى مساهمة فعلية إن أمكن ذلك، أي المساعدة بتزويدهم ببعض العسكريين الهاربين لأسباب سياسية أو من الذين أدوا خدمة العلم، ويكون أفضل لو جرى تزويدهم بأسماء بعض الجنود الشيوعيين من أبناء الفرات الأوسط الذين مازالوا في الخدمة بمعسكرات بغداد.

لكن قيادة الفرات الأوسط لم تعط إجابة قاطعة بل اشترطت، على الأقل، معرفة اسماً علماً واحداً (معروفاً) من قيادة الحركة، لكي يعرفوا مع من يتعاملون؟

غير إن مندوب الحركة رفض بشكل قاطع الكشف عن أي اسم. فتمَّ الاتفاق على حل وسط أو حل الحد الأدنى، وهو أن تساند منظمة الحزب الشيوعي للفرات الأوسط تحرك الجنود فوراً بعد الإعلان عن بدء التحرك العسكري الفعلي الذي سيعلن من إذاعة الحرية في سلمان باك، كما ستلعب دوراً في تنظيم لقاء بين ممثل رفيع المستوى عن الحركة ومركز الحزب في بغداد (جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي)[1].

ولذلك قال باقر إبراهيم الموسوي في جلسة خاصة مع المؤلف بدمشق عام ١٩٩٤: "وهكذا كانت الرؤوس حامية وسارت في تنفيذ الأمر".

وكان واضحاً إن الجنود الثائرون لن يتوقفوا خلال انتظارهم للموعد عن العمل المتواصل لإعداد ما عزموا عليه، كما إن مركز الحزب لم يستسلم وينتظر، بل ظل يبحث عن وسائل أخرى للاتصال، وذلك من أجل أن لا يفاجأ عندما تعلن الحركة عن نفسها وتضعه أمام الأمر الواقع، ولكن جهد الحزب الحذِر لم يثمر، و لم يبق

---

١ ـــ في هذا السياق يقول باقر إبراهيم: "اتصل بنا أكثر من مندوب عن قيادة حركة معسكر الرشيد، وقد انتدبنا المرحوم عبد الحسين شعلان للاتصال بهم في الكوفة وتحت الحماية المسلحة، وتحدثوا باسم قيادة الحركة ولكنهم لم يجيبونا عن أسماء قادتهم لنتعرف عليهم أو على أحدهم على الأقل"، وأضاف: "كانوا يتحدثون بثقة عالية عن ثورة قريبة.. وطلبوا إلينا أن نكون في حالة تهيؤ فوعدناهم بذلك، ثم سمعنا من الإذاعة فشل الحركة".

أمامه بعد حين سوى الانتظار بفارغ الصبر موعد اللقاء المباشر المضروب بين محمد صالح العبلي وبين محمد حبيب وآخرين، لكن الزمان لم ينطو، ولم يصل الطرفان إلى المكان، ولم يتحقق اللقاء، وفشلت الحركة وقتل مَنْ قُتل في الميدان واعتقل آخرون، فأُعدم أكثرهم بعد محاكمات عسكرية سريعة، وفَرَّ جماعة منهم بصورة غير منظمة، كَما تمّ اعتقال القيادة الثانية بعد سحق قيادة سلام عادل، والمؤلفة من جمال الحيدري والعبلي ووهبي وإعدامهم.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر أن باقر إبراهيم أخبر المؤلف بأن رسالة من جمال الحيدري كانت قد أُرسلت إلى منظمات الحزب الشيوعي العراقي في الوسط والجنوب تحذرهم من المغامرة، ولذلك كان أقصى ما يستطيع باقر إبراهيم الموسوي وتنظيم الكوت المرتبط به بسبب انقطاعه وتنظيم البصرة الالتزام به، هو المساندة والمساهمة فقط في حالة اندلاع الانتفاضة وليس قبلها.

بين زكي خيري وباقر إبراهيم الموسوي غَنْم أسلحة حامية النجف والزحف بالفلاحين على بغداد!!

تحدث زكي خيري حول تلك المرحلة بشيء من عدم الرضا عن إدارة باقر إبراهيم الموسوي لمنظمة الفرات الأوسط فوصفه بالمتحفظ وغير الطموح والمستسلم لليأس مستشهداً بعدم موافقته على غنم ما لا يقل عن ٢٠٠ بندقية من حامية النجف، وعن رفضه لأفكاره "زكي خيري" الداعية لعمليات كفاح مسلح (أضرب واهرب)[١]، التي تسبق الزحف بالفلاحين والكوادر المناضلين من أبناء المدن الوسطى على بغداد لإسقاط السلطة بعد أن يتم غنم الأسلحة وتحويل عربات القطار بديلاً عن المدرعات التي يتعذر الحصول عليها... وغير ذلك من الأفكار النظرية الحالمة البعيدة عن الواقع، والتي ربما تعود لقراءات الرجل عن الأدب الثوري في مناطق أخرى من العالم مثل الحرب الأهلية الأسبانية والإيطالية وحرب الأنصار السوفيتية ضد جيوش النازية المحتلة، بعد وضع الرتوش وإضفاء العناوين البراقة على أحداثها وتخليصها مما رافقها من دمار رهيب عانت منها تلك الشعوب، فضلاً عن اضطرار أبناء تلك البلدان للدخول في صراعات موت!! بسبب حالة الحرمان

١ ـــ راجع زكي خيري، صدى السنين، صفحة ٢٥٨.

والجوع القاتل، و لم يكن العراقيون عام ١٩٦٣ يعيشون مثل تلك الحالة.

أما باقر إبـراهيم فقد اعترف بوقوفه ضد فكرة مهاجمة حامية النجف، وضـد فكرة الكفاح المسلح على طريقة "أضرب وأهرب"، وقال: "لو كنت قد استمعت إلى أطروحات زكي خيري لألحَقْتَ الضرر بالمنظمة ولَتحـوَل عملنـا إلى مأسـاة ومهزلة".. وأضاف: "إن عقل زكي خيري كان نظرياً، غير ملموس وغير ناضج". وقال: إن منظمة الفرات الأوسط الحزبية لم تكن تقوى فعلياً سوى الدفاع عـن النفس والكمون بانتظار التغيرات المتوقعة، وأضاف: و"كنا نتوقع ونسمع عن تزايد التناقضات بين البعثيين والقوميين، وبين الرئيس عبد السلام عارف وقيادة البعـث، وبين الحرس القومي وبعض أطراف القيادة القطرية، وبين حـزب البعـث وعبـد الناصر". ويستمر باقر إبـراهيم قائلاً: "ولا أدري كيف يكون ممكناً أن نهاجم المدن ونتصدى أو نـزحف على سلطة مازالت قوية، في وقت كنا فيه عـاجزين عـن الوصول إلى الجرائد الرسمية التي تباع في الأسواق لنعرف ماذا يدور في البلاد؟"...

ويضيف باقر إبـراهيم قائلاً: وأغرب من ذلك إن زكي خيري كان يـرى إن تكوين مفارز تقتلع أعمدة التلفونات بين المدن وتهاجم مراكزهـا الحيويـة لغـنم الأسلحة والمواد، سيشكل بسرعة المقدمة الضرورية لزحف منظمة الفرات الأوسط على بغداد واحتلالها. وكانت تلك رومانسية بل تحليقاً على أجنحـة الخيـال. لأن منظمة الفرات الأوسط كانت قد امتلكت في البداية بعض الطموحـات بسـبب امتلاكها إمكانية معقولة نسبياً للمقاومة ولأنها احتفظت بصلات جيدة مع عدد غير قليل من العسكريين الذين مازالوا قيد الخدمة العسكرية. ولكـن رجالهـا "بعـد استقرارهم في الريف وبعد استقرار انقلاب ٨ شباط، أصبحوا يفهمون جيداً نفسية الفلاحين وترددهم، وأصبح شعورهم بالمسؤولية أكبـر وأنضج، فلم نكن نستطيع المجازفة بحياة الناس".

ولذلك كان موقف التراجع عن الأفكار الانقلابية الذي اتخذه باقر إبـراهيم وجماعته حكيماً، ومعبـراً عن ميل واقعي دَفَعَ إلى اتخاذ قرار بعـدم الـدخول في معارك هي في كل الحسابات مثيرة للطرف الأقـوى وخاسـرة سـلفاً، فتكـون التضحيات فيها من طرف واحد ولا طائل من ورائها. ولكن ما يؤسـف له، كما يقـول باقر إبـراهيم: "إن زكي خيري الذي لم يستطع أن يكون مُنظِّراً واقعياً، لم

يستطع هضم الدرس الجديد أيضاً"(١).

ومن ناحيتي "المؤلف" أتصور إن الأمر لو حصل كما أراد زكي خيري وخرجت المنظمة من مخابئها الريفية إلى المدن لمهاجمة الحامية أو المؤسسات الحكومية لحصل عدد كبير من القادة العسكريين القابعين في بغداد على فرصتهم الذهبية لسحق مَـنْ تبقى من الشيوعيين وجعلهم عذراً لضرب النجف ومحيطهـا والكوفـة وأريـاف الديوانية والحلة وكربلاء وسحقها في معركة لن يقف الشعب فيها عملياً إلى جانب الشيوعيين.

وأتصور إن باقر إبـراهيم كان قد استفاد من التعقل أولاً، ومن تجربة منظمتـه بعد ٨ شباط بأيام ثانياً، فقد أرسل بـريداً حزبياً إلى بيت حسن عوينـة أو بيـت إبـراهيم الحكاك (كلاهما قُتل) في بغداد، وكلاهما كان عضواً في لجنـة التنظـيم المركزية ل. ت. م. ويتضمن البـريد فكرةً واقتراحاً، وتدور الفكرة حول إمكانية مساهمة منظمة الفرات الأوسط في أي عمل عسكري قد يفكـر مركـز الحـزب الشيوعي في تنفيذه، واقتراحاً بأن ينطلق العمل من معسكر المحاويل، وكـان لـدى المنظمة مجموعة من العسكريين في معسكر المحاويل. وأُرسل البـريد بيـد سـيدة شيوعية من عائلة معروفة ومحترمة، وقد حصل الحرس القومي على ذلك البـريد من دار حسن عوينة، وانتهت الفكرة الانقلابية وهي في المهد، وحصلت إثرها اعتقالات

---

١ ـــ لقاء خاص مع باقر إبـراهيم عام ٢٠٠١ في السويد، بملسنبوري.

ومن جانبي (المؤلف) أشعر بأن موقف باقر إبـراهيم المغرق بالعقلانية لم يبدأ مع ما سُميَ بخط آب ١٩٦٤ الداعي للتعاون مع بـرنامج التأميمات الاشتراكية لعبد السلام عارف ـــ وخير الدين حسيب، بل يعود في تقديري إلى طريقته الخاصة في التفكير التي كشفت عن نفسها أول مرة عندما تصدى لآراء زكي خـيري اليسارية المتطرفة عام ١٩٦٣. وهو بعكس رغبة جنود انتفاضة الرشيد ظل وحتى اليوم يؤكد بأن " أحد أهم أخطاء قيادة الحزب الشيوعي العراقي كان طموحها المفرط لأخذ السلطة"، ويرى إن "لهذا علاقة بـالجمود النظري الذي تناولنا بواسطته فكرة لينين القائلة: إن الحلقة المركزية في الثورة هي السلطة، فتصـورنا إن أي شيئ لن يكون جاداً بدون الاستيلاء على السلطة". ويضيف باقر إبـراهيم لقد كان الحزب الشيوعي "حزباً مناضلاً وقوياً ويستطيع من الناحية الفنية أخذ السلطة، لكنه كان لو أخذها فعلاً سيرتكب خطأً سياسياً فادحاً، ولن يكون حظه أحسن من حزب الشعب الأفغاني، في حين سيندفع الشيوعيون وينغمسون بدماء الآخرين، ربما بمثل ما حصل لدى حزب البعث في٨ شباط، فحزب البعث كما أرى كان قد ارتكـب أخطاله الكثيرة بعد أن مسك السلطة وبدأ يخاف عليها، مما جعله يوغل في قمع الآخـرين وأصبحت مسألة الحفاظ على السلطة أكثر اهمية عنده من التغيير السياسي والتقدم الاجتماعي. وقد يكون الجمع بين الجبهة الوطنية والبـرلمان حلاً معقولاً " [لقاء السويد ٢٠٠١ مع باقر إبـراهيم ٢٠٠١].

في معسكر المحاويل، ولا أحد يعرف لحد الآن مَنْ الذي أرسل الحرس القومي إلى دار حسن عوينة؟ هل هو إبـــراهيم الحكاك أم هادي هاشم الأعظمي (عضو سكرتارية الحزب، المنهار)؟ وأغلب الظن إن هادي هاشم هو الذي دَلّ على بيـــت الحكـــاك والأخير اعترف على دار حسن عوينة. وكان ذلك درساً تمسك به باقر إبـــــراهيم وساعد حجته للوقوف بوجه الاندفاع الذي تميز به زكي خيري ومنـــدوبو ســـريع وحبيب.

وفي الحقيقة فقد كان في مقدور منظمة الفرات وامتداداتها أن تقدم عونا كـــبيراً ونصحاً مفيداً لقيادة انتفاضة الرشيد، لكن الظروف التي يخلقها الحذر والسرية فضلاً عن التوتر والاستعجال قد حالت دون قيام تعاون وتنسيق يسبق إعلان التمرد[١].

يقول باقر إبـــراهيم: **"كنا في المنظمة حوالي ٨٠٠ شخصاً، فضلاً عن وجـــود صلات تربط بيننا وبين جماعة من الشيوعيين تعمل في مدينة الكـــوت يترأســـهم محسن عليوي (أبو عليوي) ويساعده شمران الياسري (أبو كـــاطع) وآخـــرين، ومجموعة أخرى في الجنوب يقف على رأسها محمد حسن مبارك (خطفته حكومة صدام حسين، ومازال مجهول المصير)"**[٢].

ويستمر باقر الموسوي متحدثاً عن شيء آخر حملته صفحة ٢٥٨ من مـــذكرات زكي خيري هو: "عدم دقته في وصف حادث الصدام المسلح بين مفرزة من الحرس القومي ومجموعة من الشيوعيين المختبئين في ريف الكوفة والتي قتل فيها كل مـــن القيادي البعثي محمد رضا الشيخ راضي والكادر الشيوعي عباس أبو اللول". فيرفض باقر إبـــراهيم رواية زكي خيري الذي اعتبـــرها إحدى عمليات الكفاح المســـلح الناجحة، ويرى إن الأمر ببساطة "كان اشتباك تبادل فيه الطرفان إطلاق النار وبسببه

---

١ ـــ يقول باقر إبـــراهيم في لقاء بالسويد مع المؤلف عام ٢٠٠١: "بعد عودتي إلى مركز القيادة في بغداد بآذار ١٩٦٤ علمت، بمحاولات حثيثة قام بها محمد صالح العبلي للقاء بمحمد حبيب أو أي شخص من قيادة الانتفاضة لإقناعهم بضرورة التريث لكنه فشل. وقد "علمت إن آخر المواعيد بين مركز الحزب ومنـــدوب الحركة كان يوم التنفيذ ٣ تموز، وكان اللقاء سيجري بوساطة صبيح مبارك وعدنان عبد القادر، وفي يوم ٧ تموز أعتُقل قادة الحزب جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي، وكنا في الفرات الأوسط نتهيأ لاستقبالَ محمد صالح عبلي ليقيم بيننا".

٢ ـــ باقر إبـــراهيم الموسوي، اللقاء السابق نفسه.

قُــتل واحد منا وآخر منهم"[١].

وَيُسْتنتَج من ذلك إن مقتل القائد البعثي محمد رضا الشيخ راضــي لم يكــن في سياق أعمال كفاح مسلح، بل كان مجرد صدام مسلح، ويؤكد ذلك قــول قائــد المنطقة باقر إبــراهيم: "في الشهرين الأولين اَعتمدنا أسلوب المقاومة، وبعد فترة تبين لي ولكوادر المنطقة إن الفكرة تقوم على الأوهام". واستبدلنا ذلك باعتماد خطــة: "المقاومة للدفاع عن قوانا ووجودنا في الريف فقط، وتجنب مهاجمة السلطة في المدن وكان ذلك يحظى بموافقة الجميع عدا زكي خيري" ويضيف "كانت نفسية الفــلاح تسمح بهذه المقاومة في أرضه، لكنها لا تمتد إلى الاستعداد لمهاجمة السلطة في المدن". وأضاف: "لقد شكلنا فرقاً تعتمد المقاومة دفاعاً عن وجودنــا، ضــمت أعضــاء وأصدقاء الحزب وشملتَ ما يزيد عن ٨٠٠ من أبناء الريف، وأمكن تجميــع نحــو ٧٠ كادراً أغلبهم من أهل المدن".

ويقول: "إن مآثر صمودنا في منطقة الفرات الأوسط وفي محافظة الكوت أثنــاء ذلك المنعطف الصعب عام ١٩٦٣، لم تكمن فقط في روح المثابــرة والاستبســال والمقاومة فقط، بل كذلك وبالدرجة الأولى في تحكيم العقل في مواقفنا، وبتعــديل الطموحات التي يكون أوانها قد فات و لم تعد الحياة المستجدة تبــــرر الاســتمرار فيها".

١ ـــ لقاء خاص مع الأستاذ باقر إبــراهيم في عام ٢٠٠١، ذكر خلاله: إن " أضخم الحملات التي جردتها السلطة ضدنا كانت في تموز ١٩٦٣ في ريف الكوفة بعد مقتل محمد رضا الشيخ راضي، وتكونت من ٤٠٠ من الشرطة والحرس القومي وبعض الحراس الليليين، لكنها أخفقت لأننا كنا وسط عشرات الألوف مــن الفلاحين وكثيرين منهم ملاحقين من السلطة. وكانت الحملات ضدنا وضد الحزب في بغداد مرتبطة بحركة حسن سريع ومؤشراً لتجديد حملة القمع ضدنا".

الفصل الرابع
الدرس مقلوباً

لم يستفد أحد من الدرس

كان واضحاً، منذ الساعات الأولى لفشل حركة حسن سريع، بأن الدرس المستفاد من التدمير الذاتي الذي يمكن أن تسببه الصراعات الوطنية – الوطنية لم يصل إلى المدارك، وبدلاً منه هيمنت أجواء عاطفية ثأرية كاسحة، رغم إن القتلى كلهم كانوا من طرف التمرد الفاشل.

ولا ندري لماذا لم تتخفف روح الانتقام بعد أن أدرك رجال السلطة: أن المتمردين كانوا خلال بعض مراحل عمليتهم قادرين على القتل و لم يفعلوا؟ رغم أن السلطة لم تكن وحدها بل المتمردين أيضاً، سواء بسواء، كانوا يطلبون بعضهم دماء سابقة.

والمنطق السياسي الذكي والعاقل هو أن يخرج من بين الصفوف مَنْ يتبنى الدعوة للاستفادة من الدرس الجديد، الذي أتاحته حركة ٣ تموز ٦٣، للتخلص من دوافع وأسباب الاحتقان السياسي والاجتماعي، وأسباب مشاعر الغبن المنتشرة بين الناس وبين أنصار الحركات السياسية الأخرى، وذلك من أجل الحيلولة جدياً دون تكرار الصراع الدموي. وكان يمكن لذلك الأمر أن يتحقق عبر النقاط لتالية:

أولاً: دراسة أسباب قيام تمرد يستميت أفراده من أجل إسقاط الحكومة، رغم أنهم لا يمثلون عصبية حاقدة معينة، بل جاءت تركيبتهم الاجتماعية تقريباً من نفس النسيج الاجتماعي والقومي والديني والمذهبي العراقي، العربي والكردي والآشوري والمسلم والمسيحي... الخ كما لم تتحكم في تصرفاتهم أية مثيرات طائفية أو عنصرية أو دينية. **ولهذا فإن ما حدث في ٣ تموز ١٩٦٣ لم يكن فقط إنذاراً للسلطة، بل كان إنذاراً عاماً للنظام السياسي وللدولة العراقية بضرورة العودة للشعب وعدم الابتعاد عنه.**

ثانياً: فتح ملفات الخلاف والحوار مع الشيوعيين، وفضح أساليبهم فكرياً وسياسياً إن كانت غير سليمة، خصوصاً وإن أجهزة الإعلام والتربية الرسمية تقع كلها بين يدي السلطة.

ثالثاً: مراجعة جدوى استمرار أساليب القسوة في ردع المعارضة السياسية خصوصاً بعد استتباب الأمن، وبعد أن أثبتت حركة معسكر الرشيد إن زيادة الكيل تؤدي إلى الطفح، وتؤدي لخلق انتحاريين لن يتركوا الحاكم يتمتع لوحده بريع البلاد وثرواتها الأخرى.

وقد كانت السلطة قوية وقادرة على تنفيذ كل ما تقدم بسهولة، ولا يوجد ما يهددها من خارجها لو لجأت إلى القانون في محاسبة خصومها السياسيين، لكن أساليب وأخطاء فردية مسيئة، وإجرامية مقصودة ومغرضة كثيرة جداً، وقفت وراء إيغالها في النهج الذي بدأته خلال أيامها الأولى، مما أدى إلى تمزق صفوفها. فقد أثبتت الأحداث إن السلطة ظلت قوية حتى يومها الأخير، ولم يكن خطر المعارضة هو الذي يهددها، بل جاء الخطر من داخلها، من شركائها في الحكم، من الطارئين على البعث الذين وجدوا في حماسه وقوة اندفاع أعضائه وشعاراته القومية الثائرة وسائل يمكن استخدامها جسراً لضرب قوى المجتمع ببعضها. وكان هذا أيضاً قد دارَ بصورة مماثلة في المعسكرين الآخرين الشيوعي والقومي الناصري، فتحولت شعاراتهم إلى مقولات نظرية مجردة لا تدور حول وقائع حقيقية وملموسة.

وبدلاً من أن تتحول أحداث الحركة الدامية سبباً لتخفيف الضغط ومنح المعارضة نوع من الهدنة، تُراجع أو تَهضم خلالها ما استجد من أمور، بما في ذلك تغير ميزان القوة. وتُراجع هي (أي السلطة) القسوة غير المقبولة التي مازال أحد أجنحتها يمعن في تشجيع استمرارها ضد أعداء مفترضين.

ولكن السلطة ظلت تعتمد أسلوب الملاحقات والردع القاسي غير القانوني، الذي لم يكن له داعٍ أبداً. دون أن تدرك إن ذلك سيدفعها إلى درك لا مخرج منه، وأنها تُلحق باسم حزبها سوابق تاريخية قاسية وغير رحيمة.

تشجيع التشنج والانتقام

ومن المؤسف إن صوت الفئات العقلانية داخل السلطة والحزب، المطالب بتخفيف الحملة الأمنية ضد المعارضة السياسية، كان قد بدأ يفقد وحدته وقوته بسبب صراعات ذاتية ليست مهمة، أججها الشركاء المغرضون من الداخل والخارج، مما جعل أخطر قائدين عراقيين في حزب البعث علي صالح السعدي وحازم جواد ينشغلان بشؤون أخرى، وسمح للهيئات التحقيقية أن تتصرف على هواها، وتأخذ أعمالها شكل الإجراءات الفنية المماثلة لما كانت تقوم به أجهزة الأمن والشرطة في العهود السابقة، ولكن هذه المرة على أيدي مناضلين تصوروا للحظة إنهم سيحققون لشعبهم شعارات العدالة الاجتماعية والوحدة والحرية.

وبدلاً من تخفيف روح الانتقام ازدادت ظاهرة التشنج بين صفوف المتشددين

وبشكل خاص بين العسكريين الذين لم تفتر مطالبهم بإعدام القياديين الشيوعيين (عسكريين ومدنيين)، الذين غصت بهم المعتقلات القديمة والمستحدثة في كافة أنحاء العراق. ولذلك تزايدت عمليات القمع والملاحقات بعد٣ تموز وضعفت جبهة المطالبين بوقف الإرهاب والاعتقال (الضعيفة أصلاً).

ويذكر إن جبهة التهدئة الخجولة كانت، قبل قيام حركة حسن سريع، قد حققت بعض المكاسب، وإن نقاشاً كان يدور بين بعض مثقفي حزب البعث حول أهمية إقامة علاقات أفضل مع دول الكتلة السوفيتية، وتهيئة متطلبات ذلك بما فيه إطلاق سراح بعض المعتقلين وإيجاد وظائف مدنية للضباط المسرحين من الجيش وغيرها. لكن اشتداد ضغط هيئات التحقيق والمصالح الضيقة لبعض قادة الحكومة والجيش من جهة، وقيام حركة ٣ تموز من جهة أخرى، كانت قد أدت للاختيار المضاد.

ومن نتائج الاختيار المضاد التالية، بعد إخماد الحركة، قيام حملة شبه عشوائية على كل من تشك بهم إدارة الحرس القومي، وتمشيط بعض المناطق بيوتاً وشوارع ومعتقلات[1]، وكان من نتائج تشديد التحقيقات والحملات، اعتقال المركز الجديد لقيادة الحزب الشيوعي الذي تشكل مؤقتاً من جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي، الذين ماتوا تحت التعذيب، ثم صدرت أحكام بإعدامهم من قِبَل محكمة غير موجودة.

---

١ ــ يقول حسن غافل: " كنت مسؤولاً للحرس القومي في منطقة نجيب باشا والكسرة وخان الحاج محسن، وكان مقري في مركز الفاروق (ساحة عنتر) وهو قريب من مقر القيادة العامة للحرس القومي، وعندما وصلت لعملي يوم ٣ تموز ٦٣، فوجئت بعشرات المواطنين المشتبه بهم، كان رجال الحرس القومي قد تحفظوا عليهم تحسباً للطوارئ، فطلبت أخذ أسمائهم وعناوينهم وإخلاء سبيلهم، وفي منتصف الليل من نفس اليوم استدعاني منذر الونداوي وحاسبني بشدة فأجبته: إن أردت فسأعيدهم إلى هنا خلال ساعة، ولكنهم بسطاء و لم يرتكبوا ما يجعلهم مشبوهين، فسكت منذر. وكنت (أي المؤلف) قد سألت قائد قوات الحرس القومي منذر الونداوي قائلاً: "كمؤرخ يعتمد العقل والمنطق، تصورت إن حكومة ٨ شباط كان يجب عليها بعد حركة حسن سريع أن تراجع نفسها وتخفف من الضغط والقسوة لتجنب ردود الفعل الانفجارية، لكن الأمر جرى عكس ذلك، فهل كنت ترى إن الحل لن يكون ممكناً إلا بزيادة وتيرة القمع؟ أم بالتسامح مادامت الدولة والحزب تمسك بزمام الأمور بقوة؟". فأجاب: "كلامك وسؤالك صحيح لو كان هناك قيادة وثورة واضحة الهدف، ولو كان هناك التزام بالعهود والمواثيق والدساتير.. في حين كانت لدينا قيادات كثيرة ولكن كلها تحتضر.

ويروي عدد من شهود العيان " البعثيين " الذين لا ننوي ذكر أسمائهم بناءً على رغبتهم الخاصة، عن أساليب الانتقام والقصاص غير المعقولة والفظيعة التي ارتكبها بعض الضباط والمحققين بحق جنود الانتفاضة والمساهمين المدنيين بها.

والأسوأ هو حَمْل البعض للاختيار المضاد للسلام السياسي والاجتماعي، حتى بعد فقدان البعث للسلطة وتعرض البعثيين، من قبل طرف ثالث، لأساليب مماثلة لتلك التي ساموها لخصومهم السياسيين، وعند عودة الطرف الذي أصطلح تسميته باليميني من حزب البعث إلى السلطة مرة أخرى في عام ١٩٦٨، استعاد أساليب عام ١٩٦٣ ولكن هذه المرة مع الاستعداد لارتكاب جرائم بلا حدود.

أي إن أحداث المستقبل أثبتت إن بعض المسؤولين الذين استمروا لفترة أخرى في دست الحكم أي حتى ١١ و١٣ تشرين الثاني ١٩٦٣، وأولئك الذين سيطروا على السلطة لاحقاً منذ ١٨ تشرين الثاني ٩٦٣ استفادوا من ذلك الدرس بشكل مقلوب فتصرفوا بروح انعزالية أقل ما يقال عنها إنها لم تكن شجاعة ولا كريمة مع شعبها. بل إن حكومة ١٧ تموز ١٩٦٨ خططت، حتى قبل احتكار السلطة بين يديها، إلى تحطيم ممانعة الشعب العراقي من خلال سحق مراكز قوته الدينية الإسلامية (الشيعية والسنية) وبصورة خاصة الحوزة العلمية في النجف الأشرف وقتل العلامة عبد العزيز البدري، وسحق الحركة القومية الكردية والوطنية العربية المنظمة، لاسيما الحزب الشيوعي ويسار حزب البعث العربي الاشتراكي والحركة الناصرية وحركة القوميين العرب، والتآمر على سوريا والجوار العربي والإسلامي[1].

وكان ذلك النهج أول درس، وأول خبرة مستفادة من تجربة سقوط حكومات العهد الجمهوري (منذ تموز ١٩٥٨ حتى تموز ١٩٦٨)، أي إن قيادة حركة ١٧ تموز ١٩٦٨ كانت قد درست الأمر واحتاطت له، فأعطت الأولوية لمهام حماية نفسها وسلطتها، وسعت بلا رحمة مستخدمة كل الوسائل الدموية لتحقيق أمن الدولة والأمن العسكري معتبرة كل الأصوات الوطنية والقومية والدينية والأيديولوجية عدا صوتها نشازاً يجب خنقه. وكانت النتيجة عراقاً مدمراً

١ ـ راجع مذكرات حردان التكريتي، وسواء كان حردان هو كاتب تلك المذكرات أم غيره، فقد أثبتت أحداث العراق اللاحقة صدقيتها، بل إن حكومة البكر – صدام نفذت مشروعها لتنفيذ وتصفية الأهداف الأربعة المذكورة بأساليب مبتكرة لم يعرف تاريخ القمع العالمي مثلها.

مادياً وأخلاقياً، عشرون بالمائة من أبنائه مشردون خارج الوطن والبقية تعيش في كمد.

في السجن

وبعد ساعة واحدة وبضع دقائق من انقلاب الحال داخل معسكر الرشيد ووصول دبابات الكتيبة الرابعة التي قادها عبد السلام محمد عارف، وانتقال الثوار إلى حالة الدفاع عن النفس، تم إلقاء القبض على عدد كبير من الثوار المتمردين وإيداعهم السجن العسكري رقم واحد، وفوراً وصل الرئيس عبد السلام عارف ومعه عدد من الضباط إلى إدارة سجن الرشيد العسكري المجاورة لردهات المعتقلين من الضباط والسياسيين الشيوعيين والقاسميين والضباط الكرد المتهمين بنصرة الحركة الكردية، وجاءوا له ببعض مَنْ تمّ أسرهم من جنود الانتفاضة، فبادر هو ومن معه "بضرب مبرحٍ للثوار الذين قُبض عليهم، وكنا نسمع أنين وصراخ الثوار تحت وطأة الضرب الفظيع، كما كنا نسمع الشتائم البذيئة التي كان يكيلها عبد السلام عارف والآخرون من أعوانه"[1].

وكانت لجنة التحقيق المشكلة منذ ٨ شباط داخل معسكر الرشيد قد باشرت عملها فوراً بعد فشل الحركة، وضمت الرائد حازم الصباغ (الأحمر) والرئيس الأول عزيز أمين وهو ضابط لاسلكي في القوة الجوية، والرئيس المتقاعد عبدالرزاق العزيوالرئيس الطيار طه أحمد والملازم أول عادل الخشاب والملازمين حسام الجماس ونزار عبد السلام وطه الحمو وفاروق حسين ونعمة الله خليلَ وغازي عبد الصمد.

وكان سلوك الملازم غازي عبد الصمد سيئاً وقاسياً، فمنذ اللحظة الأولى لمباشرته سأل عن الدكتور عبد الجبار عبد الله رئيس جامعة بغداد سابقاً، وعندما جاؤوا به بصق بوجهه قائلاً: أنت هو عبد الجبار عبد الله؟

كما كان أكثر المحققين اهتماماً بمجموعة حسن سريع هم حازم الأحمر وعادل الخشاب وحسام الجماس ونزار عبد السلام وطه الحمو.

---

١ ــ جريدة المحرشة عدد شهر تموز١٩٩٣: د. رافد صبحي أديب، صفحة منزوعة من مذكرات ٣ تموز ١٩٦٣.

وكان طه الشكرجي يداوم في مقر اللواء ١٩ (لواء عبد الكريم قاسم)، وهو أيضاً مقر لكتيبة الهندسة التي أسهمت بفعالية في إسقاط التمرد، فاتخذ من المقر المذكور مركزاً للتعذيب شاركه فيه بعض ضباط المقر وكان أهم الزوار المساهمين في التحقيقات الليلية محمد حسين المهداوي قائد كتيبة دبابات والملازم عماد شبيب وصباح المدني[١].

وكان سريع، بعد أن أدرك فشل الحركة، قد وضع كل تركيزه على أهمية الصمود وعدم كشف الرجال الذين تمكنوا من الهرب، والذين اشترك بعضهم بالتنفيذ، واشترك آخرون في التخطيط، فضلاً عن جميع الذين كانوا قد استعدوا للإسهام في المعسكرات الأخرى، وطبق حسن سريع ذلك على نفسه قبل غيره، فاختفت أسراره معه والتي مازالت حتى اللحظة الراهنة تعتبر إشكالية، وكانت كل الأسرار التي أخذوها هو ورفاقه معهم تصب في فكرة إنقاذ المساهمين غير المعروفين لدى هيئة التحقيق، مثل عدم الاعتراف بوجود اتصالات مع ضباط السجن.

وقد علمنا بعد مرور أكثر من عشر سنين إن تلك الاتصالات كانت موجودة فعلاً رغم عدم إنجازهم اتفاقاً تفصيلياً. فقد لمح غضبان السعد في لقاء مع (المؤلف) إلى وجود مثل تلك الاتصالات، لكنه أكد إنها كانت محدودة و لم يعلم بها غير عدد محدود من الضباط[٢]، على أمل تعاون الآخرين بعد إطلاق سراحهم ووضعهم أمام الأمر الواقع، وكان الضابط غضبان السعد من طليعة مثقفي ضباط الجيش العراقي وكثير الانشغال بالشأن السياسي العام المحلي والدولي بل غارقاً فيه، ومن أجل ذلك قضى الشطر الأكبر من حياته بين المنافي والسجون.

ويذكر إن إحدى الحجج الأساسية لعدم إعدام ضباط السجن رقم واحد كانت: عدم معرفتهم بما كان يجري خارج السجن. وكان صمود رفاق حسن سريع قد أنقذ مجموعات أخرى لم تكتشف علاقتها بالحركة إلا بعد سنوات.

أما حسن سريع فقد ردد على أسماع المحققين إثناء جولات التعذيب القاتل مقولته الشهيرة: " أنا المسؤول الأول عن الثورة، أنا أرغمت الآخرين على حمل

---

١ ــ وكان مقر طه الشكرجي قد شهد الكثير من أعمال التعذيب والقتل سواء في الأيام الأولى التالية لحركة ٨ شباط ٦٣ أو بعد فشل حركة حسن سريع. ويمكن في هذا السياق مراجعة الملحق الثاني المنشور في نهاية هذا الفصل..

٢ ــ غضبان السعد، لقاء خاص مع المؤلف في بـراغ١٩٧٧.

السلاح، إنهم أبـــرياء.... "[1].

وقال لي الضابط محمد علي سباهي عندما التقيت به في السليمانية في ٦ /٠٩/ ٢٠٠٠، إنه رأى نائب العريف حسن سريع في التحقيق فكان مدمى بينما يقف على رأسه المقدم الركن محمد حسين المهداوي*.

وفي المحكمة العسكرية العلنية المشكّلة خصيصاً لمحاكمتهم سأله رئيس المحكمــة: "هل تريد أن تصبح رئيساً للجمهورية وأنت النائب عريف؟".

أجاب حسن سريع: "ما أردت أن أكون رئيساً للجمهورية أو ضابطاً في الجيش، إنما أردت أن أسقط حكومتكم!!"، أو إنه قال: "ما أردت شيئاً لنفسي.. ما أردت غير تخليص العراق من زمرتكم!".

ومباشرة بعد هذه الإجابة غير المتوقعة اضطرت رئاسة المحكمة والحكومة إلى اتخاذ قرار بتحويل المحاكمة من العلنية إلى السرية، فتأجلت الجلسة، وبعدها لم تبث الإذاعة وقائع المحكمة بصورة مباشرة فتتبعها الناس عبـــر نشـــرات الأخبـــار والصـــحف البغدادية اليومية التابعة جميعها للسلطة مباشرة.

لكن حازم جواد أخبـــرني في لندن عام ٢٠٠٠ قائلاً: "إنّ وقف إذاعة المحاكمة مباشرة قد تقرر لأنها أصبحت مملة، ولأن المدعي العسكري الحقوقي راغب فخري كان يتصرف بطريقة استعراضية ساخرة لا تختلف عن أسلوب المدعي العســكري العام العقيد ماجد محمد أمين عندما كان يسخر من المتهمين في محكمة فاضل عباس المهداوي العسكرية الخاصة".

وكان رئيس المحكمة العسكرية العقيد شاكر مدحت السعود قد أراد اســتفزاز حسن سريع ورفاقه، وعندما شعر بعدم خوفهم عاملهم باحترام قائلاً: ابني حســن

---

١ ـــ نعيم الزهيري "رسالة العراق" العدد ٢٠. ورسالة شخصية منه عام ١٩٩٩ يقول فيها: لا أتحدث عن المحاكمة فموقفه منها معروف، لكنه كان في الزنـــزانة وفي هدوء الليل يساعدني على الجلوس والإتكاء على الحائط ويقول لي: "اجلس فوراءنا نوم طويل"، ثم يؤشر على جسمه ويقول سأعدَم ويكون الرصاص هنـــا وهنا، سنموت لكن الشعب لا يموت.......إلخ

* ومحمد حسين المهداوي الذي كان أحد منفذي حركة ٨ شباط الأساسيين، وأصبح فيما بعد المنفذ الأول لانقلاب المؤتمر القطري الاستثنائي لحزب البعث في ٦٣/١١/١١، اعتقل عام ١٩٧٠ في عهد البكر – صدام بزنـــزانة انفرادية، قضى فيها وقتاً مدمراً من سوء المعاملة والتعذيب، متهَماً بصلات مشبوهة تربطه بأجهزة خارجية. وأُطلِق سراحه عام ١٩٧٣ بوساطة خاصة جداً أطلـــقه أحمد حسن البكر، لكن السجن كان له أبقى، إذ مات بـــعد إطلاقه بفترة قصيرة جداً.

شلون شدهيتوا السمحات، شلون بكيفكم؟ فأجاب حسن وأنتم فعلتم ذلك مع عبد السلام عارف، وصالح مهدي عماش، ونحن شددناها مؤقتة.

فسأل السعود وماذا كنتم ستفعلون؟ أجاب حسن نسلمها للحزب.

وماذا بشأن الذين أعتقلتموهم؟ فأجاب كنا سنحاكمهم.

في مواجهة الموت

وعندما حانت لحظة الوداع قال حسن سريع لرفاقه المعتقلين مودعاً ومعتذراً: كنت أتصور إن أبو سلام (محمد حبيب) لديه صلة مباشرة بالحزب، لم أكن أعلم إنه يعمل لوحده.

ثم قَبَّلهم وهتف معهم: " يحيا الحزب يحيا الشعب!"، واتجه يواكبه حرس السجن نحو ساحة الإعدام ليلقى الموت مع ستة وعشرين ضابط صف وجندي وعدد من المدنيين من رفاقه يمثلون الوجبة الأولى من ستة وأربعين ثائراً متمرداً حكمت عليهم المحكمة المذكورة بالإعدام، ويعتبر هذا العدد وحده أكثر من مجموع قتلى العهد القاسمي كله، بما فيه محكمة المهداوي وغيرها.

كان حسن سريع في نظر محبيه، وحتى في نظر هيئة المحكمة، صادقاً ومخلصاً في ما ذهب إليه، بغض النظر عن مدى صحة أو عدم صحة أفكاره، وقد ظل ثابت الجنان حتى بعد سقوط رهانه، إذ كانت آخر وصية قبل أن يعتقل وظل يكررها على شركائه في الانتفاضة وفي الزنزانة والردهة "لا تعترفوا وحافظوا على سلامة الهاربين والناجين!! قولوا لهم (للمحققين): حسن أجبرنا على حمل السلاح!"..

وعندما حانت لحظة الموت وصوبت فوهات البنادق نحو صدره ترنم بصوت مسموع:

السجن إلي مرتبة والقيد إلي خلخال
والمشنقة يا شعب مرجوحة الأبطال

وأظن أنه شعر شعبي يردده كثيرون في منطقة الفرات الأوسط التي اعتادت على مواجهة الظلم السياسي والاجتماعي المفروض على أبنائها بسبب وعيهم السياسي المتطور. ورغم تضارب الأقوال عن مصدر هذا الشعر الشعبي الممتلئ رجولة، لكن من يعرف مجالس أبناء الفرات الأوسط وتراثهم سيدرك مدى سلطان هذا النوع من الشعر عليهم ومحاولة رجالهم التأسي بمضمونه.

قال عنه الضابط (الحر) سليم الفخري وهو في السجن: "إذا انتصرنا في العراق فسنسمي معسكر الرشيد بمعسكر حسن، ويذكر إن الفخري وبعد طول رحلة كفاح شاق قضاه بين المعتقلات والمنافي والتمرد المسلح مات لاجئاً في لندن في مطلع التسعينات.[1]

ولم يكن حسن سريع ينفرد وحده باندفاع قوي، بل فعل ذلك أكثر المساهمين الأساسيين في الانتفاضة، وعلى سبيل المثال ترديد نائب العريف عبد الواحد راشد وهو يتقدم إلى منصة الإعدام: "لنا شعب يأخذ بثأرنا ولن تضيع دماءنا".

وقول صباح إيليا: "إن قتلتم أشبالاً فالعراقيات تلد الأشبال باستمرار".

وهكذا نجد أنفسنا أمام رجال دخلوا السياسة من زاوية رومانسية مليئة بالعاطفة والحماس.

مرة أخرى، الرعب يخدم السياسة

قررت حكومة ٨ شباط بعد فشل حركة المعسكر وانجلاء الوضع والاطلاع على حجمه وملابساته أن تقوم بعمل اعتقدت أنه سيسهم في منع المتحمسين من الشباب من التورط بمثل ما أقدموا عليه في ٣ تموز ٦٣، وهو إثارة الرعب في النفوس ليس فقط بإعدام أغلب المساهمين في العمل بل وأيضاً تعليق جثث مجموعة منتخبة منهم في مواقع مختلفة من أحياء ومعسكرات بغداد خصوصاً الأحياء والمواقع التي انطلقت منها الحركات أو تهيأت للقيام بفعاليات خطيرة. ليكون ذلك عبرة لكل من يفكر مستقبلاً القيام بتمرد عسكري أو ارتكاب عمل مضاد للحكومة القائمة أو ضد مؤسساتها الأمنية.

---

١ ــ وأرخ الشاعر مظفر النواب لمقتل حسن السريع، خلال وجوده في سجن الحلة، بقصيدة لم يبق من منها غير هذه الأبيات: ورأوك شهماً لولبا

ورأوك عند الباب

محتدما إبا

وشهرت رشاشاً أجش مقطبا،

ويذكر أن هذه القصيدة كانت قد فقدت مع الطاولة التي كان الشاعر يستخدمها كمخبأ لأوراقه الخاصة، وذلك خلال هجوم حرس السجن على المعتقلين في سجن الحلة، إثر اخبارية عن وجود تحضيرات يقوم بها السجناء للهرب.

ومن بين الضحايا الذين تم تعليق جثثهم:

ـــ **حافظ لفتة** (خياط) أُعدِم في ١٩٦٣/٧/٣١ وعلقت جثته في منطقة "باب الشيخ" في رصافة بغداد.

ـــ **عربي محمد ذهب** (عريف) أعدم في ٣١ /١٩٦٣/٧ وعلقت جثته في منطقة "خلف السدة الشرقية" في بغداد لإرهاب أبناء المنطقة المتعاطفين مع عهد عبد الكريم قاسم.

ـــ **علي محمد ذهب** (عريف شرطة) طرد من الخدمة في عهد عبد الكريم قاسم بسبب حضر العمل الحزبي داخل القوات المسلحة، أعدم في ٣١ /٠٧/ ١٩٦٣ وعلقت جثته في منطقة "خلف السدة الشرقية" في بغداد، وكان له دور كبير في التحضير والتنفيذ.

ـــ **راشد عبد الواحد الزهيري** (نائب عريف) من أهالي المشرح في محافظة العمارة بجنوب العراق. أعدم في ٠٢/ ١٠/ ١٩٦٣ وعلقت جثته في ميدان مدرسة المخابرة بمعسكر التاجي لإرهاب الجنود. وكانت مهمته قيادة التحرك داخل معسكر التاجي ريثما يصل الضباط، ولم يكن شيوعياً.

ـــ **فالح حسن** (جندي أول) يضع على ذراعه خيط واحد، من أهالي المشرح في محافظة العمارة بجنوب العراق. أعدم في ٠٢/١٠/ ١٩٦٣، وعلقت جثته في ميدان مدرسة المخابرة بمعسكر التاجي، وكان كل من فالح وزميله راشد مسؤولان عن حراسة معسكر التاجي ليلة الانتفاضة وظل هو وزميله راشد وآخرون طوال الليلة حتى بزوغ فجر يوم ٣ تموز ينتظرون الاشارة ووصول ضباط السجن لكي يبدأوا بتنفيذ أدوارهم، ولكن دون جدوى، فلم ينفذوا.

ـــ أعدم وعُلق أربعة جنود وضباط صف في مركز التدريب بمعسكر الوشاش بمناسبة حفل تخريج دورة تدريبية لرجال الحرس القومي كان مسؤولها محمد فاضل[١]، وقد أرادوا من عملية الإعدام العلنية تقوية معنويات خريجي الدورة، فجلبوا الجنود الأربعة مشدودي الوثاق من وراء، وقد جادلوا حراسهم والمشرفين على عملية الإعدام محاولين الاستفسار عن الجريمة المنسوبة إليهم وكانوا يؤكدون

---

١ ـــ أصبح منذ عام ١٩٦٨ عضواً في القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة ورئيس مكتب العلاقات العامة (المخابرات)، أعدمته حكومة البكر ـــ صدام فيما سمي بحركة ناظم كزار المزعومة.

أنهم لم يفعلوا شيئاً. فجروهم جراً، ويبدو أن أحدهم يئس من احتمال الرحمة أو العفو فهتف قبل إطلاق الرصاص مباشرة: "من لم يمت بالسيف...... " وقبل أن يكمل عبارته اخترق جسده الرصاص. ويذكر إن جنود الوشاش كانوا مستعدين للتعاون مع الحركة لكنهم لم ينفذوا بسبب عدم إذاعة البيان لكنهم عوقبوا على النيات. ولا يفوتني أن أذكر بان الشباب البعثيين (بينهم عمرو آل ياسين وحازم السهيل وهاشم الياسري و(م. ن) وآخرين)، الذين كانوا يتدربون في تلك الدورة قد راعهم ذلك المنظر ومازال بعضهم يتذكر ذلك المشهد الهمجيي الذي أعدم فيه أمام أعينهم شباب لا تتجاوز أعمارهم العشرين عاماً[١].

ـــ العريف **كاظم زراك** والعريف **جليل خرنوب** أعدما وعلقا على الباب الشمالي لمعسكر الرشيد.

ـــ ونقلاً عن السيد جبار (أبو أيوب)، بأن السلطة قد نقلت جثة حسن السريع بعد إعدامه وعلقتها في مدينة الثورة.

ـــ وفي مساء ٣ تموز ٦٣ فوجئ مقر الحرس القومي في حي المنصور (الجديد) بمدينة بغداد بزيارة خاطفة غير معتادة من قبل رئيس الوزراء العميد أحمد حسن البكر الذي بدت عليه إمارات الغضب والانفعال وخلالها أمر البكر بقتل عدد من المعتقلين، وكان جميع من نفذ بهم القتل معتقلين منذ ما قبل اندلاع حركة الرشيد، ولم يكن لأغلبهم صلة أو معرفة بما كان يجري خارج مقر الحرس القومي الذي يقع بعيداً عن معسكر الرشيد[٢].

معاقبة القطيع

ومنذ إعلان الحركة إلى حين بدأ ميزان القوة يتحول لصالح القوات الحكومية، أي طوال ثلاث ساعات، لم تحصل حوادث قتل أو انتقام وليس هناك أي دليل على وجود قتلى من طرف الحكومة، رغم إن المسؤولين الكبار الذين أُخذوا أسرى كانوا جميعاً، باستثناء وزير الخارجية طالب شبيب، يشغلون وظائف تختص بتسيير أمن

---

١ ـــ لقاء خاص مع (م. ن) لم يرغب بذكر اسمه الصريح.

٢ ـــ مهدي العبيدي (عضو قيادة قطرية لحزب البعث فيما بعد، لقاء خاص مع المؤلف بدمشق عام ١٩٩٩.

البلاد وهيئاته التحقيقية وهم بالتالي أكثر المطلوبين لقيادة الحركة[1]. ولكن ومع وصول دبابات القصر الجمهوري بدأ القتل، وعندما كانت السلطة تظفر بأحد الجنود المتمردين تقتله في حين لم يقتل الجنود أيٍ من أسراهم.

والغريب إن عمليات الانتقام والتحقيقات وحتى بعض الأحكام، كانت قد صدرت بعد إخماد الحركة من قبل أشخاص لا يميزون بين جندي وآخر، فلم تتساوى العقوبات مع الأدوار، بل تعامل المحققون مع رجال الحركة العسكريين والمدنيين كما القطيع، كفئة دنيا ليس لأفرادها ملامح خاصة تميزهم عن بعضهم، ولذلك كانت العقوبات غير الرحيمة تُوزع عليهم كيفما اتفق ودون تدقيق.

وماعدا الرجال الذين شكلوا محور الحركة وتقرر موتهم فقد صدرت بقية الأحكام بقدر قليل من التركيز والاهتمام، فشملت أحكام الإعدام والقتل الفوري عناصر بسيطة لم تشترك بالتنفيذ أو حتى لم تُنفذ، في حين حُكِم بالسجن بسنوات قليلة حتى المؤبد أشخاص أكثر أهمية وأخطر دوراً منهم.

و لم تكن نظرة القطيع المصوبة نحو الجنود صادرة عن ضباط السلطة فقط، بل نظر بمثلها حسن سريع ورفاقه الذين أَملوا بثقة كبيرة في ردود فعل سريعة ومناسبة ستأتي من كل جنود الجيش العراقي، فلم يميزوا بينهم، واعتقدوا إن الجنود الذين ينحدر غالبيتهم من وسط وجنوب العراق، وهي مناطق عُرِفت بتعاطفها مع عهد الزعيم عبد الكريم قاسم، سيهتبلون الفرصة الآتية مع محاولة الانقلاب الجديدة ليثأروا للزعيم ولرفاقه، وما عليهم سوى مخاطبة الشعب وبشكل خاص الجنود ودعوتهم إلى اعتقال

---

١ ـ كان أبرز المعتقلين وزير الداخلية حازم جواد وطالب شبيب وزير الخارجية وقائد الحرس القومي منذر الونداوي ونائبه نجاد الصافي وخليل العزاوي، وهم باستثناء طالب شبيب المسؤولون مباشرة عن جهاز الأمن وعن ذراع الدولة والحزب القوية الحرس القومي وهيئاته التحقيقية المنتشرة في كل المدن والنواحي والقرى والأحياء. ولا شك بأن كل مَنْ يريد الانتقام لابد أن يفكر بهم قبل غيرهم. ولنلاحظ ما قاله طالب شبيب في كتاب د. علي كريم سعيد، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، يقول: "أحاطوا بسيارتنا وأمرونا بالنزول بعد أن أطلقوا بضعة طلقات أصابت سقف السيارة، وأعترف إن أسلحتهم لم تكن موجهة عند الرمي إلينا مباشرة!؟". ومن المؤسف إن حامد الدليمي آمر السرية لم يكن يتمتع بفروسية كافية كي يبادل الجنود النُبْل، بل أمر عندما تغير الموقف برميهم جميعا، فقتل الجنود الثمانية فوراً. وأكثر من ذلك فإن أحد أسرى الانتفاضة من الضباط اعترف لي "المؤلف" بأنه بعد تغير الميزان ظفر بأحد آسريه: "فقتلته بيدي هاتين!"، وأعاد كلامه بطريقة بدت لي وحشية ولا تعبر عن شجاعة القاتل أبداً.

الضباط غير المتعاونين مع حركتهم، وتنصيب الضباط الخارجين من المعتقلات أو حتى الجنود وضباط الصف كقادة للوحدات مؤقتاً ريثما تتحقق السيطرة على السلطة السياسية في بغداد.

ولا يخفي أبناء تلك المناطق البسيطة، الذين عادة ما يتطوع كثيرون منهم في السلك العسكري هرباً من البطالة وقلة الأعمال، مشاعر الأسف الشديد لعدم إيجابيتهم وتهاونهم أو لعدم توفر الفرصة لهم في ١٤ رمضان ٨ شباط للدفاع عن حكومة عبد الكريم قاسم، الذي قتلته (من وجهة نظرهم) محاولته نصرتهم ورفع شأنهم والارتفاع بحصتهم السياسية والاقتصادية في إدارة البلاد وفي ثروته.

ملحق رقم١

كان مركز طه الشكرجي في معكر الرشيد في مقر اللواء ١٩ (لواء عبد الكريم قاسم) قد شهد في الأيام الأولى بعد ٨ شباط ٦٣، وبعد فشل حركة حسن سريع مهرجانات من التعذيب والقتل لعدد كبير من الضباط الأحرار القادة كالزعيم الركن داود الجنابي، والمقدم إبراهيم الموسوي، والعميد عبد المجيد جليل، والعقيد حسين خضر الدوري الذي قلع له الشكرجي أذنيه بكلابتين، قبل رميه بالرصاص بأمر من صالح مهدي عماش انتقاماً من توقيعه قرار الحكم بإعدام ناظم ورفعت، ويذكر إن طه الشكرجي كان قد قَتَل تعذيباً في المقر ذاته النقيب عمر فاروق جلال من حماية عبد الكريم قاسم، وآخرين. ويذكر إن صدام حسين كان قد فرض على طه الشكرجي أن يختتم مهماته العامة متطوعاً في أحد قواطع الجيش الشعبي خلال الحرب العراقية الإيرانية، و لم يكن هذا جيشاً بل حطباً كي يبقى التنور مشتعلاً.

وكان على قائمة الإعدام، كل من النقيب الطيار منعم حسن شنون والنقيب عباس الدجيلي اللذان أنقذهما كل من حردان التكريتي ومنذر الونداوي[1] من الموت بعد أن أبعداهما من صف الإعدام في اللحظة الأخيرة، لكن النحس ظل يلاحقهما إذ عاد بعد أيام المقدم الركن محمد حسين المهداوي بقائمة كان قد اتفق عليها مع وزير الدفاع صالح مهدي عماش، وتضم ٣٤ ضابطاً من أصل حوالي مائة معتقل في مقر اللواء ١٩، فنادى عليهم وأخذهم بسيارة لوري إلى منطقة قريبة من عكركوف، وتم هناك رميهم ودفنهم في نفس المكان، وكان بين القتلى المقدم فاضل البياتي، والرئيس الطيار منعم حسن شنون، والرئيس الأول جلال أحمد فهمي، والنقيب عباس الدجيلي والرئيس هشام إسماعيل صفوت والنقيب حسون الزهيري وكلهم من

---

١ ــ منذر الونداوي، في حديث خاص مع المؤلف، قال: "كان النقيب الطيار منعم حسن شنون صديقي وقد حاولت مساعدته، وبعد فترة من إعدامه قال لي عماد شبيب (لواء فيما بعد) في سوريا التي كان لاجئاً فيها: أراد منعم أن يلعننا قائلاً: "دعوني أرى منذر وسألوه لما له"، لتتصور إن في الأمر سراً، ولم يستجب أحد، وقتل".

الضباط الأحرار، وإبـــراهيم الحكاك ولطيف الحاج وصاحب أحمد المرزا (طالـــب بكلية الطب) وصبيح سباهي وغيرهم، وكان معهم الملازم الطيار عبد النبي جميـــل الذي أنقذه زميل الدراسة الملازم الأول الطيار أسامة وهبي (أحد المحققين القســـاة) وألحقه بدُفْعة الضباط المعتقلين المرسلين إلى سجن بعقوبة. ويذكر إن لأُسامة وهـــبي أخاً هو الملازَم أيوب وهبي (الملقب بإبن شيتا) وهذا الأخير كان مهووساً، فقد دخل يوماً إلى النادي الأولمبي الذي تحول بعد ٨ شباط إلى معتقل ومركز تحقيق وتعذيب، فرأى مجموعة من الضباط يقفون جانباً، فسأل مَنْ هؤلاء؟ فقالوا هذا الرائد حـــافظ علوان مرافق عبد الكريم قاسم، وهذا الملازم نوري ناصر أحـــد مرافقـــي قاسـم، والملازم الطيار طارق محمد صالح ابن أخت عبد الكريم قاسم والملازم الطيار كـــريم صفر والرئيس غازي شاكر الجبوري، فسحب أيوب وهبي أقسام رشاشته ورمـــاهم جميعاً دون تردد، فلم ينج غير حافظ علوان، الذي احتمـــى بعـــامود كـــونكريتي، وغازي الجبوري الذي اكـــتشفه فيما بعد ناقل الجثث بسيارة الإسعاف إنه مـــازال حياً، فأخذه إلى مستشفى الرشيد العسكري حيث أنقذه أطباؤها بأعجوبة[1].

ويذكر إن أيوب وهبي كان طياراً فاشلاً، وبسبب سوء سلوكه هرب إلى ج ع م، وعاد قبيل ٨ شباط بعد أن عفا عنه عبد الكريم قاسم، وفوراً بعد ٨ شباط نسّبَهُ صالح مهدي عماش للعمل مع ضباط الحرس القومي، وبعد اختبـــاره قـــال منـــذر الونداوي لصديقه صالح مهدي عماش: "لا أشعر بالأمان حتى عندما أكون صديقاً لكم، فتأتي لي بـــرجال من نوع أيوب وهبي"[2]. وقد أثبتت الأيام اللاحقة إنه مجرم متعطش للدماء، قتل كثيرين وتطوع لتعذيب أكثر السياسيين الذين دخلـــو قصـــر النهاية والنادي الأولمبي، وأسهم في الاعتداء على سلام عادل، واغتصـــب خـــلال

---

١ ـــ وكان الرئيس غازي الجبوري قد روى بنفسه هذه الحادثة لعبد النبي جميل في فترة لاحقة: حديث خاص بين المؤلف والطيار عبد النبي جميل عام ٢٠٠١.

٢ ـــ منذر الونداوي، حديث خاص مع المؤلف ٢٠٠٢. وفي هذا السياق، رد منذر الونداوي على معظم الروايات والتقولات قائلاً: "كثيراً ما رغبت أن تتشكل يوماً محكمة قانونية حقيقية لمحاكمة جميع السياسيين العراقيين، وقال " ندمت كثيراً على ترك عملي في القوة الجوية والموافقة تحت ضغط الآخرين على مهمة قيادة الحرس القومي وكانت تلك أكبـــر خطأ ارتكبته في حياتي"، وأضاف " كل السياسيين أخطأوا وبأشكال مختلفة، ولكني حاولت التخفيف من المرحلة ومن شدة القسوة وحميت كثيرين، وكانت ماكينـــة الطباعة ستنادور لي وتاجر لي".

التحقيق سيدة شيوعية وكثيرات غيرها[1]. وبدل محاكمته كوفئ بتعيينه مستشـــاراً ديبلوماسياً للسفارة العراقية بــــرومانيا.

١ ــ عبد الكريم فرحان، لقاء خاص مع المؤلف عام ١٩٧٣، وكتاب المنحرفون الذي أشرف فرحان بنفسه على لجنة تأليفه.

الفصل الخامس

الخيار المسلح:
الموت أو النصر

أسباب اختيار الثورة العسكرية طريقاً لحل الأزمة السياسية

من المؤسف أن يتراءى للوهلة الأولى للجيل السياسي العراقي الشاب الخارج تواً من نفق مظلم طويل، إن استخدام القوة المسلحة لتغيير الحكومات هو أمر طبيعي. وإذا أضفنا لذلك حالة الحصار السياسي والنفس اجتماعي، وحرمان المجتمع من ممارسة الديمقراطية الحقيقية، وحصر تداول السلطة بنفرٍ محدود أغلبه لم يكن نزيهاً، لا في مشاعره الوطنية ولا في ذمته، فسيبدو لنا واضحاً سبب الميل لوسيلة المؤامرة أو الثورة العسكرية لتحقيق الانقلاب السياسي. ومن الغريب إن العراقيين كانوا قد أخذوا بهذا الخيار رغم علمهم بأن عقوبته حتى عندما يكون في طور التفكير هو الموت!!

وهناك أسباب أخرى غير انعدام الديمقراطية عانى منها المجتمع العراقي، تدفع وتقف وراء تزيين الخيار المسلح لقلب نظام الحكم، بعضها رئيسية وأخرى ثانوية، مثل:

أولاً: إدراك الجنود إن حركة ٨ شباط ٦٣ جاءت لتمهد إلى كسر المزيج الملون الذي كانت تتشكل منه لوحة القوات المسلحة العراقية وإلى الأبد، كخطوة أولى من أجل بناء جيش وجهاز حكومي عقائديَيْن، فتقوم في العراق حكومة الجيش المنحاز لإرادة أقلية سياسية معينة، ويُحْرَم ماعداها من المشاركة في سياسة البلاد، وذلك تمهيداً للخطوة الثانية نحو الاستيلاء على الدولة العراقية ذاتها، وهي نفس تجربة حكم الحزب العقائدي الواحد (الديمقراطيات الشعبية) التي حملتها نسبياً التجربة الناصرية ودولياً كل تجارب المعسكر الاشتراكي من كوبا حتى الاتحاد السوفييتي؟

إذن كان هناك شعوراً شبه غريزي خيَّم على ذهنية بعض العسكريين المعادين لحكومة ٨ شباط، وهو إنهم إذا لم يبادروا الآن وفوراً بعمل عسكري كبير يؤدي إلى سقوط السلطة، فإنها ستتمكن من استكمال تصفية القوات المسلحة العراقية من الألوان السياسية الأخرى، وتحويل الجيش بكامله إلى قوة يقودها عقائديون ينتمون إلى حركة أو لون أو تيار سياسي واحد. ولذلك تحركت كتلة الضباط الناصريين*

---

* شعر القوميون الناصريون بالغبن، لعدم قيام الجبهة القومية التي تضم البعث وحركة القوميين العرب والعربي الاشتراكي وحزب الاستقلال وغيرهم، ونظروا لانفراد حزب البعث بالسلطة وعدم حصولهم على حصة ←

وتحرك الجنود الشيوعيون بعد أن اعتقلت السلطة وشردت وقتلت المئات من ضباطهم ومؤيديهم.

وكانت غريزة هؤلاء الجنودوضباط الصف ذكية بامتياز لأنهم أدركوا خطة السلطة الخطيرة جداً في جعل الجيش لوناً عقائدياً واحداً، والتي ستؤثر، إذا ما تم تنفيذها، على مستقبل العراق إلى أمد طويل، إذ ستغدو الدولة تابعة لعقيدة ومزاج جماعة محددة، وستخرج فئات سياسية واجتماعية وشعبية واسعة، فضلاً عن الكرد، من دائرة المساهمة في القرارات العامة للبلاد، وسينعدم الأمل في العودة مستقبلاً للمشاركة في الحياة السياسية إلا بكسر الدولة العقائدية.

وللأسف أقول إن العراق لم تكن فيه بعد العهد الملكي قوى سياسية ناضجة كفاية لتستوعب هذا المفهوم، فسواء كانت هذه الجماعة أو تلك ذات أيديولوجيا سياسية شيوعية أو قومية أو دينية ومذهبية، فقد كانت جميعاً تتحرق شوقاً لخوض تجربة حكم منفردة، وكانت آخر تجارب الجماعات المنفردة في حكم العراق هي حكومة البكر - صدام حسين والتي ما انفكت منذ حوالي ٣٥ عاماً تخوض حرباً داخلية غير منتهية لبسط عقيدتها المتخلفة على مجتمع متحضر أصلاً، وبسبب فشلها الداخلي اضطرت لنقل المعركة إلى الخارج، فخاضت أكثر من حرب خارجية ظنت أنها ستخدم حربها الداخلية، ولكن هيهات أن يخدم الجهل قضية.

ثانياً: علم الجنود من خلال عمل بعضهم في قلم مقرات المعسكر بقرار نقل أو إبعاد الضباط المعتقلين في السجن العسكري رقم واحد إلى أحد السجون البعيدة عن العاصمة. وإن تنفيذ ذلك القرار سيتم في٣ تموز ٦٣، أي قبل الموعد المتفق عليه لإعلان الحركة بيومين، وكان ذلك النقل لو تحقق يعني نهاية الأمل في قيام أو نجاح أي عمل جاد مستقبلاً لإطاحة الحكومة، ولذلك قدَّم الجنود موعد حركتهم قبل أن يوضع أمر النقل موضع التنفيذ بساعات.

وفي تقديري إن المجلس الوطني لقيادة الثورة عندما قرر نقل الضباط المعتقلين إلى

مناسبة من مناصب ومراكز الدولة، على إنه مقدمة لبناء دولة بعثية لا مكان فيها للقوى الأخرى، ولذلك بادرت حركة القوميين العرب بوضع خطة انقلابية شاملة، تم الكشف عنها بوشاية من أحد المساهمين، كانت قد وصلت إلى علي صالح السعدي قبل بدء التنفيذ بيومين، وكان الأخير لا يميل للقوميين الناصريين لتصوره أنهم أدوات تحركها المباحث المصرية. وكانت هذه المؤامرة وما رافقها من ضجيج وانشقاق في صف القاعدة الحكومية قد أسهمت في إغراء الجنود والعمال الشيوعيين على تصور إمكانية النجاح.

سجن بعيد، كان قد فكر بنفس طريقة ودوافع الجنود المتمردين، وهو خطورة وجودهم (الضباط) في أهم معسكرات بغدادقرب الأسلحة والطائرات والأنصار الكثيرون، إذ لا يتطلب الأمر سوى مؤامرة محبكة جيداً تنفذ تحت جنح ظلام الليل لإطلاق أكثر من ألف ضابط فيتحولون بين لحظة وأخرى إلى قوة لا يستهان بها.

ثالثاً: الانطباع المشجع الذي تركه الجيش العراقي وبقي عالقاً في أذهان الطامعين بتغيير يتناسب مع مصالحهم ويرفع عنهم الغبن الذي يرون إنه واقع بحقهم، وهو دور الجيش الذي نجح بسهولة نسبية في انقلابي بكر صدقي ورشيد عالي الكيلاني، وكذلك في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي قادها الزعيم عبد الكريم قاسم، وانهيار النظام الملكي سريعاً والذي أعطى للعسكريين شعوراً عاماً ببساطة القيام بأنقلاب عسكري، لم يكن بنفس الدرجة المتصورة من السهولة، لأن ما حصل كان قد جاء ثمرة جهود كبيرة بذلها الضباط الأحرار بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم ولعشرة سنوات أي منذ عام ١٩٤٨، فضلاً عن ذلك إن الشعب كله تقريباً كان يأتمر بأحزابه الوطنية المعارضة وقد ترسخ ذلك مع قيام جبهة الاتحاد الوطني التي حوّلت البلاد كلها إلى ساحة صراع فضحت السلطة الملكية ومهدت الأجواء الشعبية لقيامثورة ١٤ تموز ونجاحها.

كما إن حركة ٨ شباط ١٩٦٣ التي تمكنت فيها جماعة صغيرة لم يتجاوز عدد المساهمين الفعليين بها في البداية الثلاثين ضابطاً، وعدد من المسلحين لا يتجاوز الثلاثمائة مدنياً يحملون أسلحة شخصية خفيفة وموزعين على مراكز ستراتيجية ومفارق مرور الدبابات التي سيقودها الضباط الثائرون لتطويق مقر الحكومة واحتلال مبنى الإذاعة، وهؤلاء تمكنوا في عملية عسكرية مباغتة ومُحْكَمة وبأقل قدر من الأفراد، من إسقاط أكثر الحكومات شعبية في تاريخ العراق الحديث ويساندها حزب قوي يملك تنظيماً عسكرياً يعد أعضاؤه الجنود بالآلاف فضلاً عن مئات الضباط ومساندة أحياء ومدن كاملة. غير أن ذلك النجاح لم يأت بسهولة بل كانت عملية عسكرية، مدروسة جيداً ومدعومة من مجموعة منتقاة من المدنيين، تمكنت من كسر دولة عبد الكريم قاسم التي كانت حينذاك أشبه بمؤسسة غريبة وسط بحر متلاطم من الصراع بين الأيديولوجيات التي لا تقبل بحلول وسط ولا التعايش مع الرأي الآخر، ومما زاد الطين بلة إن حكومة عبد الكريم قاسم لم تكن تحمل أية نوايا لإقصاء أي طرف من أطراف الصراع.

رابعاً: مشاعر الهزيمة، وفقدان المكاسب المعنوية التي تحققت للجنود على عهد عبد

الكريم قاسم، لأن كثيرين من الضباط من ذوي الرتب العالية الطارئين على التيار القومي العربي (ناصريين وبعثيين وحركيين) كانوا مازالوا متأثرين بالسياسة المتعالية لضباط العهد الملكي في التعامل مع الجنود، لا يحترمونهم ويضعون حاجزاً عالياً بينهم وبين الجنود، بل وكثيراً ما كانوا يسخرون منهم، بعد أن كان (أبو خليل) مهيوباً على زمن عبد الكريم قاسم.

خامساً: ومن دوافع قيام الحركة هو إن الشيوعيين، خصوصاً بعد تلقيهم الضربة القاصمة في ٨ شباط، كانوا قد بدءوا يحسمون موقفهم كلياً لصالح خط سلام عادل القديم المتجدد، الذي يمكن ترجمته بعد الضربة إلى أهمية لملمة النفس وتهيئة القوة ثم توجيه ضربة مفاجئة للنظام قبل فوات الأوان كلياً وربما إلى عقود قادمة. وكان هذا التوجه مطروحاً للنقاش منذ عام ١٩٥٩، ثم بدأ ينتشر بين أعضاء الحزب مضمراً بعد عودة سلام عادل من موسكو عام ١٩٦٢، وفي هذا الصدد قال عصام القاضي: "عندما رجع أبو إيمان (سلام عادل) من الخارج منتصف ١٩٦٢ جرت غربلة لمنظمات الحزب وكان الهدف إسقاط العناصر الضعيفة"[١].

أما عامر عبد الله فقد أخذ بهذا الخط (الثورة العسكرية)، ولكن بعد فوات الأوان وانهيار قوة الحزب الشيوعي في القوات المسلحة، أي منذ منتصف الستينات.

وكان هناك خط ثان ركز على أهمية استلام السلطة ولكن من خارجها أي بعزلها ومهاجمتها بالمظاهرات وبواسطة الانتفاضة الشعبية المسلحة أو غير المسلحة، ويقف على رأسه قبل وبعد ٨ شباط ٦٣ زكي خيري وعدد من القياديين.

ويوجد أيضاً جناح ثالث مازال جنينياً ويميل إلى الحوار مع السلطة ومساندة خطواتها الإيجابية الاشتراكية والتقدمية وتلك مثلها فيما بعد عدد من المتحمسين لخط آب ١٩٦٤.

ولكن نجاح حزب البعث في إسقاط حكومة عبد الكريم قاسم بضربة عسكرية مباغتة قد حسم الموقف، وجعل أكثرية الشيوعيين يميلون لعمل انقلابي عسكري

---

١ ـــ لقاء خاص مع عزيز الحصاني، وكان الحصاني قد نقل للمؤلف جانباً من حوار دار في معتقل قصر النهاية بينه وبين عصام القاضي الذي قال: كان سلام عادل قد أخبره: "نحن في صراع وسباق مع القوى الرجعية، إما أن ننتصر أو ينتصرون وإذا استمر الأمر على نفس الحال سنخسر المعركة"، وأضاف: "نحن متأخرون والزمن أسرع". وفي هذا الصدد يقول عزيز الحصاني لقد تخلى التنظيم العسكري عن كثيرين بهدف ضبط العمل والتهيؤ للخطوة القادمة.

سريع وحاسم، قبل فوات الأوان.

سادساً: مشاهدة الجنود لعمليات القتل والتعذيب دون محاكمة، والتي جرت بحق آمريهم السابقين، وذلك بحكم وجودهم في معسكر الرشيد الذي جرت فيه أكثر أعمال الانتقام حساسية في الأيام الأولى لحركة ٨ شباط وما تلاها، وقد أثبتت الأحداث والمعلومات الراشحة من بعض من بقوا على قيد الحياة من رجال الحركة إنهم كانوا متعاطفين أشد التعاطف مع الضباط والسياسيين المعتقلين في سجن رقم واحد، إذ كان عدد الضباط المعتقلين يفوق عدد الضباط المؤيدين للسلطة القائمة والعاملين فعلاً في صفوف القوات المسلحة رغم مرور ستة أشهر على الحكم الجديد.

سابعاً: قبل أيام قليلة من قيام الحركة كان أمرها قد بدأ يفتضح، فما كان على المرء سوى أن يذهب إلى مدينة الثورة أو أي من الأحياء الشعبية البغدادية لزيارة أحد أصدقائه السياسيين ليستمع إلى همس عن الحدث الكبير المتوقع ضد الحكومة القائمة، بل وتجاوز الأمر الأفراد والمجالس الخاصة وتحول أحياناً إلى حديث المقاهي، فقد كان هناك شعور تلبس الكثيرين بوجود "هاجس ثورة"[١].

وخوفاً من تنبه السلطة وذراعها القوية وعينها الساهرة ليلاً ونهاراً (الحرس القومي) للأمر وتوجيه ضربة وقائية، ولأن قيادة الحركة كانت تدرك سرعة رجال الحرس وخبرتهم بأسلوب العمل السري المماثل لعملهم وأسلوبهم، ولمعرفتهم بالعواقب القاسية لما ينوون القيام به في حالة الفشل أو إذا ما ظفر بهم الحرس القومي كمتآمرين، وبالفعل كان الحرس القومي قد اعتقل في حوالي عشرين حزيران اثنين من العرفاء المطلعين على الخطة، والذين كان مناطاً بهما دور أساسي في معسكر "أبو غريب"، وكان حبيب وسريع خائفان من أن لا يتمكنا من الصمود فترة أطول.

ثامناً: وهكذا وبسبب النجاحات العسكرية السالفة عششت في أذهان الكثير من السياسيين العراقيين وبشكل خاص العسكريين منهم، الفكرة القائلة: إن من يسيطر على الإذاعة يسيطر على السلطة.

مما أكد للجنود بأن الجيش هو القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الثورة والخلاص من الحيف والغبن الذي تصوروا إنه واقع عليهم فلجئوا هم أيضاً إلى أسلوب الثورة العسكرية. وقد أثبتت التحريات إن عملهم كان ذاتياً ١٠٠%، ولم تكن هناك أية

---

١ ـــ فخري كريم لقاء شخصي بدمشق ١٩٩٠

نصائح من أطراف سياسية محلية أو تدخلات أو تعاون خارجي.

وهذا كان بالضبط خيار المجموعة التي أسسها إبـــراهيم محمد علي وقادها محمد حبيب وحسن سريع، حين اختاروا "الثورة العسكرية" على قاعدة"من يسيطر على الإذاعة يسيطر على السلطة"، هذه القاعدة التي شجعت فيما بعد الكثير من المتجرئين على القيام بمغامرات انقلابية مماثلة.

وفي هذا السياق نستطيع القول إن عجز المعارضة وعجز الشعب المستمر حـــتى اليوم عن تغيير النظام القائم رغم مرور الحكمأحيانا بفترات ضعف شديدة، لا يعود إلى عجز ذاتي يكمن في جسد المعارضة، بقدر ما هو عجز موضوعي يعود إلى انحياز مؤسسة القوات المسلحة لعقيدة أو أقلية حزبية سياسية معينة، دون أن يكون لغيرها من الجماعات السياسية العراقية حق الدخول بحرية لتلك المؤسسة.

أما المعارضة، فلأنها غير موجودة داخل هيكل النظام، فقد صارت تتسقط أخبار النظام وقواته المسلحة من مصادر غير مباشرة، وتتسقط أخبار ضباط العشائر الـــتي تقع بمشاكل مع السلطة حول تقاسم الثروات والمصالح!! لتنعش بها آمالها.

وهناك أسباب أخرى كثيرة تشابكت مع ما ذكرنا آنفاً، كانت قد لعبـــت دوراً نسبياً في تشجيع المتضررين من نظام حزب البعث الجديد١٩٦٣، وهم كـــثيرون، ليلتقطوا الأنفاس ويفكروا جدياً لاستغلال أول فرصة تبدو فيها ظروف السلطة غير مواتية فينقضوا عليها.

وهكذا وحسب تحليلنا السالف تكاد تكون حركة حسن ســـريع هـــي آخـــر المحاولات الانقلابية العسكرية التي تقوم بها جماعة من خارج التيار المهـــيمن علـــى القوات المسلحة، ذلك التيار الذي لا يُسْمَح لغير أبنائه بالبقاء فيها أو الدخول إليها.

الفصل السادس
أسباب الفشل

بعد وقوع الهزيمة وغياب شهود الدفاع

يكون سهلاً على المحللين السياسيين والاجتماعيين الذين يتوخون التبسيط، ويهربون من مواجهة القضايا الصعبة التي تحتاج إلى الكثير من الصبر والبحث النظري والعلمي لدراسة واقع تلك القضايا، فيميلون بعد أن تقع الهزيمة ويغيب شهود الدفاع، إلى وضع أسباب سياسية نظرية وأيديولوجية مدرسية تناسب ميولهم وأهوائهم، أسباب ليست مدققة واقعياً.

وعندما تضيف خصلة الرعاع، المتغلبة بين أوساط المجتمعات المقهورة، شيئاً من روحها على الحدث عبر ناقلٍ فاسد، تزداد هستيريا التفسيرات الممالئة للقوة الغاشمة، وتبتعد أكثر عن رؤية العقلاء والمتحضرين.

ورغم معرفتنا بكل ذلك، لكننا نعتقد أن أخطاءً تنظيمية وفنية وقفت وراء التلكؤ الذي حصل وأتاح لكتيبة الدبابات الرابعة فرصة الهجوم على معسكر الرشيد وسحق الانتفاضة، قبل أن يستكمل الثوار سيطرتهم على مرافق وأسلحة المعسكر بكاملها، وبشكل خاص قبل تحرير الضباط الذين يتجاوز عددهم الألف، ودورهم المفترض اللاحق في قيادة دبابات الكتيبة الأولى وطيران الطائرات القاصفة.

وسنضع هنا بعض النقاط، التي نأمل أن تكون بين أسباب فشل الحركة الجوهرية، وهي:

أولاً: مسؤولية الإخفاق بين العبلي والثوار

بسبب مقتل الحيدري والعبلي، وبُعد باقر إبراهيم وعزيز محمد عن بغداد حينذاك، وفقدان محمد حبيب لمصداقيته، صار من الصعب على الباحث أن يعطي رأياً قاطعاً حول الجهة التي تتحمل المسؤولية في عدم مدِّ يد العون من قبل قيادة الحزب الشيوعي بصفة رسمية لحركة معسكر الرشيد، خصوصاً وإن الحزب لم يبق لديه الكثير مما يخاف أو يناور من أجل الحفاظ عليه.

لكن القرائن وما نملكه بين أيدينا الآن على الأقل، تدين محمد حبيب الذي أظهر عداوة صريحة لقيادة الحزب الشيوعي، في حين كان عليه كسياسي وضعته الظروف في موقع حساس جداً، أن يستفيد من كل عون حتى لو كان صغيراً، وأن يدبر ويتدبر ويتكيف بما يخدم إمكانية نجاح رفاقه، أو على الأقل عدم استفزاز أية جهة

صغيرة كانت أم كبيرة. ويضع موقفه الشخصي من قيادة حزبه في الخلف،، لكنه (محمد حبيب) بدلاً من ذلك خاطب مندوب اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الذي أرسله محمد العبلي وجمال الحيدري قبل مقتلهما قائلاً: أنتم جبناء (جبنتم)"، وأشار بيده إلى طائرة عسكرية كانت تحلق فوق رؤوسهم في جولة تدريبية قائلاً: "أنظر حتى هذه الطائرة معنا، فقط أعطوا الأوامر!!"، وكان يريد أن يقول: مازال أنصارنا في الجيش كثيرين وموجودين في كل الوحدات والصنوف، ولو كنا نُحسن التصرف والقيادة لما وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

لكن تصرفه عَبر عن ثقة تصل حد التهور، كما خَلا كلامه من الروح السياسية أو الديبلوماسية خصوصاً وهو موجه لقادة مثل جمال الحيدري وعبلي وكانا مازالا يتمتعان بشعبية ومصداقية عالية، على الأقل، داخل صفوف حزبهم الشيوعي الواسع الانتشار، الذي لم يستطع محمد حبيب ولا غيره بتلك العجالة أن يعمل إلا متستراً تحت يافطته.

وكل مَنْ يعرف طريقة تفكير الأحزاب المركزية والشمولية حينذاك وبشكل خاص الحزب اللينيني ذي الطبيعة شبه العسكرية، يعرف تماماً إن أسلوب محمد حبيب كان مرفوضاً تماماً ورديئاً من الناحية السياسية.

وفي كل الأحوال فقد أكدت الأحداث وجميع المعلومات الراشحة حتى بعد سنين طويلة، إن اللجنة السياسية المدنية للحركة وبصورة خاصة الشخص المكلف باتصالاتها السياسية، كانت مندفعة وقليلة الخبرة ولم تنجح في وضع خطة للتحرك المتزامن في كل الوحدات، ولا في اختيار أفضل وأكفأ المدنيين لديها للعمل مع العسكريين، خصوصاً أولئك المدنيين الموفدين إلى المعسكرات الأخرى، فقد كان محمد حبيب يوزع المسؤوليات على الأنصار في الأحياء البغدادية وبعض المعسكرات، دون تدقيق أو امتحان لخبرات وقدرات المكلفين، فضلاً عن عدم تدريب وتعليم المساهمين الثانويين بواجباتهم وأهمية الالتزام بتنفيذها دون غيرها ومهما حصل.

وقد كان تنفيذ تلك الواجبات مهماً جداً لنجاح الخطة العامة. فقد أساء عدم التزام المكلفين بإيصال بيانات الحركة لإذاعة سلمان باك بدعوى انتظار ما ستسفر عنه معركة السجن لمجمل الحركة، كما أثر كثيراً وبصورة سلبية إهمال كتيبة الهندسة رغم عدم صعوبة السيطرة عليها في بداية التحرك، فقد كانت كتيبة الهندسة "أو

معسكر الهندسة" التي أُهملت تحتوي على مشجب للأسلحة، ومعتقل يقبع بداخله حوالي مائة ضابط أغلبيتهم الساحقة من الضباط الذين كانوا أعضاء في "حركة الضباط الأحرار" التي أسسها وقادها الزعيم عبد الكريم قاسم وفجرت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

لم تكن **شخصية محمد حبيب** (أبو سلام) **متماسكة،** فقد ذكر بعض الهاربين والناجين من المساهمين أو المتعاونين مع الحركة؛ إن حسن سريع لو لم يكن مقتنعاً شخصياً بما كان يقوم به من فعل خطير لما استجاب لتعليمات الحزب التي كان ينقلها له محمد حبيب، ليس لعدم رضاه عن الحزب بل لعدم ميله لشخص محمد حبيب.

وقد أفاد مقربون منه إنه ظل يظن حتى ساعاته الأخيرة، أو ربما حتى مقتله إن قيادة الحزب هي التي أرسلت إليه "محمد حبيب" مندوباً عنها بهدف التنسيق والتعاون. ويذكر عدد من الذين التقوا بحسن سريع في أيامه الأخيرة في السجن أو خلال المحاكمة إنه بدأ يشعر بالشك في صدق مصدر تعليماته[1].

وكان محمد حبيب والمنظمة الحزبية المدنية التي تقف خلفه قد ادعوا ذلك فعلاً، واتصلوا هنا وهناك بكوادر من الشيوعيين، تصوروا وجود صلات تربطهم بقيادة الحزب، فتحدثوا إليهم وحاوروهم ليحصلوا منهم على معلومات تفيد دعاواهم بوجود صلة نظامية تربطهم بالحزب، ليقدموا لحسن سريع وأنصاره صورة عن حركة شاملة تمتلك غطاءً سياسياً، إلى حين تأتي ساعة الصفر، فيوضع الجميع أمام الأمر الواقع.

وكان في ذلك نقطة ضعف لم يلاحظها الجنود وهي إن حبيب لم يجلب إليهم متطوعين مرتبطين حزبياً، بل كانوا جميعاً من الحزبيين والمؤيدين التائهين أو الهاربين، المقطوعة صلتهم الحزبية لربطهم بجسم الحركة، للاستفادة منهم، ولكي يأخذ الجنود فكرة عن استعداد أعضاء ومنظمات الحزب في مناطق مختلفة لتزويدهم بمقاتلين ولتنفيذ المهمات المنوطة بهم.

---

١ ــــ من جانب آخر ذكر مقربون من رجال الانتفاضة أو الذين اعتقلوا معهم و لم يحكموا بالإعدام: إن حسن سريع كان قد اعتذر من كل زملائه الذين التقى بهم في المعتقل والمحكمة عن عدم الاتفاق مع الحزب.

ثانياً: تقديم موعد الحركة

لكل ذلك وبسبب نــزق وتصرفات محمد حبيب مع الوسطاء، وجد مركز قيادة الحزب الشيوعي المتمثل بجمال الحيدري ومحمد العبلي وعبد الجبار وهبي ضــرورة التريث ريثما ينضج العمل ويتم رأب تلك الأوصال الحزبية التي مازالت لم تطلــها الضربة. غير إن محمد حبيب رأى أهمية البدء فوراً بالعملية قبل أن يؤدي الانتظار إلى كشف الخطة الانقلابية، وأَفْهَمَ بقية المتعاونين معه خصوصاً الجنود: إن الحزب يقف وراء ما سيقدمون عليه.

وقد أفاد كل من اتصلنا بهم من المساهمين بصورة مباشرة أو غــير مباشــرة في حركة ٣ تموز بأن قيادتها العسكرية كانت ترغب في تنظيم أدق وأَمْتَع قبل مباشــرة العمل العسكري، بحيث يمكن توفير بدائل تغطية أكبــر ومستلزمات أفضل تعطــي للنجاح حظاً أوفر، لكن خوف الجنود من افتضاح الأمر، ومعرفتهم بأن السلطة إذا ما اكتشفت أمر المتآمرين عليها ستكون قاسية بلا حدود. كما كانوا يعرفون أيضاً بأن مؤسسة الحرس القومي كانت تعمل بحماس مماثل لحماس الجنــود، وبســرعة استثنائية، وربما بميول غريزية مكتسبة من الحياة الحزبية السرية في استشعار الخطــر، فضلاً عن ظروف وملابسات كثيرة رجّحت التعجيل في التنفيذ. على الرغم من إنهم كانوا قد أعلموا بالواسطة قيادة الحزب الشيوعي يوم ٥/ ٧/ ٦٣ موعداً نهائياً للتنفيذ.

وهكذا فقد رجَحَتْ لدى قيادة الحركة كفة تقديم الموعد قبل استكمال بعــض الترتيبات والتفاصيل التي بدت بسيطة، دون أن تدرك إن ما يبدو بســيطاً بصــورة منفردة، قد يصبح ضرورياً وخطيراً ضمن خطة عامة، خصوصاً إذا ما كــان دوره فيها تكاملياً ويؤثر على كل مستقبل الحركة.

وفعلاً فقد كانت الحركة تحتاج إلى بضعة أيام أخرى لإبلاغ أعداد كافية مــن المستعدين في المساهمة بها، ولإعادة دراسة الخطة وسد ثغراتها الكثيرة، ووضع جدول جديد لأولوياتها، مثل إعطاء أهمية لاحتلال سجن الرشيد العسكري تتناسب مــع أهمية إطلاق سراح نــزلائه الضباط والسياسيين لنجاح الحركة، بدلاً من اعتبارهــا روتينية وتحصيل حاصل.

ولم يعرف تماماً سبب إلحاح محمد حبيب على تقديم موعد الحركــة، ويــرى بعضهم إن سبب ذلك يعود إلى عدم كفاءته وأهليته، في حين يرى آخرون إنه كان طامعاً، لأن نجاح الحركة سيعني زعامته السياسية الفعلية لها باعتباره أساساً المكلــف

بمسؤولية القسم العسكري من قِبل قيادة المنظمة الحزبية التي أقامها إبـــراهيم محمـــد علي.

ثالثاً: ضباط وجنود

كان واحد من أهم شروط نجاح الحركة أن يكون في عضوية قيادتها على الأقل ضابط ركن واحد متميز مهنياً، أو ضابطا ركن من مستوى فوق المتوسط، لكـــي يدرسا خطة الحركة من جوانبها المختلفة، ومحيط العملية لاسيما الاحتمالات الجدية الكثيرة الممكنة والإمكانيات الصديقة أو العدوة التي قد تدخل بصورة غير متوقعة إلى أرض الصراع، وما قد يستجد من عواملٍ وتأثيرات موضوعية مفاجئة*.

لكن الجنود كانوا قد أظهروا إصراراً على عدم مشاركة الضـــباط في تخطـــيط وإشعال الحركة، رغم إن تعييناتهم التي كانت ستذاع فوراً بعد إحكام السيطرة على محطة إذاعة سلمان باك، تؤكد بوضوح لا لبس فيه، إنهم كانوا سيسلمون الســـلطة بعد الاستيلاء عليها إلى الضباط المعتقلين والهاربين إلى كردستان العراق مثل ســـعيد مطر وسليم الفخري وغضبان السعد وهاشم عبد الجبار وعريبي فرحان وغيرهم.

أما لماذا قرروا استبعاد الضباط من التخطيط؟

فقد يعود إلى عوامل كثيرة، منها إحساسهم بعدم موافقة الضباط النهائية قبـــل وضع استفسارات كثيرة، والدخول في الدراسة النظرية للظـــروف "الموضـــوعية" و"الذاتية"، وطلب موافقة الحزب على العملية كلها أولاً، ثم على تفاصيلها ثانيـــاً، وبذلك لن ينتهي الأمر قبل وضع المشروع كله على الرف.

وربما يعود أيضاً إلى إدراك الجنود لتردد وضعف معنويات الضباط بعد هزيمتـــهم المنكرة صباح ٨ شباط ٦٣، أو أنه يعود في جانب منه إلى انتشار أفكار فوضوية عن المساواة (حتى بين غير المتساوين)، بين الجنود والضباط، وأفكار ثوروية وشـــعبوية

---

* في ١٥ شباط ٢٠٠٢ بلايدردورب هولندا، قرأت بعض نصوص عملية٣ تموز لأحد ضـــباط الـــركن اللامعين " العقيد الركن أبو أحمد الزيدي"، فقال: "لم يكن هؤلاء يحتاجون لضابط ركن، ولا أعتقـــد إن ضباط الركن في الجيش العراقي كانوا سيضعون خطة أفضل من خطة حسن سريع فقد حسب لكل شيء على ضوء المعطيات المتوفرة، والأخطاء التي تتحدث عنها يمكن أن تحصل في الواقع دائماً، وواضح إن حظه وحظ رفاقه كان سيئاً". كما إنهم واجهوا بالصدفة أول من واجهوا ضابطاً ذكياً أبلغ جميع مراكز القوة في السلطة بما يحصل قبل أن يقوم بأي عمل آخر، ثم توجه إلى معسكر الرشيد.

كانت منتشرة حينئذ بين المعارضة، فضلاً عن قناعتهم بازدراء عدد كبير من الضباط لقدرات الجنود.

ولكل تلك الأسباب وربما لغيرها أيضاً أصر الجنود على رفض إشراك أي من الضباط في هيئة الإعداد والقرار على الأقل في المرحلة الأولى، ولا شك إنما نفس الأسباب التي وقفت وراء توفير نجمات وملابس الضباط ليرتديها الجنود، ظناً إنها ستغنيهم عن الحاجة للضباط، على الأقل خلال الدقائق الأولى، ريثما يطلقون سراح مئات المعتقلين منهم، ووضعهم أمام أمر واقع لا رجعة فيه، ولذلك رفضوا عروضا كثيرة للمشاركة، بينها عرضاً من أحد رفاقهم بإشراك ضابطين(١).

وليس صحيحاً ما أشيع عن ارتداء حسن سريع لرتبة ضابط بل كان يرتدي ملابس جندي خالية تماماً من الرتب والشارات، مع حذاء جلدي أحمر اللون وهو ما اعتاد الضباط وتلامذة المدارس العسكرية بما فيها مدرسة قطع المعادن، ارتدائها تميزاً لهم عن الجنود ذوي الأحذية (البساطيل) السوداء*.

وكانت الهوة الواسعة بين الضباط والجنود قديمة وتمتد إلى العهد الملكي. ويمكن ملاحظة المظاهر والدلالات على نُفْرة الطرفين من بعضهم حتى قبل انتفاضة معسكر الرشيد، وأهم الأمثلة على ذلك هو قرار قيادة حركة ٨ شباط استبعاد الجنود من قيادة الدبابات واشترطوا أن يكون طاقمها من الضباط فقط وذلك لاتهام الجنود جملة بالولاء للآخر (النظر إليهم كقطيع).

وأنا شخصياً أرى إن الرفض متبادل، فقبل قيام حركة معسكر الرشيد، لم يكن الضباط ليصدقوا إمكانية وقدرة جنود، أكثرهم من أبناء الأرياف، على التفكير والتخطيط لانقلاب عسكري، لما يحتاج له من فكر قيادي معقد ومركب. وفي المقابل لم يكن الجنود سيشعرون بحرية العمل الكافية مع وجود الضباط معهم، خصوصاً بعد أن أدركوا أنهم أعلم وأكثر خبرة من الضباط بمادة الثورة (الجنود والعمال المنفذون لها)، فهم أقرب لأبناء الثورة والحرية والشعب والكاظمية وكمب سارة وغيرها من غيرهم.

---

١ — يقول نعيم الزهيري إنه عرض شخصياً على الشخص الذي كان يتصل به من جماعة حسن سريع مساهمة ضابطين أحدهما برتبة مقدم وجاء الجواب بالرفض.

* لكن المقدم منذر الونداوي أخبر المؤلف في حديث خاص أنه علم أن حسن سريع كان يضع رتبة رئيس رغم إنه لم يلتق به أبداً.

رابعاً: صمود حراس السجن

لم تحسب قيادة الحركة حساباً لصمود سرية حراسة السجن، بل اعتبرتها فاصلة جزئية من عملها الكبير، فأربكها صمود حراس السجن الذي استغرق وقتاً كافياً لوصول دبابات القصر الجمهوري، وخلال المعركة استبسل آمر سرية حراسة السجن حازم الصباغ (الأحمر). ولا يمكن الآن الحكم بسهولة على إمكانية فشل أو نجاح الحركة لو لم تقف تلك العقبة بوجه المتمردين، خصوصاً وانهم كانوا مبادرين وانتحاريين، ولديهم الفرصة بالاستعانة بمئات من الضباط المعتقلين المختصين بمختلف صنوف الأسلحة، إذ لم يجتمع مثل هذا العدد "١١٥٠" ضابط لأية حركة من قبل، لا لثورة تموز ولا رمضان. ولا انقلاب ١٧ تموز أو غيره. وقد خسرت "القيادة الثورية" معركتها بسبب عدم إطلاق سراحهم وبسبب حرمانها من إمكانية إعطاء إشارة البدء للوحدات والمعسكرات الأخرى. أما السلطة فلم تتوقع ما حصل إطلاقاً و لم تتخذ أية احتياطات أو تضع خطة طوارئ للمواجهة.

كان لفشل الحركة في إطلاق سراح مئات من الضباط المعتقلين في سجن رقم واحد دور كبير في إخفاق العملية العسكرية برمتها، ليس فقط لعدم قدرة الجنود على التخطيط بل لأن الضباط كانوا معروفين لأفراد القوات المسلحة، وكان إطلاق سراحهم سيؤثر على معنويات المترددين من الضباط في جميع الوحدات كما سيربك المدافعين عن السلطة.

خامساً: نظرة القطيع معكوسة.

لم ينظر رجال السلطة وحدهم للجنود كأفراد في قطيع، بل نظر الجنود لأنفسهم ولرفاق خدمتهم النظرة ذاتها. وكانت تلك من النواقص التي تسببت بفوضى غير محدودة بسبب عدم تمييز الثوار بين جندي وآخر، تقديراً منهم إن كل الجنود (بالمطلق) يتعاطفون بحماس مع قيادة الحركة، ولذلك تمكن أحد العرفاء (م.د.)، بعد ما كان قد أظهر تأييده لفكرة إسقاط حكومة حزب البعث، من الالتحاق بالثوار ليلة الحركة، وبعد ساعتين من التحاقه تمكن من الاتصال هاتفياً بقريب منه يعمل في القصر الجمهوري، وأعلمه بالتمرد الذي بدأ تواً، وأعطاه فكرة عن حجمه الابتدائي، فحصلت قوات القصر الجمهوري على معلومات إضافية ووقت كافٍ وضروري لمفاجأة الثوار قبل استكمال سيطرتهم على المعسكر.

سادساً: متاعب الحرب في كردستان العراق.

وكان اندلاع القتال بين الحكومة والثوار في كردستان، قبل أقل من شهر واحد، ونجاح الكرد في معركة طاسلوجة قد أوحى لهؤلاء الجنود بارتباك الحكومة، وأنعش آمالهم في إمكانية النجاح بعملية انقلابية يفاجئون بها السلطة المنشغلة في "حرب الشمال". تلك الحرب المدمرة التي دارت طويلاً بين أبناء الوطن الواحد والتي ملّها الشعب العراقي، وكرهها الجنود الذين لم يتفهموا أو يصدّقوا يوماً أهداف السلطة المعلنة منها.

ويضاف لذلك عدم ودية نظرة غالبية العسكريين العراقيين جنوداً وضباطاً لخطوة استقدام لواء عسكري سوري بقيادة العقيد فهد الشاعر، إذ لم يكن الخلل في قدرة الجيش العراقي على معالجة القضية الكردية، ولكن العجز الماثل في حلها، كان كامناً في الموقف غير الحكيم وغيرالعادل للحكومات العراقية المتعاقبة، ومن تخلفها عن توفير الحد الأدنى من الحقوق القومية البسيطة للكرد، مثل حق استخدام لغتهم الوطنية، وحقهم في شغل المناصب والوظائف ذات الطبيعة السياسية السامية، وحقهم في تطوير التراث القومي الكردي، والمشاركة في ريع البلاد وفي القرارات الخطيرة التي يتعين في ضوئها مستقبل البلاد، أو على الأقل الاستفادة من الكيفية التي عالجت فيها أمم وشعوب أخرى متقدمة مشكلاتها القومية المماثلة بنجاح.

ويرى بعض المقربين من رجال الحركة إن موافقة حسن سريع ومجموعته على مبدأ تقديم الموعد قد حصل لأسباب كثيرة بينها الحصول على معلومات مؤكدة عن أوامر صدرت من وزارة الدفاع في إجراء تنقلات واسعة. وكان الجنود العاملون بالقلم والشؤون الفنية فضلاً عن جنود المرافقة قد علموا فعلاً بصدور قرار من مديرية الحركات العسكرية بوزارة الدفاع بنقل إحدى الوحدات العسكرية إلى كردستان العراق، للمشاركة في العمليات الحربية ضد الكرد التي كانت قد بدأت تواً، وكانت تلك الوحدة العسكرية مرابطة في معسكر الرشيد وبين جنودها عدد كبير من أنصار حسن سريع، مما كان سيحرم الحركة من خدمات ضرورية جداً[1].

ومن الطريف إن محمد حبيب الذي كان يميل إلى المبالغة، أخذ في الأيام الأخيرة التي سبقت الحركة، يهمس مكرراً بأن لديه اتصالاً بالحركة الكردية التي وعدته

---

١ ـ غازي عباس، مجلة الأسبوع عدد تموز ١٩٦٣.

بالمساندة في حالة البدء بالثورة، ولا أشك بأنه أصبح مع الوقت أكثر خيالاً وبدا يصدق مبالغاته، ولذلك ارتكب أخطاءً كثيرة.

سابعاً: القوميون العرب والناصريون على الخط

لقد كان الموعد الأول للتحرك هو ١٥ أو ٢٥ /١٩٦٣/٥ وتأجل لأنه تصادف مع وضع الجيش والحرس القومي في حالة إنذار قصوى بسبب تصاعد الخلافات بين شركاء السلطة من البعثيين والقوميين والتي انتهت بإعلان علي صالح السعدي عن اكتشاف محاولة انقلابية قام بها تحالف حركة القوميين العرب (الحركة الاشتراكية العربية) وعدد غير قليل من الضباط (بمجموعة العميد عبد الهادي الراوي والعميد عبد المنعم المصرف والمقدم جابر حسن حداد)، وشكلت المحاولة المذكورة نهاية التحالف الهش الذي قام بين حزب البعث الاشتراكي والحركة الناصرية لمقاومة سلطة عبد الكريم قاسم، إذ لم يعد البعثيون يشعرون بأنهم بحاجة للتعاون مع القوميين العرب والناصريين لإدارة السلطة، كما لم ينظر القوميون للبعث قط على إنه عضو كامل، أو جزء أساسي من التيار القومي العربي، خصوصاً بعد اشتعال الخلافات بينه وبين جمال عبد الناصر. وأستطيع التأكيد بأن الناصريين مازالوا حتى هذا اليوم يميزون أنفسهم قومياً بشيء من التفاخر عن البعثيين والعكس صحيح أيضاً.

وكانت قيادة حركة معسكر الرشيد قد نظرت إلى ما حصل من تفكك في التحالف الناصري ــ البعثي بأنه سيسهل مهمتها داخل القوات المسلحة من أجل إسقاط السلطة.

ويذكر إن كلمة السر لحركة الرشيد فيما لو وقعت بأيار كانت "كريم" عرفاناً لشخص الزعيم عبد الكريم قاسم[1].

ولكن لم تكن جميع الأسباب التي قُدمت من أجل تقديم موعد الحركة موضوعية، لأن مسار الأحداث قد أثبت فيما بعد أن أجهزة السلطة لم تكن تعلم بدقة حجم ومستوى ما يبيت، وليس لديها أية فكرة عن المكان والزمان الذي كانت الحركة ستنطلق منه، لدرء خطرها رغم وجود بعض المعتقلين والمؤشرات عن وجود بؤر

١ ــ نعيم الزهيري، رسالة للمؤلف ١٩٩٩.

تنظيمية تخطط لشيء ما لم يصل إلى حد توقع تمرد عسكري إطلاقاً[1].

ثامناً: العزلة العربية الإقليمية

لم تتمتع حركة حسن سريع بنفس دعم حكومات الدول العربية والاقليمية أو بعضها مثلما حصلت عليه على التوالي حركتي ٨ شباط، و ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، فلم تُزود قبل حصولها بالدعم والنصائح. إذ أن جميع الحكومات العربية والإقليمية كتركيا وإيران كانت حينذاك ترفض قيام حكومة يسارية في العراق، أو يغلب عليها أفكار وقيم وشعارات شيوعية، لأن حصول ذلك كان يعني تهديداً مباشراً لشرعية تلك النظم السياسية والاجتماعية وللتقاليد المحلية القائمة فعلاً.

وكان جزء من تلك العداوة المتبادلة بين الدول المحيطة بالعراق وبين حزبه الشيوعي يدور حول مسعى الأخير للوصول إلى السلطة في بغداد أو المساهمة بها. وربما تعود العداوة إلى وجود أحزاب شيوعية عربية وإقليمية قوية ومنافسة في تلك الدول آنذاك (مثل سوريا وإيران)، مما قد يؤدي إلى استلام الحزب الشيوعي العراقي للسلطة أو المساهمة فيها، وبالتالي تفجير الأوضاع الداخلية في تلك البلدان، ولا أحد يمكنه بعد ذلك التنبؤ بالنتائج.

وفي كل الأحوال فقد كان واضحاً لدى كل المساهمين في الحركة بأن مصيرهم إذا ما فشلوا سيكون الموت:

---

١ ـ تحدث حازم جواد في لقاء شخصي مع (المؤلف) بلندن عام ٢٠٠٠ عن حكومة ٨ شباط التي كان هو أبرز قادتها إنما كانت تعلم بتفاصيل كثيرة عن الحركة، وكان رأي حازم هو ومؤيديه ضرورة المباشرة فوراً باعتقال وتفكيك تنظيم المجموعة التي تخطط لعملية التمرد أولاً كي لا يتورط كثيرون. وثانياً من أجل حصر العقوبات بعناصر محدودة، إذ ليس من الصحيح ترك الآخرين يتورطون ثم معاقبتهم بقسوة شديدة، في حين رأت قيادة الحرس ومجموعة علي صالح السعدي وبعض الضباط المتحاملين على الشيوعيين أهمية الاستمرار في رصد تحركها وبنفس الوقت الاستعداد للانقضاض عليها وسحقها قبل التنفيذ مباشرة.
ويقول منذر الونداوي في حديث مع المؤلف "كنا نراقب ونتوقع تمرد أو تحرك انفعالي ولكن ليس بتلك الجرأة والعزم ولا بذلك الشكل حيث واجهنا جنوداً نظاميين في معسكر مهم، تصعب السيطرة عليه".
ومع ذلك لم يستطع ذلك الجناح تقدير حجم ما يخطط له الجنود، لأن قيادة وعناصر التحرك كانوا جنوداً وعمالاً بسطاء يسكنون أحياءً شعبية بعيدة عن عناية السلطة وعن أعينها، و لم يكن متوقعاً من مثلهم استهداف الحكومة ومحاولة قلب نظامها، ويؤكد ذلك تصريح علي صالح السعدي مباشرة قبل قيام حركة المعسكر عندما قال: إن الحزب الشيوعي انتهى كتنظيم. لكن السعدي نفسه غيّر رأيه بعد ٣ تموز ١٩٦٣ وصرح قائلاً: "يبدو إن هناك خبطاً تنظيمياً للشيوعيين في معسكر الرشيد".

ـــ لأنهم عسكريون تمردوا على النظام القائم وحملوا السلاح ضده فعلياً، وسيكون مصيرهم الإعدام رمياً بالرصاص.

ـــ ولأن النظام نفسه كان مستعداً لإنزال أقسى العقوبات بالعسكريين الشيوعيين لأبسط الأسباب، بل وكان قد صفّى عشرات منهم قبل ذلك لأسباب تنظيمية فقط!!

تاسعاً: أخطاء التنفيذ

ـــ عدم إذاعة البيانات التي أعدت سلفاً بما في ذلك التعليمات الموجهة إلى مجموعات الجنود المستنفرة في المعسكرات والأحياء الشعبية البغدادية. وكانت البيانات قد تضمنت التعيينات الجديدة للوزراء والقادة العسكريين وبعض المناصب المدنية العليا. كما كانت الخطة تقضي السيطرة على محطة الإرسال التابعة لإذاعة الحرية خلف معسكر الرشيد على طريق "سلمان باك"، وكانت تلك المحطة قد بناها السوفييت (وادعت السلطة بعد فشل حركة حسن سريع إن السوفييت دربوا بعض الشيوعيين عليها). وكان عبد الكريم فرحان قد قال: "من أخطاء حركة ٣ تموز شدة مقاومة حرس السجن وعدم تأمين جهاز لاسلكي من القوة الجوية لإذاعة بياناتها على موجة خاصة تستلمها محطة الحرية لبثها في أرجاء العراق[١]. ورغم عدم وجود اتفاق تام يقضي بأن ينتظر جنود المعسكرات الأخرى حتى يبدأوا بالعمل المباشر بل كان ذلك مجرد كلام بينهم إلا أنهم انتظروا البيان الأول مما تسبب في ارتباكهم عندما لم يصل الجنود إلى إذاعة الحرية.

ـــ ومن أخطاء التنفيذ إن جميع المساهمين الأساسيين خرجوا مباشرة من اجتماع كمب سارة مع حسن سريع إلى موقعه الخاص "مدرسة قطع المعادن" واستمروا معه حتى حلول ساعة الصفر والاستيلاء على مشاجب السلاح، وكان الأجدر بهم فور عودتهم من اجتماع كمب سارة الذهاب إلى مواقعهم حيث ستنفذ كل مجموعة المهمة الموكلة إليها، فيعطي كل واحد منهم لنفسه الفرصة لرصد المحيط وإلى التنفيذ الفوري بمجرد إطلاق الإشارة التنويرية وذلك قبل تنبه الحراسات، ومن أجل التفرغ السريع لنجدة رفاق السلاح الذين يعانون صعوبات في تنفيذ مهماتهم، وبسبب عدم

١ ـــ عبد الكريم فرحان، حصاد ثورة ص ١٦٣.

الاهتمام بهذا التفصيل الصغير فقد الجنود في بعض المواقع المهمة التي اتجهوا لاحتلالها عنصر المباغتة وهو أهم عناصر نجاح أية محاولة لاحتلال أي موقع من قِبل قوة صغيرة.

— ويرى كل من زكي خيري وسعاد خيري إن حسن سريع أخطأ عندما غير في الخطة الموضوعة في اللحظات الأولى من بدء التنفيذ دون إعلام بقية مسؤولي الحركة، عندما لم ينفذ المهمات الأولى الأخرى وركز على باب السجن رقم واحد، فتأخر انطلاق المكلفين بالذهاب للإذاعة والمطار وبعض المناطق الحيوية الأخرى، لإبلاغها بمباشرة مهماتها "قبل أن يستفيق العدو"[١].

ومن ناحيتي أعتقد أن هذا النقد يبدو للوهلة الأولى وجيهاً لكنه في الحقيقة يبدو نظرياً وفيه شيء من الأستذة، لأن النقد الحقيقي الموجه إلى حسن سريع وإلى كل المساهمين الأساسيين في قيادة الحركة هو عكس ما ذهب إليه زكي خيري، هو عدم تركيز قيادة الحركة بصورة كافية لعملية فتح باب السجن العسكري رقم واحد أو على الأقل بصورة تتناسب مع أهمية إطلاق سراح الضباط لنجاح الحركة.

— لم تحصل الحركة على تغطية شعبية ملموسة من قبل الحزب الشيوعي[٢].

— كما لم يجر اختيار قيادة المعسكرات الأخرى المُؤَمّل مساندتها اختياراً موفقاً يراعي الكفاءة، بل فرضته طبيعة الظروف الخاصة والاستعجال خوفاً من أن يؤدي التريث إلى لحاق السلطة بهم وتحطيمهم.

— وبسبب التأخر عن الذهاب إلى كتيبة الهندسة تمكنت القوة المرافقة للرئيس عبد السلام عارف من السيطرة عليها وجعلها مركزاً لإيواء معارضي الانتفاضة ومركزاً لضربها.

---

١ — زكي وسعاد خيري صفحة ٤١٦.

٢ — تكررت هذه الظاهرة مع محاولة خالد أحمد زكي قيادة حركة كفاح مسلح في جنوب العراق عندما لم تحصل على ما كان ينتظره من تغطية وحماية شعبية تنظمها القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي التي كانت تمتلك شعبية كبيرة في أوساط الجماهير العراقية، وبالمقابل شغلت نفسها في مهمة متناقضة مع شعاراتها ومع ما كانت قد اتفقت عليه مع خالد أحمد زكي القادم من أوربا لإعلان الثورة الشعبية المسلحة، انشغلت في مماحكات مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حول حصة كلا الطرفين من أخطاء الماضي، وفي خوض انتخابات نقابية مزورة أساساً لكن القيادة المركزية عبرت عن إصرار غير مفهوم على الاستمرار في خوضها وتبريرها، حتى اعتقال قيادة الحزب وبدء دورة الموت للقضاء عليها.

الفصل السابع
نتائج واستنتاجات

ومن مراقبة أعمار رجال الحركة يمكن رؤية عنفوان السياسة الجارف حينذاك، كما يمكن ملاحظة إن صدق الانتماء لدى الطرفين المتصارعين مازال منه شيء باقٍ، وذلك قبل أن تسعى ماكينة حكومة ١٧ تموز منذ عام ١٩٦٨ للقضاء على فروسية العراقيين ومحاولة تحويلهم إلى قطيع مصفقين. ويؤكد ذلك استقبال أبطال التمرد للموت بشجاعة مثيرة بعد فشل حركتهم، غير نادمين بلٍ صرح أكثر من واحد منهم إن ردة فعلهم على أفعال السلطة كانت أمراً طبيعياً. وقد كانوا أشجع من كل جلاديهم الذين تعرضوا إلى موقف مماثل، فلم يكن عبد السلام عارف و كثيرون غيره عندما مروا بظروف مماثلة أشجع من حسن سريع ورفاقه عندما وقفوا أمام محكمة فاضل عباس المهداوي التي كانت، رغم سخريتها، أرحم بما لا يقاس من محكمة شاكر السعود التي توزع الموت بلا رحمة، فلم يكونوا شجعاناً رغم معرفتهم إن محاكمتهم تجري في ظروف أكثر رحمة.

ـ إن مجرد تفكير الجنود باستلام السلطة رغم كونهم جنوداً شباناً لم يواصلوا تحصيلهم و لم تعركهم مدرسة الحياة كفاية له دلالات كثيرة، كما إن استعدادهم للموت من أجل قيم اعتنقوها وعهود قطعوها لا تعكس سوى نضجهم السياسي وتطور الحركة السياسية والحزبية العراقية التي استطاعت بناء أعضائها على الثقة العالية بالنفس، وعلى أفكار وقيم ثورية بديلة كانت مزدهرة ومرموقة. تلك الثقة التي جعلت الجندي عندما يقرر المعارضة يتصور بأنه يستطيع التغلب ليس على الحكومة فقط بل والحلم بتغيير الدولة بكاملها، وإعادة تأسيس المؤسسات المدنية والعسكرية فيها.

ويمكننا أن نبدأ بتحليل ظاهرة حسن سريع ورفاقه في الحزب أو الجندية انطلاقاً من محاولة الإجابة على سؤال ظل زمناً طويلاً نسبياً يحير المهتمين بالحركة، فيضطروا إلى تجاوزه أو الهرب منه، وهذا السؤال هو:

الكيفية الغريبة والمثيرة التي استطاع فيها جنود وعمال، لم تتجاوز أعمار أكثرهم الخامسة والعشرين، و لم يقضوا في مدرسة الحياة فترة كافية، و لم يصل أي منهم إلى أكثر من مستوى عضو "لجنة محلية" داخل حزبه، من مجرد التفكير والتخطيط لقضية بالغة التعقيد وخطيرة مثل الاستيلاء على السلطة السياسية، والتخطيط للأمر بهدوء وبصورة مستقلة عن الهيئات القيادية المجربة في حزبهم، في حين جرت العادة أن يضرب العمال عن العمل ويهرب الجنود عن وحداتهم العسكرية إذا كانوا

غاضبين!!

إن ما جرى يوم ٣ تموز ٦٣ يعكس، في تقديري، المستوى السياسي المتطور الذي وصلت إليه المدارس الحزبية العراقية، كمدرسة البعث العربي الاشتراكي التي فاجأت نظام عبد الكريم قاسم بعمل فائق ومحكم التنظيم، والمدرسة الشيوعية التي كان كل من حسن سريع ومحمد حبيب نموذجها.

لكن تطور الوعي ودقة تنظيم الممارسة الحزبية المنظمة، رغم كونها رافعة للثقة والوعي بالذات، لا تشكل وحدها سوى الإمكانية أو الجانب الفني للمسألة، ولا تعتبر لوحدها دافعاً كافياً للتحرك والمجازفة في مواجهة الموت والقسوة غير المحدودة. ولذلك وبعد استقصاء كثيرين ممن خرجوا أحياءً من جحيم الانتقام استنتجت ما يلي:

لقد تعودنا النظر إلى الجنود والعمال، الذين لم تتح ظروف ملاحقتهم كسرة الخبز، مواصلة الدراسة، على إنهم ذوو ثقافة بسيطة، وظروفهم تلك كانت في كل الأحوال قادرة على منحهم إمكانية تحليل وتحسس الواقع ووصفه، ربما بدقة، لكنها لا تمنحهم وقت الفراغ الحر اللازم للتفكير المعقد والمركب. ولذلك يلجأ العامل، (طبعاً بحسابات تلك المرحلة) عندما يشعر بالغبن الملازم لوظيفته وبسبب ارتفاع فائض القيمة أضعاف مضاعفة، وبالتالي اتساع الهوة بين الأسعار والأجور، إما للإضراب أو كسر آلته وهو رد فعل يتناسب مع مستوى تحصيله العلمي البسيط. أما الجندي المتطوع في الجيش فهو عندما يشعر بالغبن الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، وعندما ترمي به الحكومة المستحوذة على الدولة في أتون حروب داخلية ظالمة وخارجية لا معنى لها فإنه غالباً ما يسجل هروباً من وحدته تعبيراً عن عدم رضاه[1].

---

١ ـ المقدم الطيار منذر الونداوي، رسالة خطية خاصة، يصف فيها الحركة قائلاً: "حسن سريع بالذات وجماعته حالة نادرة، إنه وفاء شجاع لقضية، ولقد وصل بالأمور إلى الحد الأقصى الذي ما بعده حد، فقد عمل في بيئة معادية ومارس الصراع من أجل البقاء ومارس الغش والاختفاء بذكاء ودهاء، لكنه كان بعيداً عن النجاح، إنه واحد من الطاقات العراقية المهدرة. وسيبالغ كثيرون في محاولة إثبات أن النجاح كان قاب قوسين أو أدنى منه، لكنني عندما نصحتهم بالهرب كنت صادقاً معهم ومع نفسي، وقلتها لهم بحب وإعجاب (نذكر أن منذر كان قد حذر القوات الموالية قبل توجهه للمعسكر)، وأقارن اليوم بينهم وبين الذين ملئوا قلوبنا قيحاً من خلال التردد ونحن نملك أضعاف قوة حسن سريع فيزداد تقديري لهم. من حسن حظ ←

إن الغالبية الساحقة من الجنود العراقيين ينحدرون مباشرة من أصول ريفية وبالتالي ليست لديهم نسبياً نفس المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها العمال، لأن الريف العراقي كان حينذاك يوفر بعض الضروريات للفلاحين المعدمين شبه مجاناً مثل الخبز والتمر، في حين يُستَذَل العامل فور فقدان عمله، ورغم ذلك فقد وجدت إن هؤلاء الشباب (جنوداً وعمالاً) قد تملكهم شعور وموقف ثابت هو: إن السلطات المتعاقبة لم تضمر لهم ولطموحات أهاليهم سوى العداوة المستمرة دون سبب واضح، فاستقر في أعماقهم موقف سلبي من مؤسسة الدولة.

وما نذكره هنا يجد صداه أيضاً في الجهة المقابلة الأخرى حيث قرر ضباط ٨ شباط - حتى قبل البدء بالانقلاب العسكري - استبعاد الجنود من قيادة الدبابات، واشترطوا لقيادتها ضباطاً بواقع ثلاثة أو اثنين لكل دبابة. وكان سبب القرار التخوف من عدم موالاة الجنود. وهذا يعكس وجود هوة وعدم ثقة كبيرتين بين الجنود وغالبية الضباط وبالتالي بين الجندي والسلطة، خصوصاً بعد سقوط حكومة الزعيم عبد الكريم.

والأمر الآخر هو نزوع الجنود بدلاً من الهروب، إلى اخذ السلطة كلها بين أيديهم، ولجوئهم الواعي ليس إلى الضجيج والبيانات، وإنما التخطيط واستخدام آلة السلطة الحقيقية وهي الجيش. وذلك يدلل على وعي خاص ومتطور بكيفية إدارة الصراع في دولة لا تعتمد البرلمان الديمقراطي في إدارة شؤون البلاد. وربما يكون وعي تلك النخبة من العمال البسطاء قد قفز استثنائياً أيضاً إلى فكرة اعتماد الجنود كقوة مسلحة لتحقيق آمالهم، والانتصار بهم على عدو بيده السلاح والمال.

الحوار الشرس بدلاً من حوار المتحضرين

لو عدنا إلى تلك المرحلة متأملين أحداثها ولغتها السياسية، ولو وضعنا أداة استفهام للعنوان أعلاه؟ فستكون الإجابة عليه، أو لفهم ما حصل، بحاجة إلى تحليل وتقويم منطقي، وسنحاول ذلك فيما يلي:

قبل كل شيء لابد من وضع السؤال على الشكل التالي: لماذا يتحول الحوار

الضباط أنهم لم يطلق سراحهم من السجن، إذ كان القتال سيدوم ولو لأيام ولكنه كان سينتهي بمجزرة رهيبة".

السياسي والاجتماعي أساساً، في العراق المتحضر والغني نسبياً إلى معركة مسلحة بين ضباط ثقافتهم بسيطة، جاءوا من أرياف هي أقرب للبادية منها للحواضر المدنية من جهة، وبين جنود بسطاء أكثر غذاءهم الثقافي والعلمي هو أيديولوجيا تُبَسِّط إلى أبعد الحدود مشهد الصراع السياسي في العراق والمنطقة والعالم، وتخدم دون أن تدرك إرادة محور سياسي عالمي هو ذاته يعاني من قصور ذاتي سينتهي به حتماً إلى زوال؟

نعم إنه أمر غريب أن تدور معركة بهذه الشراسة في بلاد كالعراق لا يعاني من أزمة وجود، معركةً ينهزم فيها المدني المتحضر الذي يمثل وجوده ودرجة تطور ثقافته مستقبل الضباط والجنود المنتصرين القادمين من القرى، رغم أنهم لا يحملون في زوادتهم سوى طيبة فطرية، يمكن للأيديولوجيا بسرعة أن تملأ سهلها المنبسط ببنى نظرية وشعارات قيمية فارغة، قد تكون شديدة الحدة ومدمرة.

لأن هذا الإنسان السَهل المنتقل، الذي دخل تواً عالم الفكر المدني المعقد، يحتاج إلى وقت قد يطول ليتعلم بأن التجربة لا تتطابق في أكثر الأحيان مع النظرية، وإن التفكير النظري يمكن أن يقيم البرهان على نظرية معينة وعكسها بنفس الوقت، وبأن الفكر المدني يملك خصلة التأني في أحكامه، لأنه يعرف هذه الحقيقة القديمة قدَم الفلاسفة السفسطائيين، الذين أثبتوا بالمنطق النظري، بعيداً عن التجربة العملية، الشيء وضده في آن واحد فكانوا بذلك أكثر الفلاسفة واقعية. ولذلك فإن من يعرف ما ذهبنا إليه لن يجرؤ على ارتكاب خطيئة الموافقة على القتل والإعدام المستشري في بلادنا لأسباب تتعلق بخلافات الرأي.

ولكننا نعلم إن دهاء المستعمر الإنكليزي قد أوحى لموظفيه أن يضعوا العراقيل أمام مستقبل البلد المقاوم، فوضعوا خطة تم بموجبها زرع البسطاء من أبناء الريف، أي الأرياف نصف البدوية*، الذين يسهل خداعهم وتوتيرهم، في مراكز السلطة

* لا أقصد هنا كل أرياف العراق، بل تلك الأرياف "النصف" التي لم تستكمل نمط أو أسلوب حياة محدد ثم تنقل لنمط آخر. وهذه الأرياف قطعت حركة تطورها الطبيعية عندما احتاج المستعمر أبناءها لحراسته وخدمته بعد أن اتفق مع شيوخها واقطاعييها. في حين توجد أرياف عراقية غنية ومتطورة على الأصول ومدنيتها عالية بالمقارنة لحالة العراق الذي أهمل وتخلف كله بمدنه وريفه خلال العهد العثماني وفي كل الأحوال ليس بالإمكان حساب سوق الشيوخ مثلاً، أو الشامية والمشخاب ونسبياً عموم منطقة الفرات الأوسط بعيدة عن أرقى أشكال التطور المدني في العراق.

ومواقع القوة وجعلتهم أمناء على المال والسلاح. لكن بعض المدنيين البغداديين كانت لهم أيضاً حصة كبيرة في إدارة السلطة فتمكنوا لأكثر من ثلاثين سنة من الحد من خروج أولئك البسطاء (أنصاف المتحضرين) من المواقع العسكرية وحماية السلطة، إلى مواقع إدارة الحياة السياسية المعقدة. وكانت الحكومة البريطانية قد حرصت على تحقيق هذا الأمر تدريجياً منذ عشرات السنين قبل خروجها مهزومة من العراق، ولهذا عانت ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ بعد انصرام أيام النصر الأولى الاحتفالية، من صعوبات كبيرة كان أكثرها يعود إلى تركيبة إدارة الدولة والجيش والأمن العام الموروثة، التي كان يحتل مراكزها رجال بسطاء لا يرون بين الأبيض والأسود ألواناً أخرى، ويسهل عليهم توزيع الاتهامات والأحكام وتنفيذ العقوبات. ولهذا استغربوا من قاسم كيف استمر في السلطة أربعة أعوام ونصف، بشعارات عفا الله عما سلف والرحمة فوق القانون، وبلا عصبية يَضْرِب بها خصومه ويميتهم.

هذا فضلاً عن حرمان قطاعات اجتماعية واسعة من المشاركة في مؤسسات الدولة، ومن المؤسف إن حملات السلطات المتعاقبة ضد المعارضة أصبحت منذ سقوط ثورة ١٤ تموز أسوأ من أي قوات احتلال، وكانت قد أسست لدى المضطهَدين استعداداً لتقبل الأفكار الانتقامية. وذلك وليس غيره هو ما تصوره البعض مساراً وتاريخاً آخر للعراق في حالة فوز جنود معسكر الرشيد بالسلطة.

وفي تقديري الخاص فإن انحصار المعركة بين ضباط نصف بدو يسيطر عليهم عقل الغنيمة، وجنود بسطاء مؤدلجين، لم يحصل بسبب الوضع الاجتماعي والأيديولوجي والاقتصادي والمذهبي والعنصري (عرب وأكراد) فقط، بل وأيضاً وبشكل أساسي بسبب النصر الصريح للمتخلف على المتقدم، البسيط على المدني المتطور والمعقد الذي اضطر منذ الاستقلال الوطني تقريباً أن يتفرج على معركة أولئك الذين وضع المستعمر بين أيديهم المال والسلاح فتوارثوها بطرق مختلفة.

ـ انزواء العقل المثقف الرصين والحر الشجاع ليحل محله مصارعين من مستوى أدنى وهؤلاء أفرغوا الساحة السياسية العراقية، بشراسة غير معهودة، من السياسيين الذين يجيدون الحوار السلمي، ووصفوهم بالجبن والرجعية والعمالة والروح التجارية وحب المال...إلخ، وكانت مفاهيم الأوصاف المذكورة قد تسللت إلى العقل السياسي العراقي والعربي مع الأيديولوجيا اليسارية الواردة من أوربا غرباً وشرقاً.

ـ رغم هزيمة التمرد الذي قاده الجنود في معسكر الرشيد، إلا أنه عجَّل من تفعيل أزمة السلطة المؤجلة ودق إسفين بين زعمائها شكل بين عوامل أخرى سبباً لرحيلها.

يقول شبيب: "إن التمرد الذي تم سحقه داخل معسكر الرشيد، ظلت بعض ذيوله تُسببَ الخلافات داخل الدولة". ويضيف: "هناك سلسلة من المواقف اختلفنا فيها، ثم جاءت أحداث أخرى عصفت بدولتنا، وغطّت على هذا الموضوع"[1].

ـ كشفت حركة السريع للضباط القوميين والبعثيين إن الخوف الذي جعلهم يستسلمون لتنظيم "البعث المدني" لم يكن بسبب ما يملكه من أجهزة وأدوات تساعد وتزيد من قوته وقوة مقاصده العلنية، بل جاءت من وحدة البعث وسرِّية أعماله وخططه، مما جعل أعضاءه قادرين على توجيه الضربات من حيث لاَ يتوقع الخصم. أما الآن وقد انكشفت أسرارهم وأعدادهم وفقدوا وحدتهم فإن من الممكن ترحيلهم بعد أن ينجزوا مهماتهم التي هي في حقيقتها مهمات يرغب كبار العسكريين (دون علمهم) في القيام بها، فتطوعت هيئات التحقيق المدنية في تنفيذها لمصلحة الطرف الثالث المتربص بالسلطة، وفعلاً لم تمر أشهر حتى التقى البعثيون المدنيون بضحاياهم في السجون والمعتقلات المنتشرة في كل مكان.

ورغم الدروس الغالية الثمن التي أفادت بأن بلاداً لا يحكمها برلمان وديمقراطية حقيقية، إلا إن قيادة الحزب الشيوعي التي قامت بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ كانت قد تشكلت غالباً من الحرس القديم واختارت نفس الأسلوب القديم الذي هو نصف عداوة ونصف مهادنة، وانتظار الخطر حتى يطرق الأبواب. ولم تعِ على الإطلاق درس الشراسة الذي طالما استخدمها الآخرون وسيلة للوصول والبقاء في السلطة بعد تدمير تنوع الجيش[2]، في حين أدرك سلام عادل ذلك منذ آيار ١٩٥٩،

---

١ ـ د. علي كريم سعيد، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، مصدر سابق، ص ٣٠١. ومنذ محاولة أحمد حسن البكر وعبد السلام عارف الاستفادة من أحداث حركة حسن سريع، وتصدي القيادة القطرية للبعث (كل أعضائها مدنيون)، حصلت جفوة ليس فقط بين عبد السلام وجماعة علي السعدي، بل وأيضاً بينه وبين حازم جواد وطالب شبيب فضلاً عن منذر الونداوي وأنور الحديثي.

٢ ـ كنت شخصياً (المؤلف) قد طرحت هذا الأمر مرتين على قادة شيوعيين، المرة الأولى بدار علي الشوك في براغ مع فخري كريم بحضور عبد الإله النعيمي وآخرين، وأخرى مع عزيز محمد بحضور عبد الرزاق الصافي وعامر عبد الله والمرحوم إدريس البارزاني واللواء الركن حسن النقيب وكان في الحالتين كلتيهما يدور ←

وألح على مواجهة ذلك الأمر في أيامه الأخيرة وصرح قائلاً: "نحن متأخرون والزمن أسرع".

ومن جانبي أفهم أنه أراد أن يقول مادام برنامجنا وبرنامج كل القوى المنافسة لنا والمهددة لحكومة عبد الكريم قاسم ليس ليبرالياً فليس أمامنا سوى القفز إلى السلطة بوسائل القوة المتاحة. ولنفس السبب، كما أرى، استعجلت حركة حسن سريع أمرها لأسباب بينها إدراك قيادتها بأن الزمن لا يمر لمصلحتها بسبب تغيير السلطة المنتظم للتنوع داخل الجيش وتحويله بسرعة إلى قوة عقائدية أو بعقيدة واحدة.

ـــ لابد أن تكون حياة الجنود في الطفولة والشباب قد حملت تراكماً من العداء للسلطة، أية سلطة عراقية كانت، لأن ما يتداول بين الناس وخصوصاً أهالي الجنود والمحيط السياسي والديني المعارض من وقائع السلطة إزاءهم، كان قد ترك في أذهانهم تراثاً وطريقة للنظر للأشياء باستمرار، نظرة معارضة ومنتقدة لكل ما يقوم به الحكام الذين لم يكونوا أبداً عادلين في توزيع العقاب والثواب، وكان ذلك الموقف الناقد يحصل دائماً في كل المناسبات والأمكنة مما خلق تصوراً واضحاً عندهم بأن ما يقومون به يعتبر واجباً تجاه الوطن والأهل، وسيلقى التأييد بشرط أن تتطوع ثلة من الناس وتُقْدِم على عمل مباشر من شأنه كشف عجز السلطة، فاختاروا أن يكونوا هم أنفسهم، الفدائيون الذين يفتحون الطريق لتحقيق آمالهم الدفينة في صدورهم وربما في صدور أبناء المناطق والأحياء التي جاءوا منها فضلاً عن رفاقهم الحزبيين البسطاء. وهذا هو بالضبط ما يمكن تسميته بعامل التاريخ المحرض الذي تتمحور جميع عبره المتأتية من المراحل السياسية السابقة للعهد الجمهوري في حالة من الفصام والقطيعة بين ثقافة الدولة التي لم تتغير رغم تغير الحكومات، وثقافة المجتمع، ولم تستطع ثقافة الدولة، رغم إشرافها وهيمنتها على البرامج المدرسية وعلى الإذاعة والتلفزيون والصحافة العلنية، كما لم تستطع كل التدابير الأخرى من لجم الثقافة الشعبية، أن تبقى في الموقع الأول[أصول الضعف] وقد لعبت الحوزات

الحديث حول إقامة جبهة الجوقد، فقلت: لماذا تظلون تلحون على إقامة جبهة مع قوى تعرفون إنكم غير قادرين على الالتزام بشروطها؟ ألا يمكن لحزبكم الكبير أن يضع شروطاً تتناسب مع رغبات أعضائه، خصوصاً بعد أن تكشف لكم المرة تلو الأخرى: إن بعض من ترغبون التحالف معهم يشقون طريقهم السياسي بعد أن يُعِدوا كل وسائل القسوة غير الرحيمة لها؟

الدينية لاسيما الإسلامية الشيعية دوراً هاماً صميمياً في نشر الأدب الخاص والمفاهيم التاريخية والسياسية الخاصة، وكان لها أدباؤها وشعراؤها ومنظريها الفكريون ....إلخ

ـ ويمكننا بعد التدقيق في أهداف الجنود، وفي ميولهم السياسية وجذورهم الاجتماعية والجهوية أن نؤكد نجاح القائمين على الحركة خلال فترة الإعداد لها بتجاوز تلك الأمراض التفريقية التي أصرت الدولة العراقية خلال القرن العشرين على ارتكابها بملء إرادتها، وعلى إدراكها إن الخلاص الوحيد لن يأت إلا بالمساواة بين العراقيين، وبالخروج من دائرة السلبية وبإعلان الثورة على المفاهيم البائدة وعلى شريعة الاستحواذ داخل الوطن أو الدار الواحدة، ليحل ثراء الجهد محل ثروة الغنيمة التي يلاحقها الثأر والموت والثوار.

فقد جاءت حركتهم متعددة الأطياف والأمواج، خطط لها وشارك فيها أشخاص من كل ألوان النسيج العراقي، فأسهم فيها إبراهيم محمد علي وجميل الخشالي وهاشم الآلوسي وحسن سريع ومحمد حبيب وصباح إيليا (أو ليلية) ومسعود توما وجمعة شيشة ومهتم مجيد، كما يمكن ملاحظة إن المناطق التي جاءوا منها تستغرق الجغرافية العراقية بكاملها. كما ليست هناك أية دلائل على اهتمام الحركة بأي انحياز أو ميول عنصرية ودينية أو مذهبية، وإن ظهرت في أحاديثهم مصطلحات وعبارات مميزة فلأن ذلك يحصل بسبب شيوعها بين جميع العراقيين، فيكون التلفظ بها طبيعياً وعفوياً وتعبيرياً لأنها أصبحت من التقاليد والتراث ولا شأن للسياسة بها.

وكان الحزب الشيوعي كغيره من الأحزاب العراقية الكبيرة التي ملأت الساحة العراقية نشاطاً حينذاك، منزهاً من النزعات الطائفية والعنصرية، رغم إن بعض المنتمين إليه ظلوا باستمرار يتشكون من الممارسات الطائفية والعنصرية للسلطة، ولكن ليس في ذلك ما يضير لأن تاريخ العراق الحديث يزخر بآلاف الوثائق والبيانات التي أصدرها أو حررها أرباب المذاهب والأديان والحركات السياسية وممثلو القوميات الأخرى لاسيما الكردية التي تتحدث عن تلك الممارسات، بل إن العامة من الناس غالباً ما اعتقدوا بأن مصائر القيادات المعارضة عندما تقع بين يدي السلطات تختلف بحسب انتماءاتهم القومية والمذهبية. والحقيقة إن ذلك ليس صحيحاً، فالسلطة إذا كانت ديكتاتورية هي السلطة!! وبصورة أخص لا ينطبق ذلك التصور على مصائر القادة الشيوعيين، لأنهم غالباً ما انتهوا على أيدي الأجهزة الأمنية، بغض النظر عن مذاهبهم وأعراقهم، إما قتلاً أو هاربين في مناف بعيدة دون

تمييز، وربما يعود عدد قتلى الشيوعيين من بعض المناطق أكثر من غيرهم إلى عدم قدرة ذويهم على تقديم سند حكومي يساعدهم في محنتهم، لأنهم ظلوا منذ عشرات السنين بعيدين غصباً عنهم، عن المناصب الحكومية الفعالة، وهذه التفرقة ليس سببها الشيوعيون بل السلطة.

كيف فكر البعثيون العقائديون

أما البعثيون فقد نظر كثيرون منهم حينذاك إلى ممارسات هيئات التحقيق على إنها نتيجة سيئة لما توقعوا إنه سيتوج نضالهم، فقد توقعوا أن ينتهي نضالهم إلى تحقيق الوحدة العربية وقيام مجتمع عربي موحد ومزدهر، يمتلك بوحدته إنتاجاً وريعاً وموارد وخبرات وبالتالي قوة أكبر يدخرها لتحرير أراضيه المحتلة ويدافع بها عن كيانه عندما يمر بمثل ما يمر به اليوم.

وكم كان مؤلماً عندما أدى الصراع المنفلت، وإرادة الممسكين بزمام القوة إلى إحباط آمالهم. وباستثناء هذا فقد جَمَعَهم (البعثيون) خوف مشترك أدى أحياناً إلى تبرير الممارسات القاسية سواء ضد انتفاضة معسكر الرشيد أو غيرها وهو:

أولاً: التأمل الذي يذهب بهم دائماً إلى تصور حجم الانتقام الذي سيحيق بهم في حالة انتصار الشيوعيين عليهم، خصوصاً وإن الشعارات التي كان يرفعها الشيوعيون أو أنصارهم كانت كلها وعيداً.

ثانياً: التصور بأن سقوطهم أو سقوط الحركة الناصرية كان سيعني سقوط مشروع الوحدة العربية، وهو تصور غير صائب لازال يركب بعض ممثلي التيار القومي، لأن الوحدة هي أمر غير حزبي بل يخص المجتمع، وسرعان ما سيتبناها الناس جميعاً إذا ما شعروا بالأمن والأمان الذي سلبته بعض القوى غير الناضجة من التيار القومي. ذلك لأن الوحدة حاجة طبيعية لتنمية وازدهار وصمود المجتمع العربي ولكل القوميات التي عاشت ومازالت على أرضها داخل حدود الوطن العربي بأسلوب إيجابي (غير عنفي) في وجه التطورات الاقتصادية العالمية العظيمة الجارية.

ثالثاً: موقف الشيوعيين من حركة ٨ شباط ٦٣، إذ بادروا للتظاهر والتصدي للحركة حتى قبل أن يتأكدوا من أهدافها ومشاريعها.

رابعاً: نظر البعثيون حينئذ إلى أن المشاركين في انتفاضة معسكر الرشيد كان أغلبهم عسكريين. ومن الطبيعي أن يكون حكم العسكري الذي يتمرد على الدولة

ويستخدم السلاح ضدها الإعدام. فالعسكري يعرف مصيره في حالة الفشل.

وأرجو هنا أن لا يتصور أحدهم إن ما ذكرته آنفاً هدفه تبرير القتل العشوائي فمن قتل نفساً واحدة بلا ذنب كأنه قتل الناس جميعاً، وسأحاول أن أكون أبعد الناس عن تبرير مثل هذا الذنب.

موقف الحزب الشيوعي من الحركة

كان الحزب الشيوعي العراقي خلال العهد الملكي يعرف بالضبط ماذا يريد، فعالج المسائل المتعلقة بمواقفه السياسية بوضوح يكفي لإسباغ البهجة في نفوس منتسبيه رغم الصعوبات والمعتقلات، وما إن نجحت ثورة ١٤ تموز في مسك السلطة السياسية حتى ارتبكت قيادته خاصة في مجال وضع أولوياتها التي كانت إلى حد ما أولويات البلاد لأن الحزب الشيوعي العراقي كان عشية ثورة تموز ١٩٥٨ أقوى الأحزاب السياسية في الشارع، في الأرياف والمدن وبين المثقفين، وأسهم في إعطاء الحكومة الجديدة شعبيتها الجارفة. وتأكيداً لذلك تحدث عامر عبد الله في ندوة عقدت في عام ١٩٧١ بالسفارة التشيكوسلوفاكية في بغداد بمناسبة ذكرى انتصار الجيش الأحمر، قائلاً: كان حالنا كشيوعيين عراقيين في العهد الملكي أشبه بمتعلم "حساب" يقوم بحل مسألة حسابية بسيطة من الدرجة الأولى، وفجأة واجهنا في زمن عبد الكريم قاسم مسائل جبرية من الدرجة الثانية والثالثة. وأضاف عامر عبد الله: إنه شخصياً أصبح غير محبوب من بعض قواعد الحزب الشيوعي، لأن الحزب نفسه كان مضطرباً ويحتاج لضحية فكان عامر هو تلك الضحية[1].

وذلك يعني إن الشيوعيين الذين بدأوا يتعرضون لضغوطات وتحديات سياسية وفكرية مكثفة منذ بداية ثورة تموز، لم يكونوا واثقين من إرادهم، ولذلك أطالوا فترة احتفالات النصر على الملكية حتى أصبحت مملة وتستقطب الكثير من الانتهازيين وأحياناً الرعاع المزعجين.

وبعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ حاولت قيادة الحزب الشيوعي تقويم المرحلة الماضية، فحصلت خلافات بسبب تشابك المسؤوليات عن الأخطاء المفترضة، وصعوبات الحكم عليها، خصوصاً وإن التقييم كان سيترتب عليه وضع ترتيبات

---

١ ـــ جليل جاسم، دمشق ١٩٨٩.

متوافقة تجيب على سؤال: ما العمل؟ ومَنْ سيتولى القيادة مستقبلاً؟

فتكلف زكي خيري وعزيز الحاج أن يكتب كل منهما على حدة تقريراً منفصلاً يقوِّم فيه التطورات المأساوية التي أَلَمّت بحزبهما خلال السنوات الماضية منذ قيام الجمهورية، وفيما بعد اشتهر هذان التقريران خلال الجدال الذي حصل داخل صحافة شقّي الحزب "القيادة واللجنة" المركزية.

وعموماً، رغم إن كلا التقريرين كانا قد احتفظا بذاكرة طيبة وإيجابية عن حسن سريع والانتفاضة، لكنهما لم يحملا أي تحليل نقدي للعقلية الحزبية النمطية التي أدت إلى تأخر مراكز الحزب الثلاثة عن مد يد العون للانتفاضة، وأقصد العقلية التي تربت على مواجهة الشرطة والأمن في الشارع فلا تنتصر حتى عندما تنهزم الشرطة، دون مواجهة الحكومات غير الشرعية داخل أروقة الدولة ومراكز قوتها الحقيقية، وحينذاك كان هذا الأمر ممكناً بالنسبة لهم إذا ما جمعوا طاقاتهم وتفرغوا كلية إليه، لكنهم كانوا يرغبون بمسك أشياء كثيرة، الشارع والسلطة، في آن واحد.

ونحن هنا سنحاول تحليل ظاهرة لجوء محمد حبيب وحسن سريع إلى تغيير السلطة بقوة السلاح عن طريق البحث عن جذورها داخل قيادة الحزب الشيوعي ولدى أهم رجالها.

ويذكر إن الحزب الشيوعي كان قد تلقى حينذاك ضربة شبه قاتلة غيرت مساره ومسار البلاد حتى الآن، وأدت مؤقتاً إلى وجود ثلاثة مراكز له: الأول، في بغداد يقوده جمال الحيدري عضو السكرتارية العامة للحزب وعضوية عضو المكتب السياسي محمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي (أبو سعيد) ويمثل قيادة الحزب، والثاني: في كردستان يقوده كل من القادة عزيز محمد وكريم أحمد وعمر علي الشيخ. والثالث، في الفرات الأوسط ويقوده عضو المكتب السياسي باقر إبراهيم الموسوي ويساعده عدنان عباس وصالح الرازقي ومحمد الخضري ومعن جواد وحسين سلطان صبي ومعهم زكي خيري وآخرين. لكن كلا المركزين، كردستان والفرات الأوسط، لم يعتبرا نفسهما مركزين بل تبعا مركز جمال الحيدري ـ العبلي. وكان باقر قد حاول وأَلَحَّ على الحيدري والعبلي أن يلتحقا به في الفرات الأوسط بهدف الحماية والصيانة، وأرسل فعلاً مفرزة لاستقبال محمد صالح العبلي لمواكبته إلى المنطقة، لكنه فوجئ بخبر إعدامهم. و لم تكن هناك صلة تذكر بين مركزي الفرات

وكردستان[١].

ثم كتب عامر عبد الله تقريراً آخر عام ١٩٦٧ أطلق عليه اسم "محاولة للتقييم". وضع فيه نوعاً من خطة تؤكد على أهمية التغيير اعتماداً على أسلوب الانقلاب العسكري. وهو بالتالي تقرير يخالف الأفكار التي وضعها عزيز الحاج وزكي خيري اللذان اعتمدا في تقريريهما فكرة الكفاح المسلح في الريف.

ورغم إن فكرة عامر كانت ذكية، لكنها جاءت متأخرة أو ربما بعد فوات الأوان، فهذه الفكرة كانت ممكنة قبل أن يحال أكثر من ثلاثة آلاف ضابط على التقاعد منذ بداية عام ١٩٦٣ حتى نهاية عام ١٩٦٥. وكان الأجدر بعامر عبد الله أن يتبنى هذه الفكرة منذ عام ١٩٦١ عندما تأكد هو وغيره من القيادات الشيوعية بأن أعداء نظام قاسم لن يتصالحوا معه حتى لو نجح في إعلان الدستور الدائم كمقدمة لبناء حياة برلمانية دستورية جديدة، فقد كانوا قد قرروا إن إسقاط النظام وسحق الشيوعيين هو "الحل الأوحد" بالنسبة لهم[٢].

---

١ ــ لقاء خاص مع باقر إبراهيم، السويد عام ٢٠٠١.

٢ ــ في السنة الأولى والثانية وربما الثالثة من ثورة ١٤ تموز كان أهم خلاف داخل الحزب الشيوعي يدور، دون ضجيج، بين خط سلام عادل وتيار آخر (إذا صحت التسمية)، فالأول كان يرى أن يبادر الحزب الشيوعي في فرض نفسه على السلطة حتى إذا اضطر إلى إجبار عبد الكريم قاسم على ذلك، لأن سلطة الأخير تعتمد في بقائها على تأييد شعبي وعسكري عام، دون عصبية حزبية تحمي نفسها بها من المؤامرات الكثيرة التي تحاك ضدها في الداخل ومن الخارج لمصلحة خصوم الشيوعيين، والتيار الثاني رأى إنه مادام حكم عبد الكريم قاسم وطنياً وشعبياً فلا يجدر أن نغدر به، بل نبقى قريبين منه لنحقق النصر على خصومنا السياسيين والاجتماعيين تدريجياً من خلال سلطته. ولم يكن ذلك الخلاف وحده في أذهانهم، بل كانت هناك مشاعر بالدرجة الأولى لدى زكي خيري ثم عامر عبد الله وبهاء الدين نوري بأنهم أقدر من سلام عادل على قيادة الحزب الشيوعي دون أن يستطيعوا أن يضعوا أمام جماهير الحزب دليلاً مؤيَّداً بالأفعال على صدق الأقوال غير تصوراتهم عن تفوقهم النظري اللينيني. وأنا شخصياً (المؤلف) بعد أن قرأت للجميع وجدت ثقافة وكتابات سلام عادل أعمق في مضمونها، وأقرب من طبيعة وتقاليد المجتمع العراقي والمنطقة من ثقافة وكتابات زكي خيري الوافدة بما لا يقاس، فقد كان بعضهم يرى صلاحيته للقيادة من خلال تمكنه من استخدام بعض مفردات الماركسية اللينينية الأوربية الشكلية جداً في كتاباته وأحاديثه، في حين خلت تقريباً كتابات سلام عادل من الوسائل الوافدة للتعبير وكانت في نفس الوقت ناجحة في توصيل فكرتها السياسية ذات الخلفية الماركسية اللينينية إلى القارئ. كما كانت أقرب نسبياً للواقعية ولعقل الجمهور من طريقة تفكير رجل السياسة الذكي والمثقف عامر عبد الله المتعالية (بالمعنى الفلسفي للكلمة)، ولذلك انشق الطريق "بين الجمهور" السياسي لاسم سلام عادل والمقربين من طريقته كجمال الحيدري وعبد الرحيم شريف وجورج تللو ومحمد العبلي وصالح دكلة، في حين انغلق نسبياً على عامر وزكي وبهاء.

ـــ وصف بيان للحزب الشيوعي (ل. م) الحركة بأنها صبيانية غير ناضجة، كما وصفها زكي وسعاد خيري في سياق تقويمها إنها صبيانية ألحقت أضراراً أكثر مـــن فائدتها، وقالا: رغم إن الانتفاضة حققت انتصاراً سياسياً كبيراً لكنها "كانت عملاً متسرعاً أَلْحَقَ من الناحية العملية أضراراً وضربات بالحزب وبالحركة نفسها". وقالا: "إن النضال الحاسم ضد العدو يجب أن يكون تحت القيادة السياسية الواعية للحزب الشيوعي، كما أثبت للشيوعيين بأن جيش الثورة الأساسي هم العمال والفلاحـــون وجماهير الجنود.. وإن جماهير الجنود يوفرون للطبقـــة العاملـــة الحليـــف المســـلح القوي"[١]... وواضح إن حديثهما لا يعدوا أكثر من سفسطة نظرية باهتة، وربمـــا تكون هذه العقلية النمطية قد ساهمت في عدم تفهم الواقع وفي هزيمـــة الشـــيوعيين العراقيين، رغم ما تَوَفَر لهم من غطاء دولي ممثل بالمعسكر الاشـــتراكي وشـــعبية لا تجارى وكادر عسكري يقدر بالألوف بين جنود وضباط أكثرهم يخدمون بوحدات ومرافق داخل بغداد أو بقربها.

ولا أظن إن انتفاضة معسكر الرشيد كانت تهم زكي خيري كثيراً بقدر ما مثلت له واحدة من المسائل التي عَبـــر من خلالها عن عجز قيادة الحزب الشيوعي الـــتي كان يرى نفسه أحق وأقدر منها على القيادة فكراً وممارسةً. وتؤكد التناقضات التي وقع فيها في كثير من المرات ما ذهبنا إليه، فرغم وضوح موقف زكي وسعاد خيري شبه الجاحد للحركة، لكن الأستاذ عبد الرزاق الصافي أخبـــرني بأنه كان قد قـــرأ ورقة كتبتها سعاد خيري تُحَمِّل الحزب الشيوعي مسؤولية كل شيء بما في ذلـــك فشل انتفاضة معسكر الرشيد، وأضاف الصافي إنه من خلال موقعه في قيادة الحزب حينذاك "منع طبعها ونشرها في صحافة الحزب". وذلك يؤكد إن قيـــادة الحـــزب الشيوعي بكل أطرافها، وعلى خطى السوفييت، وبسبب خوفها من أن يمـــس أي اعتراف بخطأ النظرية، كانت قد وضعت الحزب فوق الواقع والتجربة وفوق الحقيقة.

ورغم ذلك نجد عبد الرزاق الصافي يقول: لقد مجدنا حركة حسن سريع، لكـــن طاقاتنا لم تكن كافية بعد ضربة ١٩٦٣ للاهتمام بحدث كبير، فلو "استجابت قيادة الحركة لنصيحة جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي لأمكـــن الاحتفـــاظ بـــالقوة واستغلالها في وقت مناسب، خصوصاً عندما تأججت الخلافات البعثية البعثية الـــتي

---

١ ـــ زكي وسعاد خيري صفحة ٤١٧.

حصلت في الفترة بين ١١ و ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ للسيطرة على بغداد".

ويبدو إن ذلك دون غيره هو الذي جعلهم متطرفين "ويساريين" ودفع الذين ظلوا على قيد الحياة منهم في مرحلة لاحقة للإلتحاق بالقيادة المركزية للحزب الشيوعي أو بحركة الكفاح المسلح التي قادها الشهيد خالد أحمد زكـي أو بالحركـة الكرديـة المسلحة وغيرها من قوى العمل المباشر، وكفر آخرون بالسياسة والتقوا في وسـط اجتماعي واسع كله تقريباً يرفض السلطة ولكن بصورة سلبية، لكنهم، والحق يقال، ظلوا محتفظين بأسرار الحركة و لم يكشفوا ما بقي مستوراً من أسماء مدنية وعسكرية.

ـ قبل انشقاق الحزب الشيوعي إلى قيادة مركزية، ولجنة مركزية، لم يكن حسن سريع وحركة ٣ تموز تُذْكَر كثيراً في إعلام الحزب الشيوعي العراقي، وبعد الانشقاق تصرفت القيادة المركزية ودون إذن من أحد كوريث شرعي للانتفاضة.

ويذكر إن هاشم الآلوسي كان قد قدم في منتصف الستينات إلى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي تقريراً من ثمان صفحات قطع كبير يعالج فيـه بالتحليـل والتقويم أسباب فشل الحركة.... وغير معروف إذا كانت هـذه الأوراق مازالـت موجودة في مكان ما أو استولت عليها مديرية التحريات الجنائية خـلال صـراعها الطويل ضد الأحزاب الوطنية[1]، ويرى بعض الذين عملوا مع هاشم الآلوسي حتى أيامه الأخيرة في القيادة المركزية إن أهم استنتاج لديه كان تقديره بأن حركة ٣ تموز كانت تمتلك حظاً كبيراً في النجاح والاستيلاء على السلطة، و لم تكن لتفشل لـولا بعض الملابسات والمفاجآت بينها صمود حرس السجن وتباطؤ الشيوعيين في التعاون معها، كما أكد فيه عدمتحمس الضباط السجناء وعدم مبادرتهم كما فعل معتقلـوا مقر اللواء الخامس عشر، وإن عدد الجنود والعمال وغيرهم من المدنيين الذين جرى

---

١ ـ يقول باقر إبـراهيم في أوراق خاصة كتبها للمؤلف عام ٢٠٠١: "كانت لي أحاديث مـع بعـض المساهمين الفعالين في الحركة بينهم المرحوم هاشم الآلوسي الذي كان قد كتب، بتكليف مباشر مني، تقريراً هو عبارة عن دراسة استعراضية وتحليلية مهمة جداً لمبـررات قيام الحركة وأسباب فشلها. وقد قمنا بطبع بضعة نسخ من ذلك التقرير وللأسف لا توجد نسخة منه الآن"...

ويمكن في هذا السياق مراجعة: زكي خيري وسعاد خيري، تاريخ الحزب الشيوعي العراقي، ١٩٨٤ صفحة ٤١٤، وفيه أشارا إلى إن تقريراً كان قد قدمَ لقيادة الحزب الشيوعي يستعرض تجربة الانتفاضـة، أهـدافها وأسباب فشلها. ومن الملفت إن زكي خيري يصف كاتب التقرير بأنه أحد قادة الانتفاضة وهو ما نؤكده، ويؤكد ما ذهبنا إليه من وجود قيادة سياسية ظلت في الظل، أي إن محمد حبيب لم يكن القائد السياسـي الوحيد للحركة.

الاتصال بهم وتعاونوا مع الحركة كان حوالي ٢٠٠٠ شخصاً[١].

ـــ جاء في الوثيقة الصادرة عن الكونفرنس الثالث للحزب الشيوعي المنعقد في ١٩٦٧ في سياق تقييم سياسة الحزب بين عامي ٥٨ و١٩٦٣ مايلي: "إن انتفاضة معسكر الرشيد في٣/٧/ ١٩٦٣ جسّدت إرادة وتصميم الشيوعيين العراقيين على استلام السلطة السياسية".

قال عنها المؤتمر الوطني الثاني للحزب: إن "انتفاضة الرشيد أعادت الثقة بالحزب وقدرة الشعب في مكافحة الإرهاب".

ـــ وكان لبعض ناشطي الحركة موقفاً من قيادة الحزب الشيوعي أو على الأقل من بعض رموزها كما سيتضح ذلك مستقبلاً في انقسام الحزب إلى كتلتين متماثلتين من حيث القوة "قيادة مركزية، ولجنة مركزية"، وقد عبر محمد حبيب عن ذلك حينما ظل يردد في أكثر من مناسبة "نحن الحزب!"، كما اتضح ذلك من خلال ميلٍ أكثر رجال الانتفاضة الناجين للعمل السياسي بين صفوف الاتجاهات المتطرفة ابتداء من القيادة المركزية "خط عزيز الحاج" وانتهاء بموجات الكفاح المسلح على طريقة تشي غويفارا دون دراسة سابقة خصوصاً لبلد غني تحكمه بقوة أجهزة عسكرية وأمنية موالية للحكومة وتنظر لنشاطات المتمردين على السلطة على إنها أفعال مشاكسة غير جادة ولا تؤدي إلا إلى تعزيز تشدد آلة النظام القمعية.

ـــ يرى باقر إبراهيم إن حركة حسن سريع كانت شكلاً مسلحاً للاحتجاج على الإرهاب الدموي الحكومي المنفلت، وعلى ضياع أهداف ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

استقلالية الحركة

ـــ قالت مجلة الأسبوع العربي الصادرة في ٨ تموز ١٩٦٣: "بدأ غبار ٣ تموز ينجلي عن أسرار خطيرة وارتباطات بعيدة المدى، بشكل كان قادراً في حال نجاحها على قلب مجرى الأحداث في العالم العربي والشرق الأوسط". وأضافت: "بدأت تظهر لأعين المحققين خيوط تشير إلى جذور خطيرة تمتد إلى ما وراء الحدود وربما

---

١ ـــ طلال شاكر، لقاء خاص في السويد ٢٠٠١.

ذات صلة وثيقة بالعمليات العسكرية التي حققت نجاحاً كبيراً في سحق عصيان البارزاني"[١].

وكان أحد أعضاء هيئة التحقيق قد أبلغ مراسل مجلة الأسبوع العربي بأن أحد المتهمين اعترف بأن السفارة البلغارية كانت تتولى أمر تمويل وتنظيم وتسليح المؤامرة، وإن ثلاثة من أركان السفارة كانوا يجتمعون ببعض رؤوس المؤامرة في أحد المقاهي الشعبية في بغداد لإنهاء بعض التفاصيل[٢].

ـ منذ منتصف يوم ٣ تموز ٦٣ بدأ الإعلام الرسمي يتصرف بوضوح يوحي إن السلطة قد حسمت أمرها وقررت نوع العقوبات ومبرراتها، متحدثاً عن الأسرار الخطيرة والارتباطات المزعومة الممتدة إلى ما وراء الحدود وصلتها الوثيقة التي تربط تمرد معسكر الرشيد بالعمليات العسكرية التي بدأت منذ شهر واحد بكردستان العراق، أو كما يسميه إعلام السلطة "بعصيان البارزاني"، ووصف حركة المعسكر بحصان طروادة لتبدو مؤامرة محبوكة من الداخل والخارج هدفها ضرب الجيش العراقي، وضرب قاعدة الحكم الذي "يخوض معركة إرساء السلام في الشمال العراقي وتطهيره من البارزانيين"، وقد تعكزت ديبلوماسية وإعلام الحكومة في هذا الشأن على تشخيص إحدى مفارز الحرس القومي للسكرتير الثاني في السفارة السوفيتية في الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم المؤامرة في منطقة قريبة من معسكر الرشيد، أي بعد ساعة واحدة من إعلانها، ولما سئل عن سبب وجوده في تلك الساعة هناك؟ قال: ذاهب إلى الزعفرانية. لكنه عجز عن تقديم مبررات كافية لإقناع الحراس القوميين بصدق روايته[٣].

وفي الوقت نفسه حاول الإعلام الرسمي الربط بين بناء الروس لإذاعة الحرية في سلمان باك خلف معسكر الرشيد وبين اتهام حركة حسن سريع بالعمالة لهم، ولتأكيد الإتهام أبرزت وسائل الاعلام أخباراً عن اعتراف قيل إن إحدى الفتيات

---

١ ـ غازي العياش، مراسل بجلة الاسبوع العربي العدد ٢١٣ تموز ٦٣. وكان ينقل رأي الحكومة وإعلامها عندما قال إن المؤامرة جسدت خطة حصان طروادة للانقضاض من الداخل لضرب قواعد الجيش وقاعدة الحكم الذي يخوض معركة تطهير الشمال من البرزانيين. وهي مؤامرة كانت ستسلم الحكم للشيوعية الدولية مما سيثير مضاعفات ليس في العالم العربي بل في الشرق الأوسط كله.

٢ ـ مجلة الأسبوع نفس المصدر السابق.

٣ ـ مجلة الأسبوع العربي، عدد ٢١٣، شهر تموز ١٩٦٣.

كانت قد أدلت به إلى هيئة التحقيق الخاصة بأنها كانت ستذيع بيانات الحركة، وهي نفس الهيئة التي مات بين يدي محققيها في ذلك اليوم عشرات الجنود[1].

ـــ والحقيقة فإن استقلالية حركة السريع قضية ثابتة، فلو كان الحزب الشيوعي قد أدار الحركة لما استحق الأمر هذه الاستثنائية والخصوصية إذ كان الجنود سيظهرون كمنفذين لا غير، لكن إقدام الجنود بمفردهم أمر يتطلب فهمه تحليلاً خاصاً.

ـــ ولا بأس هنا من التأكيد بأن الحركة كانت عراقية خالصة، وبأنني قد بحثت جدياً عن أي نوع من علاقات التبعية تربط قيادة حركة ٣ تموز بالخارج أو الداخل، بهدف تأكيد أو نفي اتهامات صدرت عن نوع من الارتباط بينها وبين الدولة السوفييتية، فلم أعثر على أي أثر يؤكد وجود تأثيرات إقليمية أو دولية كبرى لا من قريب ولا من بعيد، وباستطاعتي تقديم شواهد كثيرة على إنها كانت حركة محلية عراقية خالصة، جاءت انعكاساً عن معاناة شرائح سياسية واجتماعية واسعة شعرت بالغبن السياسي وربما الاقتصادي والثقافي، كما جاءت تعبيراً عن وعيهم العميق بأن مستقبل العراق ووحدته لا يمكن أن تصان على طريقة الحكومات التي لم تحرص على المصلحة الوطنية بقدر حرصها على مصالحها في إبقاء السلطة بين أيدي فئة محدودة، حتى لو اضطرت في سبيل ذلك إلى إدامة بقاء المستعمر على الأرض العراقية، وكثيراً ما جردت تلك الحكومات السيف ضد أبناء شعبها وضربت بلا رحمة، لكننا لم نستطع أن نعرف أبداً ولحد الآن لماذا هي تمارس كل تلك القسوة ضد الشركاء والأبناء والأخوة خصوصاً في بلد غني تكفي ثرواته للجميع.

غير أن ما تقدم من تأكيد على خلوص عراقية الحركة لا يعني أبداً عدم تأثير الأيديولوجيات الواردة غالباً من الثقافة الأوربية عليهم، تلك الأيديولوجيات التي ساهمت في تبسيط الأمور، والدفع نحو الصدام المبني على قاعدة الغبن، الموجودة أساساً بسبب السياسات التفريقية للسلطات التي تعاقبت على حكم العراق، فاستأثرت وميزت وفرقت واستأصلت دون أية مسوغات قانونية أو دينية أو قومية.

---

١ ـــ د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط....، راجع حديث صلاح شبيب مع أخيه طالب حول الجرائم التي كانت ترتكب بحق جنود معسكر الرشيد والتي كان صلاح وأخويه بهاء وعماد مطلعين جيداً على مجرياتها.

المقارنة بين ٨ شباط و٣ تموز ١٩٦٣

امتلكت الحركة من الناحية الفنية فرصة معقولة للنجاح، هي ليست أقل من الفرصة التي أخذها فيمابعد عبد السلام عارف في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ وأسقط بها سلطة حزب البعث.

وكانت إحدى الصحف البيروتية (الأسبوع العربي) قد أشارت إلى الحركة قائلةً: "ويتبين من استعراض اعترافات المتآمرين ومجرى المؤامرة إنهم تبنوا مخططاً قريب الشبه من مخطط ثورة ١٤ رمضان (٨ شباط) فقد ركزوا على ناحية إطلاق سراح السجناء والاستعانة بهم والسيطرة على إذاعة الحرية خلف معسكر الرشيد[١]".

صحيح كانت الإمكانيات الموظفة في حركة سريع أكبر منها من تلك التي توفرت لحركة ٨ شباط، لكن الإحتراف كان الفارق الكبير بين العملين فقد حسب قادة ٨ شباط قوتهم وقوة خصومهم داخل الدائرة التي كانت ستدور في داخلها المعركة المفترضة، تلك الدائرة التي كان عليهم توظيف كل إمكانياتهم الجانبية والمتاحة من أجل عدم توسيعها، وإذا ما نجحوا في ذلك سيكون ممكناً لهم ترك أمر القوات البعيدة للاحتمالات اللاحقة، وستكون لمصلحتهم في حالة وصول أخبار عبر الإذاعات ووسائل الإتصال الأخرى عن محاصرة أو قتل الثوار لعبد الكريم قاسم في وزارة الدفاع التي كانت بمثابة عرين له.

في حين اعتبرت حركة حسن سريع نفسها الشرارة الأولى ووضعت أكثر اعتمادها وآمالها على القوى الشعبية والعسكرية التي ستلتحق بها فور سماعها بأنباء التحرك الشيوعي القاسمي الشعبي المضاد، أي إن نجاح خطتهم كان مرتبطاً أساساً بمدى سرعة حسم المعركة لصالحهم داخل معسكر الرشيد ومحيطه، وبإذاعة البيانات الأولى بطريقة واثقة من النصر، وباطلاق سراح الضباط وضمان وصولهم إلى معسكرات التاجي والوشاش وأبو غريب، وإن أي تعثر في المرحلة الأولى من الخطة سيعني تعثر الخطة بكاملها.

---

١ ــ مجلة الأسبوع عدد ٢١٣ تموز ١٩٦٣ نقلاً عن مراسلها في بغداد غازي العياش وهو بنفس الوقت كان يعبر عن رأي الحكومة القائمة.

وبهذا المعنى لم تستطع حركة معسكر الرشيد التخلص من المفاهيم الشعبوية (وربما كانت تلك حصة محمد حبيب شريكهم الأول في التخطيط) فعملوا على كسب قوة متنوعة وكبيرة ولكنهم لم يضمنوا وضعها بين أيديهم، ولم يكن ممكناً إخضاع غير العسكريين منهم للضبط والالتزام العسكري الحازم.

في حين حرصت حركة ٨ شباط المحترفة على المحافظة على قوتها الصغيرة بين يديها وأمسكت بها بشدة ووظفت جميع عناصرها للسيطرة على أرض المعركة ومحيطها والطرق المؤدية إليها خصوصاً جسور بغداد التي كانت على درجة من الأهمية الاستراتيجية، فقد أثر اعتقال بعض الضباط على رؤوس الجسور وهم في طريقهم إلى معسكراتهم في إخراج تلك القوات من المعركة لفترة كانت كافية ليقف الثوار على أرجلهم ويَنفذوا إلى أهدافهم.

ـــ اعتمدت حركة ٨ شباط على عامل السرعة والزمن، لكنها بنفس الوقت وضعت في حسابها كل الإمكانيات الممكنة للقوى العسكرية المحيطة، فوضعت حلولاً معرقلة لأي تدخل سلبي مفاجئ وذلك سيكسبها دائماً وقتاً كافياً لمعالجة المفاجآت، في حين وضعت حركة معسكر الرشيد حساباً للسرعة والزمن ومفاجأة العدو وهو غارق في نوم عميق، لكنها أهملت نسبياً دراسة المفاجآت المعاكسة، ولذلك فبمجرد التعثر حصل الخصم على الزمن الكافي ليأتي بدباباته ويقطع أية إمكانية لتطور الحركة.

ـــ كانت الحركة ولاشك تحتاج أن تعرض خطتها على ضابط ركن يتمتع بذكاء عال تضع أمامه كامل المعطيات والتوقعات لكي تحصل على نصيب من النجاح. أي كان عليها أن تستفيد من الخطة المحكمة التي وضعتها قيادة البعث العربي الاشتراكي عام ١٩٦٣، فقد وضع أفكار الخطة بالدرجة الأولى كل من علي صالح السعدي وحازم جواد على ضوء قدرات الحزب الذي انفردا، أكثر من غيرهما، في بنائه، ثم تكليف عبد الستار عبد اللطيف وصالح مهدي عماش لمراجعتها ومراقبة الثغرات الفنية فيها. وكان يجب أن نقرأ في سياق خطة حركة ٣ تموز، جانباً واحداً مُحْكَماً على الأقل، مثل أمر احتلال السجن العسكري أو ضبط أمر احتلال كتيبتي الهندسة والدبابات. ويقول بعض المقربين من رجال الانتفاضة إن حسن سريع كان وراء فكرة بدء المعركة انطلاقاً من السيطرة على سرية الحراسة وباب النظام والاستيلاء على سجن رقم واحد.

ـ في ٨ شباط انطلق الثوار بدبابات كانت مُحضرة فعلاً، لتنفيذ خطة مدروسة جيداً، بل ومحكمة، من حيث دراسة جغرافية ساحة المعركة المفترضة؛ كنسيج سكاني وجسور وطرق وقوى عسكرية، وعزل ساحة المعركة عن محيطها تجنبا للمفاجآت. في حين أن الخطة التي وضعها الجنود في ٣ تموز اعتمدت السيطرة على المعسكر بواسطة جنود مشاة (راجلين)، ثم الحصول على الدبابات بعد اعتقال الضباط البعثيين، ومنع الوافدين منهم من خارج المعسكر.

وما تقدم يؤكد إن حسن سريع ورفاقه كانوا قد فكروا في أدق التفاصيل، وأعدوا خطة جريئة لديها موضوعياً، حظاً محتملاً للنجاح، كما إن المخططين لها هم أنفسهم المنفذون ومن غير المعقول أن يدخلوا في قضية لا يتوقعون منها غير الخسارة، إذ أنهم كانوا يتوقعون تماماً إن مصيرهم الموت حتماً إذا ما فشلوا[1]. ولولا ملابسات بسيطة أهمها عدم العناية الكافية في خطة احتلال السجن وبالتالي تأخر إطلاق سراح حوالي ١١٥٠ ضابطاً مختصاً في كل صنوف الأسلحة مما عنى خسارة وقت ثمين جداً، وزاد الأمر سوءاً ضَعف قائد الدبابة الوحيدة المساهمة في الهجوم على معتقل الضباط والتي كان يقودها الجندي "راضي كاظم شلتاغ"، فقد جبن عندما أعطي أمر بتوجيه مدفعه إلى حراس السجن الذين استبسلوا في الدفاع عنه بسبب حماس آمرهم النقيب حازم الصباغ (الأحمر)، وذلك عطّل عملية إطلاق سراح الضباط، وبينهم عدد كبير من الطيارين الذين كانت الطائرات تنتظرهم على مدرج مطار المعسكر (قاعدة بغداد الجوية)، بعد أن تم تجهيزها للطيران، وقصف مواقع محددة ومعينة سلفاً وتدمير الدبابات التييمكن أن تهاجمهم إنطلاقاً من القصر الجمهوري ومعسكر " أبو غريب".

١ ـ لقاء شخصي مع الأستاذ محمد علي سباهي وهو أحد الضباط المؤسسين للمكتب العسكري لحزب البعث العربي الاشتراكي، وكان حينذاك مازال يسكن في المساكن الخاصة بالضباط بداخل معسكر الرشيد، قال: إنه عَلمَ من ضباط الهندسة في نفس اليوم (مباشرة بعد انهيار الانتفاضة) بأن العملية كانت بارعة وجريئة، وقد ملكت حظاً معيناً في النجاح لولا بعض الملابسات.

الفصل الثامن

مصائر الجنود المساهمين في الحركة

عزرائيل كان موجوداً هناك أيضاً

في عهد البعث

قتل في المعركة داخل المعسكر بين ١٥٠ إلى ٢٠٠ جندي وضابط صف، وكان القتل قد تضاعف مرات فوراً بعد انتهاء المعركة. كما حكمت المحكمة العسكرية برئاسة العقيد شاكر السعود وعضوية المقدم الركن حسن مصطفى النقيب وضابط ثالث أحمد السامرائي أو (أحمد أبو الجبن) والمدعي العام راغب فخري بإعدام ٤٦ جندياً (٢١ جندياً وضابط صف منهم بتاريخ ٣١ تموز ٦٣.. راجع حنا بطاطو جزء ٣ ص ٣٠٣، في حين يرى اللواء الركن عبد الكريم فرحان في كتابه حصاد ثورة، ص ١٦٣، إن عدد قتلى حركة ٣ تموز في الصباح كان ٢٣ قتيلاً وأعداد كبيرة من الجرحى تمّ نقلهم لمستشفى الرشيد العسكري ومستشفى الطوارئ في شارع الشيخ عمر ببغداد. وهرب كثيرون ووضع المعتقلين في النادي الأولمبي الرياضي الذي تحول منذ ٨ شباط إلى مركز للتحقيق ومعتقل تحت إشراف قيادة الحرس القومي.

ومات عدد غير قليل خلال التحقيق، تعذيباً من جهة المحققين وصموداً من جهتهم، يضاف لذلك أعمال قتل بحق كثيرين من الجنود وضباط الصف، قام بها بعض القادة الحزبيين والضباط، كرد فعل انتقامي فور إخماد الانتفاضة المسلحة، بصورة تعكس الكثير من التوتر الشرس[1]، ولا نجد هنا إن في نشر أسماء القتلة أمراً مفيداً لبحثنا، فالموتى منهم قَتَلَهم عندما تنافسوا معهم على السلطة بعد عام ١٩٦٨، أما الأحياء فسيعرفون أنفسهم عندما يقرأون هذا الكتاب، فبعضهم التحق

---

١ ـ يقول طالب شبيب في كتاب د. علي كريم سعيد، من حوار المفاهيم إلى...، "عاتبني أخي صلاح قائلاً: إنكم إذا عاديتم هؤلاء البسطاء والمساكين فإنهم سيذهبون حتماً إلى الشيوعيين.! وبعد هذا الحادث وقفت بصراحة ضد كل إجراءات السلطة و لم أوافق على قرارات الإعدام، حتى إن حازم جواد عاتبني قائلاً: ليس لك حق يا طالب، فهؤلاء...... " ويُذكر إن أخَويْ طالب عماد وصلاح شبيب كانا ضمن المشرفين على أعمال التحقيق هناك. ويمكن في هذا السياق أيضا مراجعة كتاب هاني الفكيكي "أوكار الهزيمة"، وكتاب حنا بطاطو "العراق" الجزء الثالث.

بالمعارضة، وآخرون مازالوا يشغلون مناصب حكومية، وهم كما أرى "قتلى في طور الانتظار!!".

وقد قُتل بعض السياسيين المدنيين والعسكريين، الذين كانوا معتقلين منذ ما قبل قيام الحركَة، بجريرة تأييد التمرد، وجرى ذلك في مراكز التحقيق الرئيسية في معسكر الرشيد والنادي الأولمبي ومركز المأمون وغيرها، رغم عدم قيام الدليل على تعاون الضحايا مع حركة المعسكر.

وكان أول من أشرف على التحقيق هو الملازم هادي خليفة السامرائي الذي كان أحد مسؤولي الحرس القومي في منطقة الكرادة الشرقية "وتعتبر أقرب منطقة لمعسكر الرشيد والسجن رقم واحد"، ثم شكلت وزارة الدفاع في نفس اليوم لجنة تحقيق يرأسها هادي خماس.

وكان عدد كبير من المعتقلين السياسيين قد التقوا على مدى السنوات التالية، خلال تنقلهم من سجن لآخر، بالسجناء الناجين من الموت من المساهمين بحركة حسن سريع. وهؤلاء كثيراً ما تحدثوا لزملاء سجنهم بعد أن يأمنوا جانبهم عن مجريات ما حدث صبيحة ٣ تموز ٦٣، ولذلك التقينا بكثيرين ينقلون الأخبار على طريقة (فلان عن فلان)، لكن أصحاب الشأن أنفسهم قليلاً ما كتبوا أو تحدثوا عبر وسائل الإعلام والتوصيل المختلفة بسبب انسحاقهم سياسياً واقتصادياً.

أما مصير محمد حبيب "أبوسلام" الذي كان أهم قادة الحركة المدنيين المعروفين وصلة وصلها المزعومة مع الحزب الشيوعي، فقد شوهد يتمشى في ساحة السجن العسكري رقم واحد مباشرة بعد حركة ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، وكانت إدارة السجن قد قسمت السجناء لكثرتهم غير المعتادة إلى ثلاث مجموعات يُسمح لكل واحدة الخروج إلى ساحة السجن الرئيسية للتمشي مرة أو مرتين أسبوعياً، و لم تظهر عليه علامات التعذيب المعتادة. وكان نعيم الزهيري وآخرون قد شاهدوه عبر شباك حديدي من مسافة لا تسمح بالمحادثة المباشرة، لكن ابن عمه محمد عليوي خليفة الذي كان معه في باحة السجن وهو مساهم رئيسي في الانتفاضة وجَّه إليه السؤال التالي: **هل صحيح إنكم تعمدتم قطع العلاقة مع الحزب؟**

أجاب: نحن الحزب!! لقد استلمت منهم رسالة يطلبون فيها التأجيل والتنسيق، فمزقتها ودسْتها بقدمي وقلت لحاملها سننجح ونـعدِم كل أعضاء اللجنة المركزية..!

لكن محمد حبيب لم يذكر مصدر تلك الرسالة ولا تاريخ استلامها.

وبعكس محمد حبيب تصرف جنود آخرون (متخاذلون أو متقاعسون لم ينفذوا واجباتهم)، تصرفوا بشيء من الشعور بالندم والخجل من عدم الوفاء بالعهد، فدفعهم الشعور بالذنب إلى خدمة رفاق السجن (رفاق الانتفاضة) بكل الوسائل المتاحة سعياً للتكفير عن ضَعْفهم وأملاً في استعادة ثقة الآخرين بهم.

وإثر فشل الحركة حقق الحرس القومي مع والد محمد حبيب، إذ شوهد في حي كمب سارة مسحوباً من داره الطينية من لحيته كما ضُرِب إبنه الصغير "سلام حبيب" معه، وقد ترك الضرب آثاره على جسد الطفل، وكان الهدف أن يرشدا الحرس القومي إلى مخبأ محمد حبيب، ويذكر شاهد عيان إن الحراس القوميين عندما وصلوا إلى منزله في يوم الحركة بحثاً عنه، أطلق أحدهم الرصاص عشوائياً فأُصيبت بالصدفة امرأة حامل وماتت على الفور[1].

في عهد عبد السلام عارف

ـ قتل من رجال حركة معسكر الرشيد مَنْ قُتل وهرب من هرب وقضى آخرون سنين طويلة في المعتقلات والسجون، ونجحت حكومة عبد السلام عارف وطاهر يحيى التكريتي التي أعقبت حكومة البعث في ١٩٦٣ من اعتقال عدد من الهاربين منهم وإعدامهم، رغم كل ادعاءاتها بأنها جاءت لرد الأذى عن الناس، لكنها وبدلاً من الوفاء بالعهد نفذت أحكام إعدام سياسية كانت قد صدرت في عهد "البعث" السابق، ولم تكن قد نفذت بعد، وهو إجراء مماثل بالضبط لما قامت به حكومة ٨ شباط عندما نفذت أحكام الإعدام غير المنفذة الصادرة بحق الشيوعيين وبعض منتسبي الحركة الكردية الـمُجَرَّمين بحوادث الموصل وكركوك. وكان عدد كبير من ضحايا حكومة عبد السلام عارف هم من جنود حركة حسن سريع، كما نفذت أحكاماً أخرى كثيرة صادرة بحق سياسيين من مختلف الميول منذ عهد البعث، وكذلك استمرت في احتجاز عدد كبير من المعتقلين دون محاكمة واحتفظت ولو بدرجة أقل بالتعذيب كوسيلة أساسية في التحقيق مع السياسيين المناهضين لها في كل

---

١ ـ د. أبو حيدر الدراجي، لقاء مع المؤلف عام ٢٠٠٠.

المعتقلات، ولم تُقدم جديداً غير إلغائها للتحقيقات التي تمارسها الميليشيات الحزبية المؤيدة لها وحصر التحقيقات بمؤسسات حكومية من شرطة وأمن واستخبارات.

إذن فقد كانت حكومة عبد السلام عارف قد نفذت كل الأحكام الموروثة بما فيها تلك التي كان عبد الكريم قاسم كعادته يؤجلها ويحتفظ بها في مكتبه حتى يحين الظرف المناسب لحسمها تنفيذاً أو عفواً، وكان الرجل كما هو معلوم يميل للعفو. في حين كان عبد السلام دموياً في موقفه من الشيوعيين والأكراد ويحمل حقداً ضد قطاعات شعبية واسعة وبسيطة بسبب نصرتها لقاسم عندما اختلف معه بعد فترة قصيرة من قيام ثورة تموز. وكما ذكرنا فإن عارف أراد أن يتخلص من أكثر كوادر وقيادات الحزب الشيوعي بمطالبة البعثيين بإلحاح من خلال المجلس الوطني لقيادة الثورة بتصفيتهم ليتحمل البعثيون وحدهم نتائج المجازر.

بين جمال عبد الناصر وحازم جواد وعبد السلام عارف

وفي هذا المجال قال لي حازم جواد بلندن: "كنا في قصر زنزونة (عبد السلام عارف وحازم جواد وطالب شبيب) وهو مقر إقامتنا في آخر زيارة رسمية للقاهرة (آب) جاء جمال عبد الناصر لزيارتنا وكان معه أمين هويدي وآخرون، فكانت لنا جلسة مراجعة لوضع اللمسات الأخيرة على حصيلة زيارتنا لمصر، وخلالها وعد عبد الناصر بزيارة العراق قريباً وأكد على أهمية تحقيق الوحدة لكنه أشار قائلاً: "إن الشعب المصري طيب وبسيط وليس مفيداً أن يفاجأ كل يوم عندما يفتح الجريدة صباحاً فيقرأ أنباءً عن إعدام ما لا يقل عن خمسة من خصوم الحكومة العراقية السياسيين لاسيما الشيوعيين"، وهنا وجد حازم جواد إن الفرصة مواتية ليقول للرئيس جمال عبد الناصر: "سيادة الرئيس إن حديثك بمحله وهذا أبو أحمد (عبد السلام عارف) أمامك فأقنعه أن يخفف من حماسه هو وبعض الضباط إلى تصفية الشيوعيين".

ويُذكر إن الضباط القوميين والناصريين عموماً كانوا أشد عصبيةً وعنفاً ضد الأكراد لأسباب تتعلق ربما بمشاعر التطرف القومي، في حين كان البعثيون أعنف ضد الشيوعيين لأسباب أيديولوجية أكثر منها عنصرية. وبعدها دار حديث حول

هذا الموضوع أعاد خلاله كل واحد مبـــرراته وآرائه، وانتهى بـــرجاء من الرئيس عبد الناصر: " أرجو أن لا تتمادوا في قتل الشيوعيين لأن سمعة ما قمتم به سيئة جدا ". وسار عبد الناصر بعدها مع الوفد العراقي إلى المطار لتوديعه. وأضاف حازم جواد قائلاً: "ويبدو إن المصريين كانوا قد عمموا بعض ما جرى في جلسة الحوار تلـك على بعض المراكز الصديقة لهم، ووصل بطريقة أو أخرى إلى القوميين والناصريين في العراق، وقد علمت إن عبد الإله النصراوي كان قد أكد في عـــام ١٩٦٨ ببغـــداد تسريب المصريين لمحتوى الحوار"[١].

وفي جلسة ودية جمعت جمال عبد الناصر مع الوفد الشعبي العراقي الذي ذهـــب للقاهرة بعد أيام من ٨ شباط ٦٣ للتهنئة بأعياد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بـــــرئاسة علي صالح السعدي، وضمت الجلسة جلال الطالباني وطالب شبيب وصالح مهدي عماش وفؤاد عارف وأديب الجادر وعدداً كبيراً من ممثلـــي المنظمـــات الشـعبية والنقابات المهنية بينهم عبد الرزاق شبيب نقيب المحامين العراقيين وهو أحـــد قـــادة التيار الناصري في العراق. وخلال الحديث عاتب جمال عبد الناصر أعضاء الوفـــد حول ما كانت ترده من أنباء عن العنف الذي تمارسه الحكومـــة العراقيـــة ضـــد الشيوعيين. فرد عليه عبد الرزاق شبيب بتجرؤ موتور قـــائلاً: "الأفضـــل تصـــفية الشيوعيين بتقسيمهم إلى ثلاثة أقسام، الأول نرسله إلى معسكرات تدريب، وتوجيه القسم الثاني إلى السجون والمنافي البعيدة مثل سجن نقرة السلمان، والثالث: وهنـــا رفع المتحدث يده مشيراً إلى رقبته بحركة تدل على الذبح بالسكين"... وفوراً بعـــد انتهاء حديثه عَلَّقَ جلال الطالباني موجهاً كلامه لجمال عبد الناصر قائلاً: "الأُســـتاذ يتحدث بوصفه نقيب المحامين العراقيين!!".. وكان الأستاذ الطالبـــاني كـــان قـــد أخبـــرني بأن موقف الشباب المدنيين البعثيين من الكرد كان جيداً، لكن الضـــباط وبشكل خاص الناصريين كان موقفهم سيئاً، فقد اعترض هادي خماس عندما تَلَفَظَ الطالباني أمام عبد الناصر بكلمة كردستان. فقال الطالباني لعبد الناصـــر البعثيـــون جيدون بالكلام، لكنهم لا ينفذون ما يقولونه[٢].

---

١ ـــ لقاء شخصي بالأستاذ حازم جواد في لندن في مطلع عام ٢٠٠٠.

٢ ـــ في لقاء مع المؤلف عام ٢٠٠١ قال حازم جواد: "إن شباب البعث وعموم منتسبي التيار القومي كانوا ينظرون بخوف وحذر للكرد ولقضيتهم، وهو ما جعلهم ينفرون ولا يقتربون من بحث القضية الكرديـــة أو ←

وفي لقاء خاص جمعهما قال جلال الطالباني لجمال عبد الناصر: "إنّ تصريحات عبد السلام عارف تسيء للوحدة الوطنية العراقية، وهو كذاب في ادعاءاته بالوحدة العربية، وتعود مطالبته بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة إلى رغبته في استغلال إسمك!"[١].

ومما يؤسف له إن عدداً غير قليل من الأخوة المحسوبين على التيار القومي العربي، مازالوا حتى الآن، يصورون عهد عبد السلام عارف بأنه لم يكن دموياً وإنه لم يقتل سوى أشخاص معدودين، وهم بذلك يتجاهلون مقتل العشرات ممن نُفذت بهم الأحكام في ساحات الإعدام داخل السجون بقدر قليل من الضجيج وكأنها تنفذ أحكاماً خاصة بمجرمين عاديين[٢]. وكان قتلى حكومة عبد السلام وطاهر يحيى التكريتي خلال سنتها الأولى أضعاف مجموع الذين أُعدموا خلال السنوات الأربع والنصف التي قضاها عبد الكريم قاسم في الحكم وأضعاف ما أعدم في العهد الملكي، رغم إن سنواته (قاسم) كانت مشحونة بالصراعات والتداخلات الخارجية والمحاولات الانقلابية المدعومة من الخارج، ورغم إن الإعدامات زمن قاسم كانت كلها تقريباً بحق ضباط حملوا السلاح ضد سلطة قائمة، ومعلوم إن قانون الجيش والدولة يأمر في مثل هذه الحالات بعقوبة الإعدام، وذلك لكي لا يبتلى الجيش بآفة عدم الضبط، وبآفة تدخله في السياسة، ولكي لا يصبح استخدام السلاح الموجود بين يدي مراتبه أمراً سهلاً.

حتى الاستفهام عن تفاصيلها، ولكن جيلاً معيناً من الكرد المتفهمين للحركة القومية العربية وأفكارها قد نجح في الاقتراب منّا، وكان بينهم جلال الطالباني فاستمعنا منه لأفكار لم نكن نلم بها".

١ ـــ لقاء مع الأستاذ جلال الطالباني، في السليمانية عام ٢٠٠٠.

٢ ـــ على سبيل المثال قتلت حكومة عبد السلام عارف من الضباط في مطلع عام ١٩٦٥ الملازمين عزيز حميد ومشكور مطرود وحسين علي جعفر بعد تعذيبهم بقصد انتزاع الاعترافات. ومنذ ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ باشرت السلطة تنفيذ أحكام الإعدام بعدد كبير من الجنود وضباط الصف المساهمين بحركة معسكر الرشيد بينهم نزار حبيب الأعرجي ومحمد عليوي خليفة وطالب ناجي ومحمد أبو المراجيح وكانت آثار التعذيب ظاهرة على أجسادهم (راجع رسالة العراق العدد ٨٣، رثاء متأخر، د. محمد حسين الأعرجي)، ومات القائد السياسي البعثي عبد الوهاب البكاء على أثر ضربة في الرأس تلقاها خلال إحدى جلسات التعذيب في عهد عبد السلام عارف، ولم يكن كل هؤلاء قد قاموا بفعل مباشر ضد الحكومة التي أعدمتهم، والتي كانت قد أصدرت عفواً عاماً عند مجيئها واتهمت سلطة البعث السابقة بممارسة القتل والتعذيب. ويذكر إن حكومة عارف كانت قد استخدمت بعض رموز التعذيب في الحكومة السابقة رغماً عنهم، وبينهم ناظم كزار كمشخصين لأعدائها المحتملين من المعتقلين منذ العهد السابق لديها، وقد حصل ذلك في اليوم التالي لحركة ١٨ تشربن الثاني ١٩٦٣.

قتلى الانتفاضة: مساهمون في الانتفاضة

حصدت الانتفاضة مباشرة بعد بدء تغير الموازين داخل المعسكر عدداً هائلاً من القتلى، أغلبهم سقطوا لدوافع انتقامية، ولاشك إن أولئك المنتقمون لم يدركوا إنهم بذلك يُعمّقون العداوة ويوسعون الحفرة ويسنون لشق المجتمع الذي ستثور باستمرار شرائح منه، وتطالب بالثأر كلما لمست من السلطة ضعفاً[1].

ـــ **إبراهيم محمد علي** (عامل) وهو كادر متقدم في الحزب الشيوعي العراقي، كان أول منظم للمنظمة التي خططت لحركة معسكر الرشيد. مات تحت التعذيب بمبنى محكمة الشعب الذي تحول بعد ثورة رمضان إلى ثاني أهم مركز تحقيق في بغداد، ومقر لعمار علوش الذي برع باستخلاص النتائج من المعتقلين السياسيين.

ـــ **أحمد خضير**، (نائب ضابط مهني ـــ إسكافي من وحدة الكرنتينة) التحق مبكراً بتنظيمات الانتفاضة، و لم ينفذ مهماته في وحدته صباح ٣ تموز بسبب العرقلة التي حصلت في معسكر الرشيد.. تعرض إلى تعذيب قاس بغية استخلاص الاعترافات حول تنظيمات شيوعية أو تنظيمات تعود للحزب الديمقراطي الكردستاني (البارت) فلم يعترف و لم يتأكد المحققون إلى أي حزب منهما ينتمي. أعدم في يوم ١١/ ١١/ ١٩٦٣ وهو اليوم الذي تفجرت فيه أزمة الحزب الحاكم.

ـــ **جبار شنافية وقريبه المدعو حسين**، وهما جنديان ممرضان وشيوعيان، من أبناء مدينة الشنافية في الفرات الأوسط، وقد اشتهر أبناؤها بالطيبة والكرم والوطنية العالية تأسياً بدور أبنائها بثورة العشرين وببعض رجالها لاسيما السيد حسين آل مكوطر.

ـــ **جليل خرنوب** عريف من مدينة الحلة، مسؤول حراسة بوابة معسكر الرشيد الشمالية، أعدم يوم ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣.

ـــ **جمعة شيشة**، عريف، مسيحي من عين كاوة، حكم بالسجن عشرون عاماً.

ـــ **جميل الخشالي**، مدني من بغداد، يشك بعضهم في أنه كان واحداً من قادة المنظمة الحزبية العمالية التي قادت سياسياً الانتفاضة من الخلف، ولكنه أيضاً من الرجال الغامضين أو المجهولين، حيث لم يتحدث عنه أحد مدعياً معرفته بصورة شخصية.

---

١ ـــ وهذا يذكرنا بقصيدة تحذيرية كتبها الشاعر العربي يوسف الخال: عمق الحفرة ياحفار عمقها لقاع لا قرار

ــ **حافظ لفتة** عامل خياطة، يسكن خلف السدة، من القيـاديين النشـيطين في الحركة، وتحول محله (للخياطة) في باب الشيخ إلى ملتقى ومركز هـام للتخطـيط والحوار بين رجال الانتفاضة، متـزوج ولـه خمسـة أطفـال.... أعـدم يـوم ١٩٦٣/٠٧/٣١ وعلقت جثته في باب الشيخ (منطقة الخندق)، وكان الهدف إخافة سكان تلك المناطق التي عُرفت بميلها للزعيم عبد الكريم قاسم وكانت أيضاً سـاحة أمينة لنشاط الحزب الشيوعي، وقد ارتكبت سلطة حزب البعث خطأً فادحاً مع أبناء تلك المنطقة لأنها سَلّمَت بكونهم معادين لثورتها، في حين لم يحتاجوا مـن السـلطة سوى التعاطف مع ظروفهم الاجتماعية والمعيشية الصعبة. ولـذلك كـان الثقـل الأساسي لأبناء الحركة هم أبناء الصرائف وأبناء مدينة الثورة الذين انتقل أكثـرهم إليها من الأكواخ والصرائف وجلهم جاءوا إلى بغداد من جنوب ووسـط وشمـال العراق، وقد تطوعت أعداد كبيرة من شباب هذه المناطق غير الحزبيين للإلتحـاق بالحركة[1]، وكان مستحيلاً على السلطة أن تعرف، ماذا كان يجري هناك؟ رغـم طيران الخبـر في كل أنحاء المدن الشعبية لأنها لم تكن تنظر إليهم باكتراث.

ــ **حسن سريع**، نائب عريف (يحمل على ذراعه خيطين)، انحدر من منطقة تقع على الحد الفاصل بين الأراضي الزراعية والصحراء (شثاثة)، كما ادعى انتسابه إليهم أهالي مدن العمارة والناصرية والسماوة وكربلاء والنجف. ومن التاريخ والجغرافيـا ومن رموز الماضي والحاضر؛ أخذ حسن سريع ثقته بأنه قادر على أرضه أن يصـنع شيئاً لا يقل أهمية عن ما كان يُفرَض عليه، فقام بعمل آمن به واستشهد من أجلـه مطمئناً غير خائف من الموت حتى عندما صار في مداه.

ــ **حسيب**...، رئيس عرفاء من الموصل.

ــ **داخل سلبوح**، عريف من أبناء مدينة الثورة التي شيدها الزعيم عبد الكـريم قاسم، وينحدر أصلاً من مدينة العمارة، الذين تغلب عليهم مشاعر أن عبد الكـريم قاسم هو واحد منهم.

ــ **زين الدين سيد أمين**، جندي مكلف، وكان أصلاً عامل بناء، من أهالي مدينة السليمانية، قتل تحت التعذيب في السجن العسكري رقم واحد وكان صلباً.

ــ **سعدون**...، عامل كهرباء، تسلل عشية التنفيذ إلى معسكر الرشيد ونام في

---

١ ــ طلال شاكر (أبو ميلاد) لقاء خاص في مالمو بالسويد ٢٠٠١.

مهجع مدرسة قطع المعادن مع حسن سريع وبعد ساعات وضع على كتفه رتبة ملازم مسهماً في اقتحام سرية الحراسة ومدرسة الهندسة، لكنه جرح في بطنه أثناء المعارك، وكان المحققون قد باشروا فور انتهاء المعارك إلى التحقيق معه بقسوة تتناسب طرداً مع رفضه التعريف عن نفسه، ورفضه الاعتراف على أسماء المساهمين الذين تمكنوا من الفرار، فمات في نفس يوم الانتفاضة ٣ تموز.

ــ **سيد حرز....**، مساهم نشيط في الحركة، حكم عليه بالسجن المؤبد. وكان قبلها يخدم في دار نجيب الشيخ إبراهيم الراوي (وزير معارف ونقيب محامين وسفير)، وكان سيد حرز أحد معتقلي سجن الحلة خلال محاولة الهرب من النفق الشهيرة، ويعتبر من مسني حركة معسكر الرشيد بالقياس إلى بقية المساهمين في انتفاضة ٣ تموز ٦٣.

ــ **صباح إيليا**، عريف لقبه الجنود بنمر المعسكر!! بسبب سرعته ونشاطه، أسهم في كل مراحل الحركة إعداداً وتنفيذاً، وكان يقود المجموعة التي أسرت وزيري الداخلية والخارجية حازم جواد وطالب شبيب. أعدم في ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣.

ــ **صبار....**، نائب عريف من أهالي مدينة الناصرية، وكان مقره الأصلي في الكتيبة الثالثة المدرعة.

ــ **طالب مزهر الكاصد**، نائب عريف، وهو من عائلة لها تاريخ مشهود في الوطنية، وابن عم الحاج كاظم ريسان الكاصد شيخ حجام وواحد من أبرز قادة انتفاضة آذار/شعبان ١٩٩١، وإبن أخ الشيخ ريسان قائد ثورة١٩٣٥ ضد حكومة ياسين الهاشمي. تمت محاكمته ثم أطلق سراحه بسرعة لأن زوجة والده كانت قريبة قائد الفرقة الخامسة العميد عبد الرحمن عارف (رئيس جمهورية فيما بعد). كان طالب الكاصد قد أسهم في السيطرة على المنطقة المحاذية لمعسكر الرشيد والتي تضم قرية سعيدة ومعمل الإسمنت وشركة الجلود الوطنية، وقد بقيت تلك المنطقة في حالة ثورة أو فراغ سياسي حتى نهاية نهار يوم ٣ تموز ١٩٦٣.

ــ **طه حسين الجبوري** (نائب عريف)، من أهالي ديالى (المقدادية)، أعدم في يوم ٢/١٠/ ١٩٦٣، وليس لدينا معلومات كافية حوله.

ــ **فاضل موسى**، وهو عامل مدني كان يعمل بائع شاي (چايچي) في قيصرية للصاغة ببغداد، يسكن منطقة باب الشيخ في وسط بغداد، وكان حزبياً منقطعاً وانضم إلى إحدى الخلايا الحزبية التائهة ومن خلالها عمل بنشاط وتمكن من كسب

رجال يؤيدون ويرغبون في المساهمة بعمل مسلح ضد حكومة ٨ شباط.

ـ **فرمان عباس**، مسؤول خط طلابي كبير في التنظيم الشيوعي ببغداد، وتمكن بعد ٨ شباط، بمبادرة شخصية، من بناء خلية كبيرة جمع فيها شتيت من الحزبيين التائهين، وضم جهدها لمصلحة العمل السياسي المساند للانتفاضة، وكان عمره حينذاك ثلاثين عاماً، وهو الذي أبلغ محمد حبيب، الذي كان ينتظر النتيجة، بفشل الانتفاضة حين التقى به في مكان متفق عليه خلف السدة، حيث ظل محمد حبيب لساعات يقطع الطريق قلقاً جيئة وذهاباً. وفرمان عباس هذا كان واجبه في الحركة إذاعة بيان الحركة الأول من الإذاعة. أعتقل واعترف تحت التعذيب، بل وتبرع باعترافاته فجاء بعزيز الخفاجي الذي اعترف بدوره على "أبو رسول" وهذا الأخير اعترف على عدنان عبد القادر ليقترب التحقيق من المركز (جمال الحيدري ومحمد صالح العبلي وعبد الجبار وهبي)، الذين وصلهم الحرس القومي بعد فترة قصيرة عبر عدنان عبد القادر، لتوضع أجساد الثلاثة بصناديق خشبية مُثَقّلة وترمى في نهر دجلة.

ـ **عبد الواحد راشد الزهيري** نائب عريف من أهالي المشرح محافظة العمارة، لم يكن شيوعياً لكنه كان متعاطفاً، نسق مع الجنود الحركيين مبكراً، وتم اختياره من قِبَلهم ليكون قائداً مؤقتاً لمعسكر التاجي، في حالة السيطرة عليه، ريثما يصل الضباط الّذين سيطلق سراحهم لاستلام القيادة والإدارة من الجنود، ومن أجل ذلك جرى تحضير بدلة أحد الضباط ليرتديها، ولأسباب كثيرة لم يحصل التمرد في معسكر التاجي. أعدم يوم ٠٢ / ١٠ / ١٩٦٣.

ـ **عريبي محمد ذهب**، نائب عريف، كان عضواً في خلية حزبية شيوعية في عهد عبد الكريم قاسم، فطُرِد بعد اكتشاف خليته من الجيش، لأن نظام عبد الكريم قاسم كان يمنع النشاط الحزبي بين صفوف القوات المسلحة، ويرفع شعار: "الجيش فوق الميول والاتجاهات". نام ليلة التنفيذ داخل المعسكر، وحمل فجراً رتبة رئيس (نقيب) وقاد مجموعة من الجنود لاقتحام السجن العسكري رقم واحد. أعدم يوم ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣ وعلقت جثته على عمود خلف السدة الشرقية حيث يسكن مئات آلاف الفقراء النازحين من الأرياف إلى المدن، بحثاً عن العمل، واقتراباً من مؤسسات ومعاهد الدولة العلمية لأعداد أبنائهم لدور جديد كانت قد وعدتهم به ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨. وكان تعليقه في تلك المنطقة يستهدف إخافة السكان المحليين المتعاطفين مع الحركة. ويذكر إن دور عريبي ذهب في التحضير والتنفيذ للانتفاضة كان هاماً.

ـــ **كاظم بندر**، رئيس عرفاء (يحمل على ذراعه أربعة خيوط)، من وحدة سرية الحراسة بمعسكر الرشيد، أُعدِم يوم ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣. حملٍ خلال تنفيذ الحركة على كتفه رتبة ضابط، متزوجِ وله خمسة أطفال، كان جريئاً في المحكمة وعلى خشبة الإعدام.

ـــ **كاظم زرّاك**، عريف من أهالي مدينة الحلة، لبس رتبة ضابط وكانت مهمته حراسة البوابة الشمالية لمعسكر الرشيد. حصلت بينه وبين العقيد شاكر مدحت السعود رئيس المحكمة العسكرية الخاصة مشادة كلامية عندما حاسبه على ارتداء رتبة ضابط، فرد قائلاً: أنتم جعلتم المقدم (عماش) فريقاً والعقيد (عبد السلام عارف) مشيراً، أعدم يوم ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣.

ـــ **كاظم فوزي** ضابط صف، لقبه الجنود بكاسترو العراق!! لأنه كان يربي لحية تشبه لحية الزعيم الكوبي. عندما اندلعت الانتفاضة كان معتقلاً في مقر اللواء الخامس عشر مع مجموعة من الجنود، ومتفقاً مع قيادة الحركة على المساهمة بها، وفور سماعه صوت رصاصة تنوير البداية ورؤية أنوارها، بادر مع بقية الجنود إلى كسر باب السجن والاستيلاء على مشجب السلاح وتوزيع أسلحته واحتلال مقر اللواء ثم إعلان الالتحاق بالحركة. كان كاظم فوزي رياضياً قوي الجسد إلى درجة أنه أتعب فريق الإعدام من شدة ممانعته، أعدم في ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣، وترك وراءه زوجة وطفلتين.

ـــ **لعيبي بطل**، جندي، حوكم وأعدم مع المجموعة الأولى، مجموعة حسن سريع صباح ٣١ تموز ١٩٦٣.

ـــ **صادق قدير** (عامل مخبز)، وهو أحد المساهمين الذين لم ترد أسماؤهم في التحقيقات، فتمكن هو وكثيرون غيره من البقاء في مأمن خلال فترة التوتر الأولى التي كانت فيها السلطة مستعدة لأشد أشكال الانتقام قسوة. تمكن عزيز السيد جاسم عام ١٩٦٩ من توظيفه مع محمد حبيب وجمعة اللامي في مجلة وعي العمال الناطقة باسم حكومة البكر ـــ صدام.

ـــ **ماجد عبد الله الزهيري** (نائب ضابط)، من تنظيم البصرة، قاد مجموعة من الجنود بهدف الإسهام في الانتفاضة. مات تحت التعذيب خلال التحقيق لاستخلاص الاعترافات منه.

ـــ **محمد حبيب** (أبو سلام، **عامل مخبز**) تمّ اعتقاله بعد حوالي أربعة أيام من

الحركة داخل فرن للصمون في مدينة الثورة (الجوادر)، ومن الطريف إنه كان قد اشتغل بعد سنوات بتوسط من الوزير **حازم جواد** الذي وقع في أسره، موظفاً بدرجة مستخدم في مجلة وعي العمال، التي يرأس تحريرها عزيز السيد جاسم، وكان الأخير شيوعياً نشيطاً قبل ١٧ تموز ١٩٦٨ وصديقاً لمحمد حبيب وجمعة اللامي وصادق قدير، لكنه ترك حزبه بعد تموز١٩٦٨ وانضم إلى الحزب الحاكم، وقد تمكن من استيعاب بعض أصدقائه النادمين في مجلته.

ــ **محمد عليوي خليفة**: (من أهالي الكوت) وهو جندي متقاعد لأسباب سياسية منذ عهد الزعيم عبد الكريم قاسم الذي كان يحرم العمل الحزبي في القوات المسلحة، سائق سيارة في شركة أهلية، ساهم منذ البدء في بناء التنظيمات الأولى للانتفاضة ولعب دوراً هاماً في التحضير لها، وكان أول شخص مرتبط أساساً بالتنظيم العسكري يتصل به محمد حبيب، أُعدم في عهد عبد السلام عارف يوم ٢٥ /٠٤/ ١٩٦٤. وهو ابن عم محمد حبيب وكان واحداً منأسباب التعاون بين المنظمتين العسكرية والمدنية، ولعب دوراً في وضع الخلية المدنية وتوابعها بمجرى حركة معسكر الرشيد.

ــ **محمود الجايجي** (عامل يكسب قوته من بيع الشاي) تسلل إلى المعسكر مساء يوم ٢ تموز مع قائد العملية العسكرية حسن سريع، وفي صباح اليوم التالي أسهم في إعلان التمرد، ورسم بنفسه خطة مشاركة المدنيين في الحركة. أعدم في يوم ٣١/ ٠٧/ ١٩٦٣.

ــ **مسعود توما**، عريف، مسيحي، ساهم بصورة فعلية في الحركة.

ــ **موزان عبد السادة** (تلميذ متطوع من وحدة قطع المعادن بمعسكر الرشيد وعمره ١٦ سنة)،ساهم باعتقال وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية حازم جواد ووزير الخارجية طالب شبيب ويقول أحد زملاءه في المعتقل إن حازم جواد قد تمكن من تشخيصه بعد انجلاء الأزمة، ولما كان صغيراً قانوناً قدرت المحكمة عمره ١٨ عاماً وحكمت بإعدامه ونفذت فيه الحكم يوم ٣١ / ٠٧ /١٩٦٣.[١]، لكن الأستاذ حازم جواد أكد لي في لقاء خاص بلندن إنه كان قد ذهب مع طالب شبيب لتشخيص آسريهم استجابة لطلب هيئة المحكمة لكنهما لم ينجحا في تذكر أي من المساهمين في العملية.

---

١ ــ رسالة خاصة من نعيم الزهيري ١٩٩٩

ـ **نــزار حبيب الأعرجي**: نائب عريف متطوع، من النجف / حي المشـراق، كان متعاطفاً مع حكومة عبد الكريم قاسم ومع الشيوعيين وربمـا كـان شـيوعياً منتظماً، كان والده أحد خطباء المنبـر الحسيني، وتميز بصوت جهْـوَري محـرض، وتعتبـر عائلته من عوائل النجف العلمية المعروفة، تمكن من الإفلات مـن قبضـة المنتصرين بعد هزيمة حركة معسكر الرشيد، لكنه أعتقل بعد أشهر من قبل حكومة عارف وعذب بوحشية ثم أُعدِم في ٢٥ | ٤ | ١٩٦٤، وكان موقفه شجاعاً خلال التحقيق.

ـ **طالب ناجي الأعمى**، ضابط صف من النجف، وكان تلميـذاً في مدرسـة الهندسة الآلية الميكانيكية أعدم في عهد عبد السلام عارف.

ـ **محمد أبو المراجيح** جندي أُعدم مع الأعرجي في عهد عبد السلام عارف.

ـ **حسين محمد حسن السويعدي**، جندي بـرتبة عريف، مساهم أساسـي في حركة معسكر الرشيد، كان ثائراً محترفاً ونفذ مهمته بتوزيع السلاح علـى طلبـة المدرسة الآلية كما ساهم باعتقال الضباط والقادة القادمين للمعسكر عند البوابـة الرئيسية، تمكن من الفرار إلى العمارة ثم إلى إيران واعتقل هناك عند محاولته عبـور الحدود إلى الاتحاد السوفييتي وأعيد إلى العراق، وفي سجن الموقف العام ببغداد، تمكن من الهرب مرة أخرى، حيث التحق فيما بعد بحركة الكفاح المسلح الـتي أشـعل شرارتها في الجنوب الشهيد خالد أحمد زكي، وبعد فشل العملية حكم عليه كمـا حكم على أكثر رفاقه بالإعدام.(لقاء خاص مع أبو سعيد زنكنة).

ـ **أبو سعيد زنكنة**، ساهم بنشاط في الخط المدني لانتفاضة ٣ تموز، تمكن مـن الفرار والتحق فيما بعد بحركة خالد أحمد زكي، ثم حُكِم بالإعدام مع عدد من رفاق السلاح والتمرد، ثم التحق بكردستان العراق كعضو نشيط في جماعة الجيش الشعبي المعارض الذي أسسه الشهيد معين النهر، ويعـيش الآن لاجئـاً سياسـياً مدينـة يوتوبـري السويدية.

ـ **نوري**....، جندي وهو صديق راضي كاظم شلتاغ سائق الدبابة الذي تردد في ضرب المدافعين عن السجن.

ـ **راضي كاظم شلتاغ** (عريف) قائد الدبابة الذي تردد في دك مواقع المدافعين عن السجن وأسهم نتيجة ضعفه في فشل الانتفاضة، وكانت قذيفة واحدة من دبابته كافية لتدمير مواقع حرس السجن وإضعاف معنوياتهم، فلم تكن لديهم غير أسلحة

خفيفة وبعض المدافع الرشاشة التي لا تؤثر بالدبابة، وبعد فشل الحركة عاش راضي داخل السجن في حالة توتر دائمة وعامله زملاء السجن الشيوعيون بحذر شكاً به أو جفاءً واحتقاراً بسبب الأذى الذي ألحقه بهم.

ـ **محمود طلال**، جندي متطوع، بشرته سمراء غامقة، بغدادي من سكان "بين السكتين" نهاية كمب الأرمن، اسمه الحزبي "شعلة" ونشط قبل التطوع في مجال العمل الطلابي، كانت مهمته في الانتفاضة حراسة الباب النظامي.

ـ **شهاب أحمد**، حُكم لفترة طويلة، أُطلق سراحه عام ١٩٦٨.

ـ **حسين مناتي**، جندي متطوع، وهو أخو الفنان المرحوم سامي كمال، حُكم عشرين عاماً، وكان قد أخبر مقربين بأنه تعرض إلى تعذيب يخجل من ذِكره أمام الناس.

ـ **هادي حسن**، وكان مرافقاً لعبد القادر إسماعيل البستاني قبل ٨ شباط، اعتقل في سجن رقم واحد مع محمد حبيب.

ـ **هادي وادي السوداني (أبو رسول)**، موظف، كاتب طابعة في مديرية الأوقاف (وتقع في باب المعظم فوق مقهى الآداب) وذلك يعني إنه عمل قريباً من السياسة والسياسيين القوميين رواد تلك المقهى، وهو أخو رجل الدين المعروف الشيخ موسى السوداني. وكان هادي أهم الرجال المدنيين في الحركة بعد محمد حبيب، لم يعتقل بل ظل مختفياً إلى ما بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ أي بعد حركة عبد السلام عارف ضد سلطة حزب البعث العربي الاشتراكي.

ـ **هاشم جوينة**، شيوعي من مدينة الثورة وأحد نشطاء الانتفاضة.

ـ **عبد الرزاق جويعد**، شيوعي من مدينة الثورة وأحد نشطاء الانتفاضة.

ـ **محسن توبة**، وهو عامل عثر عليه داخل المعسكر يرتدي الزي العسكري.

ـ **حكمت عبد الأمير**، شارك في التمرد وهو الذي أطلق النار على سيارة الوزيرين حازم جواد وطالب شبيب، وشارك في أسرهما.

ـ **حسين عليوي**، طالب جامعي حمل البندقية وكانت مهمته حماية باب المعسكر الرئيسي.

ـ **قاسم محمد**، صاحب مقهى، وجد داخل المعسكر يرتدي زياً عسكرياً.

ـ **مهتم مجيد** صابئي، عريف مهني يعمل في القوة الجوية بمعسكر الرشيد، كان له دور فعال في التحضير للانتفاضة وأسهم في احتلال مقر قيادة القوة الجوية في قاعدة

بغداد الجوية المجاورة لمعسكر الرشيد، وفي تحضير وتجهيز الطائرات بانتظار الطيارين الذين سيطلق سراحهم. مات تحت التعذيب في نفس يوم إعلان الحركة.

ـــ لعيبي جبــر، جندي.

ـــ عبود لازم.

ـــ...... **العبدلي**، جندي.

ـــ **تحسين**.....، كردي.

ـــ **جمعة اللامي**، وظفه عزيز السيد جاسم مع محمد حبيب في مجلة "وعي العمال" وأعطاهما غرفة مشتركة ومكاتب. وأصبح فيما بعد من كبار الصحفيين العــراقيين والعرب وأصدر مجلة لكل العرب باسم "ميسان" توقفت بعد صدور أعداد قليلة منها لعدم اشتراك أو تبــرعٍ الممولين. ومازال جمعة اللامي يعيش خارج العــراق منــذ عشرات السنين منشغلاً بالفكر والأدب والثقافة.

ـــ ويتحدث قريبون من الحركة أن ضباطاً كثيرون أرسلوا شفهياً عبــر وسطاء رسائل تؤكد استعدادهم للمشاركة في الحركة، ولكني لم أسمع إلا عن حضور عدد قليل منهم إلى معسكر الرشيد بينهم الملازم صلاح أحمد والملازم فيصــل مريــوشٍ ونائب ضابط من باب الشيخ اسمه جبار حسين، وهؤلاء، رغم حضورهم شخصياً، لم يتمكنوا من المساهمة، لكنهم رغم ذلك لم يتخلصوا من التجريم فنفذ بهم حكــم الإعدام لمجرد ورود أسمائهم في التحقيق.

ـــ **ساهم** عدد من العمال المدنيين الأكراد من أبناء مدينة خانقين في الانتفاضــة أُعتقل بعضهم وهرب آخرون[1]. كما كان هناك أشخاص كثيرون وأدوار كثيرة لم يكشَف عنها وظلّت غير معروفة لحد الآن.

ـــ اعتقلت لجنة التحقيق حتى أُولئك الذين تعاونوا معها وهم في طور الإعداد ثم انتقلت وحداتهم للقتال ضد الحركة الكردية قبل ٣ تموز ١٩٦٣.

ـــ **وبسبب الرمي** العشوائي كانت عدة رصاصات قد خرجت من معســكر الرشيد تائهة إلى خارجه فأُصيب بعض المدنيين من سكان الأكواخ المحيطة ومــات منهم شخصان على الأقل أحدهما نــزف حتى الموت، وماتت بنفس الطريقة سيدة تسكن بدار مجاورة للمعسكر. ويذكر أن عدداً من القتلى المدنيين قد وقع بســبب

---

١ ـــ د. فؤاد حسين، حديث شخصي بمدينة أربيل عام ٢٠٠٠.

حماسهم وتجاوزهم لدور المتفرج، فأخرجوا من بيوتهم أسلحة مخبأة بينها بنادق وكسريات صيد وأسلحة أخرى خاصة، وشاركوا في الرماية إلى جانب الثوار وبطريقة فوضوية.

أسباب ضياع أخبار حركة معسكر الرشيد ورجالاتها

إذا تحرينا سنجد أسباباً كثيرة أهمها:

أولاً: قسوة السلطة في معالجة أمر المنتفضين، وهو أمر لا يخفى على لبيب، فقد جرت قبل حركة الجنود بشهر واحد تقريباً محاولة انقلابية فاشلة، قامت بها حركة القوميين العرب وساهم فيها عدد كبير من العسكريين والمدنيين من ذوي الرتب والمكانة السياسية الخطيرة، لكن السلطة لم تَعْدِم أي واحد منهم ولم تفعل ذلك بهم حكومة عبد السلام عارف بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣. إن القسوة والملاحقة المستمرة المذكورة، حتى من قبل الحكومات التالية، قد قضت بالموت على أكثر من نصف المشتركين بحركة حسن سريع، وبالأحكام الثقيلة والتشرد والعزل السياسي والحرمان الاقتصادي وكلها تؤدي في النهاية إلى تقصير العمر، ولم يبق غير المنهارين الذين اقتطعوا ذاكرتهم ورموها للجلاد.

ثانياً: قسم آخر من الناجين، وأغلبهم من أولئك الذين تمكنوا من الفرار ولم يتعرف عليهم أحد، أو لأن أسماءهم المعروفة لدى المنهارين كانت حركيةً (وهمية)، وغالبية هؤلاء الساحقة لم ينحدروا من عائلات ميسورة، وليسوا من الذين حصلوا على تعليم عال ولا من فئة موظفي الدولة، وأساساً لم يستطيعوا الهرب لو لم يكونوا من أبنا الشعب المغمورين.

ثالثاً: عدم التبني المباشر لهم من أيٍ من الأطراف الوطنية العراقية وإهمال الشيوعيين لهم لعوامل كثيرة بينها:

ـ إن الشيوعيين أنفسهم كانوا خارجين من ضربة قاصمة.

ـ كانت روح الهيمنة القيادية السائدة داخل الأحزاب الشيوعية، لا تتقبل النقد الشديد الذي بدأ المتعاطفون مع الموجة الثورية العالمية الجديدة يتبنون نهج الخروج وإعلان الثورة أو الكفاح المسلح ضد الحاكم، وكانت حركة حسن سريع واحدة من نتائج ذلك المد الثوري.

رابعاً: كان كل أو جل المساهمين في الحركة والخارجين من السجون بعد قضاء

سنين طويلة فيها، يعيشون تحت ضغط لقمة العيش، ولا يسمح لهم وضعهم الاقتصادي الجلوس في المقاهي والمنتديات التي يرتادها عادة المثقفون والأدباء والصحفيون وكبار السياسيين، ليتحدثوا عن أنفسهم ويؤرخوا معاناتهم، بل وجدوا أنفسهم مضطرين للعيش في قعر المجتمع، وفي جحور بعيدة عن المراكز السياسية المهمة.

خامساً: وهناك سبب آخر للعزلة، هو الموقف الذاتي للغالبية العظمى من الناجين، إذ حكموا على أنفسهم بالابتعاد عن أجواء الصالونات السياسية ومنتدياتها، احتقاراً لروادها وتشكيكاً في وطنية إرادتهم، لذلك وجدناهم يميزون أنفسهم، ويرفضون أية محاولة تؤدي لتقريبهم من الوسط السياسي الحكومي أو المعارض، لكن ذاكرتهم ظلت ومازالت مستعرة وتتحرق إلى الثأر، ويعبرون عنهابأساليب وتأوهات تنعكس غالباً بصورة سلبية على أحوالهم النفسية والصحية.

الفصل التاسع

من آثار حركة حسن سريع

الميل نحو التطرف

إن ميول اليسار الشيوعي المتمرد، كتنظيم الكادر* والقيادة المركزية، فضلاً عن يساريي الهوى من تنظيمات "اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي"، لأسلوب حركة معسكر الرشيد، أسلوب حمل السلاح أو النضال المسلح ضد عنف السلطة غير الرحيم، كانت واضحة ومبررة، وقد لَمَسْتُ ذلك لدى كل من قابلتهم من تلك الأطراف الذين تحدثوا دائماً بلغة ناقدة مشتركة للمنهج السوفيتي، وتطبيقاته المدرسية الحرفية في العراق، وهو بلد أكثر عراقة وتنوعاً من روسيا.

و لم أعُدْ أشك بأن حركة الكفاح المسلح التي قادها خالد أحمد زكي، تحت اسم "ظافر"، منذ التهيئة العملية لها لأول مرة في ٢٨/ أيلول/ ١٩٦٧ بأهوار الغموكة في جنوب العراق، لم تكن سوى امتداد للأسلوب الجديد الذي سنته انتفاضة معسكر الرشيد.

أما الحوار والإرهاصات الأولى للعمل المسلح فقد بدأت منذ فترة مبكرة، وكان أول لقاء جمع خالد أحمد زكي بعزيز الحاج (قائد الانشقاق اليساري في الحزب الشيوعي فيما بعد) قد حصل في براغ عام ١٩٦٤ وفيه "تحدث خالد ضد خط آب ٦٤ (اليميني) وعرض تشكيل تنظيم مستقل"، فرفض عزيز الحاج الأمر، رغم قراره الخاص بكتابة بحث من أجل تفنيد "خط آب" وتوزيعه على قواعد الحزب[1].

خط آب، هو السياسة التي رسمتها قيادة الحزب الشيوعي بعد نكستها الكبرى في ١٩٦٣، فباركت قرارات التأميم التي أصدرتها حكومة عبد السلام عارف وطاهر يحيى وخير الدين حسيب، وتضمنت الدعوة للتعاون مع الاتحاد الاشتراكي تصل إلى

---

* مجموعة الكادر هي تكتل صغير يتكون أساساً من أربعين أو خمسين حزبياً مناضلاً ومتمرساً، يقودهم المهندس الكاتب ورجل الأعمال فيما بعد إبراهيم علاوي، وكان أمين الخيون والملازم فاضل عباس، والمهندس فاروق ملا مصطفى من أبرز رجالها، وهؤلاء قاوموا حركة ٨شباط ١٩٦٣ في الكاظمية ثم انسحبوا جنوباً، وكانت لهم قبل انشقاق القيادة المركزية نفس ملاحظاتها، ونشطوا تحت ستار مكتب هندسي اسمه "علاوي للمقاولات" يقع في ساحة النصر ببغداد ويملكه إبراهيم علاوي وأخوه ماجد علاوي، وكانت اللجنة المركزية للحزب قد فصلت إبراهيم علاوي من عضوية الحزب قبيل الانشقاق بقليل، ورغم موقف المتعقلين منه لكن المهندسين انتخبوه وهو في السجن نقيباً للمهندسين في العراق، فحلت حكومة عبد الرحمن عارف النقابة لتعيد تشكيلها على مقاس مرشحها

١ ــ عزيز الحاج، لقاء خاص بلندن مع المؤلف في مطلع عام ٢٠٠٢.

حد التفكير بتوحيد أو دمج نشاطها السياسي وربما التنظيمي معه. ويبدو إن تلـك المبارَكة جاءت:

أولاً: كمحاولة للحصول على هدنة من نظام عبد السلام عارف من أجل إعادة بناء تنظيم حزبها.

ثانياً: الانسجام مع السياسة السوفييتية في الشرق الأوسط.

ثالثاً: الانسجام مع الأيديولوجية السوفييتية في توزيع الأدوار على الطبقات، إذ لم يكن من حق الشيوعيين، حسبها، أن يقودوا تلك المرحلة الاجتماعية الاقتصـادية؛ فهي ليست من حصتهم، بل حصة البـرجوازية الصغيرة بغض النظر عن الوقـائع داخل البلاد!

رابعاً: لم تكن قيادة الحزب الشيوعي حينئذ مبادرة، بل غَلَبت، أكثر أعضـائها، روح عقلانية مبالغة، تعكس الضعف والهزيمة الداخلية، وتعكس، من جانب آخـر، الآثار السياسية والضرر الذي ألحقته ضربة ٨ شباط ١٩٦٣ بكيانهم. وكان من آثار تداعيات الضعف؛ الانتقال من التعبير عن إرادة ورغبة الجماهير التي احتضنت الحزب سنوات القوة والنمو، إلى التفتيش عن ثغرات أو ثغرات داخل السلطة مـن أجـل اللعب فيها أو عليها، بوسائل هي نفس وسائل السلطة والحاكم المتغلب. ولذلك لم تستطع القيادة الشيوعية بأن أغلب أجنحة السلطة، رغم اختلافها، تتفق على مبـدأ بقاء سلطة الأقلية السياسية، وعزل الجماهير العريضة عن المساهمة في تقرير مصـير البلاد سياسياً واجتماعياً واقتصادياً، وإن أي تحسن في مواقف قادة التيار القومي تجاه الشيوعيين، لم يحصل إلاّ بعد النصف الثاني من الستينات، مع صعود قيادات تفكـر بطريقة متنورة ومختلفة، كيسار حزب البعث العربي الاشتراكي، والحركة الاشتراكية العربية (عبد الإله النصراوي)، والعربي الاشتراكي (جناح أحمد الحبـوبي، وجنـاح رشيد محسن ومبدر الويس وغيرهم). وباختصار تمخض الاجتماع الكامل للجنـة المركزية آب ١٩٦٤ عن تقديس النظرية السوفييتية، وتبرير حكم الحزب الواحـد توحيداً للجماهير تحت قيادة واحدة! أي تغطية الديكتاتورية نظرياً تحت اسم التطور اللارأسمالي.

وذلك ما رفضته قيادة منطقة بغداد للحزب الشيوعي وقطاعات واسعة جداً من تنظيماته المدنية والعسكرية في كافة أنحاء العراق، فضلاً عن التنظيمـات الأخـرى المتمردة وعلى رأسها مجموعة الكادر بقيادة إبـراهيم علاوي (نجم) التي انضـمت للقيادة المركزية المنشقة، شرط تصفية ما سمي بخط آب، فضلاً عن تعاطف أغلـب

سجناء الحزب الشيوعي مع التغيير[1].

الشيوعيون يلجؤون إلى السلاح

بعد ضربة ٨ شباط ١٩٦٣ الموجعة، لم يتوقف مسعى التنظيمات الشيوعية للاستيلاء على السلطة، بل تطلب الأمر سنوات أخرى، من المحاولات الكثيرة من قِبَلهم، والضربات الموجعة لهم من قبل السلطات طوال الفترة التي توارث فيها خصومهم السلطة، لكي يقروا، هم وغيرهم من القوى الوطنية المعارضة، إن حكم العراق غير ممكن إلا بائتلاف سياسي واسع أو الانتقال، بطريقة أو أخرى، لأجواء ديمقراطية، يجري خلالها تداول السلطة بطريقة سلمية وحسب البرنامج المعلن للحركات والمرشحين.

أولاً: اللجنة الثورية

كانت حركة حسن سريع، أول نتيجة لعملية التصفية الشاملة ضد وجود الآخر، التي جرت في ٨شباط. إذ لم يشهد العراق إرادة تصفية مثلها، منذ عام ١٩٢١. كما إنها أسست، لأول مرة لدى الشيوعيين، إرادة حمل السلاح ضد السلطة لتغييرها، بعد أن كانوا يرفضون ذلك. ولا شك إن تطرف السلطة في تصفية كوادر الحزب الشيوعي، وتقاعس القيادة الشيوعية في استخدام القوة المنظمة الكبيرة التي كانت رهن إشارتها، ومجيء قيادة تالية لقيادة سلام عادل تميل نحو عقلانية هي أقرب للتردد والمهادنة منها للتفكير الراشد، قد أدى إلى تطرف المتضررين ولجوئهم للعمل المسلح.

---

١ ـــ وعلى سبيل المثال: كانت الخلافات داخل الحزب الشيوعي العراقي، منذ بداية خط آب حتى عام ١٩٦٧، في أوجها، خصوصاً بعد كتابة التقريرين الشهيرين حول تقييم سياسة الحزب السابقة، إذ صار واضحاً وقوف عزيز الحاج وقيادة بغداد في جهة، وباقر الموسوي وعامر عبدالله وكريم أحمد وعمر الشيخ وبهاء نوري وزكي خيري فيما بعد، في جهة أخرى. وخلال ذلك كان أكثر سجناء الحلة قد قرروا الهرب عبر نفقهم الشهير، فاستشاروا قيادة ل.م، وقيادة منطقة بغداد (لأن عزيز الحاج كان غائباً) فنصحتهم ل.م بعدم الهرب، في حين شجعتهم الثانية على الهرب. ذلك، أضافة إلى تطلعات أكثر السجناء نحو تغييرات جدية في سياسة الحزب، قد جعل أكثر السجناء يلتحقون بالقيادة المركزية ويشاركونها خيارها في استقلالية القرار الشيوعي العراقي، عن أي مرجع سياسي في خارج البلاد. وكان مثقفي القيادة المركزية يرددون، حينذاك، قول هوشي منه: إن قضية فيتنام هي قضية الحزب الشيوعي الفيتنامي، ويستطيع كل الشيوعيين في العالم المساعدة بأخذ موقف الحزب الشيوعي الفيتنامي. (لقاء مع مظفر النواب، دمشق ٢٠٠٢).

إن أكثر المتأثرين بموجة الغضب والروح الثأرية، كان أولئك الكوادر الخارجين من المعتقلات بعد ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣، والناجين الذين واجهوا بأنفسهم الهجوم والتعذيب والموت، وشاهدوا مقاتل رفاقهم، مما خلق موجة نقد واسعة ضد القيادة الحزبية، التي كان أغلب أعضائها خارج البلاد.

وكان بين تلك المحاولات التالية لحركة حسن سريع، والهادفة إلى قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة، حركة "اللجنة الثورية" وحركة "الكفاح الشعبي المسلح" في أهوار جنوب العراق.

وقد أسس "اللجنة الثورية" ضباط وضباط صف ومدنيون كثيرون بينهم الملازم أول طيار عبد النبي جميل، والملازم الطيار صلاح العزاوي، والملازم شاكر العزاوي، والملازم إسماعيل جواد قرطاس، ونائب الضابط كريم عزيز، والعريف متعب خميس (المسؤول العسكري لمنطقة ديالى)، ونصيف جاسم (أبو جمهورية) ورمضان كاطع موزان، وخليل العزاوي، وعبد الحسين منذور (مسؤولاً عن مدينة الثورة) وغيرهم.

وبعد نضج التنظيم السري والتحاق عدد كبير من المدنيين والعسكريين به، وبلوغه شأواً، أوحت قيادته للضباط الكبار اللاجئين لدى الحركة الكردية المسلحة بوجود إمكانية للقفز إلى السلطة. فأوفدت متعب خميس إلى كردستان، لإقناع العميد سعيد مطر بتسلم القيادة للاستيلاء على السلطة لكن الأخير رفض، و لم يوافق من الضباط الموجودين بحماية الملا مصطفى البارزاني غير العقيد سليم الفخري. ويذكر إن تنظيم اللجنة الثورية لم يضع لنفسه غير مهمة واحدة هي إسقاط سلطة عبد السلام عارف.

ذهب سليم الفخري برفقة العريف متعب إلى ديالى ثم بعد حين إلى بغداد، بعد أن زُوِّد بهويتين مزورتين؛ دفتر نفوس بإسم عبد الله سعيد، وهوية سائق سيارة بجريدة الجمهورية، وبكتاب عدم تعرض من الملا مصطفى البارزاني للعودة إلى كردستان متى شاء[1].

وفي مخبئه ببغداد، كتب سليم الفخري، مع أعضاء من قيادة اللجنة الثورية، البيان الأول ووضع أسماء رئيس جمهورية ومجلس وزراء الانقلاب وقادة الجيش، لكن داره

---

١ ـــ سمير عبد الكريم (اسم وهمي)، أضواء على الحركة الشيوعية في العراق، إصدار المخابرات العراقية، بلدون تاريخ، ص ١١٦.

وعدد كبير من مخابئ الضباط وضباط الصف المنفذين دوهمت بوقت واحد قبيل التنفيذ مباشرة، بسبب وشاية من شخص أو ربما أشخاص متعاونين مع الأجهزة الأمنية، و لم يمر وقت طويل حتى تم تصفية المحاولة وتشتيت التنظيم. وليس صحيحاً ما أشيع بأن الضربة قد جاءت بعد اعتقال الملازمان عبد النبي جميل وشاكر العزاوي، لأن بعض المراكز المُداهَمة كان قد تم السكن فيها بعد اعتقالهما، فضلاً عن إن التنظيم كان قد قرر موعداً للانقلاب وجرى تغييره مرتين خلال وجود عبد النبي جميل وشاكر العزاوي في المعتقل. وكان معتقلوا اللجنة الثورية قد قضوا سنوات في السجون، ومنعت المهرجانات الدولية والمحلية والاضرابات والوساطات الكثيرة السلطة من إعدام العسكريين المشاركين في المحاولة الانقلابية. وكان سليم الفخري كثير التخوف من احتمال أن يأمر عبد السلام عارف بإعدامه، لأن الفخري كان قد شهد ضده في محكمة الشعب، لكن الأخير لم يفعل.

قيادة الدولة المقترحة:

ـ كامل الجادرجي أو إسماعيل صفوت، رئيساً للجمهورية.
ـ الملا مصطفى البارزاني، نائباً لرئيس الجمهورية.
ـ سليم الفخري، رئيساً للوزراء.
ـ إبراهيم كبة، وزيراً للاقتصاد.
ـ محمد حديد، وزيراً للمالية.
ـ عبد الوهاب محمود، وزيراً للخارجية.
ـ عبد الوهاب، القيسي وزيراً للعدل.
ـ جلال الطالباني، وزيراً للإسكان.
ـ جلال بالطة، وزيراً للداخلية.
ـ مصطفى علي، وزيراً للأوقاف.
ـ عزيز شريف، وزيراً للعمل.
ـ عبد الفتاح إبراهيم، وزيراً للنفط.
ـ رافد صبحي أديب، وزيراً للمعارف.
ـ محمد مهدي الجواهري، وزيراً للثقافة والارشاد.
ـ عباس البلداوي، وزيراً للبلديات.

ـ محمد صالح بحر العلوم، وزيراً للدولة.
ـ وزير دولة آخر من الحزب الديمقراطي الكردستاني (البارت).
ـ **أما قادة الفرق فهم**: سعيد مطر، عبد القادر محمود، أحمد محسن محمد علي، عبد الله سعيد، وتعيين العقيد الركن عبد الرحمن القاضي، حاكماً عسكرياً عاماً.

وحول هذا الأمر، راجع ص ٢٢٦ نهاية الباب الثاني.

ثانياً: خالد أحمد زكي وتجربة الكفاح الشعبي المسلح

جاءت تجربة الكفاح المسلح التي خاضها مسلحون تحت اسم "جبهة الكفاح الشعبي المسلح" بقيادة خالد أحمد زكي، العائد من بريطانيا لتحقق بطريقة مختلفة، ما عجز عنه الآخرون. وكان خالد أحمد زكي قد قرر ترك كرسي الدراسة ومكتبه كسكرتير للفيلسوف العالمي براتراند راسل في عمله الرائد كمؤسس لمحكمة العدل الدولية، والتخلي عن المركز المحتمل الذي كانت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي ستضعه فيه، في حالة استقراره ببغداد للاستفادة من خبرته وثقافته ومعرفته بمراكز وشخصيات إنسانية عالمية*. ترك ذلك كله ليتخذ من أرياف الجنوب منطلقاً لمقاومة السلطة القائمة، من أجل: أولاً: إثبات خطأ سياسة ما سمي "بالخط اليميني المهادن"* المهيمن باستمرار على الحركة اليسارية العراقية. وثانياً: الحصول بقوة السلاح على نتائج سياسية واقتصادية عملية لمصلحة الطبقات الاجتماعية الفقيرة.

---

* وكان قد ذكره، بعد استشهاده، مناضل إيراني ضد حكم الشاه قائلاً: في عام ١٩٦٥ أضرب خالد زكي معنا عن الطعام تضامناً مع طلاب إيرانيين، يواجهون حكم الإعدام بتهمة الإعداد لاغتيال الشاه، وأضاف لم يكن نجاح الإضراب ممكناً لولا بصيرة خالد ومشاعره الأممية، "لقد كان خالد ابناً حقيقياً للعالم الثالث المضطهد، وكان يعتبر كل الشعوب المضطهدة شعباً له. وكنا نحن الإيرانيين نقاوم الجهود المشتركة للامبرياليين وعملائهم المحليين لجعلنا نكره أخوتنا العرب، نشعر بخسارة خالد أكثر من أي وقت مضى... ونأمل أن تكون ذكراه إلهاماً لوشائج صداقة أقوى وأكبر بين شعبينا" (عن جريدة الإصرار الناطقة بلسان القيادة المركزية لحشع، العدد ٨، السنة ٨، تشرين الثاني ١٩٨٨).
وقال عنه البروفسور عز الدين مصطفى: "عرفته لأول مرة عام ١٩٦٤ كان هادئاً ظريفاً وصاحب نكتة، ويبدو عموماً أنه مثقف، يتحدث عن الديمقراطية أكثر مما يتحدث عن الصيغ الثورية. ولكن سيماءه توحي أنه من النوع الذي يبطن أموراً كثيرة.

*ومصطلح "اليميني" أطلقه عدد كبير من الشيوعيين على لجنة حزبهم المركزية والكادر المحيط بها. وكان خالد أحمد زكي، الذي أصبح كادراً متقدماً في منظمة لندن للحزب الشيوعي العراقي، يكتب من بريطانيا رسائل، ينتقد فيها أسلوب عمل الحزب الشيوعي، حتى قبل انشقاق القيادة عن اللجنة المركزية للحزب.

كان آخر عهده بمدينة بغداد، دار عز الدين مصطفى رسول الواقعة خلف السدة، حيث زاره فيها عزيز الحاج وبقي معه مدة يومين، وكان الحاج عائداً تواً من لقاء جمعه مع الملا مصطفى البارزاني الذي أخبر الحاج؛ "إن جنوب العراق والأهوار لا تصلحان للكفاح المسلح". وعندما سمع خالد أحمد زكي ذلك أجاب: " أنا زرت أحراش الفيتنام وشاهدت كفاحهم، الأهوار أصلح من الجبال للكفاح"، وكانت تلك الزيارة قد تحققت لخالد أحمد زكي باعتباره سكرتيرا لمؤسسة براتراند راسل الدولية.

وأتصور إن هذا الحوار يؤكد ميل خالد زكي للقياس النظري وللتنظير، وتأثره بتجربة كوبا للغوار الجوالين، وبجربة فيتنام التي وفر لها العظيمان، الاتحاد السوفييتي والصين، الكثير من أسباب وأدوات الصمود المعنوية والعسكرية والتكنولوجية. كما إن تجربة نضال الشعوب اللاحقة، كانت قد أثبتت فيما بعد، إن أية تجربة كفاحية تنجح سوف تعتبر فخاً لمقلديها، لأن الحكومات والدول العظمى تسارع في أخذ العبرة منها، وتضع الحلول المناسبة لإفشال المقلدين، ولذلك أرى إن الزعيم الكردي مصطفى البارزاني كان حكيماً ومشفقاً عندما قدم النصيحة.

غادر خالد زكي الدار برفقة عز الدين مصطفى إلى مدينة الديوانية، وهناك استلمه آخرون، وعاد عز الدين مساء نفس اليوم ليطمئن عزيز الحاج بوصوله، وبعد وصول الأخير ترك الحاج الدار بسيارة ورفقة حافظ مصطفى القاضي.

وهكذا يكون خالد زكي قد بدأ، لأول مرة في تاريخ العراق الحديث، حرب غوّار جوالة ضد حاكم مسالم (عبد الرحمن عارف) يحيط به صقور لديهم خبرات سابقة في مصادرة الحريات تحت شعارات "ناصرية" ليست للتطبيق، فقد كان الزعيم جمال عبد الناصر على قيد الحياة و لم يقيموا معه الوحدة، في حين قادوا العراق للمهالك والموت، وقتلوا زعيم ثورته الوطنية لأنه تأخر عن إقامتها فوراً مع عبد الناصر. ولاشك إن هذا ليس نقداً موجهاً لجميع الناصريين فقد كان بينهم رجال صادقون بذلوا التضحيات من أجل تقويم النهج المنحرف، غير أنهم لم يكونوا من الصقور، المحيطة بالسلطات، التي صادرت اسم الناصرية، وتوسلت أرخص الطرق للوصول إلى مراكزها.

وبعد أن بدأت حركة الكفاح المسلح بنجاح وهاجمت بعض مراكز الشرطة واستولت على أسلحة، وخاضت معارك بسيطة ناجحة هنا وهناك، هدفها الإعلان عن وجودها وتوفير بعض المستلزمات للاستمرار والصمود. كما هاجم أنصارها من

تنظيم القيادة المركزية بعض المدارس في الفرات الأوسط والجنوب، واستولوا على آلات طابعة و(رونيو) لاستخدامها في الحملة الإعلامية الضرورية لتوسيع التعاطف الشعبي وتسهيل التحاق الراغبين بالحركة الثورية*. وحينئذ كان الناس قد بدأوا يتسقطون أخبارها، وأصبح من الممكن تلمس ميل ورغبة الكثير من الشباب إلى معرفة السبيل للالتحاق بها، خصوصاً وإن شبيبة العالم كلها كانت مازالت تعيش تحت تأثير موجة جيفارا وهوشي منة وجياب.

بعد كل ذلك أدركت "الأشباح" الراعية للسلطة القائمة إن الأمر أصبح خطيراً، ولابد من تغيير عبد الرحمن عارف الضعيف، الذي كانت تستعد وتتنافس من أجل طرده والحلول محله قوى كثيرة؛ بينها وحدات الجيش بحسب ميول أمرائها السياسية المختلفة، والاستخبارات البريطانية والأمريكية، فضلاً عن المعارضة الوطنية القوية في الداخل والتي تمثلت حينذاك بالحزب الشيوعي بشقيه وحزب البعث (اليسار)، وحركة القوميين العرب، والناصريين، والحزب الديمقراطي الكردستاني، وهذه الأحزاب كانت تجري اتصالات لإقامة جبهة وطنية تحكم البلاد وفق برنامج تتفق على خطوطه العامة سلفاً.

وما قام به خالد زكي أخاف وأثار عيون الغرب الخفية التي تظل تراقب العراق وغيره من بلدان المنطقة، فأعادت "الأشباح" حساباتها وأولوياتها على ضوء المخاطر الجديدة التي باتت تهدد بحمل قوى غير متوقعة إلى السلطة، وتهدد استقرار البلاد وبالتالي مصالحها الحيوية البترولية!فأعدوا لانقلاب "قصر" جاء بالنايف والداوود والبكر وعماش وحردان، كخطوة أولى تمهيداً لمجيء سلطة البكر- صدام، التي توسموا فيها القدرة على شكم الشعب، وسحق مشروع الجبهة الوطنية الذي كان قد أصبح

---

* حصلت أكثر من محاولة ناجحة، في مدينة النجف وعموم منطقة الفرات الأوسط، للاستيلاء على آلات طابعة من الثانويات أو المراكز التعليمية الأخرى، وتردد إن جماعة الكفاح المسلح وراء عمليات السطو، وحينئذ، لم تكن هناك قوى مرشحة لهذه "التهمة"، غير حزبي الدعوة الإسلامية والقيادة المركزية لحشع، لأنه يتناسب مع خططهما وأطروحتهما بالكفاح الشامل المتعدد الجوانب. في حين كانت قوى التيار القومي، يسار البعث والحركة والعربي الاشتراكي بتفرعاته المختلفة، يخطط لاستلام السلطة عن طريق الانقلاب أو عبر التلاف وطني رغم إن المفاوضات التي كانت جارية من أجل إقامته كانت تبحث في الموضوعات دون آلية تحققها، أما اللجنة المركزية للحزب الشيوعي فقد كانت تتخبط ويبدو أنها لم تكن تملك العزم على وضع خيار سياسي واضح.

جاهزاً للتوقيع حينذاك، بعد ثلاثة عشر يوماً في ٣٠ تموز ١٩٦٨*.

عمليات عسكرية قامت بها الجبهة

وضع الثوار برنامج عمليات طموح، يتطور متناغماً مع اتساع التأييد الشعبي لهم، وفي البداية حددوا ثلاثة مراكز للشرطة فضلاً عن القيام بأعمال هنا وهناك كلها تصب في مجال توفير مستلزمات القتال والصمود، وبعد استطلاع من قبل موسى عطية وحسين السويعدي وعبود خلاطي، تمكنوا من مهاجمة اثنين من مراكز الشرطة، واستولوا على أسلحتها، دون قتل أحد. ثم تتالت عمليات أخرى ليست أكبر شأناً، فضلاً عن مصادمات كثيرة مع قوات مسلحة حكومية ومتعاونين مع أجهزة الأمن.

وبالاتفاق بين البؤرة الثورية في الأهوار والقيادة المركزية للحزب الشيوعي، تم تشكيل خط صدامي متطور يعمل في المدن الرئيسية لاسيما بغداد "يماثل **خط حسين** في اللجنة المركزية"، وكان يتلقى الأوامر من المكتب السياسي للقيادة المركزية. وعندما اعتَقَلت حكومة "البكر ــ صدام" زعيم الحزب عزيز الحاج وقيادته المركزية، قامت بقتل المسؤول المباشر لذلك الخط، عضو قيادة الحزب المركزية، صالح العسكري، الذي مات تحت التعذيب، هو وجميع قيادة الجهاز الصدامي، عدا محمد كريم مراد الذي أُغتيل مع فياض موزان لاحقاً بعد أن قام بعدة عمليات ناجحة ضد رجال أمن حكوميين وأصبح على قائمة المطلوبين الحمراء[٢].

---

*وبالفعل فقد فتشت تلك الأشباح (عيون الغرب في العراق) عن ضالتهم بين الشخصيات والمنظمات الحزبية التي توسموا فيها القدرة على لجم الشعب وقمع تطلعاته الحرة، فاتصلوا، قبل اتصالهم بأحمد حسن البكر وعبد الرزاق النايف، بمنذر الونداوي الذي كانت تربطه علاقة طيبة بسوريا وبحزب البعث اليسار لأنه كان حينئذ لاجئاً بدمشق، ولأنه كان شخصاً لامعاً وغير مجهول بالنسبة لكل العراقيين. وعندما سأل المؤلف منذراً؛ عن سبب رفضه لذلك العرض؟ قال: لأنه نظر إلى المخاطر البعيدة التي كانت ستحيق بالوطن جراء ذلك. كما اتصلوا بحركة القوميين العرب (راجع جمال باروت، حركة القوميين ...)، كما كان عبد الإله النصراوي قد أخبر المؤلف بحقيقة ذلك العرض الذي تقدمت به تلك الجهة المشبوهة، وبرفض الحركة الاشتراكية العربية له. وبعد أن لم تستجب تلك الحركات الوطنية وغيرها، لجأت الأشباح لأحمد حسن البكر ومدير الاستخبارات العسكرية عبد الرزاق النايف والمقدم إبراهيم الداود ووافقا هؤلاء فوراً على العرض، وخططوا لانقلاب أبيض، قال عنه أبطاله فيما بعد، عندما اختلفوا، أنه كان مشبوهاً.

٢ ــ أبو سعيد "عبد الله زنكنة"، لقاء خاص مع المؤلف، السويد ٢٠٠٢.

وقام الخط الصدامي المسلح بثلاث عمليات سطو علي مؤسسات مالية في بغداد، وكانت حصيلتها ٨٠٠٠٠ ديناراً، وهو مبلغ كبير نسبيا وكان المفروض، وحسب الاتفاق، أن يوضع تحت تصرف الثوار، لكن "أبو سعيد" عبد الله زنكنة أخبرني قائلاً: " لم يصل المبلغ إلينا، فعانينا من حصارين، حصار السلطة المسلح وحصار الرفاق في بغداد ماليا وإعلامياً"[١].

ويذكر بأن شكاوى كثيرة كانت تصدر من مريدي الحركة وتتعلق بعدم جدية القيادة المركزية في الدعم المادي والإعلامي، ويقول أبو سعيد زنكنة "عندما ذهبنا للهور لم نكن نتصور إننا سننقطع هناك، فعلى كثرة الشيوعيين في المنطقة، لم يصلنا شيء"، مع العلم بأن قراراً كان قد أتخذ بأن "يذهب تباعاً كل أعضاء قيادة الحزب المركزية إلى الجنوب والأهوار حيث تدور المعركة، ولا يبقى سوى شخص واحد للقيادة والتنسيق هو كاظم الصفار". ولما " لم يأتِ أحد من بغداد، اتفق خالد أحمد زكي بواسطة كوادر الجبهة مع منظمة الحزب الشيوعي في الجنوب، ممثلة بقائدها ناجي عبود العقابي (أبو محيسن) الذي قتلته السلطة في ما بعد"، فحل محله رافع الكبيسي فقتلته السلطة أيضاً، فاستلم قيادها خضر سلمان (أبو جعفر) الذي قتل

١ ــ وحول الدعم المالي والإعلامي، قال عز الدين مصطفى رسول في لقاء خاص مع المؤلف في السليمانية عام ٢٠٠١: "قبل بدء العمل بدأنا بحملة تبرعات واتصلنا بالموسرين من مؤيدينا، فكان ردهم: إبدأوا أولاً ونحن حاضرون، وكأنهم لم يصدقوا أن يقوم الحزب الشيوعي بكفاح مسلح، وأظن إن هذا شكل أحد الدوافع للاستعجال في مهاجمة المخافر" ويضيف: "أرسلني عزيز الحاج في شباط١٩٦٨ إلى سوريا ولبنان فأخبرت قيادتيهما رسالته الشفهية (إننا مقبلون على كفاح مسلح) وطلبت منهم الدعم. فرد السوري رياض بكري قائلاً: إن لقائي بك شخصي، ونحن لا نؤيد أي عمل يقوم به منشقون. أما اللبنانيان غسان رفاعي وكريم مروة فقد أبلغاني أن حزبهما يرفض الكفاح المسلح في هذه المنطقة (الشرق الأوسط) فكراً وممارسة، وفي شيء من المزاح قال مروةبكرة اللبنانيين يطالبون أيضا بكفاح مسلح". وبعد شعوري باليأس كتبت رسالة شخصية لخالد بكداش الذي أعاد إرسالها ولكن إلي اللجنة المركزية ببغداد، و لم أتوقع أن يعامل خالد بكداش عزيز الحاج بهذه الحدة بعد أن كانا متقاربين فكريا عام ١٩٦٥(ضد خط خروشوف وضد فكرة حل الأحزاب الشيوعية وضد التطور السلمي للاشتراكية)، بل كان بكداش ضد الخط اليميني، فعندما إلتقيته في١٩٦٦ برفقة عزيز شريف وكنا موفدين من قبل البارزاني قال:"شو بقولوا عامر عبد الله صاير يساري!!" وكان موقف اللبنانيين والسوريين هو موقف السوفييت".
غير إن عزيز الحاج أخبر "المؤلف" في لقاء بلندن عام ٢٠٠٢: إنه لا يتذكر رواية الدكتور عز الدين مصطفى، كما لا يتذكر أنه كلفه بالسفر إلى الشام وبيروت للقاء بخالد بكداش أو رياض بكري وكريم مروة أو غيرهم.

أيضاً ولكن بعد فترة طويلة نسبياً وفي ظروف غامضة ليس هنا مجال بحثها[1].

ويضيف "أبو سعيد زنكنة" دليلاً آخر لدعم رأيه حول عدم حرص القيادة المركزية على التغيير، قائلاً: "كان يعيش في لندن ضابط اسمه عدنان عيدان، اتصل هو وجماعته بعزيز الحاج وكان لديهم تنظيم من الضباط يخدمون في مواقع هامة (في القصر الجمهوري، وفي مواقع أخرى) وعرضوا عليه الترتيب لعمل شيء، لكن عزيز الحاج رفض العرض قائلاً: "لا نرغب أن نأتي إلى السلطة ببساطيل العسكر".

وإذا صح ما قاله زنكنة، فإن عزيز الحاج نفسه كان حينئذ أيضاً مازال:

ـــ أسير طريقة التفكير الشيوعية المقلّدة. فإذا كنت تطلب السلطة، فما أهمية وضرورة أن تأتيها أو تصل إليها من هذه الطريق أو تلك، مادامت تُنفّذ على أيدي وطنيين؟

ـــ وربما يكون عزيز الحاج قد اختار تأييد جبهة خالد أحمد زكي لكي يرضي مجموعة "الكادر، جماعة نجم أو إبراهيم علاوي"، التي اتحدت معه فور إعلانه الانشقاق واستقطابه السريع لغالبية جمهور الحزب، الذي توقع منه تقديم بعض النتائج العملية السريعة. ومن أجل إحراج اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، لجأ إلى خيارات جديدة، ربما يكون قد تصورها قادرة على مساعدة الحزبيين للخروج من دائرة الإحباط ومشاعر الهزيمة التي أصابت التنظيم، بعد أن كانت قيادة الحزب الشيوعي قد بذلت منذ منتصف الخمسينات جهوداً وتضحيات غالية لبنائه وصيانته معنوياً، فما أعظم الملل عندما تكون المهمة الجديدة عشرين سنة أخرى لإعادة البناء بانتظار معاول هدم جديدة.

ـــ وفي نفس السياق قد يكون عزيز الحاج سعى لوضع الكفاح المسلح في مقابل "خط آب"، المتعاون مع شديد العداء للشيوعية عامة، وللشيوعيين العراقيين خاصة، (عبد السلام عارف)، لكي يرى المترددون شدة التناقض بين خطي اللجنة والقيادة، وبذلك يكون قد استغل بذكاء فائق سخط قواعد الحزب الشيوعي من تهافت "خط آب"[2].

وفي مقابل ما تقدم، أخبر عزيز الحاج، المؤلف، بأن "حركة الكفاح الشعبي المسلح" لم تكن خياراً وحيداً، بل واحدة من الفعاليات النضالية الهامة ضمن

---

١ ـــ أبو سعيد "عبد الله زنكنة"، لقاء خاص مع المؤلف، السويد ٢٠٠١.

٢ ـــ لقاء شخصي مع أبي سعيد زنكنة والصديق صالح الكردي في مدينة يوتيبري السويد عام ٢٠٠١، ولم يكن ما تقدم أعلاه سوى تخمينات صدرت عنهما، لكنها لا تخلو من بعض الوقائع التي تسندها.

الستراتيجية العامة، أي دوراً ضمن دائرة أوسع، فقد كان قرار القيادة المركزية هو الكفاح من أجل إسقاط السلطة القائمة باستخدام كل الوسائل المتاحة، التحريضية والمسلحة في المدن والأرياف، والجمع بينهما. وهي بذلك تختلف (حسب الحاج) عن ستراتيجية جيفارا، لأن الأخير أراد بناء حزب وسلطة من خلال الكفاح المسلح، في حين اعتبرت القيادة المركزية وجود الحزب الثوري شرطاً للكفاح الناجح، وكان الحزب موجوداً وله نشاط في مختلف القطاعات العمالية والاقتصادية والاجتماعية (في هذه النقطة يختلف فكر عزيز الحاج عن فكرة خالد أحمد زكي المتأثر اليسارية الجيفارية، كما سنرى لاحقاً).

ومن أجل توكيد كلامه أشار عزيز الحاج لأحد خطوط الكفاح داخل بغداد وبعض المدن العراقية الكبيرة، الذي قاده صالح العسكري وأشرف عليه محمود الحلاق (كلاهما عضو في قيادة الحزب)، هدفه اغتيال بعض رجال الأمن المتورطين مباشرة بأعمال التعذيب والقتل ضد المعارضة السياسية. ويضيف الحاج: "كانت عملية الأهوار عملية تعبوية تحريكية لتهيئة الأجواء لمهمة إسقاط السلطة، التي كانت القيادة المركزية ستقوم بها في بغداد"[١].

المعركة الأخيرة

انتقلت النواة الرئيسية للمجموعة المسلحة بعد وصولها بفترة، من هور العمارة إلى أهوار الناصرية في منطقة العوينة، أي من منطقة معزولة إلى مناطق مكتظة بالفلاحين، وصيادي السمك، مع الإبقاء على قاعدة العمارة في هور "أبو غريب" كقاعدة خلفية لاستخدامها في الحالات الضرورية عندما تتطلب المعارك والتكتيكات.

وصلوا مع عُددهم على ظهر شاحنة إلى الدواية وهي ناحية تابعة لقضاء الشطرة.

---

١ ـ عزيز الحاج، لقاء خاص مع المؤلف، لندن ٢٠٠٢.
أما مظفر النواب فيقول: "حصل لقاء في الريف بلواء الكوت حضره خالد أحمد زكي وحسين ياسين ومظفر وأخرون، وكان تمهيداً لعقد مؤتمر خاص للكفاح المسلح، لكن ذلك لم يتم لأن عزيز الحاج كان يخطط لانتفاظة داخل بغداد والمدن الأخرى، ويعمل لمثلها في صفوف القوات المسلحة، أي لم يكن يستهويه العمل من الريف نحو المدينة. مما اظطر البعض (بينهم مظفر النواب) للعودة إلى بغداد لجمع التبرعات وشراء بعض قطع السلاح". وقال أيضاً: " لبم تكن نظرة عزيز الحاج اعتباطية، بل جاءت بعد تجربة طويلة خاضها الشيوعيون في المدن، وذلك خلال فترة سقوط ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

ومنها اضطروا للتجديف ست ساعات ليصلوا دار مسؤول محلية الحزب، وهناك أطلق خالد أحمد زكي مقولته: "من هنا علينا أن نضغط ليولد الحزب بقوة البنادق، بعيداً عن انتهازية المدن"، وقال "لابد أن تضيء النيران سماوات العراق المظلمة".

وكان كل من عبد الأمير الركابي وموسى عطية ومحمد حسن السويعدي (وهو واحد من ثوار معسكر الرشيد الناجين) قد استطلعوا المنطقة قبل وصول المجموعة بأيام، وبنوا قاعدة فوق تلال هورة "أبو غريب" على شكل كوخ من القصب يتيه بين تلافيف كثيفة جداً من البردي، وجهزوها بمستلزمات ضرورية بينها مدفع رشاش من نوع تكتريوف، ورشاش سترلنغ وبندقية بسيطة وكسرية ومسدس براوننغ ٩ ملم، مع زورق ومشحوف.

وكان كل ذلك قد تم بسرية، حتى دون علم أمين الخيون الذي كان يقود مجموعة مسلحة أخرى ضد السلطة في أهوار الناصرية أيضاً، وكان خيون قد انسحب مع الملازم فاضل عباس من بغداد، بعد فشلت المقاومة، التي اشترك في قيادتها ضد حركة ٨ شباط ٦٣ في مدينة الكاظمية. وتدريجيا ابتعد عنه رفاقه بسبب تطرفه ومزاجه الصعب.

وإزاء هذا الوضع المتفجر وخوفاً من تفشي موجة حمل السلاح والكفاح المسلح وخطر استفحال الأمر وخروجه عن السيطرة، على تركيبة النظام، اتخذت السلطة قرارها بالقضاء على الحركة المسلحة في الأهوار بسرعة، فهاجمت المنطقة وهددت شيوخ عشائرها بعقاب شديد إذا ما قدموا المساعدة "للعصاة المخربين"، وبدأت قواتها بتمشيط المنطقة مقتربة تدريجياً من الثوار، وضيَّق ذلك عليهم خصوصاً انقطاع الناس عنهم خوفاً من بطش السلطة.

ومن أجل الرد ورفع معنويات الفلاحين وأنصار القيادة المركزية ليلتحقوا أو يقدموا الدعم للحركة، قرر الثوار القيام بعملية كبيرة. وبعد استطلاع قام به موسى عطية وعبد الأمير الركابي ومحيسن نابف وهو من عشيرة بني سعيد ويلقب بسبع الهور، وتدريب جيد، تقرر الهجوم على مركزين متحركين للجنود والشرطة في هور "الغموكة" في ٨٢ آيار ١٩٦٨، والانسحاب بعد الاستيلاء على معداتهما إلى هور الحمار، ثم إلى منطقة تسمى "الأبيض" وهي منطقة بِكْر تقع خلف القصب ولم يصلها أحد.

خمسة "مشاحيف" صغيرة ركبها اثنا عشر رجلاً، بينهم الملازم ظافر (خالد أحمد زكي)، وسارت ساعتين لتعبر ممراً إجبارياً وتصل هدفها، وتستولي على المخفر

الأول في معركة سهلة جرح فيها عسكري واحد من جنود الحكومة. وبسبب بعد ظافر عن قواعد العمل العسكري المحترف وقع المهاجمون بخطأين فادحين، الأول: بدلاً من الانسحاب فور انتهاء العملية، جلس ظافر ليلقي على الجنود موعظة أو محاضرة في الوطنية، وعن صراع الطبقات وأوضاع البلاد السيئة، وعن فلسطين، أبلغهم فيها أن الثورة في العراق قد بدأت، وقال للجنود: "أنتم لستم أعداؤنا، ولا نريد إيقاع الأذى بكم،سنستولي على السلاح والذخيرة وننسحب، وستكونون أحراراً، ولكن تذكروا جيداً إن آلاف الشيوعيين المسلحين الآن يغطون الأهوار"(١).

بعدها انتقل الثوار إلى المركز أو المخفر الملاصق، فسيطروا عليه واعتقلوا رجاله، فكانت حصيلة العمليتين ٢٨ بندقية مع ذخيرتها. وتكررت مرة أخرى الخطب والأحاديث والمشاعر الوطنية الجياشة قبل الانسحاب، فتأخروا كثيراً. والخطأ الثاني: هو اطلاق سراح الأسرى فور الانسحاب من المركز الأول، مما أتاح فرصة لمن يريد تبرئة ذمته أمام السلطة، إيصال الخبر إليها بوسائل الاتصال الحديثة المتوفرة في مناطق ليست بعيدة. وبالفعل وصلت أخبار الهجوم.

وفي سباق ضد الزمن تمكنت القوات الحكومية من الوصول، قبل الثوار، إلى الممر الإجباري فأغلقت الخانق، ووضعت عليه كميناً منع الثوار من العبور إلى هور الحمار، مما تركهم عالقين في أحد جيوب المنطقة محاصرين لمدة أربعة أيام.

وباقتراح من ظافر (خالد زكي) ذهب أربعة ثوار؛ لعلهم عبود خلاطي وسيد درعان وعقيل حبش يقودهم أبو صبري (موسى عطية) إلى قرية واقعة على هضبة قريبة. وكانت مهمتهم شراء مواد غذائية، واستئجار زوارق، ودليل يمكنه العبور بهم إلى هور الحمار، لكن أحداً من الأربعة لم يعد. ويذكر إن السلطة كانت، منذ اليوم الأول لبدء العملية، قد اعتبرت الأهوار "منطقة حربية".

وبنما كانوا يتنقلون من مكان لآخر ومن هور لآخر كان الحصار يضيق عليهم، ورغم حاجتهم للطعام اضطروا لترك المزيد من المؤن ومن الأسلحة الزائدة إفلاتاً من الحصار. و لم يمر وقت طويل حتى وجدوا أنفسهم محاصرين في إحدى الجزر من كل الجهات، لا يستطيعون الوصول للمياه وهم في وسطها، وليس معهم غذاء وسلاحهم غير كاف، و لم يكن أمامهم سوى انتظار الفجر التالي ليروا ما سيكون من أمرهم.

---

١ ــ حيدر حيدر، وليمة لأعشاب البحر، ص ٢٠٨.

عميل مزدوج

وتحت جنح الظلام طَرَدَ حسين ياسين أربعة أشخاص، كانوا قد التحقوا بالثوار، وعندما أصروا على البقاء أساء إليهم، فغادروا، وبذلك نجح في التخلص منهم*.

ظلوا ثمانية رجال، قلبوا كل الاحتمالات ودرسوا وحاولوا كل السبل للنفـــاذ، لكن الحصار والكمين كانا محكمان، فبدأ اليأس يتسرب. ووسط تلك الأزمة، وتحت وهج الشمس المحرقة، احتضن جبار (وهو سياسي هارب من سجن الحلة) بندقيتــه وترنم: "السجن ليس للأباة، السجن للطغاة، لنا الغد"، وكان قد تعلم هذا النشيد في سجن الحلة.

وأيضاً، وتحت جنح الظلام، تسلل اثنان من الفلاحين ومعهم مـــواد غذائيـــة، "فرحنا بها كثيراً، وقدم لهم خالد أحمد زكي مسدسه الشخصي (سميـــث) هديـــة.. وعرضا نقلنا إلى مكان أمين، فاتفقنا وذهبا على أمل العودة صباحاً ومعهما ما يلزم للمساعدة"، لكن حسين ياسين (خط مائل) رفض الأمر، وأقنع خالد أحمد زكـــي بأهمية المشاحيف (الزوارق الصغيرة) للخلاص من الحصار، قائلاً "سأذهب صـــباحا لجلب المشاحيف"، وفي اليوم التالي فجراً تسلل مغادراً و لم يعد[1]. وربما يكون قـــد استعجل الرحيل ليسد طريق النجدة المحتملة، التي ستصل مع الرجلين الطيبين مـــن جهة، ولينهي مهمته ويسلم نفسه للقوات الحكومية من جهة أخرى.

وبدلاً من وصول مشاحيف حسين ياسين، وصلت أعداد أخرى مـــن الشـــرطة والجيش بكثافة لم يعهدها أبناء تلك المنطقة النائية، المنسية.

سقوط خالد ورفاقه، لكن العراقيين ظلوا يكررون الحلم كلما حانت الفرصة

لم يبق في الجزيرة المحاصرة غير خالد أحمد زكي، محمد حسين السويعدي ـــ أبو سلام ـــ (وهو من قادة حركة حسن سريع الناجين)، عبد الجبـــار علـــي جبـــر

---

* حسين ياسين هو عضو قيادة الحزب الشيوعي المركزية، جاء مع الثوار لمساعدتهم والبقاء معهم لأنه جنوبي ويعرف المنطقة جيدا، ولا أحد يعرف هل كان يعمل كخط مائل (مزدوج) مع الأمن الحكومي قبل مجيئـــه للأهوار؟ أم إن المخابـــرات تمكنت من اصطياده في إحدى جولاته الاستطلاعية في المدينة، واتفقت معه تحت التهديد أن يعمل لحسابها، وهو الأرجح؟

١ ـــ أبو سعيد زنكنة، لقاء مع المؤلف بمدينة يوتوبيري ٢٠٠١.

الشمري (كان واحداً من الهاربين من نفق سجن الحلة فيما بعد)، علي حسين بويجي الساعدي، ومحسن حواس، ومنعثر سوادي (عانى طوال فترة الحصار من جرح متعفن)، عبد الأمير الركابي، وأبو سعيد زنكنة (انتمى، فيما بعد، لحركة ذات تكوين مسلح هي "الجيش الشعبي" التي استشهد مؤسسها معين حسن النهر عندما هوجمت داره من قِبَل مخابرات حكومة البكر، واستشهد قائدها التالي ظافر حسن النهر وخمسة من رِفاقه على يد السلطة ذاتها). وكان معهم أيضاً و لم يحضر المعركة الأخيرة لوجودهم في أمكنة أخرى كل من عبود خلاطي وحسين ياسين وعقيل عبد الكريم حبش الجنابي وموسى عطية (أبو صبري)، لكن هذا الأخير سرعان ما استشهد مع مجموعة عبد الزهرة مزبان في الهور، وقتِل ابنه تعذيباً في معتقل قصر النهاية وماتت زوجته كمداً فانتهت العائلة.

وبينما كانت ترتيبات إدارة المعركة تُتخذ،تسلل إلى جانب الثوار "صبي في حوالي الثالثة عشر من العمر، وهو ابن لأحد الفلاحين القريبين، ودعانا باسم والده للذهاب إلى دارهم لإنقاذ أنفسنا، وكانت معه زوادة تمر أرسلتها معه أمه قائلة: هم الآن جائعين".

لكن الأوان كان قد فات، فلم ينته الصبي من حديثة "حتى بدأنا نسمع أصوات الرمي قادمة من بعيد، تلك الرماية التي ستستمر لساعات تتحرك عقاربها ببطء، وتُرمى بكثافة تعبر عن همجية وعشوائية لا تصدر إلاّ عن خائفين، لكنها نجحت في منع حتى المغامرين من الوصول إلينا"[1].

ومنذ الساعة الحادية عشرة صباح يوم ٣ حزيران ١٩٦٨ حتى السابعة من مساء اليوم نفسه،دارت معركة غير متكافئة، استبسل فيها الثوار الثمانية وأسقطوا طائرة هليكوبتر، وشرب بعضهم خلالها "البول" وعانى خالد أحمد زكي كثيراً[2]، وقتل في المواجهة كل من منعثر سوادي ومحسن حواس وخالد أحمد زكي، وأُعتُقِل الباقون وكانوا جميعهم جرحى أو مغمى عليهم، ماعدا علي حسين الساعدي.

وهكذا سقط قبل الأوان رجال، كانوا قد درسوا معركتهم بدقة متناهية، كما

---

١ ــ أبو سعيد زنكنة، لقاء مع المؤلف في مدينة يوتيبري السويدية عام ٢٠٠١.

٢ ــ ويقول أبو سعيد زنكنة: "رغم كونه مثقفاً ويملك إرادة قوية، لم يكن خالد أحمد زكي يمتلك مواصفات شخصية كاملة للقيادة، فقد كان كثير التسامح وذو قابلية جسمية ضعيفة، وكنا نضطر إلى دوس الأشواك، في حين كان هو يعاني ويتأخر في المسير، خصوصاً في الجزر الممتلئة بالأشواك، حتى اضطر مرة إلى نـزع ملابسه الداخلية ليلف بها رجليه وهو يمر بإحدى الجزر الصغيرة.

كانت كل الظروف مؤاتية كي يتطور فعلهم إلى حد، لا يعرف أحد مداه. لكن بلاغة الأيديولوجية، وتضييع الوقت وضعف الخبرة العسكرية وعزلة الثوار عن الجماهير والتسامح والطيبة الزائدة التي أظهرها ظافر مع أسراه، أسهم في قطع الطريق على الثوار في خانق مرور إجباري من قبل جنود، تزايد عددهم ليبلغ بعد خمسة أيام أكثر من ألفي عسكري نظامي، فلم يتركوا للثوار الثمانية أي مجال للمناورة.

كان التحقيق كله تعذيباً

بعد المعركة الفاصلة نقل المعتقلون وهم في أسوء أحوالهم إلى مركز قضاء الناصرية حيث أشرف على تعذيبهم العقيد مدير شرطة القضاء وكانت وسائله خيالية وغير متوقعة، حتى إنه في أحد مراحل التعذيب أمر شرطته بضربهم "بالمكاوير" في مناطق لا تنكسر فيها العظام.

ثم نُقلوا إلى مركز محافظة الديوانية، وهناك شكلت فوراً محكمة خاصة لمحاكمتهم وسميت "محكمة الطوارئ هـ رقم واحد"، وقيل إن الحرف هـ يرمز إلى الهور، وتتكون هيئتها من ضباط برئاسة عقيد، وتكلف بالتحقيق معهم النقيب "صادق العزاوي وكان التحقيق كله تعذيباً.

وقد حكمت "محكمة خاصة" على الناجين بالإعدام مرتين[١]، لكن تداخلات سياسية محلية، ومن طرف أحزاب شيوعية عالمية حصلت فيما بعد، أدت إلى خفض الأحكام إلى مدد تتراوح بين سنة واحدة وخمس سنوات، ولم تطل هذه المحاكمات حاملي السلاح فقط، بل وكل الذين تعاونوا مع الانتفاضة.

---

١ ــ وكان الشاعر مظفر النواب قد زار المعتقلين في سجن الموقف العام، رغم صدور أمر إلقاء القبض عليه بسبب هروبه من سجن الحلة، أخبرنا بأن هناك مَنْ سرب خبراً يفيد بأن السلطة قررت ما يلي: إما أن تقيم القيادة المركزية للحزب الشيوعي العراقي جبهة مع الحزب الحاكم، أو أنها، أي السلطة، ستقوم بتنفيذ أحكام الإعدام الصادرة بحق معتقلي الأهوار. فرد الجميع دون تردد ليعدموننا ..)وكانت السلطة حينذاك قد انتقلت من بين أيدي حكومة عبد الرحمن عارف إلى الجناح اليميني من البعث).

ومن الطريف أن اعتقال ثوار انتفاضة الهور، كان قد حصل في نهاية حكم عبد الرحمن عارف، ووقع وثيقة إعدامهم هو ورئيس وزرائه طاهر يحيى التكريتي، وعندما وصل المعتقلون إلى السجن العسكري رقم واحد، بعد جولة سريعة في مراكز توقيف أخرى، وجدوا أمامهم طاهر يحيى التكريتي يرزح في السجن، ومعه كامل الطاقم الحكومي الذي ثاروا ضده، ويبدو إن صاحب الأمر استعاض عنهم بطاقم أكثر بأساً وأشد قسوة، لضرب التطلعات الشعبية المتزايدة نحو المشاركة السياسية في توجيه السلطة. (لقاء مع أبو سعيد زنكنه، السويد ٢٠٠١)

أهم آثار انتفاضة الأهوار

ليس من شك بأن واحداً من أهم أسباب نشاط المخابرات البريطانية والأمريكية المكثف في السنتين السابقتين لأنقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨، من أجل تغيير سلطة الرئيس عبد الرحمن عارف الضعيفة والعاجزة عن حماية المؤسسة الديكتاتورية القائمة منذ ما سمي بالاستقلال الوطني عام ١٩٢١، جاءت مباشرة حركة الكفاح المسلح في مهاجمة مراكز السلطة لهدف أولي واضح، هو الاستيلاء على أسلحة من مراكز الشرطة وعلى آلات طابعة من المدارس وعلى مواد أخرى وأموال ضرورية تساعد على خوض معركة لا عودة منها قبل قلب السلطة وإقامة نظام جديد خال من مرض الاستفراد بها من قبل أقلية سياسية. وقد نجحت أجهزة الأمن الغربية في تفويت فرصة خلاص الشعب وتهيئة فرصة جديدة للطغاة، مقابل وعود واضحة بتبني أجندة من أربعة نقاط يقع في مقدمتها القضاء على حركة المعارضة اليسارية لاسيما المسلحة منها[1].

وليمة لأعشاب البحر
بين حيدر حيدر وعبد الأمير الركابي

وضع الكاتب السوري حيدر حيدر بعض أحداث العراق عام ١٩٦٣ في روايته "وليمة لأعشاب البحر"،وخصوصاً أحداث انتفاضة الأهوار عام ١٩٦٨، في موضع بين الأسطورة والواقع. ولعله فعل ذلـك لغرابتها وقربها من الخيال، وبسبب تعذر فهم قسوة ما كان يجري بين جهات سياسية تنتمي لوطن واحد غني وتكفي ثرواته للجميع وتزيد. ويعتقد أبو سعيد زنكنة إن مهيار الباهلي في رواية الكاتب السوري حيدر حيدر هو عبد الأمير الركابي وقد لقنه أخبار وحوادث التمرد في الأهوار، وإن جوانب من ذلك التلقين كانت مشوهة، كما إن الروائي السوري قد نسج عليها بما يتناسب مع ما كان يرتسم في خياله، فمن الصعب أن يتخيل أحدهم أهوار العراق وتقاليد أهلها الذين مازالت بعض جوانب أقدم حضارة في العالم غير منقطعة عنهم وتعيش بينهم. ويقال إنه اعتمد في رؤياه للأهوار العراقية على الفيلم السينمائي الذي أخرجه الأستاذ المخرج قاسم حول عنها.

---

١ ـ حردان التكريتي، مصدر سابق.

حول تطور اللجنة الثورية

بعد اكتشاف السلطة لتنظيم اللجنة الثورية العسكري والمدني الواسع وضربه بقسوة، تصورت أنها نجحت بتفكيكه، غير أن مجموعات من الشباب عسكريين ومدنيين، استمروا يعملون بسرية تحت نفس الاسم، وكان أبرز النشطاء فيها تحسين الشيخلي وعادل شوباف ،وآخرين كثيرين، وربما يكون بينهم خالد الياسري، وفي لبنان استبدل الشيخلي اسم اللجنة الثورية بـ"الشيوعيين الثوريين" وأصدروا جريدة اسمها "الأساس" وكانوا ممثلين بتحسين الشيخلي يرتبطون بعلاقات وطيدة مع الحركة الكردية العراقية، ومع الجبهة الشبعية لتحرير أرمينيا، والجناح اليساري من مجاهدي خلق، ومع اليساريين اليابانيين، وجيش التحرير الشعبي التركي، وتربطهم صلة وثيقة بحركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح) جناح "أبو أياد"، وباتحاد الديمقراطيين العراقيين الذي كان أحد مؤسسيه[١].

أراد تحسين الشيخلي الذي استقر ببيروت اللقاء برمز اللجنة الثورية "سليم الفخري" في لندن، فساعده بذلك عادل مراد بتوفير جواز سفر أردني مزور، ولطيف رشيد، بالحصول على فيزا بريطانية، ولنقص في الاختام، ساعدهم على الصعود إلى الطائرة المتجهة من بيروت إلى لندن "أحمد جمهور" وبعد مشقة تمكن الشيخلي برفقة عادل مراد ولطيف رشيد من اللقاء بلندن بالعقيد المتقاعد سليم الفخري، وبعد تبادل الحديث والمقدمات والنكات، قال الفخري للشيخلي: سمعت عن جريدتكم ونشاطكم، ولكني قد تركت العمل السياسي ولا أشعر برغبة في مثل هذه الأمور.

فوجيء الشيخلي بذلك، وبعد خروجهم رجا تحسين السيخلي صديقه عادل مراد بأن لا يخبر أحداً في بيروت بحديثٍ سليم الفخري المثبط، خصوصاً وأن جماعة الشيخلي كانوا يعتقدون أنهم امتداداً للقائد الرمز سليم الفخري[٢].

ومن ثم ساهم الشيخلي في تأسيس رابطة الديمقراطيين العراقيين المتكونة من جماعة جبار (أبو أيوب) والقيادة المركزية وجماعة تحسين الشيخلي وحزب العمالِ الثوري، ثم بعد ذلك أصبح أحد مؤسسي اتحاد الديمقراطيينِ العراقيين وانتخب عضواً قيادياً فيه. وقد قتلت المخابرات العراقية الشيخلي، قريبا من مقر منظمة التحرير الفلسطينية بكاتم صوت. ويشك كثيرون بأن أحد أنصار الحركة واسمه "أياد"، كان قد وشى بتحسين الشيخلي وأوقعه بكمين.

---

١ ـــ جبار (أبو أيوب) دمشق، تموز ٢٠٠٢.

٢ ـــ أكثر هذه المعلومات حصل عليها المؤلف من عادل مراد عام ٢٠٠٢ بدمشق.

الباب الثالث

قطار الموت



تقويم الحدث وحصد المكاسب

في وقت لاحق، بحدود الساعة العاشرة من نهار ٣ تموز، أي بعد ساعتين تقريباً من اتضاح خط سير المعركة ومتابعة بقايا جيوب الحركة، انعقد بمقر وزارة الدفاع، في ظل أجواء مشحونة بروح الانتقام، اجتماع خاص للمجلس الوطني لقيادة الثورة لأخذ قرارات بشأن حركة الرشيد العسكرية، وكان ذلك التأخر النسبي قد أعطى للفرقاء في الحزب والمجلس فرصة قصيرة لالتقاط الأنفاس وترتيب الأوراق والأولويات، والتفكير الجاد للاستفادة من التمرد الذي فضح ادعاءات القوة والرسوخ والاستقرار.

وعندما دخل عبد السلام عارف الصالة التي عُقِدَ فيها أول اجتماع لمجلس الثورة* بعد حركة معسكر الرشيد، قال لحازم جواد بدلاً من تهنئته على السلامة: "لو كانوا قد قتلوك لخلصوني منك؟.. طالبتموني أنت وصاحبك طالب بالهدنة والشفاعات والآن أكلتوها"، ويقصد وقوعهم في الأسر وأهمية تَفَهُّم دور الجيش في حماية الدولة والحكومة، وذلك لا شك يعزز مكانته لأنه كان حينذاك ألمع ضابط في الجيش العراقي بحكم دوره في ثورة ١٤ تموز وصحبته للزعيم عبد الكريم قاسم.

أما أحمد حسن البكر فكان يحركه صالح مهدي عماش، إذ درج على إطلاعه على ملفات التحقيق التي يأتي بها من مديرية الاستخبارات العسكرية ويرميها أمامه في كل جلسة قائلاً: "ها يابه تريد قتلنا؟ الشيوعيون يعملون خلايا وأنت تشجعهم في السكوت!!".

وفعلاً، وكما تصور حازم جواد، لم يكن عبد السلام عارف مخلصاً لنظام حزب البعث عندما بالغ في حماسه وهو يتسلق الدبابة ويزحف بها نحو معسكر الرشيد، بل كان يخطط لنفسه، لشيء أكبر من ذلك. واتضح زيف عواطفه بأسوأ أشكاله عندما تنكر لحازم جواد وطالب شبيب وهما، بالإضافة لأحمد حسن البكر، قد ساعداه في التغلب على علي صالح السعدي، شاءا ذلك أم أبيا، كما إن علي

---

* ويضم المجلس الوطني لقيادة الثورة أعضاء القيادة القطرية، وأعضاء المكتب العسكري لحزب البعث العربي الاشتراكي الذي نفذ حركة ١٤ رمضان (٨ شباط)، إضافة إلى عبد السلام عارف وطاهر يحيى ورشيد مصلح التكريتي وعبد الغني الراوي وسكرتير المجلس أنور عبد القادر الحديثي.

السعدي وحازم جواد كانا بإرادتهما الحرة ودون ضغط من أية جهة أو هيئة حزبية وراء تعيينه رئيساً للجمهورية في آخر اجتماع للقيادة القطرية سبق ٨ شباط ١٩٦٣..

يقول طالب شبيب في لقاء مع المؤلف بدمشق: "عبر عبد السلام عارف عما بداخله مرة أخرى عندما استتب له الأمر بعد حركة تشرين الثاني ١٩٦٣، فقام باحتجازنا في مطار بغداد، ومنعنا من دخول البلاد، رغم أنه رد على طلبنا بالعودة بالموافقة، لكنه نكث وسفّرنا بعد ست ساعات منفيين للقاهرة. وكم كانت المفاجأة مزعجة عندما علمنا أن عبد السلام عارف كان، خلال تأخيره لنا في مطار بغداد، يناقش مع أركان حكومته أمر اعتقالنا وإعدامنا، فوقف بوجهه كل من طاهر يحيى وصبحي عبد الحميد، وكان الأول رئيساً للوزراء والثاني وزيراً للخارجية.

ويمكن للقارئ أن يلاحظ انتهازية عبد السلام عارف الذي تظاهر قبل مغادرتنا العراق برغبته الشديدة في بقائنا وعدم المغادرة إلى بيروت (وحينذاك كنا أقوياء)، وبين موقفه بعد أن أصبح الحاكم الوحيد للبلاد"[١].

أول نتائج الحركة:
محاولة تغيير ميزان القوة داخل السلطة

البكر: لؤي الأتاسي ليس أفضل من عبد السلام عارف

وخلال الاجتماع، اقترح رئيس الوزراء أحمد حسن البكر وبعض الضباط، تنصيب رئيس الجمهورية عبد السلام عارف رئيساً دائماً للمجلس الوطني لقيادة الثورة، بعد أن كانت دورية؛ "نظراً لبطولته وتفانيه في الدفاع عن الثورة، وتعريض نفسه للخطر" على حد زعم أحمد حسن البكر[٢].

ويرى طالب شبيب أن أحمد حسن البكر استغل أجواء الحماسة الثأرية وكرر في مساء نفس اليوم وفي وزارة الدفاع أيضاً نفس المطالب، "فانبرينا أنا وسعدون

١ــ راجع د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط من حوار المفاهيم إلى حوار الدم.
٢ ــ علي كريم سعيد، م س.

حمادي وعلي صالح السعدي* يوازرنا كل مدنيي الحزب معترضين على الاقتراح، وقلنا ليس هناك أي داع لتغيير قانون مجلس قيادة الثورة لمجرد حادث بسيط تمّ داخل معسكر، وكان يمكن القضاء عليه دون تعريض رئيس الجمهورية نفسه للخطر، وكان يفترض من البدء أن نضع خطة أمنية، ونتفق على المكان الذي يجب أن يتجمع فيه قادة الدولة وأجهزتها"[1].

أما جماعة علي صالح السعدي فقد دافعت في اجتماعات مجلس قيادة الثورة عن دور ويقظة الحرس القومي وقيادته في حماية الثورة، والمنظمات الحزبية والشعبية، وعن دوره في التصدي للتمرد العسكري، وأكدوا بأنه "لولا وجود قوات الحرس القومي ودورها لسقطت ثورة رمضان"[2].

وفي نفس الوقت سعت القيادة القطرية بكامل أعضائها، وكانوا كلهم حتى تلك اللحظة مدنيين، إلى التقليل من أهمية دور عبد السلام عارف في قمع الانتفاضة، مدعية أن ما حدث كان مجرد قلاقل واضطرابات في أحد المعسكرات، ولم يكن من الضروري أن يُعَرِّض الرئيس نفسه للخطر، ناهيك أن يتم بسببها (أي القلاقل والتمرد) تغيير قانون مجلس قيادة الثورة، وكان النظام الداخلي للمجلس الوطني لقيادة الثورة يتضمن أن تكون رئاسة المجلس دورية، غير أن جميع أعضاء القيادة المدنيين رفضوا الاقتراح وأفشلوه، مما ترك راسباً سيئاً في نفس عبد السلام عارف ضد علي السعدي وحازم جواد وطالب شبيب وسعدون حمادي وبقية المدنيين.

كما ألقت القيادة القطرية ممثلة بعلي السعدي وحازم جواد، التي كان الأخير هو المتحدث باسمها، باللائمة على وزارة الدفاع لعدم وضعها خطة أمنية يكون ضمنها ترتيبات وتعليمات مشددة لأعضاء القيادة الحزبية والحكومة والمجلس والحرس بضرورة أن يتجمعوا في مكان محدد يعصمهم من الوقوع في الأسر، ويسمح لهم بممارسة دورهم في إدارة المعارك، وطالبت وزارة الدفاع أن تهتم بوضع الخطة المذكورة مستقبلاً.

ولم تنجح أي من وزارة الدفاع (المسؤولة عن أمن الجيش) وقيادة الحرس القومي

---

* أرى أن طالب شبيب نسي هنا ذكر اسم حازم جواد.

١ ـــ علي كريم سعيد، المصدر السابق.

٢ ـــ مقابلة مع عبد الستار الدوري في لندن عام ٢٠٠٠.

(المسؤولة عن كل جوانب الأمن الداخلي) في تقديم تقريرين مفصلين:

الأول: من وزارة الدفاع عن نواحي الخلل في الأمن العسكري، وأسباب عدم استطاعة الوزارة أخذ المبادرة في إخماد الحركة، فتركت لرئيس الجمهورية عبد السلام عارف الباب مفتوحاً لتحقيق نصر معنوي، دفع بأحمد حسن البكر إلى أن يقترحه في ذلك الاجتماع رئيساً دائماً لمجلس قيادة الثورة.

والثاني: من قيادة الحرس القومي لتقويم الموقف ودراسة الأسباب التي أدت إلى فشل الحرس القومي في كشف وردع المحاولة قبل حصولها. غير أن كلا التقريرين لم يصلا إلى مجلس الثورة عند التئام اجتماعه الثاني بعد الحركة.

ويضيف طالب شبيب: أفرز إهمال الحرس القومي لواجباتهم "نتائج سياسية وأمنية، سمحت لرجال مثل طاهر يحيى التكريتي ورشيد مصلح التكريتي وصالح مهدي عماش باستخدام بعض هيئات التحقيق الخاصة وأشخاص مثل عمار علوش وناظم كزار وصدام التكريتي وسعدون شاكر وخالد طبرة وعبد الكريم الشيخلي وغيرهم، وتزويدهم بأسلحة وأموال كافية لتأجير أوكار غير رسمية للتحقيق، وكانت أخبار الجرائم تصل إلى أسماعنا دون أن نمتلك أدلة ملموسة تدين مرتكبيها". ولذلك"طأطأ قادة الحرس القومي رؤوسهم أمام تساؤلاتنا ونقدنا"[١].

وقد وفّر التأخير في إعداد التقارير سبباً كافياً كي يتحول الاجتماع الأول إلى مجرد مراجعات كلامية غير عملية، باستثناء الاقتراح الذي تقدم به أحمد حسن البكر وأجج مخاوف قيادة الحزب. وكان لابد أن يخرج المجتمعون عن صمتهم، وكاد اقتراح البكر أن يمر وسط سكوت مطبق شقه حازم جواد، الذي كان يجلس مباشرة بين عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر، قائلاً: "سمعنا لحد الآن آراءً حول ذيول حادث معسكر الرشيد، وأطلب تأجيل الاجتماع لنعود فيما بعد وأمامنا اقتراحات مكتوبة لمناقشتها". وكان حازم جواد قد قال للمؤلف في لندن عام ٢٠٠١ أنه بادر لاقتراح ذلك بعد أن "انتظر أن يعترض أحدهم على اقتراح أحمد حسن البكر فلم ينبس أحد بكلمة!".

ورغم أن حازم جواد كان صديقاً ووزيراً لعبد السلام عارف، وهو الذي أقنع علي السعدي بفائدة تنصيبه رئيساً للبلاد باعتباره أحد ضباط ثورة ١٤ تموز

---

١ ــ د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط ص ٢٩٨ ــ ٣٠٠.

الأساسيين، إلا أن الأخير نظر إليه بغضب واضح.. يقول حازم: "**عندما أحس عبد السلام عارف برغبتي في إحباط الاقتراح، غضب واصفر وجهه وشعرت برغبته أن يسحب سلاحه ويرميني. وللتاريخ أقول أنا أيضاً فوجئت بسعدون حمادي وهو أضعف عضو في مجلس قيادة الثورة يؤيدني ويشهد شهادة غير متوقعة قائلاً: " أؤيد اقتراح الرفيق حازم جواد بعقد جلسة أخرى نناقش فيها شكل الحكم بصورة عامة**"، و لم يعلق أحد آخر[1].

وفي لقاء خاص مع "المؤلف" ذكر حازم جواد أنّ سعدون حمادي: "لم يفعل في ذلك الاجتماع أكثر من تأييد ما قاله الآخرون الذين عارضوا مبدأ قيام الحكومة بحملة جديدة ضد الشيوعيين، حملة عشوائية ودون أدلة شخصية". كما أشار (حازم جواد) إلى أن أحمد حسن البكر كان قد أعد لموقفه فيما يتعلق بالنتائج التي يجب أن تترتب على حركة معسكر الرشيد عندما "خطب خطبة مفاجئة مقترحاً فيها تعين عبد السلام عارف رئيساً دائماً لمجلس قيادة الثورة وبالتالي رئيساً دائماً للجمهورية"، خصوصاً عندما قال (أي البكر): "ليس لؤي الأتاسي (في سوريا) أفضل من أبي أحمد (ويقصد عبد السلام عارف)".

وفي الحقيقة فإن حازم جواد لم يقترح تأجيل الاجتماع إلاّ بعد أن أدرك أن عسكريي مجلس الثورة، مثل عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وطاهر يحيى التكريتي وذياب العلكاوي وغيرهم باستثناء منذر الونداوي وعبد الكريم نصرت وربما أنور عبد القادر الحديثي، يتطلعون إلى استغلال الحدث للعودة إلى سياسة التنكيل والقتل خصوصاً ضد الشيوعيين، بعد أن أمكن نسبياً كبح عجلة الملاحقات وآلة التعذيب الجارية في مقرات الحرس القومي المنتشرة في كل مناطق العراق المأهولة، تلك الملاحقات التي تسببت في ارتفاع الأصوات المعارضة للقمع والتعذيب داخل العراق وخارجه، بصورة أحرجت الحكومة، ممثلة بوزارة الخارجية، مع دول ومؤسسات دولية كثيرة، وبشكل خاص مع الاتحاد السوفييتي الذي كانت وزارة الدفاع العراقية بأمس الحاجة لسلاحه بسبب تعثر المفاوضات مع الحركة الكردية.

---

١ ــ لقاء خاص مع حازم جواد بلندن عام ٢٠٠٠. كما يمكن مراجعة كتاب الدكتور علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط، مصدر سابق، ص ٣٠٠ حول بعض تفرعات هذا الأمر.

بين طالب شبيب ومنذر الونداوي

وخلافاً لكثير مما قيل، سألت منذر الونداوي: يتهمك طالب بالوقوع أنت ونائبك نجاد الصافي في الأسر بسهولة أو بسرعة، مما يدلل على الفوضى التي سادت الحرس القومي، فما الذي حصل؟ وهل أنقذتك من الأسر قوات من فوج الحرس الجمهوري بقيادة النقيب حامد الدليمي؟

رد الونداوي: كنت أول من أعتقل من القادة وآخر مَنْ أطلق سراحه، لكني أنا الذي رتبت إنذار الجميع وسبقتهم إلى المعسكر، فإذا كنت قد خُدعْت بالجنود النظاميين و لم أحسبهم ثواراً، فهم أيضاً خُدعوا بي وكذلك خدعوا بالدبابات بالتصفيق وتصوروها صديقة.... و لم يكن أسخف من أن يقف وزيران خارج معسكر الرشيد يتفرجان تائهين، دون أن يميزا الجنود المعادين، ثم يعرفهما جندي تائه أيضاً ويحاول اعتقالهما، ليأتي حامد الدليمي الذي يعرفهما فيترجل ويعتقل الجندي، ولعل الجندي قد تصور في حينه أن حامد الدليمي رفيقه.. في ذلك الجو وبعد ساعات على اعتقالي". يضيف منذر الونداوي: "لو كان طالب لا يحمل غيضاً عليَّ وعلى غيري ممن أسهموا في إسقاطه في الانتخابات الحزبية، لربما التمس لي عذراً بما قاله أبو فراس الحمداني:

وقال أصيحابي الفرار أو الردى   فقلت هما أمران أحلاهما مرُّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني   وحسبي من الأمرين أحلاهما الأسر

شتمني طالب شبيب لعقود ولكنني واجهته في المؤتمر القطري الخامس بحضور الجميع، منهم ستار الدوري وصدام حسين وسعدون حمادي وكثيرين، دحرته وكشفت أكاذيبه، فهل تتوقع منه أن يمدحني حتى وهو عند ربه الآن"[١].

حازم جواد يملي على طارق عزيز بياناً مفصلاً

انتهى الاجتماع الأول لمجلس قيادة الثورة الذي التأم في الساعة العاشرة صباحاً من يوم إخماد تمرد معسكر الرشيد، لكنه لم يتمخض سوى عن إصدار بيان أذاعه راديو بغداد: "قامت فلول الحزب الشيوعي فجر هذا اليوم.. وقد هرع.... إلخ ". وهو في كل الأحوال لا يعطي سوى فكرة أولى عاطفية وحماسية عن ما حصل ذلك

---

١ ــ منذر الونداوي، رسالة خطية... مصدر سابق.

الصباح من صراع دموي، لكنه وعد المستمعين بإذاعة التفاصيل لاحقاً.

ولكن حازم جواد، وعلى أثر اتصال جمال عبد الناصر شخصياً وعدد من القادة العرب ليَطمئنوا....، أرسل إلى طارق عزيز وأملى عليه بياناً لم تـتـم إذاعته إلا في الساعة العاشرة ليلاً، أي بعد انفضاض الاجتماع الثاني للمجلس الوطني الذي انتظر أعضاؤه عبثاً، وصول تقريرين من وزارة الدفاع والقيادة العامة للحرس القومي عن نواحي الخلل الأمني، من أجل الخروج بتقويم صحيح للموقف ودراسة أسباب فشل الحرس القومي وأجهزة الأمن في كشف وردع المحاولة الأخيرة قبل وقوعها. غير أن كلا التقريرين لم يصلا عند انعقاد الاجتماع، أما مكان الاجتماع فقد كان في وزارة الدفاع، بدلاً من القصر الجمهوري، لأن المعلومات عن حركة التمـرد العسكرية كانت ما تزال ترد تباعاً إلى الوزارة من هيئة التحقيق العسكرية.

ومعلوم أن رغبة الحكومة في المحافظة على السلطة بيد حزب واحد ولون واحد وقفت وراء خوفها الشديد من المنافسين السياسيين، وجعلت هاجس حكومة ٨ شباط الرئيسي أمنياً بالدرجة الأولى، وبدلاً من الانفتاح على الشعب وهيئاته الاجتماعية والمدنية، تغلب عليها شعور المحاصَرْ الذي يدافع عن نفسه، ذلك الشعور الذي لازمها منذ قيامها.

وتأكيداً على ذلك، حدثنا أحمد العزاوي عام ١٩٧١ بأنهم في القيادة العامة للحرس القومي وقيادة فرع بغداد بعد أن تم لهم كسر تنظيم الحزب الشيوعي، وأصبحت بين أيديهم شبكة تنظيماته بتفرعاتها الرئيسية، استلموا تقريراً عن وجود خلايا حزبية شيوعية قليلة العدد تتكون من شباب أعمارهم صغيرة، أُطلق عليها اسم "التنظيم الجديد"*، وذلك الأمر:"جعلنا جميعاً بما في ذلك القصر الجمهوري في حالة

---

* قام التنظيم الجديد كمحاولة أولى لبناء خلايا من شباب غير معروفين، لم تصلهم الاعترافات، وقد حصل ذلك بمبادرة وتوجيه من المركز (الحيدري والعبلي)، وأيضاً بمبادرات واجتهادات فردية تعبيراً عن عدم اعتراف الشباب بالهزيمة القاصمة، مثل التنظيم الذي أسسه إبـراهيم محمد علي وضم إليه خلايا كثيرة بينها خلية حافظ لفتة وفاضل الجابجي ومحمد عريبي، وخلية محمد كريم مراد، وامتد أحياناً إلى نواحي بغداد المختلفة، وأحياناً إلى خارج بغداد، مما أوقع أجهزة التحقيق في "حيص بيص" كما إن كثيرين ممن احتوتهم تلك الخلايا مازالوا حتى اليوم لا يدرون هل كانوا حينئذ منتظمين مع مركز الحزب أم معمنظمة إبـراهيم محمد علي التي سُحِقت، أم لخلية أخرى ليست على صلّة بالطرفين.

استنفار، و لم تهدأ إلاّ بعد وضع اليد على تلك الخلايا"[١].

وكان العزاوي يريد بحديثه أن يقول كيف تشعر السلطة (أية سلطة ديكتاتورية) بالرعب والارتباك من مجرد وجود معارضة سرية حتى لو لم تكن مؤثرة؟ كما أراد أن يقول: إنّ واحداً من أهم أسباب تصاعد الهاجس الأمني لدى بعض الحكومات الديكتاتورية هو خوفها واستمرار تورطها، بعد المرحلة الأولى لتثبيت السلطة، في استخدام وسائل غير قانونية ضد المعارضة السياسية الداخلية في بلدانها.

وذلك ينسحب بصورة خاصة على عراق ١٩٦٣ الذي تسببت ممارسات حكومته، بردة فعل شعبية واسعة إزاء الأعمال والممارسات الانتقامية التي حصلت في بغداد وبعض المدن، خصوصاً وأن الناس كعادتهم أخذوا يضخمون أخبار المعتقلات و (قصر النهاية)، ويروون قصصاً خيالية عن قسوة لجان التحقيق التي تُحْكَم وتُدار بإرادة سياسية وليست قانونية، مما تسبب بطغيان حالة حذر سلبية متبادلة بين المواطنين والدولة بمرافقها المختلفة التي بدأت تتحول تدريجياً إلى مؤسسات حزبية، وبدأ كلا الطرفين (المواطنون أو المجتمع من جهة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى) يشعران بقلق وعدم ارتياح.

وقد قابلَتْ السلطة المهيمنة على الدولة، في أحيان كثيرة، حذر وسلبية المجتمع وهيئاته المدنية، بردود فعل عشوائية وعنيفة بهدف أن تعطي لنفسها المجال لالتقاط الأنفاس وترتيب الأوراق، ودراسة أمر توزيع مرافق الدولة بين الشركاء البعثيين من جهة، وحلفائهم القوميين العرب والناصريين ملائمة كل ذلك مع المطالب الموعودة المستعجَلة للحركة القومية الكردية في الشمال من جهة أخرى.

لكن طموحات السلطة وشعاراتها الكبيرة، لم تأخذ من قيادتها ولا من جميع الأطراف المتحالفة معها أي اهتمام أو أي متسع للتفكير، فقد فرضت طريقة التعامل في الأيام الأولى لحركة ٨ شباط طريقتها ومخاوفها، وصار كل طرف، بما في ذلك حلفاء السلطة الحركيين والناصريين يفكر بمستقبله السياسي وبحصة من مراكز القوة تحميه داخل وسط يميل إلى الشراسة، والحكم فيه يستند إلى القوة وليس إلى القانون، أو بطريقة إما قاتلٌ أو مقتول!!؟

---

١ ــ د.علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط – من حوار المفاهيم...، دار الكنوز الأدبية بيروت ١٩٩٩ ص ٢٩٣.

وأمام كل ذلك فهل ستخوض (السلطة) معاركها على مراحل؟ أم هي كما تَصوَّر كثيرون من قادتها الموجودين في جناحيها المدني والعسكري، قادرة على سحق جميع خصومها دفعةً واحدةً؟ وكان الجواب قد كشف عن نفسه سريعاً عبر التآكل من الداخل على شكل صراع مكشوف ضد الناصريين وحركة القوميين العرب الذين تدعمهم بصورة غير مباشرة آلة جمال عبد الناصر الإعلامية والسياسية الضخمة المنتشرة في أنحاء كثيرة من الوطن العربي.

ولما كانت سلطة حزب البعث فتية، ولا تملك بعيداً عن حلفائها القوميين، ما يكفي من الكوادر لتحكم العراق على طريقتها عام ١٩٦٣ (أي الهيمنة التامة على البلاد من شماله حتى جنوبه)، فقد أدى صراعها السياسي على السلطة ضد الناصريين والقوميين العرب ثم الكرد الذي تطور إلى حرب مندلعة في كردستان العراق، إلى انشقاق حكومي جرَّ أولاً إلى تكشف نقاط ضعف كثيرة لم تكن ظاهرة خلال الاتحاد الواسع للأطراف في مواجهة جبروت وهيمنة الحزب الشيوعي على الشارع العراقي وانفراده نسبياً به، وجر ثانياً إلى تصدع وحدة قيادة حزب البعث.

وفي مقابل كل ذلك لم تكن السلطة حتى ذلك الحين بقادرة على إعلان نهاية الخطر الشيوعي عليها، فقد كان واضحاً عدم استكانة الشيوعيين واستمرار محاولات التمرد، وإعادة بناء هيكل حزبهم الكبير المقطع الأوصال. كما أن بروزهم كقوة من جديد كان أمراً ممكناً رغم عدم حصوله بالفعل، إذ يمكن حينذاك تقسيم كوادره المتمرسين إلى ثلاثة: الأول جرت وتمت تصفيته وتغييبه، والثاني امتلأت به سجون العراق، والثالث تائه يبحث عن صلة تربطه بقيادة الحزب الشيوعي، لأن السلطة لم تترك له منفذاً آخر: فإما النهاية بالتخلي عن مبادئه "الهدامة"!! أو الموت قتلاً؟ وهذا القسم كان وحده قادراً على تشكيل خطر جدي إذا ما التقط أنفاسه وأعاد تنظيم نفسه، فلم تكن مشكلة الشيوعيين مع العدد بل مع الإرادة، وهاهي السلطة تضعهم أمام خطر الوجود، وتعطيهم حوافز للإرادة، ولذلك كما أرى، فكر جنود حسن سريع على طريقة "إما الآن وإلاّ فلا".

يرى عبد الستار الدوري أن الجو العام داخل السلطة قبيل قيام حركة حسن سريع كان مستنفراً، بل إن الشيوعيين رغم الضربة التي تلقوها فإن السلطة بقيت

تعتبـرهم هاجسها الأول والخطر الوحيد المحتمل[1].

وفي تقديري فإن المفاجأة التي واجهت الحكومة لم تكن فقط في قيام حركة تمرد واسعة دون أن تعلم بها الأجهزة الأمنية، بل كانت في حجم ومستوى رد الفعل من قبل عدد محدود من خصومها السياسيين الشيوعيين، فكيف إذا ما أحسنوا تنظـيم أنفسهم وجمعوا شملهم في عمل واسع ضد السلطة وبمستوى إرادة حركة معسـكر الرشيد.

وهنا أعود لذاكرة طالب شبيب الذي قال: إن صالح مهدي عماش كان يـرى قبل ٨ شباط أن ردة فعل الشيوعيين ستكون عشرات آلاف المتظاهرين المسـتعدين لحمل السلاح ضد الثورة البعثية المزمعة، في حين وجد حازم جواد أن ردود فعـل الشيوعيين لن تكون أكثر من إصدار بيانـات وتحميلـها مطالـب أو تحـذيرات وتهديدات.

وقد ثبتت صحة رأي حازم جواد الذي كان تركيزه لدراسة الواقـع شـديداً ومتعمقاً حين أدرك ضعف إرادة خصومه الشيوعيين، رغم كثرتهم، ولكن ذلك ظلٍ صحيحاً حتى جاءت حركة ٣ تموز ١٩٦٣ لتتغير النظرة ويأخذ النـزاع شـكلاً آخر.

المطالبة بإعدام المعتقلين بدلاً من الرئاسة الدائمة

منذ بداية الاجتماع الثاني لمجلس قيادة الثورة المنعقد مساء يوم إخماد الحركـة، طالَبَ عبد السلام عارف بإعدام كل الضـباط والمـدنيين المعـتقلين في السـجن العسكري رقم واحد، ويقدَّر عددهم بأكثر من ألف ضابط.

يقول هاني الفكيكي في كتابه " أوكار الهزيمة": مباشرة في صباح اليوم الثاني وبعد حركة حسن سريع أو في يوم الحركة نفسه، مساء ٣ تموز اجتمع مجلس قيادة الثورة، وكانت المفاجأة "إصرار العسكريين، وفي مقدمتهم عارف والبكر، على إعدام ٤٥٠

١ ــ عبد الستار الدوري، لقاء خاص مع المؤلف، لندن ٢٠٠٠.

ضابطاً قاسمياً وشيوعياً بذريعة تواطئهم مع حسن سريع ورفاقه، ومشاركتهم في الحركة المسلحة ضد الثورة، فضلاً عن أن بقاءهم على قيد الحياة سيغري الآخرون بالتآمر"[1].

وكانت تلك الدعوة، دعوة مندفعة وغريبة للقتل الجماعي صادرة عن شدة توتر الروح الثأرية التي يغيب عنها التبصر والحكمة، ويمكن استغلالها لتمرير وتنفيذ أية قرارات أو إجراءات بما فيها الإعدام أو القتل الجماعي، لكن المبالغة والعصبية الشديدة التي ظهرت على عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وعبد الغني الراوي دفعت القادة البعثيين المدنيين الموجودين في ذلك الاجتماع ويساندهم قائد الحرس القومي منذر الونداوي وسكرتير مجلس الثورة المقدم أنور عبد القادر الحديثي إلى التخوف والحذر، والسعي للحيلولة دون تحقيق الرغبات الدموية الخاصة التي استبدت ببعض الضباط لأسباب لا تأخذ بنظر الاعتبار سمعة ومستقبل السلطة، التي سيسجل التاريخ كل ممارساتها بأسم حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان عدد كبير من منتسبيه قد بدءوا يتساءلون عن جدوى الحرب السياسية الداخلية المعلنة ضد أطراف وطنية ينتسب لها الأخوة وأبناء العم والجيران وزملاء الدراسة.

ولذلك بذل بعض أعضاء قيادة حزب البعث المدنيين جهداً كبيراً لتجنب المزيد من عمليات القتل الجارية، فحاولوا إقناع أحمد حسن البكر باعتباره مركز الثقل الآخر (العسكري) المعادل لمركز علي صالح السعدي وحازم جواد وبقية أعضاء القيادة الحزبية، في حين لم يعطوا اهتماماً يذكر لهياج عبد السلام عارف ووعيده، فقد كان رئيساً شكلياً ومؤقتاً للبلاد ولمجلس الثورة، إذ كان يشرف على أعماله ويبلغه بإرادة القيادة الحزبية حازم جواد وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية. أما عبد الغني الراوي فلم يعن شيئاً في ميزان القوة غير تعاطف عبد السلام وأحمد حسن البكر مع آرائه، بل ربما يكون البكر قد طبخ العملية أو التمثيلية كلها مع عبد السلام عارف، واتفقا أن يتحمل عبد الغني الراوي تفجير الموقف بسبب ما عُرِف عنه من بساطة وعفوية واندفاع.

وكان واضحاً أن عبد السلام عارف ومن ورائه أحمد حسن البكر وبعض ضباط المجلس الوطني لقيادة الثورة، لم يكونوا ليرضوا أن يخرجوا من تلك الأزمة، التي

---

١ ــ هاني الفكيكي، أوكار الهزيمة، دار الساقي لندن ١٩٩٣، ص ٢٧٩.

فضحت قدرات وزارة الدفاع ومؤسسة الحرس القومي، بلا مكسب سياسي أو إداري كبير، إذ لم يستسلم الضباط للأمر حتى بعد فشل اقتراح تنصيب عبد السلام عارف رئيساً دائماً لمجلس الثورة، ولذلك انصب سعيهم للخروج بمكسب واضح، فأصرّ كل من البكر وعبد السلام عارف على أهمية تصفية الضباط الشيوعيين (وهم الأكثرية الساحقة) والقاسميين، فضلاً عن الكرد (سياسيين وعسكريين) المحسوبين على الحزب الديمقراطي الكردستاني الموجودين في سجن الرشيد العسكري رقم واحد، من أجل استقرار السلطة.

ومرة أخرى يعترض المدنيون، فيدخل المجتمعون في نقاش حاد، هدد عارف خلاله بترك الإجتماع " وصب امتعاضه وغضبه على سعدون حمادي ومحسن الشيخ راضي متسائلاً: عمّا سيفعله الشيوعيون بهما لو قدّر لهم النجاح، ثم أجاب: السجن لأشهر معدودة، في حين إن قتله هو ورفاقه محقق"[١].

ومع كل ذلك فقد أحبطت قيادة حزب البعث مشروعي عارف في الرئاسة الدائمة وإعدام السجناء، ووصلت معه إلى حل وسط، هو المحافظة على قرار كانت السلطة قد اتخذته سابقاً، أي قبل قيام حركة معسكر الرشيد، بإرسال الضباط المعتقلين بعيداً عن مركز السلطة في بغداد، إلى سجن نقرة السلمان الصحراوي، على أن يُـنفَذ هناك حكم الإعدام بعدد محدود منهم!!!

وفي هذا السياق يقول حازم جواد: بعد أن أفشلنا خطة تعيين عبد السلام عارف رئيساً دائماً لمجلس قيادة الثورة، قررنا:

أولاً: تشكيل لجنة تحقيق رسمية تنظر في أسباب ما حدث داخل معسكر الرشيد.

ثانياً: أن تقوم وزارة الدفاع بتشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة المشاركين والمتهمين في التمرد. وقد تشكلت فعلاً من الضباط؛ العقيد شاكر مدحت السعود والمقدم الركن حسن مصطفى النقيب وضابط آخر معروف*.

ثالثاً: أن تذاع وقائع أو أخبار المحاكمة، علناً قدر المستطاع، عبر وسائل الإعلام والنشر التي كانت جميعها حكومية أو شبه حكومية.

---

١ ــ هاني الفكيكي، أوكار الهزيمة، م س، ص ٢٧٩.

* هو الرئيس أول أو المقدم أحمد أبو الجبن، وكان انتهازياً، وهو غير القائد البعثي المعروف أحمد العزاوي، ويذكر إنه بذل جهوداً لتمييز نفسه عن أحمد العزاوي الملقب "أحمد أبو الجبن أيضاً"، فالأول كان بعد حركة ١٨ تشرين الثاني ٦٣ يلح ليؤكد إن العزاوي ليس (أحمد أبو الجبن، بل أحمد بن أبو الجبن) وحين سمع منذر الونداوي بالأمر علق ضاحكاً: "كلها مشتقات الحليب"...

ويضيف الأستاذ حازم جواد: "كنا قد وضعنا تلك الشروط لقطع الطريق على أية ردود فعل فردية ضد المعتقلين، وحتى لا تتكرر أحداث الانتقام التي حصلت في الأيام الأولى التالية لثورة رمضان. لكن الضباط سرعان ما نكثوا، وقد وردتنا معلومات بأنهم تظاهروا بالموافقة على قراراتنا وأضمروا شيئاً آخر، وبذلك لعبوا لعبتهم وحصلوا على موافقتنا في أن يأخذوا على عاتقهم تنفيذ تلك القرارات، باعتبار أن التمرد كان عسكرياً، ومن شأن المؤسسة العسكريةأن تنفذ أوامر القيادة السياسية بشأن العسكريين المتمردين.

كما قال: إن عسكريي مجلس الثورة كانوا هم أيضاً الذين خططوا لطريقة تنفيذ إرسال الضباط والسياسيين المعتقلين بقطار الحمولة، وكنا قد سمعنا عن رحلة القطار مثل الآخرين وسعينا لإيقافها[1].

وفي مناسبة أخرى وفي نفس السياق أخبرني حازم جواد قائلاً: " أنا أتنصل من حادثة القطار، لعدم معرفتي بأمرها، كما لم أحضر و لم أقترب من هيئة التحقيق الخاصة بأحداث معسكر الرشيد، وعندما استُدعيت بخطاب رسمي لتشخيص بعض المتهمين ذهبت أنا وطالب شبيب واستقبلَنا المقدم هادي خماس رئيس لجنة التحقيق ونائب مدير الاستخبارات العسكرية، ولا أتذكر أننا تمكنّا من تشخيص أحد، لأن الأحداث داخل معسكر الرشيد كانت قد مرَّت بسرعة". ويضيف "ثم وصلني كتاب رسمي آخر، ووصل مثله لطالب شبيب، من المحكمة العسكرية للإدلاء بشهادتي باعتباري أحد الذين أُسِروا من قبل المتمردين. فأجبت بخطاب رسمي (توجد نسخة من كليهما في أرشيف وزارة الداخلية) اعتذرت فيه عن الحضور، وعن الإدلاء بشهادتي، وقلت فيه: لا أُضيف شيئاً على البيان الرسمي الذي أذاعته الحكومة، وأنا متنازل عن حقي الشخصي الكامل. و لم أذهب للشهادة، وأظن أن طالب شبيب فعل الشيء ذاته و لم يذهب للمحكمة. تنازلت عن حقي لأني اعتبرت القضية سياسية وليست شخصية، مثلها مثل قضية مقاومة الشيوعيين يوم ٨ شباط٦٣، وليس في الأمر ثارات شخصية. وأعتقد أن ما قمت به هو منطق عام لكل الثوريين بعد أن تهدأ نيران الثورات، وإلا سيكون ما أدعيه زيفاً. ولذلك لا أجد أي مسوغ لمطالبة ثوار ١٤ تموز ١٩٥٨ بدم نوري السعيد، كما لم يكن موقفي تعاطفاً مع

---

١ ـــ حازم جواد، لقاء خاص في لندن سنة ٢٠٠٠.

حسن سريع ولا مع أبي سلام (محمد حبيب) أو صباح ليلية. وأعترف أني تأثرت كثيراً بما حصل في معسكر الرشيد لأني كنت شخصياً قد بذلت جهداً مضنياً في المجلس الوطني لقيادة الثورة أو الهيئات القيادية الأخرى لإيقاف الحملة ضد الشيوعيين"[١].

عبد الغني الراوي يقتحم اجتماع مجلس الثورة بقصاصة ورق

وبينما كان النقاش يدور بين المدنيين والعسكريين حول مصير الضباط المعتقلين اقتحم العميد عبد الغني الراوي القاعة وقدَّم لعبد السلام عارف وريقات حول فتاوى مزعومة لعلماء الدين السنة والشيعة بجواز قتل الشيوعيين*. فما أن اطلع عارف عليها حتى هتف: ماذا تريدون أكثر من ذلك؟ هاهم الشيخ قاسم القيسي، والمفتي نجم الدين الواعظ، والسيد محسن الحكيم قد أفتوا بجواز قتل الشيوعيين فماذا تنتظرون بعد؟

فتساءل محسن الشيخ راضي عن مبرر وجود مجلس قيادة الثورة والحاجة

---

١ ـ حازم جواد، لقاء شخصي، عام ٢٠٠٠.

*لم تتضمن الفتاوى الصادرة من طرف المراجع الإسلاميين، وبشكل خاص فتوى السيد الحكيم، أية دعوة لقتل أو سجن وتعذيب الشيوعيين، بل تحدثت عن الشيوعية كمذهب سياسي وفلسفي مناهض للدين وكافراً به، وقالت عنه إنه " كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد"، أي أنها تركت الباب مفتوحاً لكي يكون الشيوعي مروجاً فقط، فالفاصلة " أو" جاءت مخففة للحكم إلى أبعد الحدود [فمن معاني "أو" لغةً: الشك والابهام والتخيير والتقسيم، وإنما تتم معرفة ذلك من سياق الكلام]، مما يدلل على عمق تفكير وتبصر الإمام بما قد ينجم عن إطلاق الحكم من نتائج. فلقد كانت تهمة الترويج واضحة بالنسبة للعالم، إذ كان الشيوعيون قد أسهموا بترجمة ونسخ كتب ومقالات وحوارات ساعدت في خلق موجة تعتبر الدين معرقلاً للمسيرة "التقدمية" للشعوب، وفي نشر الفكرة الثورية التي تعتبره رجعياً ويجب اضطهاد فكرته من أجل إنمائها عندما تتسنى لهم السلطة أو الفرصة الممكنة. وبذلك تقابلت الفكرتان الإلغاء والتحريم، ولكن لم يذهب الطرفان الشيوعي والإسلامي إلى إجازة القتل، وإلا فلم يكن يعوز السيد فهم الحالة ليحكم على الشيوعي بالمرتد لكنه لم يفعل، و لم يكن يقصد أكثر من استخدام أسلحته الفقهية لمواجهة فلسفة منافسة وقوية فكريا، فكان أشبه بحوار فكري ساخن بين معسكرين، أراد القساة والمغرضون الذين تهمهم مصالحهم الضيقة أكثر مما تهمهم وحدة المجتمع العراقي، تحويل موضوع الحوار إلى غطاء لارتكاب جرائم بشعة، وأكبر دليل على ذلك عدم ارتكاب أية جرائم بهذا الخصوص في مدينتي النجف وكربلاء رغم إكتظاظهما بالوفود المؤيدة للفتوى.

لاستمراره إذا كان هؤلاء هم أصحاب القرار في البلد؟[1]

ويرى أغلب من التقيت هم من أعضاء مجلس الثورة، أن الأمر كان أشبه بمشهد مسرحي، يصطنع فيه المتحدثون الغضب والحماس، أعده كل من أحمد حسن البكر وعبد السلام عارف وعبد الغني الراوي، خاصة وأن الأخيرين كانا يريان أن ما حصل في ٨ شباط ١٩٦٣ كان نصراً للإيمان على الكفر والإلحاد، ولذلك أحضرا معهما قصاصة ورقية قالا إنها فتاوى صادرة عن علماء الدين الإسلامي الشيعة والسنة، ضد الشيوعية، و بجواز قتل الشيوعيين، واحتجا بها داخل الاجتماع من أجل ترجيح رأيهما والضغط لكسب الموافقة على إقامة المجزرة المحتملة[2].

---

١ ـــ هاني الفكيكي، أوكار الهزيمة، المعطيات السابقة، ص ٢٧٩.

٢ ـــ لا أملك الآن أي نص لعالم دين مسلم سُني حول الشيوعية والشيوعيين ولكن موقفهم فيما أرى لا يختلف عن الفتوى التي أعطاها آية الله السيد محسن الحكيم في ١٩٦١/٠٢/٢٠ وهي: " بسم الله الرحمن الرحيم، ولله الحمد. لا يجوز الانتماء إلى الحزب الشيوعي فإن ذلك كفر وإلحاد أو ترويج للكفر والإلحاد. أعاذكم الله وجميع المسلمين عن ذلك، وزادكم إيماناً وتسليماً، والسلام عليكم وبركاته". ويلاحظ أن الفتوى لا تتعلق بإجازة القتل بل بعدم جواز الانتماء للشيوعية، التي كانت تعتبر الإلحاد علماً، كما تعتبر الدين قضية إنسانية (غير ربانية) أصبحت رجعية ويجب إسقاطها فكرياً وعملياً، إن أمكن ذلك. وكانت هذه الفكرة قد انتقلت مع كثير من السخرية والتندر إلى الرعاع الذين بسّطوها كثيراً، وأججوا التنافس والصراع الذي كان قد جرى في البداية على مستوى نظري. ويذكر أن العالم الشاب السيد محمد باقر الصدر، كان حينذاك قد بدأ بكتابة اقتصادنا وفلسفتنا واستشهد قبل إكمال "مجتمعنا"، وفي ثلاثيته تلك عقد العزم على مناقشة نظرية، غير مسلحة، للفكر الاقتصادي والفلسفي الماركسي، ليضع رؤية من المؤمل اعتمادها لدى الحوزات الدينية حول الأمر. لكن روح الصراع تطورت بشدة وكانت أسرع و لم تنتظر، وظهر الشيوعيون وكأنهم عازمون على حسم المعركة لصالحهم، فاستيقظت المرجعية لتقوم بالخطوة الأولى التي شكلت بداية ما اصطلح على تسميته فيما بعد بالصحوة الإسلامية الجديدة، وكان من الطبيعي على عالم الدين (المرجع الأعلى المسؤول) الذي يعتبره عشرات الملايين من مقلديه في العالَم إمامهم، أن يدافع عن بيضة دينه، فكانت الفتوى؛ وهي في كل الأحوال ليست أقسى من رأي الشيوعية (السوفيتية اللينينية) بالدين، التي تعتبر اضطهاد الثقافة الدينية والقضاء عليها أمراً يجب أن ينجز في المرحلة الأولى من بناء الشيوعية (الاشتراكية). وإذا أضفنا سلوك الرعاع والانتهازيين، خصوصاً في مدن النجف الأشرف والأرياف المحيطة بها وبالديوانية وكربلاء وبعض مناطق بغداد مثل الكرخ والكاظمية والأعظمية ومدن كثيرة أخرى الذين أساءوا شخصياً للسيد الحكيم وللعديد من المراجع، فضلا عن تصور خاطئ لازم كثيراً من السياسيين بإمكانية الاصطدام بدين الشعب، مما شتت قواهم في المعركة السياسية لاستكمال الاستقلال الوطني وتطوير الاقتصاد والمجتمع، خصوصاً من قبل قوة سياسية (الحزب الشيوعي) وضعت لنفسها، على طول الخط، عدوا واحداً هو الاستعمار وأذنابه المحليين، كل ذلك أكد فهماً خشناً للعلمانية وساعد على صدور الفتوى التي لم تتحدث عن القتل و لم تدعُ إليه إطلاقاً، وحتى لو فرضنا أن عبد الغني الراوي استنتج منها دعوة للعقاب، فهل ←

انفض الاجتماع بالموافقة على كل شيء بما في ذلك: أن يعالج العسكريون التعامل مع ذيول حركة معسكر الرشيد. ولم يكن أحد من الحاضرين في اجتماع مجلس الثورة يتصور أن مشكلة الضباط المعتقلين في معسكر الرشيد لا تقع ضمن دائرة ذيول التمرد العسكري. لكن عدداً من أعضاء القيادة القطرية ومجلس قيادة الثورة لم ييئسوا وكان بينهم طالب شبيب وأنور عبدالقادر الحديثي وآخرون، ظلوا ساهرين مع أحمد حسن البكر لعله يقتنع بالتراجع عن فكرة إعدام الضباط في بغداد، وبهذا العدد الكبير.

وبعد نقاش وجدال دامَ حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة وافق أحمد حسن البكر (الذي لم يكن حتى ذلك الحين عضواً في القيادة القطرية لحزب البعث) على إلغاء فكرة إعدام الجميع، بشرط موافقة القيادة القطرية على أن يسافر عبد الغني الراوي، بعد حين، إلى معتقل نقرة السلمان للإشراف على إعدام عدد محدود من الضباط، فأعطوه الموافقة، بشرط أن يجري اختيار الضباط الذين سيتم إعدامهم بأسمائهم من قبل مجلس الثورة ومن بين معتقلي السجن رقم واحد، بحيث لا يتجاوز عددهم الثلاثين ضابطاً بعد نقلهم إلى السجن الصحراوي البعيد.

وكانت هذه الشروط قد وضعت منعاً لأية محاولة انتقام، قد يتم تحت ستارها، من ضباط آخرين معتقلين في سجون أخرى أو تحويل الانتقاء إلى عملية تفريغ أحقاد لا علاقة لها بإجراءات السلطة.

وبعد تعديل البكر لموقفه، اضطر عبد السلام عارف إلى تغيير اقتراحه من قتل الجميع إلى إعدام ١٥٠، ثم تراجع إلى ثلاثين ضابطاً فقط!! أو ترك الأمر كله لأصحاب الشأن أي قيادة الجيش.

ورغم ذلك نجح المتحفظون على سياسة القتل العشوائي في عرقلة وإرباك المعسكر الآخر، الذي لم يكن مدركاً للآثار الغائرة التي ستتركها تلك السياسة على مستقبل التعايش السياسي والاجتماعي في العراق لسنين طويلة.

ومن حسن حظ المعتقلين، أن عبد الغني الراوي رفض تنفيذ الأمر بإعدام ثلاثين منهم، لبخسه عددهم القليل، وبالتالي تخليه عن متابعة فكرة اللحاق بالسجناء بعد وصولهم سجن نقرة السلمان!!

• يحق لأي شخص أو حق لاجتماع هيئة سياسية حاكمة تطبيق العقيدة بلا محاكمة وبصورة عشوائية؟ وفي تقديري أن عبد الغني الراوي لو تم له ما أراد لكان هو المجرم وليس غيره، ومن حظه الطيب إن رغبته لم تتحقق.

وإذا كنا نفهم هنا بسهولة دوافع عبد السلام عارف الدموية ضد الشيوعيين بسبب موقفهم منه بعد ثورة ١٤ تموز ٥٨ مباشرة، فمن الصعوبة فهم الدوافع الحقيقية للعميد الركن عبد الغني الراوي، الذي لم يكن من طراز المسؤولين الفاسدين أو المستفيدين مادياً على المستوى الشخصي، فهل وقفت وراء عصبيته المبالغة أسباب أيديولوجية، أم دينية؟

والغريب جداً في أمر العميد الركن عبد الغني الراوي، إصراره على رغبة القتل حتى بعد أن ولى هارباً ولاجئاً سياسياً لدى شاه إيران، الشاه الذي كان يناصب فكرة الوحدة العربية أشد العداوة. ففي مقابلة مباشرة مع إذاعة الأهواز أيام شاه إيران عام ١٩٧٤ قال إنه: عندما بُلِّغَ بتنفيذ خطة الإعدام فرح جداً "حد الطيران"، (على حد تعبيره هو) ... كما عَبَر عن أسفه لعدم تمكينه عام١٩٦٣ من تنفيذ خطة إعدام مئات المعتقلين[1].

وكما قلنا سابقاً فقد كانت الخطة ستشمل جميع الضباط والسياسيين الشيوعيين المعتقلين في سجن رقم واحد، وبسبب تعديل أحمد حسن البكر لموقفه المؤيد للقتل الجماعي، اضطر عبد السلام عارف إلى التراجع وتبعه في ذلك، مرغماً، عبد الغني الراوي، الذي رغم بساطته وعصبيته تمكن أن يحتل عدة مراكز سامية في الحكومات العراقية التالية لحكومة ثورة تموز ١٩٥٨، بينها منصب نائب رئيس وزراء العراق. ولا ندري كيف تحكم العصبية الشديدة بلداً عريقاً معقد التكوين مثل العراق، تتشارك فيه القوميتان العربية والكردية فضلاً عن تشكيلة قومياتوألوان ومذاهب دينية وسياسية تزهو بها خريطته لوناً وتنوعاً غنياً أسهم في إشراقة الأمة الإسلامية والأمة العربية قروناً وأهدى الأرض العراقية حضارات إنسانية عالمية.

المسلم لا يبيح هذه الكمية من الدماء

ونقلاً عن طالب شبيب فقد قضى كل من علي صالح السعدي وحازم جواد وطالب شبيب وأنور الحديثي وآخرون ليلتهم مع أحمد حسن البكر في نقاش صعب

---

١ ـ ويمكن مراجعة تصريحات عبد الغني الراوي لإذاعة الأهواز لدى الباحث عامر بدر حسون، قطار الموت، مجلة الثقافة الجديدة، عدد تموز ١٩٨١.

لإقناعه بإيقاف المجزرة المحتملة، وخاطبه أنور عبد القادر الحديثي أكثر من مرة مداعباً عواطفه للتأثير عليه قائلاً: "إن لديك أطفالاً وهؤلاء السجناء كلهم لهم أطفال وعائلات، فكيف ستتمكن من أن تنام الليل بعد أن تأمر بارتكاب مذبحة من هذا النوع؟" ثم خاطبه ثانية مستغلاً مظاهر التدين التي يحرص البكر على الظهور بها متسائلاً ومذكراً: بما سيكون عليه موقفه باعتباره رجلاً مسلماً؟ وكيف يستطيع استباحة كل هذه الكمية من الدماء؟

وقال الحاضرون لأحمد حسن البكر: "إن التمرد لم يحصل بناء على اتفاق بين قيادة الحزب الشيوعي أو الضباط المعتقلين داخل السجن من جهة والجنود المتمردين في معسكر الرشيد من جهة أخرى، بل تؤكد كل المعلومات التي توفرت لدى لجنة التحقيق أنهم مستقلون تماماً في عملهم وتحركهم، فلماذا نأخذ هؤلاء بجريرة أولئك[1].

وما يلفت النظر أن حازم جواد الذي كان واحداً بين اثنين يحكمان العراق فعلياً، هو الشخص الوحيد من القادة الذي أكد بصورة قطعية وبإصرار، ورغم كل التفاصيل التي ينسجها الشيوعيون عن الأدوار، على أن القيادة المدنية لم تكن وراء قرار إرسال ما سمي بقطار الموت، وأن الذي أرسله هم عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وصالح عماش (أي رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الدفاع)، ليس لأنهم أقوياء وقادرون بل "لأن ذلك يقع ضمن اختصاصهم"، فالحادثة عسكرية وعالجها قادة الجيش وليس القيادة الحزبية، فضلاً عن أن الحدث بذاته كان قد أحبط القيادة الحزبية وأعطى لقيادة الجيش حق التصرف ضد عناصر خططت لإسقاط السلطة. وقال: "لم نفكر أبداً في إرسال القطار إلى نقرة السلمان من أجل إنقاذ الشيوعيين، بل كنا قد قررنا إبعادهم عن بغداد، كما كنا أساساً ضد معاقبتهم على جريمة لم يرتكبوها، وكنا على ثقة بعدم وجود صلة بين قيادة الحزب الشيوعي وحركة٣ تموز ولا بين ضباط المعتقل والحركة"[2].

---

١ ــ د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط، من حوار المفاهيم إلى حوار الدم، م س،٦ ص ٣٠٥.......

٢ ــ لقاء خاص مع حازم جواد في لندن ٢٠٠٠.

الفصل الثاني
ضباط على لائحة الاعدام

عدد الضباط المقترح إعدامهم

تختلف الروايات والأرقام حول عدد الضباط الذين تقرر إعدامهم، فيرى هاني الفكيكي: أن العدد، الذي رآه عبد الغني الراوي قليلاً ولا يستحق أن يسافر شخصيا من أجله للإشراف على عملية الإعدام، كان (١٥٠) ضابطاً، ويرى طالب شبيب أنهم ثلاثون، أما الرقم الأساسي المرشح للإعدام والذي بدأت ودارت حوله المساومة فقد تضمنه الطلب الذي تقدم به عبد السلام عارف بإعدام جميع المعتقلين وتنفيذ الأمر فوراً، ثم تنازل الرقم إلى ٤٥٠ وأقل فأقل.

وفي هذا السياق يرى هاني الفكيكي في كتابه "أوكار الهزيمة"، أن معتقلي سجن "رقم واحد" كانوا ٤٥٠، بينما يؤكد باقر إبراهيم الموسوي بأن عددهم ٦٠٠ (دمشق ١٩٩٤)، وكاظم السماوي ١٢٠٠ (دمشق ١٩٩٤)، في حين قال عبد الكريم فرحان إن السجن كان يضم ٣٠٠٠ معتقلاً عندما قامت حركة حسن سريع (دمشق ١٩٩٣)، ورأى الضابط محمد علي السباهي أن رقم الضباط المنقولين من سجن رقم واحد إلى سجن نقرة السلمان مبالغ به من حيث العدد ومن حيث انتمائهم للحزب الشيوعي، وهو أقل من ٤٥٠ ضابطاً بكثير[1]. في حين يقول الدكتور رافد صبحي أديب وهو أحد المعتقلين "كنا حوالي الألف". ولعل أقرب الأرقام هو الذي سمعته من الضابط الطيار عبد النبي جميل الذي قال إنه ١١٥٠ ضابطاً ومدنياً وكلهم من ذوي التاريخ السياسي المعروف.

ولم يكن السجناء شيوعيين أو عسكريين فقط، وإنما كان بينهم مدنيون وقاسميون وقوميون كرد أيضاً، يتجاوز عددهم كما أسلفنا الألف شخص، وقد أخبرني مباشرة، على الأقل عشرة من ركاب القطار المنكوب، أن عدد المرحلين هو بين ٤٥٠ و٥٠٠ معتقلاً، ولكن أحد ضحايا القطار وهو عبد النبي جميل، الذي مازال يعيش الحدث بتفاصيله ويتواصل مع رفاق الرحلة، يقول "إنهم ٥٢٠ ضابطاً ومدنياً، كانوا قتلى حتماً لولا تدخل القدر".

ولكن الضباط الذين نُقلوا بقطار الحمولة النازل للجنوب، لم يكونوا جميع معتقلي "السجن رقم واحد"، بل أُخِذوا استناداً لقوائم بأسماء محدّدة تمّ وضعها من

---

١ ـــ محمد علي سباهي، لقاء خاص مع المؤلف في مدينة السليمانية، عام ٢٠٠٠.

قبل المجلس الوطني لقيادة الثورة ووزارة الدفاع، وكلهم من ذوي التعليم العالي، وتشمل الجهات والمنحدرات التي جاءوا منها خريطة المجتمع العراقي القومية والدينية والسياسية بكاملها. هؤلاء جميعاً صعدوا إلى القطار كحمولة بشرية ظلت قابعة فيه داخل المحطة عدة ساعات قبل أن ينطلق في الساعة الرابعة والنصف تقريباً من صباح يوم ٤ تموز ١٩٦٣.

ومهما يكن فإن المعلومات التي استقيتها، مباشرة وغير مباشرة، تؤكد أن عدد المعتقلين كان أكثر من ألف، والذين تم نقلهم من السجن العسكري إلى سجن النقرة لم يكن أقل من ٥٠٠ معتقلاً[١].

كان القرار الذي اتخذته السلطة، حتى قبل قيام حركة حسن سريع، بالتخلص من نزلاء سجن رقم واحد ذكياً ومدركاً لخطورة وجود هذا الحشد الكبير من مختلف الرتب والاختصاصات والخبرات العسكرية والسياسية في معتقل واحد داخل مدينة بغداد، حيث تتركز السلطة والقوة، وما كان سيشكله من خطر جسيم دائم على الحكم القائم، خصوصاً إذا كانوا معتقلين داخل معسكر الرشيد الذي يتوفر على كل صنوف الأسلحة، بما في ذلك قاعدة بغداد الجوية، فضلاً عن قربهم من مقرات السلطة الأساسية ومعسكراتها الأخرى.

ولا يأتي الخطر بالضرورة من الضباط أنفسهم فقط، بل من غيرهم أيضاً. فمجرد وجود هذا العدد من الضباط المعارضين سيظل يشكل حثاً وإغراء ومحط أنظار كل من يفكر في الاستفادة منهم للقفز إلى السلطة، فقد كانوا قادرين على تسيير وإدارة جهاز الدولة البسيط حينذاك، بل كان أكثرهم من الأسماء المعروفة للمجتمع وبين الجنود، كانوا قادة وضباط معسكرات بغداد قبل أشهر فقط.

واستناداً لهذا التحليل، اقترح عبد السلام عارف أهمية التخلص من معتقلي رقم واحد، وكان يمثل بذلك الصقور من الضباط القوميين والبعثيين، الذين كانوا قد زينوا لأحمد حسن البكر الأمر، باعتباره سيقطع الطريق أمام المغامرين الذين قد يفكرون مستقبلاً بعمل مماثل وإطلاق سراح الضباط وربما استخدامهم في عمل عسكري ضد الحكومة القائمة.

---

١ ـــ لقاءات واتصالات شخصية مع عدد كبير من ركاب ما سمي بقطار الموت، على فترات مختلفة، بينهم رائد صبحي أديب والرائد عزيز الحاج محمود والطيار عبد النبي جميل والمرحوم الدكتور جميل منير قبل وفاته، وكثيرين غيرهم.

هل كان الضباط المعتقلون سيشاركون في الثورة

وفي حين يقول الملازم أول طيار عبد النبي جميل " كنا سنشارك الثوار في معركتهم فيما لو نجحوا بإطلاق سراحنا "، ويضيف: "حتى إن مجموعتنا فكرت بعد سماع إطلاق النار بكسر باب القاعة والخروج لمساعدة المعتقلين الآخرين في فتح أبواب قاعاقم وكسر باب السجن الرئيسية، ولم يؤخرنا عن ذلك سوى عدم معرفتنا بحقيقة وحجم ما كان يجري في الخارج، ولو كنا قد سمعنا البيان الأول من إذاعة الحرية لكسرنا الأبواب وهاجمنا الحراس، وكان بعضهم سيساعدنا، لأن أكثرهم من الجنود المتعاطفين معنا"[١].

يرى حازم جواد أن اعتماد الجنود على الدور الذي كان سيلعبه الضباط المعتقلون قضية نظرية غير ممكنة التحقق، حتى لو تمكنوا من إطلاق سراحهم في الوقت المناسب، فلم يكن لديهم ما يكفي من المعنويات للذهاب مباشرة من السجن إلى الثكنات لقيادة الكتائب والسرايا.. فلقد كان القسم الأكبر منهم متخاذلاً ويتوسل وهمه الوحيد المحافظة على نفسه ورأسه. ويرى أيضاً:

"إننا نعطي حجماً كبيراً للتمرد الذي لم يكن مؤهلاً للنجاح بل كان بإمكان آمر السجن العسكري وحده القضاء على التمرد، والعملية كلها قامت بها فلول من تنظيمات شيوعية تجمعت للقيام بعمل لم يكن له أي حظ في النجاح"[٢].

مشاكل وخلافات دفينة

وفي ذلك الاجتماع طالَبَ طالب شبيب معالجة مشكلة السلطة من جذورها، متصوراً أنها متمثلة في سلوك جهاز الحرس القومي، قائلاً: "سيبقى الحرس القومي مشكلتنا الأزلية، لذا يجب ضبطه وإعادة تنظيمه"، وإلاّ فسيؤدي التسيب والفوضى الذي تميز به أفراد الحرس القومي إلى مآزق خطيرة، وليس أدل على ذلك من وقوع قيادته في الأسر، في حين كان معولاً عليه حفظ الأمن انطلاقاً من تقدير القيادة بأن الحراس القوميين، بما تمتعوا به من صلاحيات غير محدودة، قادرون على ضبط الأمن واستكشاف الأخطار قبل حصولها. وأضاف طالب شبيب "يجب ضبط الحرس

---

١ ـــ عبد النبي جميل، لقاء خاص مع المؤلف عام ٢٠٠١.

٢ ـــ حازم جواد، لقاء في لندن عام ٢٠٠٢.

القومي وإعادة تنظيمه وإلا فسيوقعنا بمأزق خطير، خصوصاً إذا استمر بهذه الدرجة الخطرة من التسيب حيث أُخذنا وأُخذت قيادته أسرى لأن الجميع ظن أن الحرس القومي يجيد حفظ الأمن، والحقيقة كنت أريد بطرح ذلك الموضوع الحساس، أن أخلق مناقشة حادة تؤدي إلى إهمال اقتراح أحمد حسن البكر. وأعتقد أن موقفنا ذلك ترك راسباً سيئاً في نفس عبد السلام عارف ضدي وضد علي السعدي وسعدون حمادي واتضح ذلك من الامتعاض الشديد وعدم الارتياح الذي ظهر على وجهه، حتى أننا لقينا بعض الجفوة في تصرفاته القادمة، وما زاد الأمر سوءاً هو وقوفي ضد الاقتراح الذي قدمه عارف في ذلك الاجتماع بإعدام جميع الضباط الشيوعيين المعتقلين في السجن رقم واحد، بدعوى تعاونهم مع الحركة"(١).

ولم تغب الخلافات الدفينة بين الأعضاء الأساسيين في القيادتين الحزبية والعسكرية وبشكل خاص جناحي الأمين القطري لحزب البعث العربي الاشتراكي علي صالح السعدي وأعضاء القيادة القطرية ومجلس الثورة محسن الشيخ راضي وحمدي عبد المجيد وهاني الفكيكي وحميد خلخال والقائد العام لقوات الحرس القومي منذر الونداوي بما يملكه من بريق بين صفوف البعثيين وتدعمهم قيادتا الحرس القومي وفرع بغداد (أبو طالب عبد المطلب الهاشمي ونجاد الصافي وأحمد العزاوي وصباح المدني وغيرهم) وأغلب القيادات الحزبية في المحافظات من جهة، ووزير الداخلية ووزير شؤون رئاسة الجمهورية حازم جواد ووزير الخارجية طالب حسين شبيب يدعمهم رئيس الوزراء أحمد حسن البكر ووزير الدفاع صالح مهدي عماش وعبد الستار عبد اللطيف ورئيس الأركان طاهر يحيى التكريتي وحردان التكريتي قائد القوة الجوية وسعيد صليبي وآخرون وعدد محدود من الحزبيين المدنيين بينهم رئيس الجمهورية الحالي صدام التكريتي وطارق عزيز وحسن وداي وبهاء شبيب، ووقف عدد مهم من الضباط والمدنيين مترددين بين المعسكرين بينهم عبد الستار الدوري ود. سعدون حمادي وتحسين معلة وعبد الكريم مصطفى نصرت قائد الفرقة المدرعة الرابعة التي تمثل القوة العسكرية الضاربة في بغداد ومحيطها، وسكرتير المجلس الوطني

---

١ ــ راجع د. علي كريم سعيد، عراق ٨ شباط، مراجعة في ذاكرة طالب شبيب، م س، ص ٣٠٠ و صفحة ٢٩٩.

لقيادة الثورة أنور عبد القادر الحديثي، ومعاون رئيس الأركان خالد مكي الهاشمي وغيرهم كثيرون، أما رئيس الجمهورية عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف وعبد الغني الراوي وعبد الكريم فرحان وصبحي عبد الحميد وغيرهم من الضباط والمدنيين القوميين فلم تكن لديهم القوة والمبادرة الكافية ليحسبوا حسابهم، لكن عبد السلام عارف ظل يتحين الفرصة، وينتظر متربصاً نتائج ذلك الصراع بعد أن خَبَر قوة حلفائه البعثيين ومكامن ضعفهم.

وفي هذا السياق يقول منذر الونداوي: "استفادت العناصر التي كانت في مواقع قيادية في الحزب، والتي كانت تراهن على لعب دور متعهدي انقلابات عسكرية، من الحدث (حركة المعسكر) لتشجيع بعض العساكر الطموحة للاستحواذ على السلطة فساعدت في نقل الضباط الشيوعيين من سجن معسكر الرشيد ببغداد إلى نقرة السلمان فأبعدت خطرهم، كما حاولت دق إسفين بين عساكر السلطة والحرس القومي، بعد أن يئسوا من السيطرة عليه، لكن النابليونات استثمرتهم ورمتهم فيما بعد، فللعسكر ثقافتهم وهم يعرفون إن الحرب خدعة، لكنهم لا يأمنون منْ يطعن رفاقه بالظهر، وهكذا انتهوا يزوِّرون التأريخ والحقائق، ويتهمون غيرهم بما قاموا به من مفاسد، فهل سينجحون؟"[1].

مازال الخطر قائماً

لقد عبرت نتائج اجتماعات مجلس الثورة، التي تلت حركة حسن سريع، عن إدراك خطر وجود السجناء من ضباط وإداريين معروفين، بحكم شهرتهم أيام حكومة عبد الكريم قاسم، وبحكم اختصاصاتهم المختلفة وهيبتهم بين الجنود، في مدينة بغداد بالقرب من السلطة المركزية ومرافقها ومعسكراتها الأساسية ودباباتها وطائراتها وجنودها غير المتعاطفين مع الحكومة القائمة، فضلاً عن قربهم من أجواء شعبية واسعة لم تر من السلطات غير قوة الردع. وكانت حالة القلق والوجوم التي لفت أجواء السجن وطغت على وجوه سجنائه تؤكد إدراكهم لما ينتظرهم من خطر داهم.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار صحة رأي هاني الفكيكي وطالب شبيب بأن اختيار

---

١ ــ منذر الونداوي، رسالة، م س.

لقيادة الثورة أنور عبد القادر الحديثي، ومعاون رئيس الأركان خالد مكي الهاشمي وغيرهم كثيرون، أما رئيس الجمهورية عبد السلام عارف وعبد الرحمن عارف وعبد الغني الراوي وعبد الكريم فرحان وصبحي عبد الحميد وغيرهم من الضباط والمدنيين القوميين فلم تكن لديهم القوة والمبادرة الكافية ليحسبوا حسابهم، لكن عبد السلام عارف ظل يتحين الفرصة، وينتظر متربصاً نتائج ذلك الصراع بعد أن خَبَر قوة حلفائه البعثيين ومكامن ضعفهم.

وفي هذا السياق يقول منذر الونداوي: "استفادت العناصر التي كانت في مواقع قيادية في الحزب، والتي كانت تراهن على لعب دور متعهدي انقلابات عسكرية، من الحدث (حركة المعسكر) لتشجيع بعض العساكر الطموحة للاستحواذ على السلطة فساعدت في نقل الضباط الشيوعيين من سجن معسكر الرشيد ببغداد إلى نقرة السلمان فأبعدت خطرهم، كما حاولت دق إسفين بين عساكر السلطة والحرس القومي، بعد أن يئسوا من السيطرة عليه، لكن النابليونات استثمرتهم ورَمَتْهم فيما بعد، فللعسكر ثقافتهم وهم يعرفون إن الحرب خدعة، لكنهم لا يأمنون منْ يطعن رفاقه بالظهر، وهكذا انتهوا يزوِّرون التأريخ والحقائق، ويتهمون غيرهم بما قاموا به من مفاسد، فهل سينجحون؟"[1].

مازال الخطر قائماً

لقد عبرت نتائج اجتماعات مجلس الثورة، التي تلت حركة حسن سريع، عن إدراك خطر وجود السجناء من ضباط وإداريين معروفين، بحكم شهرتهم أيام حكومة عبد الكريم قاسم، وبحكم اختصاصاتهم المختلفة وهيبتهم بين الجنود، في مدينة بغداد بالقرب من السلطة المركزية ومرافقها ومعسكراتها الأساسية ودباباتها وطائراتها وجنودها غير المتعاطفين مع الحكومة القائمة، فضلاً عن قربهم من أجواء شعبية واسعة لم تر من السلطات غير قوة الردع. وكانت حالة القلق والوجوم التي لفت أجواء السجن وطغت على وجوه سجنائه تؤكد إدراكهم لما ينتظرهم من خطر داهم.

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار صحة رأي هاني الفكيكي وطالب شبيب بأن اختيار

---

١ ـــ منذر الونداوي، رسالة، م س.

نقل السجناء، بالقطار الذي سمي فيما بعد بقطار الموت، كان لإنقاذهم من خطر المتربصين بهم في بغداد، فسنرى أن هذا الحل لم يُبعد الخطر عن السجناء بل كانوا سيموتون، حتماً لولا مساعدة الحظ الذي كان معهم طيباً على غير العادة. و لم يكن السجناء يعلمون، حتى لحظة دفعهم لصعود القطار، ماذا سيكون مصيرهم وإلى أين يُرَحَّلون؟

وعلى أية حال فقد تصورت القيادة المدنية لحزب البعث أنها تمكنت من إيقاف المجزرة وإنقاذ نفسها من التورط بمثل تلك الكارثة الإنسانية، عندما نجحت في تسفير الضباط السجناء إلى سجن "النقرة"، وتسويف الأمر بتشكيل لجنة تحقيق برئاسة محسن الشيخ راضي وعضوية حمدي عبد المجيد ومنذر الونداوي وأحمد حسن البكر وأبي طالب الهاشمي[1] لتباشر عملها فوراً والعودة بنتائج أولية للاجتماع التالي. وكما يبدو كان ذلك حلاً وسطاً ريثما تتمكن اللجنة التي تم تشكيلها من تمييع رغبة عبد السلام عارف وأحمد حسن البكر وعبد الغني الراوي وصالح مهدي عماش ورشيد مصلح التكريتي بالانتقام[2].

---

١ ــ منذر الونداوي، رسالة للمؤلف عام ٢٠٠٢، قال فيها: "لا علم لي بذلك، وقد اعتذر هاني الفكيكي عن إدراج اسمي ووعد برفعه" وأضاف منذر قائلاً: أنا من حيث المبدأ "لم أُمارس التحقيق في قضايا سياسية ولم أقبل بإدلاء الشهادة ضد أحد، والشعب العراقي بعسكريه ومدنييه يعرف ذلك". وفي مكان آخر من الرسالة يقول منذر: "استطعت إنقاذ كثيرين ولكني لا أستطيع أن أنقذ الجميع، ساعدني صالح مهدي عماش في إطلاق سراح الضباط الطيارين خالد سارة وأحمد لاوي وباقر الصفار وعباس سوادي وآخرين ليس من المصلحة تسميتهم شيوعيين الآن، كما ساعدني عبد الكريم الشيخلي في إطلاق سراح معتقلين من قصر النهاية"، وكان منذر قد جمع الطيارين الشيوعيين في قاعدة الحبانية في ٨ شباط وأوقفهم بالنسق الثلاثي، بين أوكار الإدامة، وعين عليهم ضابطاً منهم وطلب منه ضبطهم حماية لهم، طبعاً مع مراقبة سيارة وراجلة عن بعد، وفي المساء أرسلهم للإفطار على أن يبقوا في مهاجعهم ويجنحوا للسلم، كما فك قيود ضابطين طيارين أرسلهما حردان التكريتي مصفدين. وهناك أدلة كثيرة أخرى ترجح إن منذراً الونداوي يصير أكثر إنسانية وأقل قسوة بعد أن ينفض النزاع المسلح. وفي تقديري الشخصي كان يتميز عن كثيرين من أقرانه البعثيين، وعلى درجة عالية من الذكاء والحنكة.

٢ ــ هاني الفكيكي، المعطيات السابقة، ص ٢٨٠... ويذكر أن وثيقة حزبية داخلية نشرت في ٢ شباط ١٩٦٤ بدمشق كانت قد أكدت نقلاً عن أحد قادة حزب البعث العسكريين (الجنرال محمد عمران) الذي تحدث داخل المؤتمر القطري السوري للحزب معلقاً بسخرية، من باب الإدانة والطرافة على أزمة السلطة في العراق عام ١٩٦٣ التي كان هو نفسه مع ميشيل عفلق وأمين الحافظ وحمود الشوفي وصلاح حديد متورطين فيها قائلاً: "طُلبَ من أحد ضباط الجيش العراقي (ويقصد عبد الغني الراوي) إعدام اثني عشر عسكرياً شيوعياً، لكنه أعلن أمام عدد كبير من الحاضرين إنه لن يتحرك إلى سجن "النقرة" إلاّ لإعدام ←

ولم يكن قرار الترحيل إلى السجن الصحراوي البعيد يعني أن الخطر على أرواح السجناء قد زال تماماً أو ابتعد، فبعد حوالي ثمان ساعات من قيام الحركة فوجئ معتقلو السجن العسكري رقم واحد، في وقت متأخر من الليل، بأبواب زنزاناتهم تفتح عليهم من قبل ضباط يحملون قوائم بأسماء أولئك الذين تم اختيارهم لرحلة القطار الذي صار مشهوراً، واقتادوا حسب أقوال المعتقلين الذين مازال أكثرهم أحياءً ٥٢٠ ضابطاً سجيناً، أكثرهم من ذوي الخبرة في قيادة الوحدات والإدارات الحكومية والسياسية، بينهم حوالي عشرين مدنياً، كلهم من ذوي الانتماء والميول الشيوعية والقومية الكردية ومن رجال العهد القاسمي.

ركاب القطار

كان عدد ركاب ما سمي بقطار الموت ٥٢٠ ظابطاً وجندياً وضابط صف وسياسياً، بينهم:

- العميد إبراهيم الجبوري. وهو أحد مؤسسي التنظيم الشيوعي (اتحاد العسكريين) داخل القوات المسلحة العراقية، وكان قد تعاون معه في إنشاء ذلك التنظيم كل من عبد الرزاق الزبيدي وخزعل السعدي وفاضل البياتي وعباس الدجيلي وأعضاء مشتركين مثل طه الشيخ أحمد، ويمكن في هذا السياق مراجعة وقائع محكمة الشعب حول الموضوع، خصوصاً ما يتعلق بصلة الجبوري بعبد السلام عارف.
- العميد لطفي طاهر، طبيب، الأخ الأكبر للعقيد وصفي طاهر، معتقل في رقم واحد ثم سجن بعقوبة فنقرة السلمان.
- العقيد غضبان السعد، ضابط حر وملحق عسكري، كاتب في الشؤون السياسية والعسكرية.
- العقيد الركن علي خالد. ضابط قاسمي يعمل بوزارة الدفاع.
- العقيد الركن خضر البياتي.

• خمسمائة شيوعي ولن يزعج نفسه من أجل اثني عشر فقط" ويمكن مراجعة الوثيقة المذكورة الصادرة عن المؤتمر القطري السوري لحزب البعث في ٢ شباط ١٩٦٤ ص ٣. كما يمكن مراجعة: كتاب العراق، حنا بطاطو، ص ٣٠٤.

- العقيد حسن عبود آمر موقع الموصل.
- العقيد سلمان عبد المجيد الحصان. آمر كتيبة دبابات في بغداد، طوق بغداد أثناء بدء تحرك عبد الكريم قاسم وإعلان الثورة.
- العقيد عبد الرضا عبيد.
- العقيد الدكتور نادر جلال نادر.
- العقيد عبد السلام بالطة، طبيب محلل، أخو جلال بالطة.
- العقيد عبد الرزاق الزبيدي عضو لجنة تحقيق في محكمة الشعب.
- العميد عبد القادر محمود طه، معاون قائد الفرقة الخامسة.
- العقيد عبد النبي الدهان.
- المقدم عدنان الخيال.
- المقدم غازي الدخيل.
- المقدم بدري ستراك.
- المقدم سلمان سبتي.
- المقدم الحقوقي نوري الونة عضو لجنة تحقيق محكمة الشعب، توفي في السجن.
- المقدم الدكتور قتيبة الشيخ نوري.
- المقدم عبد الكريم قاسم، وهو غير عبد الكريم قائد الثورة وحركة الضباط الأحرار.
- المقدم مطيع عبد الحسين، ضابط في حامية البصرة.
- الرائد الركن نوري إسماعيل.
- الرائد الركن الحاج أنور محمود طه.
- الرائد الركن خلف سيد دخان.
- الرائد الركن عارف حكمت.
- الرائد عزيز الحاج محمود (كردي).
- الرائد يحيى نادر (وهو شقيق اللواء محمد نادر مدير الشؤون الطبية في وزارة الدفاع، وقد مات في الرحلة، وكان مصاباً بمرض الربو و لم يتحمل جو عربة قطار الحمولة الخانق).
- الضابط الدكتور رافد صبحي أديب.
- الرائد المهندس موسى إبراهيم (شقيق الشخصية الديمقراطية العراقية المعروفة

عبد الفتاح إبـــراهيم).

- الرائد خزعل شلش.
- الرائد ساجد نوري (من حماية عبد الكريم قاسم).
- الضابط حامد مقصود وهو من الضباط الأحرار الذين نفذوا ثورة ١٤ تموز.
- الرائد خالص عبد الرحمن.
- الرائد صلاح الدين رؤوف قزاز.
- الرائد عبد السلام التعيسي.
- الرائد جواد التعيسي.
- الرائد نوري مجيد.
- الرائد كنعان محمد نوري.
- الرائد الطبيب سعيد عزيز.
- الرائد محمد جواد العسلي.
- النقيب غازي الجبوري.
- النقيب الطيار بـــرقي رشيد.
- النقيب الطيار غالب المهداوي.
- النقيب الطيار منعم عبد الأمير.
- النقيب الطبيب فاضل الطائي.
- النقيب كامل ساجت.
- النقيب سعيد عمران.
- النقيب كنعان العزاوي.
- النقيب رشيد العزاوي.
- النقيب أحمد محسن العلي.
- النقيب مصطفى عبد الله.
- النقيب عدنان شاكر النعيمي.
- النقيب إحسان البياتي (أخو فاضل البياتي).
- الضابط الدكتور صلاح العاني.
- الضابط الدكتور طارق عواد، وهو ابن عم الوزير القومي عبد الستار علـــي حسين.

- ملازم أول طيار عبد النبي جميل، كان مبلغاً بأن الطائرات جاهزة للطيران، ويذكر أن هذا الضابط قد تمكن من الهرب من السجن مرتين، وأصبح بعد سنوات مدرباً في القوة الجوية لجمهورية اليمن الديمقراطية.
- ملازم أول طيار صباح نوري.
- ملازم أول طيار صلاح العزاوي.
- ملازم أول طيار خالد شفيق الزبيدي.
- ملازم أول طيار فريدون عارف.
- ملازم أول طيار فريد الصفار.
- الضابط المهندس الكهربائي عبد القادر الشيخ. أخو عزيز الشيخ.
- الضابط جاسم مطرود.
- الضابط الطبيب سعيد عذير.
- ملازم أول كمال الملا، أعتقل قبيل ١٤ تموز ٥٨ وحقق معه نوري السعيد شخصياً في محاولة لكشف منظمة الضباط الأحرار لكنه لم يعترف، فأحيل على التقاعد، وأعادته حكومة ثورة ١٤ تموز للخدمة العسكرية.
- ملازم أول عبد الرزاق غصيبة، وهو الذي احتل معسكر الوشاش وساهم في احتلال قصر الرحاب في ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وزوج حياة النهر التي تم قتل أخويها من قبل نظام البكر- صدام.
- ملازم أول نوري البلدي.
- ملازم أول عبد الملك عبود.
- ملازم أول لطفي شفيق.
- ملازم أول خالد الدراجي.
- ملازم أول مولود عبد اللطيف.
- ملازم أول شاكر محمود العزاوي.
- ملازم أول جمال عبد اللطيف.
- ملازم أول علي عبد العزيز.
- ملازم أول محمد منير سليمان.
- ملازم أول أمير عليوي.
- ملازم أول صباح بيداوي.

- ملازم أول يوسف شاكر.
- ملازم أول خالد صالح.
- ملازم أول سالم الفارس.
- ملازم أول كامل حسين.
- ملازم أول محمد بحر.
- ملازم طيار ناجي فرج.
- ملازم طيار علاء موسى.
- ملازم طيار عماد عبد الرزاق.
- ملازم طيار أحمد عبد اللطيف.
- ملازم طيار موفق عبد الحميد.
- ملازم طيار سامي حسين الآلوسي.
- ملازم طيار بهزاد جميل صائب.
- ملازم طيار صباح أحمد زكي. أخو الشهيد خالد قائد حركة الأهوار.
- ملازم طيار كرومي هادي.
- ملازم طيار حسين علي جعفر، (محكوم بالإعدام ونفذت به الحكم حكومة عبد السلام عارف بعد تعذيبه)[1]. ووجدت على جثته آثار التعذيب.
- ملازم طيار خالد حبيب.
- ملازم طيار كريم الحديثي.
- ملازم طيار حسين محمد حسين.
- الضابط الطيار حمزة لازم.
- ملازم ملاح أمجد فتوحي.
- ملازم ملاح جليل خليل السعد.
- ملازم ملاح موفق عبد الستار.
- ملازم ملاح عادل عبد الأحد.
- ملازم ملاح ليون أواديس.
- ملازم ملاح حسن ظاهر.

---

١ ـــ لقاء خاص مع الطيار عبد النبي جميل.

- ملازم خالد الخالدي.
- ملازم عباس مسلم.
- ملازم رزاق دواي.
- ملازم قاسم جراد.
- ملازم طارق عباس حلمي.
- ملازم نوري شمدين.
- ملازم مهدي القيم.
- ملازم طارق حسين.
- ملازم خالد عمران.
- ملازم سمير القاضي.
- ملازم طارق طه درويش.
- ملازم ناجي رشودي.
- ملازم خالد طه درويش.
- ملازم جمال الياس.
- ملازم مهندس حامد البـــربوتي.
- ملازم عادل عقراوي.
- ملازم ملاح خزعل فتحي.
- ملازم سليمان يوسف.
- ملازم علاء عبوش.
- ملازم علي خالد.
- ملازم عبد الرحمن القاضي.
- ملازم فوزي السامرائي.
- ملازم أحمد صبحي الخطيب.
- ملازم ياسين خليل.
- ملازم أديب جورج.
- ملازم غفور فرج.
- ملازم احتياط سلمان يوسف.
- ملازم إبـــراهيم مشعل.

- ملازم غسان عبد الحسين.
- ملازم حقي إسماعيل.
- ملازم تركي كريدي.
- ملازم هادي رجب حافظ (أبو انتصار).
- ملازم مهدي مطلق.
- ملازم فاضل عباس(أبو العباس).

تمرد في معسكر سعد.

- ملازم نـــزار الدباغ.
- ملازم علي روبيتان.
- ملازم خضر مهنا المالكي.
- ملازم إبـــراهيم الملائي.
- ملازم قاسم الشبلي.
- ملازم جبار العلي.
- الضابط هشام جلال البياتي.
- ملازم مهندس عدنان يونان.
- ملازم علي العبيدي. كاد أن يُقتل بسبب ضلوعه في تمرد معسكر سعد، لكنــه أُنقذ ليضطر بعد فترة إلى مواجهة الموت مرة أخرى في هذا القطار الشهير.
- الملازم عدنان البياتي، استشهد فيما بعد مع المقاومة الفلســطينية في عمليــة عسكرية ضد قوات الاحتلال الصهيونية.
- ملازم أول صلاح الدين أحمد[1].

---

١ ـــ الملازم أول صلاح الدين أحمد كان يخدم في اللواء الخامس الذي يقوده عبد الوهاب الشواف، وينتظر في السجن تنفيذ حكم بإعدامه بتهمة قتل آمره النقيب خيري الخيرو المنتدب إلى عين زالة لحماية منشـــآتها النفطية. ويذكر صديقه عبد الأمير صادق إن الشواف كلفه الذهاب على رأس قوة إلى عين زالة وسنجار، لضرب خصومه وإبادة الشيوعيين المعتقلين، فنفذ الأمر معكوساً وحاصر القوة المؤيدة للشواف وقطع الطرق والممرات المؤدية لسوريا، لقطع إمدادات السلاح للثوار عبـــر الحدود، واستعان بالشيوعيين والكرد المؤيدين لحكومة عبد الكريم قاسم. وخلال الصدام قُتل النقيب خيري الخيرو، (وكلاهما الشيوعي "صلاح" والقومي "خيري" من أبناء مدينة الموصل)، وأثر ذلك اتصل بالعقيد الشواف قائلا "أنا ابن الثورة ولن يكون لي موقف آخر". وبعد فشل حركة الشواف، وبدلاً من مكافأته، نقله عبد الكريم قاسم إلى البصرة وأخر ترفيعه، ولكنه ←

ومن المدنيين الذين صعدوا القطار: مكرم الطالباني. عزيز الشيخ. عبد الوهاب الرجبي. كريم الحكيم. الدكتور أحمد البامرني. سلطان ملا علي (عضو اللجنة

• سيطر في يوم ٨ شباط على القوة البحرية واعتقل عدداً من الضباط وأعلن حالة الطوارئ وتعاون مع المظاهرات التي امتلأت بها مدينة البصرة.
أعتقل صلاح مباشرة بعد ٨ شباط١٩٦٣ وأودع في معتقل الانضباط العسكري، لكنه اغتنم إحدى الفرص ومثل دور "كَنّاس" المعتقل وتمكن من الهرب، وتمكن الحرس من اعتقاله وإيداعه معتقل الخيالة في الأعظمية فهرب بمساعدة صديقه الرائد يونس مجيد عبر فتحة الحمام. وبعد أيام أعتقلت زوجته وابنته الوحيدة "رباح" فسلّم نفسه. وبسبب عوامل كثيرة، بينها انخفاض وتيرة القتل، أخطأ الموت الملازم صلاح أحمد مرة أخرى ليُرسل إلى قصر النهاية وهناك شهد أمامه مقتل طالب عبد الجبار ووعد الله النجار بتهمة قتل خيري الخيرو أيضاً، وقد نُقل عن علي إبراهيم الذي كان يرقد إلى جانبه في قصر النهاية: عندما علم صلاح أحمد أن بين السجناء المنقولين إلى سجن رقم واحد رئيس عرفاء اسمه صالح أحمد (أُعدم منذ أيام، وكان قد ترك ملابسه الرسمية في الردهة) فارتدى الملازم صلاح ملابس رئيس العرفاء!! وخرج مع السجناء إلى رقم واحد، وظل هناك حتى رآه وتعرف عليه مدير السجن حازم الأحمر (كلاهما من الموصل)، فأعاد اعتقاله تحت اسمه الحقيقي صارخاً بوجهه: "فواد شيوعي!!"، ثم أرسل إلى نقرة السلمان في رحلة قطار الموت الشهيرة، ووصلها سالماً. لكنه كان كلما خرج لجلب الماء من البئر الموجودة خارج قلعة السلمان (السجن)، يقف متأملاً الصحراء، ولا أحد يعرف هل استطاع ابن الجبل إدراك خطرها لكنه، رغم ذلك، وفي أحد الأيام ذهب مع مَنْ ذهبوا من السجناء إلى خارج سور السجن لجلب الماء من البئر ولم يعد!! إذ دخل البئر ولم يخرج منها، أي ظل مختبئاً بداخلها، وغطى رفاقه غيابه أثناء التعداد، فكسب السجين الهارب وقتا ضروريا ليبتعد في صحراء شاسعة، ربما لن يتمكن بعد توغله فيها من تمييز الشمال من الجنوب والشرق من الغرب، وكان مسؤوله الحزبي عبدالوهاب طاهر قد وافق على هربه، ووُضعت خطة لذلك. وبعد أيام اكتشفت الشرطة الأمر فاعتقدت أنه هرب عبر الصحراء.... وفعلاً فقد فعل، وضاع خَبَرهُ بين تضاعيفها، وربما تكون الذئاب قد افترسته أو مات مِن العطش، وأصبح له قبر في بطون الذئاب والطير. وبعد فترة اكتشفت دورية عسكرية أشلاءه مصادفة، وتبين لها أنه كان يدور حول ذات النقطة متصوراً أنه يسير إلى أمام. وكانت كليتاه المريضتان المصابتان بالتهاب حاد، بسبب التعذيب، قد أضافتا سبباً آخر لعدم صموده).. فبعد هربه اضطر، بسبب نفاد الماء والعطش الشديد، لشرب حليب محلى ومركز وذلك ما زاد من عطشه (عدنان جار الله أبو ماهر)].. ويذكر أن صلاح الدين أحمد كان في ٨ شباط ضابطاً في القوة النهرية، وهناك سعى لإعلان التمرد لكن أكثر رفاقه العسكريين تخاذلوا. وعندما سمع مظفر النواب بأخبار هذا الضابط أنشد:

المنـايـا الماتـزورك زورها — خطوة التسلم ذبايح سورهه
صقر والبيدة تعرف صقورهه — وبأثر جدمة تلوذ طيـورها
عمت عينهه الما حمت ناطورهه

راجع صالح دكلة صفحة ٩٤/٩٥. كثير من معلومات هذا الهامش مأخوذة من د. حامد أيوب العاني وجاسم مطير. وهناك من يعتقد إن صلاح لم يكن بقطار الموت بل أُرسل للنقرة في الشهر العاشر ونفذ عملية الهروب المبينة في عهد عبد السلام عارف.

العسكرية للحزب الشيوعي). وعلي حسين الرشيد وهو ابن عم أحمد حسن البكر،هرب من سجن النقرة متخفياً بسيارة نقل سجناء ثم إلى كردستان حيث قاتل مع الأنصار فأصيب بعينه، وكان أصلاً يعمل في الخط العسكري. علي إبراهيم. عبد الصمد نعمان (طبيب مدني). حمدي أيوب العاني. جميل منير العاني (دكتور فيما بعد، وهو شقيق المحامي المعروف توفيق منير الذي قتل في ٨ شباط ١٩٦٣. أنيس ناجي وهو ابن الشاعر الشعبي النجفي عباس ناجي، وكان معلماً وأحد كوادر الحزب الشيوعي في الفرات الأوسط، هرب مع الضابط الطيار عبد النبي جميل من المستشفى. شاكر القيسي، أصبح دكتوراً فيما بعد. فاضل الطائي (طبيب أسنان). عبد علوان (معلم). عبد الستار زبير (موظف زراعي) قتل عام ١٩٩٠ أو غيب مع عائلته بتهمة الانتماء للحزب الشيوعي العراقي دون أن تمتلك هيئة التحقيق أي اعتراف أو دليل ضده. الدكتور سالم سفر. أبو يوسف (حزبي محترف)[١]. موسى إبراهيم. حامد الخطيب.

الضباط الأكراد

ولم يكن جميع ركاب القطار عسكريين، بل كان بينهم حوالي عشرين مدنياً، ولم يكونوا جميعهم شيوعيين بل كان بينهم حوالي عشرين ضابطاً من الحزب الديمقراطي الكردستاني وهؤلاء جرى شملهم مع الشيوعيين بسرحلة "قطار الموت" بعد استبدال تهمتهم من قوميين أكراد إلى شيوعيين، ولم يكونوا كذلك[٢]، وذلك للتملص من مطالب الوفد الكردي المفاوض الذي كان يقوده جلال الطالباني لإطلاق سراحهم.

وقد علمت من طالب شبيب، وفيما بعد من حازم جواد (وزير شؤون الرئاسة ووزير الداخلية) أن أمر إدماج الضباط القوميين الأكراد المعتقلين في السجن العسكري رقم واحد مع الشيوعيين، وشحنهم في ما يسمى بقطار الموت لم يُناقَش في المجلس الوطني لقيادة الثورة ولا في الوزارة أو في القيادة القطرية، وإذا كان ما يُروى حول القطار قد حصل فعلاً، فبإرادة القيادات العسكرية والأجهزة الأمنية العليا، ونفى شبيب أن يكون لهيئة التحقيق الخاصة أو قيادة الحرس القومي دور في ذلك.

---

١ ـــ ن.ك.م، قطار الموت. مجلة رسالة العراق، العدد ٦١ سنة ٢٠٠٠.

٢ ـــ الرائد عزيز الحاج حمود ١٩٩٩، لقاء شخصي في أمستردام عام ٢٠٠٠.

ويُذْكر أن وزارة الدفاع، بوزيرها وأركانها وهيئاتها وقادة الوحدات الرئيسية، كانت متحيزة فعلاً ضد الكرد، وقد بُذلت جهود كبيرة لإشعال الحرب بكردستان العراق، وبرهنت في أكثر من مناسبة تناغمها مع رغبات بعض هيئات التحقيق في الجيش والحرس القومي، التي استجابت للدعاية المنتشرة حينذاك حول سعي الأكراد للاستقلال في وطن قومي خاص بهم، وكان ذلك يذكّرهم خطأً بجريمة اغتصاب فلسطين!! فنظروا للأكراد بمزاج عصبي غاضب، خصوصاً وأن صبرهم كان حينذاك يكاد ينفد انتظاراً لتحقيق الوحدة العربية الاندماجية الشاملة التي توقعوا أن أمر تحقيقها قاب قوسين أو أدنى، والتي سيحصد منها العرب أوتوماتيكياً التقدم الشامل والحرية بمجرد إعلانها. وكان أمر مقارنة الأكراد بإسرائيل والصهيونية مرفوضاً، سياسياً ومنطقياً وحقوقياً، فلم يغز الكرد أرضاً من الخارج، بل هم أصحابها وأبناؤها، ولا بد أن تلك الأفكار نمت في أذهان البعض بسبب تثقيف نظري سابق وخاطئ، فقاسوا عليه قياساً فارغاً.

ورغم التوتر السياسي والنفسي الشديد الذي لازم قيادة حركة ٨ شباط ٦٣ ورجالها إلاّ أن كل الجرائم المرتكبة، لا تندرج، وفق القانون الدولي، تحت اسم جرائم ضد الإنسانية، بل كانت تختار طرائدها من بين أعضاء المنظمات والحركات الحزبية المعادية لها، ويستثنى من ذلك طبعاً المجازر الجماعية البشعة ذات الطابع العنصري، التي أُرتُكبت بحق مدنيين أكراد في السليمانية وكويسنجق وكركوك وغيرها، بأوامر كانت قد صدرت لمفارز عسكرية من قِبَل ضباط كبار ومتصرفي الألوية مثل الزعيم صديق مصطفى والعقيد خليل وطه الشكرجي وسعيد حمو وبدر الدين وغيرهم، برمي الأسواق والمقاهي بهدف القتل وإثارة الرعب، وكأنهم في حملة صيد احتفالية وليس في مواجهة شعب تؤكد إذاعتهم بأنه شعبهم، بل ودفنوا في واد قريب من السليمانية القتلى والجرحى، وبينهم رجال أحياء في حفرة كبيرة تم حفرها ودفع الضحايا الأبرياء إليها وهالوا التراب والحجر فوقهم بالشفلات خلال دقائق. وقد تمكنت شخصياً "المؤلف" من مقابلة شهود عيان، بسطاء ومحايدين، أكدوا بتفاصيل مرعبة ومقززة ما حصل في السليمانية وكويسنجق وكركوك. وشاهدت بعيني آثار القصف الجوي الوحشي لبارزان ومدن وقرى كردية أخرى.

تطابق شهادتي حازم جواد وجلال الطالباني

كنت قد تأكدت، على فترات متباعدة، من قادة بعثيين أساسيين كثيرين أمثال حازم جواد وهاني الفكيكي وعبد الستار الدوري وطالب شبيب ومحسن الشيخ راضي وغيرهم كثيرين أنّ موقفهم الحقيقي كان يختلف تماماً عن ممارسات القيادة العسكرية في كردستان العراق، وبغض النظر عن وجود أو عدم وجود رغبة خاصة بتبرئة القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي من تلك الأعمال العنصرية الشنيعة.

كما كنت عندما تعرفت في أكثر من مناسبة على آراء هاني الفكيكي ومحسن الشيخ راضي وعبد الستار الدوري وأحمد العزاوي وغيرهم قد قدَّرت بأن مواقفهم ربما تعود إلى ميولهم اليسارية. لكني فوجئت أول مرة عندما فهمت من طالب شبيب أنه كان دائماً يؤيد مطالب الحركة الكردية، وكانت المفاجأة أكبر عندما أخبرني الأستاذ حازم جواد بأنه كان قد أبلغ جلال الطالباني خلال فترة المفاوضات بأنه يؤيد التطلعات القومية للشعب الكردي، بنفس الطريقة والمنطلق اللذين ينظر بهما إلى حق الأمة العربية وتوْقها للتحرر والوحدة ونيل حقوقها كاملة، فهم قوميون كُرد ونحن قوميون عرب ولكل منا الحق في الحرية. وأضاف إن علي صالح السعدي كان يشاركه نفس الآراء[1].

وكان الزعيم الكردي الأستاذ جلال الطالباني الذي قاد المفاوضات مع قيادة حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم عام ١٩٦٣، ممثلاً للحزب الديمقراطي الكردستاني ولقائد الحركة الكردية الملا مصطفى البارزاني، قد أكد لي شخصياً، في السليمانية عام ٢٠٠٠، موقف علي صالح السعدي وحازم جواد المتعاطف مع القضية القومية للشعب الكردي بالتفصيل. وقال ضمن ما قاله: "بعد أن استمع حازم جواد لآرائنا كممثلين للحركة الكردية عام ١٩٦٣ قال (أي حازم): لا يكفي لحل المسألة الكردية حكم ذاتي، بل كيان يجب تسميته بالجمهورية الكردستانية المستقلة، وأحياناً كان يكررها بلفظ آخر هو: أنتم اشتراكيون ونحن اشتراكيون، ومثلما نرغب ببناء جمهورية عراقية اشتراكية، يجب أن تكون لكم دولة كردستان الاشتراكية المستقلة".. فرد جلال الطالباني: " أريد نصف ما تقوله!!"[2].

---

١ ـــ حازم جواد، لقاء شخصي بلندن في ٢٠٠١.

٢ ـــ الأستاذ جلال الطالباني، لقاء خاص مع المؤلف بفندق آشتي ٢٠٠١ سليمانية.

وكان علي صالح السعدي قد اعترف قبل ذلك بأيام في دمشق علناً بحق الكرد في الحصول على حقوقهم، فهم شعب مثل كل شعوب الأرض يحق لهم "تقرير المصير". وأشار الطالباني إلى "إن طالب شبيب كان حسناً أيضاً في القضية الكردية"[1].

ويذكر أن موقف البعثيين غير العراقيين من القضية الكردية كان محذراً وسلبياً جداً، بالقياس لموقف رفاقهم العراقيين المدنيين، وهؤلاء يختلف موقفهم كثيراً عن رفاقهم وحلفائهم الضباط البعثيين والناصريين العراقيين خصوصاً ذوي الرتب الكبيرة، ولا يستبعد أن يكون الخلاف حول القضية الكردية قد شكل أحد الأسباب الخلفية التي أدت إلى استشراء الخلافات بين الأطراف، وتمزق حكومة ٨ شباط ثم سقوطها.

ومن ناحيتي، أكاد لا أُصدق أن قيادة البعث المدنية كانت عاجزة عن إيقاف اندفاع رفاقها العسكريين وحلفائها "القوميين"، سواء في أعمال قتل الشيوعيين والخصوم السياسيين أو في مجال ارتكاب المجازر ضد الشعب الكردي في العراق، فقد كانت قيادة البعث المدنية قادرة على وقف الحملة الدموية، إن أرادت ذلك، وهي لم تغلس إلا لأنها كانت تنظر للأمر بعدم اكتراث. وكدليل على قدرة القيادة المدنية نضرب واحداً من أمثلة كثيرة، فقد جرت ملاسنة بين الفريق صالح مهدي عماش وزير الدفاع والوزير حازم جواد في أحد اجتماعات المجلس الوطني لقيادة الثورة فقال عماش " لا أقبل بنصائح وأوامر من طلاب ثانوية " في إشارة لأعمار أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث المدنيين التي كانت تتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين عاماً، فرد عليه حازم جواد: "هؤلاء الطلاب لَبَّسوك رتبة فريق ووافقت على ذلك". فسكت عماش راضخاً.

وأتصور أنّ التسامح، مع ما كان يحصل من جرائم في شمال العراق، إنما يعود إلى تثقيف عنصري سابق من جهة، وإلى انشغال القيادة القطرية في إدارة بلد غني وعريق لم تكن قد تهيأت حتى في الحد الأدنى لحكمه وبطريقة الحزب الواحد، فلم تكن مهيأة علماً وخبرةً لمواجهة التنوع في الأنماط الاقتصادية الاجتماعية المتعايشة في بلد واحد، ولا لأهمية حاجة البلاد لعقد وطني جديد يتفهم التعدد القومي والديني داخل البلاد، بدلاً من إخضاع الأطراف بالقوة، وهو أمر لا طائل من وراءه.

١ ـ لقاء خاص مع الأستاذ جلال الطالباني في مدينة السليمانية ٦/ ٩/ ٢٠٠٠.

ميول كردية للتحالف مع أعداء النظام

ومما تقدم نستطيع تفهم وجود ميول شعبية كردية نحو التعاون مع الحركات السياسية والمسلحة المعارضة، بصورة مستمرة، للسلطات العراقية المتبدلة من حيث الشكل، والمتشابهة من حيث الجوهر.

وكان للكرد، كقومية شريكة، ظروفهم وحاجاتهم الخاصة المستقلة عن مطالب وحاجات الدولة العراقية المنحازة والأسيرة للسلطة المهيمنة، مما دفع بحركتهم السياسية للإصرار على نشر الوعي المضاد للفكر القومي الشوفيني، وساعد على خلق موقف عام شعبي يتميز بالحذر من توجهات التيار القومي العربي، ورغم أن التعميم المطلق لذلك التوجه على الفكر القومي التحرري العربي لا يصح دائماً، لكنهم عكسوا فيه حقيقة أن الحكومات "القومية" المتبدلة في بغداد أرسلت جميعها الطائرات القاصفة والدبابات لتسحق قصبات وقرى كردية أحسن البيوت فيها الطينية. وذلك كما أرى كان سبباً مباشراً في دخول الجنود وضباط الصف الكرد بكثرة في التحالف الذي قاد حركة ٣ تموز ٦٣.

عوامل خففت من شدة العقاب بحق الضباط

ونظراً لظروف العراق الحالية الاستثنائية وأحوال العراقيين وتباعدهم في الشتات، فضلاً عن نهاية أكثر شهود تلك المرحلة قتلاً أو كمداً وانزواءاً خائفين من غضب تلامذتهم رفاق الأمس، يحتاج الأمر، من أجل وصف حالة الهستيريا الثأرية التي غطت أجواء التحقيقات التي لم تكن لقسوتها حدود، إلى بحث وجهود إضافية أخرى مستقلة.

وعموماً فإن الذين كُلِفوا بتسوية الحسابات، لم يكتفوا بالمجزرة ومهرجان القتل الذي أُقيم للثوار المتمردين، مباشرة بعد فشل حركتهم، فضلاً عن أعمال التحقيق القاسية الجارية، بل قرروا ضمناً تدمير وإبادة مئات الضباط والسياسيين المعتقلين في السجن رقم واحد، لولا تدخل ظروف وملابسات كثيرة بينها الإحساس الذي بدأ يتسرب إلى وعي أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث، بأن استمرار ودمويّة الملاحقات بدأ يوظف لصالح قضايا ليست لها صلة بحماية النظام فقط، بل لمصالح وحسابات وشؤون أخرى وربما يعود بعضها لأحقاد شخصية.

أ ـ الضغوط الداخلية

عانت الحكومة العراقية من ضغوط داخلية عراقية كثيرة، صبت كلها في ضرورة وقف الملاحقات غير القانونية بحق المعارضة السياسية المحلية، فقد كان هناك في الداخل **معارضة المرجعية الإسلامية** ممثلة بالمرجع الراحل السيد محسن الحكيم، الذي جاهر هو ووكلاؤه، في أكثر من مناسبة، برفض أسلوب القتل والملاحقة والتعذيب في تعامل السلطة مع الناس، وكانت ذروة ذلك قد حصلت خلال جولته الاحتجاجية الشعبية الكبرى، التي انطلقت من النجف وانتهت بسامراء مروراً بكربلاء وبغداد والكاظمية والحلة ومراكز وحواضر أخرى، فضلاً عن ممثليه في مناطق العراق كافة، والخطباء، بالاحتجاج بحدود الممكن على ممارسات هيئات التعذيب.

كما أن المرجعية الكردية، ممثلة بالزعيم الملا مصطفى البارزاني عبرت عن عدم رضاها، بما يجري في بغداد، بطرق ووسائل كثيرة أهمها؛ التعامل مع الحكومة المركزية بحذر، والتخلي عن الروح العفوية المتحمسة، التي ذهب فيها جلال الطالباني عضواً في الوفد الحكومي والشعبي إلى القاهرة حتى قبل وصول موافقة قيادته على السفر.

وكان رد فعل الزعيم الملا مصطفى البارزاني المبدئي على أنباء القسوة، قد تمثل بإيواء قادة عسكريين ومدنيين شيوعيين مرموقين في كردستان، أمثال سعيد مطر الذي كان قد عومل باحترام وقاد سرية بيشمركة في قرة داغ والتحق به كثيرون لكنه آثر الانعزال بسبب عدم تزويده بسلاح كاف، والمقدم سليم الفخري والنقيب كمال نعمان قائد معركة جبل هندرين الشهيرة .... إلخ.

عوامل كثيرة أخرى تدخلت لتخفيف ذلك التوتر "القاتل":

أولاً: اطمئنان عدد غير قليل من أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة إلى عدم قدرة الشيوعيين على إعادة بناء تنظيمهم السياسي بعد أن تم سحقه بلا رحمة، وذلك قلل من خوف وحسم وقسوة السلطة تجاههم، وأوحى بعدم جدوى التورط بمثل تلك الكارثة الإنسانية، أو بتحمل أعباء الرغبة الانتقامية الواسعة التي اجتاحت بعض أعضاء المجلس الوطني لقيادة الثورة، الأمر الذي ساعد ليس فقط على تخفيف التوتر، بل والتأكيد على أهمية قرار تسفير السجناء بعيداً عن ساحة الصراع الرئيسية، لإنقاذهم بقصد أو بدونه من براثن لجان التحقيق التي برزت فيها أسماء لا تمتلك

تقارير أنصاره في العراق، التي أكدت وجود القسوة العشوائية، فضلاً عن أنـــه (أي عبد الناصر) كان تحت حاجة ماســة لمســاندة الاتحــاد الســوفييتي بالســلاح والديبلوماسية.

إضافة للثقل الاجتماعي والسياسي للأحزاب الشيوعية العربية والعالمية وبعــض حركات التحرر، فضلاً عن المنظمات الإنسانية العالمية، وجميعها كانت في حالة مد وانتعاش وتتعاطف مع الحزب الشيوعي العراقي، أو وقفت ضــد سياســة تصــفية كوادره بالقوة.

الفصل الثالث

رحلة سيسجلها التاريخ

المشهد الأول: زوار الليل يصلون في ميعادهم

كانت كل تلك الترتيبات والأفكار تدور حول مصير الضباط المعتقلين الذين عجزت هواجسهم عن توقع ما سيحل بهم بعد فشل الانتفاضة. ولكن الأمر لم يدم طويلاً، فما أنْ جُنَّ مساء٣ تموز ٦٣ حتى جاء ما يكسر حالة الوجوم والترقب القَلِقْ التي لَفَّتْ أجواء سجن رقم واحد وأروقته، إذ بدأ المعتقلون البالغ عددهم حوالي ١١٥٠ ضابطاً وضابط صف وسياسي مرموق يسمعون حركة وأصوات غير اعتيادية تقترب منهم تدريجياً، وبدأ أحد الضباط بفتح أبواب الزنزانات واحدة بعد أُخرى وهو يتلو قوائم بأسماء عدد كبير من المعتقلين.

يعتقد بعضهم وتؤكد شواهد كثيرة أن تلك القوائم تضمنت أكثر من ٤٥٠ معتقلاً وسجيناً، وكان اكتظاظ المعتقلات التي تستضيف السياسيين قد حصل بسبب قرار اتخذته حكومة ٨ شباط بإخلاء معتقل قصر النهاية (قصر الرحاب أو قصر الوصي سابقاً) من المعتقلين نتيجة الضغوط الدولية، وبسبب انتشار الروايات المثيرة حوله في داخل العراق، وتوزيع نزلائه على معتقلات أخرى، فكانت حصة السجن رقم واحد منهم هي الأوفر[1].

قام حرس سجن الرشيد العسكري رقم واحد بجمع المعتقلين الذين وردت أسمائهم بقوائم مجلس قيادة الثورة على رصيف شارع السجن الرئيسي في صفوف متراصة. ويقول الضابط الطبيب رافد صبحي أديب: وهناك "تم ربط أيدينا بالحبال خلف ظهورنا وراح الضباط، الذين كانوا بإمرة حازم الأحمر، يروحون ويجيئون وهم يكيلون الشتائم والإهانات لنا، بينما كان ضباط الصف والجنود الذين كانوا بإمرتهم والمكلفين بربط أيدينا يهمسون، لنا، بعبارات التشجيع أثناء عملية الربط

---

١ ـــ عزيز الحصاني، لقاء مباشر مع المؤلف، وكان ضابط احتياط معتقل مع قيادة الحزب الشيوعي، وعند إخلاء معتقل قصر النهاية نُقِل هو وأكثر من عشرين ضابط احتياط إلى معتقل الخيانة، وبعض هؤلاء استمر حتى بعد انتهاء خدمته العسكرية في العمل بالتنظيم العسكري الشيوعي، وكان بينهم د. شامل حسن النهر وفائق سعيد عابد وحكمت خليل وماجد حمد وعزيز الحصاني. وهؤلاء أيضاً أبلغوا ليلة انتفاضة معسكر الرشيد من قبل رئيس عرفاء الحرس بالنهوض لحدث كبير قائلاً: "إن شاء الله ساعة الفرج أصبحت قريبة، أنتم ضباطنا ونحن جنودكم وسنمشي وراءكم قريباً إن شاء الله". ولم يكن سجناء معتقل الخيانة يعلمون شيئاً عما سيحصل في اليوم التالي.

والتي تعمدوا أن لا تكون شديدة بل سهلة الفتح، الأمر الذي أشاع بصيصاً من الأمل والثقة في قلوبنا التي كانت قد تملكتها الكآبة والأسى العميقان"[١].

ورغم ما أظهره الجنود من تعاطف، لكن الإجراءات والطريقة المختلفة الأشكال ووسيلة ربط المسجونين بحبال وسلاسل حديدية مؤقتة وبأدوات أخرى، كانت كافية لتوحي بلا قانونية وعدم نظامية الإجراءات، ولتوحي بإجراءات مافيوية وليست حكومية، تتم تحت الضوء وليس في الخفاء. وذلك لا شك أظهر ميول رجال السلطة للعمل السري، وعدم إدراكهم لحجم النقلة التي تحققت بعد قفزهم إلى السلطة.

ويذكر الضابط الطيار عبد النبي جميل: "عندما خرجنا من سجن رقم واحد وصعدنا عربات النقل العسكرية كانت معنوياتنا عالية، فقد كنا نتوقع من المحكمة العسكرية أن تُصدِر بحقنا أحكامها المعتادة التي تتراوح بين عشرة وعشرين سنة، وهي أحكام تُلْغى بمجرد تَغير الحكومة، لكنهم أخذونا إلى محطة القطار العالمية ثم دفعونا إلى قطار حمولة، وأوصدوا الأبواب الحديدية علينا، وحينذاك بدأت معنوياتنا تضعف"[٢].

ويذكر أن إدارة السجن رقم واحد كانت قد توقفت، منذ انطلاق الانتفاضة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، عن تقديم الطعام للسجناء، ومنعهم من الذهاب إلى دورات المياه، مما جعلهم يتأكدون بأن مصيرهم، حتى تلك الساعة، كان يُبحَث ومعلقاً بين الموت أو النقل لسجن آخر. وعندما فتحت الأبواب عليهم لتكبيلهم، تمهيداً لشحنهم إلى سجن النقرة، دخل عليهم مسؤول الحراسة الملازم سعدي العمري الذي همس لزميله الملازم المعتقل عزيز الحاج محمود قائلاً: "ستذهبون إلى سجن النقرة"[٣].

المشهد الثاني: بين المحطة وأم الطبول، السجن أو الموت

وتم دفع السجناء إلى سيارات نقل عسكرية (باصات) اتجهت بهم إلى الطرف الآخر من بغداد بحركة متوسطة السرعة، فشقت المدينة التي ستطالعك من أي المواقع

---

١ ـــ رافد أديب بابان، صفحة منزوعة من مذكرات ٣ تموز ١٩٦٣، جريدة المجرشة عدد تموز ١٩٩٣.
٢ ـــ عبد النبي جميل لقاء مع المؤلف عام ٢٠٠١.
٣ ـــ الرائد عزيز الحاج محمود، لقاء خاص بأمستردام ١٩٩٩.

نظرت إليها بمشهد يزينه نهر وهلال ونخلة، والتي كان لأكثر السجناء فيها بيوت وعائلات وأطفال، فضلاً عن المدارس وملاعب الصبا وبيوت الأصحاب، وزوايا وساحات شهدت وقائعهم.

و لم يعلم المعتقلون بالضبط إلى أين يقتادهم آسروهم، رغم أن بعض الضباط وبعض جنود الحراسة ممن سمعوا أحاديث آمريهم، أخبروا همساً عدداً من زملائهم بأن أوامر قد صدرت بنقلهم إلى سجن آخر بعيداً عن بغداد، وعندما دخلت بهم الحافلات العسكرية وسط المدينة تراءى لبعض ركابها وجود حركة سير فيها، وكأن شيئاً لم يكن، فأحبطهم المشهد، لأنهم كانوا يتصورون أن الحكومة مرتبكة وأن شوارع بغداد ستكون خالية وممنوعة التجول.

وبمجرد أن لاحظوا أن العربات الناقلة تتجه بهم صوب المحطة العالمية ظنوا أنهم ذاهبون إلى ساحة الرمي في "أم الطبول"[1]، فهم حتى تلك اللحظة لم يعلموا ما إذا كانوا قد شيعوا أو شيعتهم أضواء بغداد، التي بدأت تنفلت هاربة ومختفية عن أبصارهم، لآخر مرة، أم ستوهب الحياة لهم سجناً، فيضطرون إلى تمرير الأيام الثقيلة بشؤون بديلة كثيرة، بينها مداعبة أمل اللقاء بمدينتهم وأحبتهم ولو بعد حين، فتكون بمثابة معاناة ممتعة كتلك التي يحس بها مدمن السيجارة التي ينقلها بشغف بين فمه وأنامله رغم معرفته بضررها.

المشهد الثالث:
الموت يقترب من أرواح ثرية

حُمولة آدمية

كان قد أشرف على تلك الإرسالية البشرية، من السجن إلى محطة القطار العالمية (صوب الكرخ)، آمر السجن العسكري رقم واحد الرئيس الأول حازم الأحمر، وأشرف على ترتيبات الرحلة في محطة القطار السيد مصطفى الفكيكي، وهو مسؤول نقابة عمال سكك الحديد وبنفس الوقت كان آمراً لقوات الحرس القومي في قاطع السكك، وقد اتخذ من أحد أبنية "المحطة العالمية" مقراً له.

---

١ ـــ عامر بدر حسون، مجلة الثقافة الجديدة عدد ٩ تموز ١٩٨١، ص ١٣١.

وبعد ترتيب كل شيء بما في ذلك تحضير الركاب المزيفين (الحراس)، أُرسلت مفرزة من حراس المحطة، في وقت متأخر من بعد منتصف الليل، لإيقاظ وإحضار سائق القطار من داره في الكرادة، على وجه السرعة. وقد أشتُرط بالسائق أن يكون خبيراً في القيادة، وبسيطاً ليس له علاقة بالسياسة، فكان ذلك الرجل هو: "عبد عباس المفرجي"، فأبلغوه عن رحلة مفاجئة تتطلب حضوره لقيادة القطار النازل إلى مدينة البصرة، الذي يحمل حديداً (أو مواد حديدية خاصة). وقد وصل بمعية المفرزة إلى المحطة، قبل الحركة بساعتين تقريباً، وكان ما يزال يفرك عينيه، ففي تموز لا يصبح النوم ببغداد ممكناً وحلواً وعميقاً إلا بعد منتصف الليل.

وفي رسالة للمؤلف من الأديب الناقد مظهر عبد عباس، وهو نجل سائق القطار، يقول فيها: "حدثني والدي السيد عبد عباس المفرجي رحمه الله عن تلك الواقعة باعتباره سائقاً للقطار (النازل للبصرة) قائلاً: بُلغتُ بقيادة القطار قبل ثلاث ساعات فقط من انطلاقه، وكانت العادة قد جرت أن نَذهب أولاً إلى مأوى القاطرات، ومن هناك نجلب القطار لوحده ونتجه به إلى محطة غربي بغداد الواقعة قرب المتحف العراقي سابقاً، ونربطه بالعربات التي تكون جاثمة.... ويبدو انهم سبقونا ونَقَلوا السجناء قبل وصولنا وبحضور مصطفى الفكيكي الذي كان موجوداً عند وصولنا للمحطة على غير عادته، وكانت أبواب العربات مضروبة (سَيْر ورَبُدْ)، على حد التعبير الشائع آنذاك، في حين كانت العادة أن نفعل نحن ذلك. فتسلمنا ورقة (اللاينْ كلَيْر) وحُددَتْ لنا السرعة التي كان متعارف عليها عندما نسوق قطار حمولة"[1].

وفي المحطة تسلم السائق تعليمات لرحلة اعتيادية، وذلك يعني أن الرحلة، حتى السماوة، ستستغرق حوالي عشر ساعات، ولم يكن من واجب أو عادة سائقي القطارات فحص عربات الحمل قبل الحركة، خصوصاً إذا ما سُلمت لهم مغلقة، وفي المقابل لا تقع عليهم أية مسؤولية عن نوع الحمولة المنقولة، رغم الطريقة التي تم فيها جلبه، فضلاً عن بعض التصرفات المثيرة للشكوك والملفتة للشبهات مثل:

أولاً: ترحيل القطار دون تزويد حراسه بمفاتيح أقفال العربات ولذلك اضطروا عند الوصول إلى السماوة إلى كسر بعض الأقفال من أجل رفع المزالج وفتح العربات.

ثانياً: خلو المحطة من عمالها المدنيين، ولم يحضر مراسم الترحيل غير المسؤولين

---

١ ــ مظهر عبد عباس المفرجي، رسالة خاصة للمؤلف عام ١٩٩٩ سننشر فقرات منها في نهاية الكتاب.

العسكريين وحراساتهم وبعض المسؤولين الحزبيين، كما حضر عدد من الحراس القوميين الذين تقع محطة القطار العالمية في نطاق قطاعهم.

ويقول الضابط الدكتور رافد صبحي أديب: شاهدنا بوضوح **عبد السلام عارف وطاهر يحيى التكريتي ورشيد مصلح التكريتي*** وعدداً من قادة البعث يشاهدون عملية تحميل المركبات بهذه البضاعة البشرية(١).

قطار لا يصلح لنقل الأوادم

وصلت ناقلات السجن إلى محطة القطار العالمية قبيل منتصف الليل بقليل. وكانت السلطة قد حافظت على سرِّية الرحلة، وأحاطت المحطة العالمية بحراس قوميين وعسكريين كثيرين. وهناكَ قضى المعتقلون وقتاً طويلاً وقوفاً أمام المحطة، ثم فوجئوا بالحراس يقتادونهم نحو قطار حمولة لنقل البضائع، عرباته شبيهة بعلب حديدية صماء محكمة الإغلاق، بلا نوافذ وبلا مقاعد، وكان المنفذ الوحيد للهواء الخارجي الداخل للعربات هو الشقوق الضيقة جداً، الموجودة أحياناً بين أبواب الفاركونات وإطاراتها.

وكانت ثلاث عشرة من عربات القطار الخمس عشر عارية من الخارج، وغير مبطنة من الداخل بمواد عازلة وواقية من تسرب الحرارة، إلاّ من طلاء الأرضية وبعض الجدران من الداخل بالقار، وهو أسوأ من الحديد العاري. كانت عربات مقفلة معتمة، توحي بأنها مخصصة إما لنقل البضائع القادمة من البصرة أو لنقل الماشية ليلاً، ولمسافات قصيرة، فبعضها كان أشبه بأسطبل أو طولة حيوانات متنقلة.

وعندما ترتفع درجة الحرارة أو تنخفض تصير العربات المغلقة من الخارج بسركي حديد (المزلاج أو الريزة) حارقة وكاوية مثل التنور صيفاً، وباردة قارصة مثل الثلاجة شتاءً، وكانت هناك بين كل ثلاث أو أربع عربات حمولة عربة واحدة أصغر حجماً ومفتوحة من أعلى (فلات)، وتستخدم للحراسة وهي أيضاً لا تحمي رؤوس

---

*كان هؤلاء، رئيس الجمهورية ورئيس أركان الجيش والحاكم العسكري العام. والطريف أن الأول احترقت طائرته وقتل فيها في عملية مشبوهة أُثيرت حولها شكوك كثيرة. ودخل الثاني السجن رقم واحد في عهد حكومة البكر ـــ صدام فعُذب وعومل بطريقة مذلة، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن أكد الأطباء بأنه لن يعيش حياً أكثر من أيام معدودات، فخرج من السجن للمشفى ليرحل نهائياً بعد أسبوع أو أكثر بقليل. والثالث أعدمته حكومة البكر ـــ صدام بعد تجريمه رسمياً بتهمة التجسس لمصلحة الولايات المتحدة الأمريكية.

١ ـــ رافد أديب بابان، صفحة منزوعة..، جريدة الجرشة مصدر سابق.

الحراس من حرارة الشمس الحارقة، مما يؤكد أن الحراس لم يكونوا من أفراد الحرس القومي أو من عناصر الأمن، بل جنود بسطاء.

دُفعَ الركاب السياسيون إلى القطار، وكأنهم بضاعة (غير قابلة للكسر)، وذلك بعد أن فُكَتْ قيودهم وأربطتهم من كلبجات وسلاسل حديد وحبال قنب، ويذكر أن حبال القنب تلك كانت غير طرية، أي قليلة المرونة نسبياً، بحيث يمكن بسهولة إخراجها أو تحريكها داخل عقدها مما يُسَهل محاولة التحرر منها، وفعلاً ساعد السجناء بعضهم بعضاً في ترخية وفك الحبالَ والمحافظة عليها مربوطة شكلياً، وهم في طريقهم للمحطة العالمية وأيضاً خلال انتظارهم على الرصيف، وتحرروا منها تماماً خلال وبعد صعود القطار، لكنهم أحسوا برداءة التعامل فور إيصاد الأبواب الثقيلة، ليحل الظلام محل جُهرَة الصباح.

المشهد الرابع: لحوم بشرية في قِدر مغلق

وفي وقت مبكر من صباح ٤ تموز، بين الساعة الثالثة والنصف والرابعة والنصف صباحاً، وبعد فترة أخذ ورد تطلبتها الإجراءات الفنية، تحرك القطار الذي كادت شهرته أن تتغلب على شهرة قطار مظفر النواب في الرَيْل وْحَمَدْ "قطار الليل"، مع الفارق، فقد كان القطار الأول مثالاً للمعاناة والموت، أما الثاني فكان قطاراً للحب والعشق.

ثم بدأت رحلة القطار الذي اتجه إلى مدينة السماوة، وإذا ما وصل ركابه أحياءً سيتم شحنهم بالناقلات (باصات) إلى السجن الصحراوي ليقطعوا مسافة لا تقل عن ٤٠٠ كيلو متراً، وحسب التعليمات كان على سائق القطار أن يسير بسرعة اعتيادية أو أقل من اعتيادية بقليل، والعذر في ذلك هو من أجل صيانة بضاعته الخاصة!! وحتى تبدو الرحلة نظامية وغير مثيرة للشبهات عند الأهالي، لكن ذلك سيعني أنها ستستغرق أكثر من عشر ساعات، وهو زمن يكفي لكي يتسلل الموت المحتم للمعتقلين قبل استكمال الرحلة إلى محطة السماوة، لأن حرارة شمس تموز العراقية الملتهبة سرعان ما ستتمركز على السقوف والجدران الحديدية للفاركونات غير المبطنة فيمتصها الحديد المكشوف وينفثها إلى الداخل.

وهكذا تتحول كل عربة إلى تنور متحرك، **أي إن الحديد غير المبطن سيفعل مع** أشعة الشمس فعل العدسة المكثفة التي تستقبل النور من أحد وجوهها، وتعكسه

مركزاً وربما محرقاً من وجهها الآخر. فلا يصل من الشمس لركاب القطار غير حرارتها، أما نورها فغير موجود، وستحل محله تدريجياً مع انكشاف أنياب الشمس المتلألئة في الخارج، عتمة وغيمة ساخنة من بخار الماء، وروائح الغازات والأسفلت الخانقة في الداخل، وستؤدي إلى أن يفقد البعض توازنه، ويبدأ آخرون بالهذيان فتستدعي ذاكرتهم أسماء أولادهم وأمهاتهم، ويستصرخ بعضهم الأولياء الصالحين تمهيداً لإغماءات متقطعة.

كان كل فاركون، إذن، أشبه بقدر مغلق موضوع على نار هادئة تتصاعد حرارته وتتكاثف متركزة، بحيث تصبح حرارته أعلى بكثير من حرارة المحيط الخارجي، الذي يأخذ منه القدر أو العربة تلك الحرارة الابتدائية.

هذه المرة يجتمع الحر والبرد تحت سقف واحد

وفي البداية أي منذ ما بعد منتصف الليل بقليل (أي قبل بدء الرحلة بساعات) شعر الركاب بقرصٍ بردٍ خفيف، وظل انخفاض درجات الحرارة يشتد خلال فترة الانتظار داخل القطار وحتى ما بعدَ حركته بفترة ليست قصيرة. وهذه من صفات الجو الصحراوي المنخفض الرطوبة البارد ليلاً حتى في الصيف.

وكان معظم السجناء لا يرتدون غير ملابسهم الرسمية التي اعتقلوا فيها أو "بيجامة" النوم "فبدأ البرد القارص ينفذ إلى العظام بعد أن فقدت الأجسام حرارتها، وبقي أكثرهم واقفاً بينما جلس آخرون القرفصاء، منكمشين، في زوايا العربات يحاولون صك أسنانهم التي كانت تصطكُ بشدة، وتمنوا لو يطلع النهار لتعتدل الحرارة.

وقبل أن يدركوا أنّ رحلة القطار ستطول، وبينما يمضي في هديره إلى المجهول ليشق بهم زمناً جديداً ويوماً جديداً لم يكن ما يحمله متوقعاً، إذ شعروا نسبياً بارتياح لأنهم وكما يبدوا منقولون وليسوا مقتولين. وفي محطة خان المحاويل أدركوا من الشقوق والثقوب القليلة، أن الفجر يبزغ والنهار قد بدأ يتكون والدفء يتسلل لتستعيد الأجسام بعض حيويتها. وما أن حلت الساعة الثامنة صباحاً حتى نضجت الشمس العراقية وبدأ يسخَن كل شيء على الأرض.

ولم يمر وقت طويل حتى بدءوا يستشعرون عدوهم الجديد، إنه حرارة الشمس التي تحيط بهم من كل جانب على طريقة العنكبوت الذي ينقلب هو وخيوطه فجأة

إلى ديناصور قاتل، فتنقلب الصورة في رؤوسهم لتتجاوز "أسوأ التوقعات والاحتمالات"، وكان القطار حينئذ يقطع المسافة بين محطتي الحلة والهاشمية، أي بعد ١١٠ كلم تقريباً من انطلاقه من بغداد.

ومن أجل طرد الخوف ترنم بعض ركاب الفاركونات بأغان وأناشيد شعبية محببة، فشدوا إليهم الراغبين في عدم تصديق الخطر المحدق، كما تخللتها أحاديث وتساؤلات كثيرة ومختلفة. لكن هذه التسالي سرعان ما توقفت، ليستسلموا بعدها إلى قدرهم الجديد غير مخيرين.

وحسب التقديرات العلمية والطبية، فإن المعتقلين كانوا سيستسلمون للموت بعد ساعتين فقط من اشتداد حرارة الشمس،بسبب امتصاص الحديد للحرارة التي تتمركز في جدران وأرضية العربات المطلية بقار أسود، الذي بدوره يمتص ويختزن الحرارة الحارقة فتتحول كل عربة إلى تنور متنقل أو فرن مغلق على لحوم بشرية موضوع على نار هادئة.

ومع الارتفاع التدريجي للشمس اقتربت درجة الحرارة في الظل من ٥٠ درجة مئوية، ولم تمر فترة طويلة حتى اشتدت عليهم فارتخت العضلات، واستسلم بعضهم لرغبة عارمة للتبول، وبحدود الساعة التاسعة تسلقت الشمس لتستقر وسط السماء، وذلك ألهب الحديد الذي امتص حرارتها ليختزنها ويعكسها إلى الداخل، مما جعل حالة الركاب تسوء بدءاً من تزايد تصبب ونضوح العرق وانخفاض نسبة الماء والأملاح في الجسم، إلى حالات الاختناق والشعور بالغثيان وهبوط ضغط الدم والضيق والإغماء والتقيؤ[١]. وفقدت الغالبية العظمى منهم، بمن فيهم بعض أصحاء الأجسام، الرغبة بكل شيء، بما في ذلك فقدان البعض لهواية التطلع من شقوق الأبواب الضيقة جداً، تلك الشقوق التي لا يمكن من خلالها مشاهدة غير أشباح بعض المعالم كأشجار النخيل والمحطات التي يمرون أو يتوقفون بها، علماً أن كثيرين كانوا قد فقدوا الرغبة في معرفة المحطات التي يقف بها القطار.

ويقول أحد السجناء: بدأت أجسامنا تفقد سوائلها بالتعرق الشديد، وأصبح الوقوف على الأقدام مؤلماً بسبب حرارة أرضية العربات، ولم يعد بالإمكان الاتكاء

---

١ ـ عامر بدر حسون، الثقافة الجديدة مصدر سابق.ويمكن في هذا السياق مراجعة رواية "وليمة لأعشاب البحر"، للروائي السوري حيدر حيدر، دار أمواج، بيروت طبعة ١٩٨٨صفحة ٢٧٢.

على حائط العربة لحرارته الكاوية، ولم تكن هناك قطرة ماء نخفف بها تيبس حلوقنا وألسنتنا. "وكنت قد لاحظت أن البعض منا بدأ يفقد القـدرة علـى الاستمرار بالوقوف، وسقط كثيرون على أرضية العربة، نصف مغمى عليهم رغـم سـخونة حديد الأرضية، وظلّ بعض الأقوياء يتناوبون على التقرب من شق موجود في حافة باب العربة كي يأخذوا نصيباً من الهواء الخارجي"[١].

وبسبب نقص الأوكسجين داخل العربات أو العلب الحديدية المحكمة الإغلاق، إلاّ من ثقب صغير واحد في هذه العربة أو تلك، انشغل الأكثرية ببحث عبثي يائس عن حلول أخرى وعن شقوق وثقوب جديدة وحقيقية، واحتشد غيرهـم حـول ثقوب وهمية لاستنشاق الهواء منها حتى بعد أن أيقنوا من عدم نفاذها. ومع مـرور الوقت بدأت تتكون في أعلى كل عربة غيمة سميكة من البخار والهواء الحار المشـبع بـروائح فاسدة، فضلاً عن رائحة القار الذائب الكريهة والخانقة.

ولم يسلم نسبياً من المعاناة الشديدة والحالات السالفة أحد، كما لم يبق للمعتقلين ما يلوذون به غير لحس عرق الأجساد، والبحث عن الملح، ليس فقط في الأجـزاء المكشوفة من أجسادهم المتراخية وشبه العارية، بل "حتى في أجساد غيرهم" من رفاق الرحلة!!

وكانت المجموعات التي صعدت مع أطباء، أحسن حالاً من غيرها، لاسيما تلك التي جاءت قِسمتها مع الدكتور رافد صبحي أديب، الذي يتفق الجميع علـى إنـه يتميز بتربية وَذوق وطبيعة إنسانية عميقة، فقد بادر بنصح وإلزام الركاب المـرافقين بعدم قلع ملابسهم لكي يحفظوا طاقتهم، كما يفعل بدو الصحراء الذين يستمرون في أكثر الأحيان بارتداء الفراء في الصيف الحار ليلاً ونهاراً رغم اخـتلاف حرارتهمـا كثيراً.

وكان المعتقلون قد اختاروا في البداية أسلوب الصراخ والضرب بقوة على جدران وأبواب العربات من أجل لفت النظر لمعاناتهم، ولكنهم سرعان ما أدركـوا عـدم جدوى ذلك الأسلوب بسبب ضجيج وصليل الحديد الذي يتولد من الاحتكاك أثناء سير القطار، والذي يحول دون وصول أصواتهم للآخرين بل وحتى لسائق القطـار والمرافقين، ولأنه كان يستنـزف طاقتهم التي هم بحاجة ماسـة للحفـاظ عليهـا

---

١ ــ رافد أديب بابان، جريدة المجرشة.. مصدر سابق.

والاقتصاد في الجهد، من أجل استمرار حياتهم، لكن الأقوياء منهم كانوا يعـــودون لنفس الأسلوب عندما يتوقف القطار في إحدى محطاته الكثيرة.

ومن جانب آخر لم يكن العامل النفسي أقل وقعاً وإرباكاً، فقد كان الوقت يمـــر ثقيلاً جداً، شمس محرقة في الخارج يكاد حديد القطار يحمر جرائها، وعتمة ســـاخنة وخانقة في الداخل، وبنفس الوقت لا أحد من السجناء يعرف يقيناً كيف ســـتنتهي بهم تلك الرحلة خصوصاً وأنهم أصبحوا يعلمون يقيناً، إن لا أحداً من مرافقي القطار وحراسه وفنييه على علاقة بأمرهم أو يحق له السؤال عن وضعهم، فهم متروكـــون وحدهم لمصيرهم.

المشهد الخامس: سائق بسيط لكنه ليس بساذج!؟

وأسوء من كل ذلك إن سائق القطار وحراســـه كـــانوا ينفـــذون التعليمـــات بحذافيرها، متصورين إن حمولة القطار ليست سوى حديد أو مواد حديدية خاصة. لذا سرى السائق بقطاره "ببطء تام" متهادياً وملتزماً بالتعليمات كما سمعها، وكأنه يرحل في فراغ مطلق.

لكن الحظ يتدخل، وهذه المرة لصالح السجناء، عندما توقف القطار في محطة، قبل منتصف طريقه للسماوة بقليل، للاستراحة، أي بعد قطع حوالي ١٤٠ كيلـــومتراً، يقول سائق القطار: "وأثناء توقفي صعد شخص في الثلاثين من عمـــره وقـــال لي: "**خالي تعرف إن حمولتك ليست حديد بل بشر هم أفضل أبناء شعبنا!؟**"[١].

فاهتز المفرجي مذهولاً لمعرفته بعدم قدرة الإنسان، أي إنسان، على تحمل حرارة شمس تموز داخل تلك الفاركونات حتى مدينة السماوة، خصوصاً وإن المسافة الباقية طويلة أي حوالي ١٦٠ كيلو متراً، فضلاً عن محطات كـــثيرة للتوقـــف، فكلـــف

١ ــ مظهر عبد عباس، مصدر سابق: وكان عبد عباس، كما يقول ولده مظهر، قد ظل طوال حياته ممتناً من نفسه بسبب دوره المهم في إنقاذ مئات من الرجال الذين ينتمون إلى النخبة (ضباط ومدنيين متخصصين ومتمرسين) من موت محقق، وظل يروي طوال عمره الباقي، بفخر وكبـــرياء لأبنائه وضـــيوفه المقـــربين حكايته مع قطاره، قطار الموت. وفي هذا السياق أخبـــرني السيد (ر. ش)، وكان سياسياً نشطاً حينـــذاك قائلاً: إن شخصاً آخر مسيَّس، كان قد صعد القطار عند توقفه في إحدى المحطات مخاطبـــاً ســـائقه: "إن حمولتك ليست بضاعة خاصة، إنما سجناء سياسيين، إنهم ضباط عبد الكريم قاسم وإنك تشارك في عمليـــة اغتيال جماعية ضد أبـــرياء وستتحمل نتائجها أمام الله يوم القيامة".

"السَكنْ" (وهي كلمة عراقية دارجة تعني "مساعد السائق" مشتقة من الإنكليزية Second Man) أن يذهب للتأكد من صحة ادعاء ذلك الشخص المجهول. وبعد قليل عاد السَكنْ مصفراً وهو يصيح: "إلحك الحجي طلع صدك"! أي أسرِع فالكلام طلع صحيحاً!!

حينذاك شعر السائق بالرعب من وقع المفاجأة وفكر ملياً ولكن بسرعة، فأيقن أنه قبل أن يصل بحمولته إلى السماوة سيكون قائداً لتابوت جماعي مصفح هيئة قطار. فمن يا ترى يهمه أن يفعل ذلك؟ ومن ذا الذي يتحمل مسؤولية قتل كل هؤلاء الناس بوضعهم في أفران يفطس داخلها الدواب؟ ولابد أن يكون قد أدرك الآن لماذا كانت كل تلك الوجوه المهمة موجودة في وداع قطاره في المحطة العالمية!؟

وأخذ يرقب الحراس المرافقين في رحلة القطار متأملاً وجوههم ومستعيداً تصرفاتهم، وحينئذ تمكن لأول مرة من ملاحظة حركتهم الخجلة غير العادية، ورصد أزيائهم المدنية التي أراد مَنْ أرسلهم وزودهم بها، إمعاناً في التمويه، أن تكون مناسبة كي يظهروا بمظهر عمال أو فلاحين من أبناء منطقة الفرات الأوسط التي سيقطعها القطار. وكانت مهمتهم منع أية محاولة لكسر الأبواب والهرب.

فهو ربما كان قد شك منذ البداية في حقيقة انتمائهم لمنطقة الفرات الأوسط، لكنه يرى الآن بوضوح عدم إتقانهم ارتداء أزياء، اعتاد أبناء المنطقة المذكورة (فلاحون وعمال من أصول ريفية) ارتداءها، فظهروا وكأنهم قد وضعوا أزياء منتحلة في حفلة تنكرية. وفي حقيقة الأمر، كان هؤلاء حراساً متنكرين بملابس محلية وظيفتهم حماية القطار ومنع أية محاولة قد تأتي من الخارج لكسر الأقفال، لأن عملية الكسر من الداخل تكاد تكون مستحيلة بسبب قفل العربات بمزلاج خارجي (السير والربد). وليس هناك ما يؤكد أن الحراس المذكورين يعلمون أو يحق لهم العلم بأكثر من حراسة العربات من خارجها.

نخوة السائق أكدت إن جذور مدنية العراق العريق مازالت موجودة وضاربة

وقد كان ذلك سبباً كافياً لتستبد بالسائق "عبد عباس المفرجي" روح الشهامة العراقية المتوقعة، تلك الروح المُؤَيَدَة بذاكرة ودية لعهد عبد الكريم قاسم من قبل أغلب العراقيين البسطاء ومحدودي الدخل، فقرر أن يقوم بواجبه، مهما كان الثمن

ومهما كانت العقوبة، وأن لا يكون شريكاً في الجريمة، وأن لا يتحمل مسؤولية موت بشر أبرياء أمام الله عز وجل!؟ فحزم أمره، وأسرع بإنجاز الشؤون الفنية الضرورية لمواصلة الرحلة، وأطلق صافرته مستعجلاً حراس حمولته المرافقين لينطلق بقطاره، قبل الموعد المحدد وبسرعة قصوى غير مسموح بها لقطار حمولة في الأحوال الاعتيادية.

لقد أصبح القطار فجأة من وجهة نظر السائق غالياً، وأمانةً يحرص حرص المؤمن النبيل على إيصالها غير ناقصة، ولذلك آثر أن يستغفل الملازم الذي يسير القطار بإمرته، وأن لا يخبر أحداً عن نيته في زيادة السرعة، وعن سر حمولته كي يتعذر على كل مَنْ يستطيع إلزامه بالتعليمات التي سبق أن تبلغ بها في المحطة العالمية. ويُذكر أن الرحلة الاعتيادية للقطار من بغداد إلى السماوة تستغرق حوالي عشرة ساعات لتقطع مسافة ٢٨٨ كيلومتراً من بغداد إلى السماوة. وإذا سار السائق حسب التعليمات فسيستغرق زمناً أطول أي سيصل بعد الظهر، لكنه وبعد أن علم بسر حمولته سار أعلى من سرعة "القطار السريع"، بل قال بعض ركابه إن القطار كاد أن يطير بهم إلى السماوة، متجاوزاً أكثر المحطات الباقية.

ويقول السائق: "وقعت في ورطة الخيار بين إنقاذ الأرواح البريئة وبين احتمال العقوبات المترتبة على عدم الالتزام بالتعليمات، ولكن كان لابد من الذهاب فيها إلى النهاية، وهكذا واصلنا السير وعبرنا المحطات الأخرى حيث كنا نقابل، في كل محطة، الناس محتشدين على جانبي سكة الحديد حتى وصلنا السماوة".

ويمر القطار خلال رحلته الطويلة بمدن ومحطات كثيرة وهي محطة بغداد، الدورة، هور رجب، الغزالات، اليوسفية، المحمودية، اللطيفية، الإسكندرية، المسيب، مفرق الهندية، قرية حصن البيكات، خان المحاويل، بابل، الحلة، الهاشمية، قرية قوجان، الشريفية، خان الجدول، وفي الديوانية يكون القطار قد قطع مسافة ١٩٠ كيلو متراً، ثم محطة بنت مريم، والحمزة، والعكشة، وأبو طبيخ، والرميثة، وقرية واوية، ثم إلى مدينة السماوة فيكون قد قطع ٢٨٨ كلم. وإذا كانت رحلة القطار غير استثنائية ستتجه بعدها إلى مدينة البصرة في أقصى جنوب العراق.

ويبدو أن التعليمات التي تلقاها سائق القطار جعلته، بعد فترة وجيزة من تحرك القطار، يبطئ سرعته لتطول فترة المعاناة. وعندما أحس السجناء بذلك بدءوا يدقون على جدران العربات بقبضاتهم كلما يتوقف القطار فيها لخلق ضجيج يجلب انتباه الناس لحالتهم المشرفة على الهلاك.

وفعلاً فقد سمعوا عند توقفهم في إحدى المحطات "صوتاً خافتاً من الخارج قرب شق الباب يهيب بهم الصبر قائلاً: أخواني اصبروا وتحملوا سيأتي الفرج قريباً.. سائق القطار لم يدرِ ما هو حمل قطاره.. وقد أدرك الآن وسيصل بكم إلى السماوة بسرعة. وأضاف محَدثي قائلاً: "رأينا مصدر الصوت من خلال شق صغير وضيق جداً في الباب فكان شرطياً، شرطياً شريفاً، انتقل إلى العربة التالية لينقل نفس الرسالة"[1].

وكان السجناء قد لاحظوا فعلاً أن القطار قد بدأ بزيادة سرعته بصورة ملحوظة وكأنه يخوض سباقاً ضد الموت المترصد بهم، إلى الدرجة التي بدأت معها العربات تهتز وتتأرجح لفرط السرعة التي ساعدت نسبياً على تبريد حديد العربات، وساعدهم ذلك، نسبياً، على مقاومة الحرارة. كما أن كلمات الشرطي الطيبة رفعت المعنويات وأنعشت الآمال وأشعرتهم أنهم غير منسيين.

ولم تكن حادثة القطار الخطيرة هذه هي التجربة القاسية الأخيرة في تاريخ العراقيين الآتي، بل كانت بداية انتكاسة أخلاقية ستتكرر وتستمر طويلاً، مما اضطرهم فيما بعد إلى ركوب الأخطار المميتة وعبور البحار والمحيطات بمراكب وحاويات وصهاريج قاتلة، والصعود إلى طائرات شحنٍ غير مدفأة كي يصلوا جثثاً مجمدة أو غارقة، إلى بلاد الظلام الباردة (أوروبا)، هرباً من مكرمات "القادة الوطنيين المؤدلجين"*.

ولم يُعرَف لحد الآن كيف عَلِمَ ذلك النفر من أبناء المحاويل أو أية محطة أخرى غيرها أيضاً بسر ذلك القطار المشؤوم ليحتشدوا حاملين "أسطل" الماء، ففي الديوانية رش عدد من المَنتظرين الماء على العربات "فأخبرتهم أنهم بهذه الطريقة سيقتلون ركابي، فاقتربت مني امرأة وقبّلت يدي في غفلة مني وقالت: أرجوك

---

١ ـــ رافد أديب، الجرشة، مصدر سابق.

* ولا أدري هل كان غسان كنفاني قد استمع إلى أحد شهود قطار الموت ليقارن ذلك روايته الشهيرة "رجال تحت الشمس" التي تدور حول ثلاثة رجال دخلوا "صهريج" شاحنة فارغ من الماء هدفهم عبور الحدود بحثاً عن عملٍ في بلد عربي مجاور فماتوابسبب الحر وقلة الأوكسجين، رغم إن المدة التي قضوها داخل الصهريج قصيرة جدا بالقياس لرحلة القطار العراقي المشؤوم، إذ تركزت أشعة الشمس العمودية الثاقبة فامتصها الحديد ونفثها للداخل المظلم لتطبخ بسرعة أجساد الضحايا، ليضع الموت حداً لحياة متعثرة أصلاً.

أوصلهم بسرعة"[1]. فهل كانت هذه أم أم أخت أم زوجة استطاعت بحرقة صادقة أن تقيد السائق بقيد أمانة جديد.

وغير معروف لحد الآن هل كان تسريب الخبر، بهذه الطريقة ووصوله بسرعة إلى أشخاص متعاطفين مع المعتقلين، عملاً منظماً أم كان كل ذلك قد تُم بما فيها الطريقة التي أُبلغ فيها سائق القطار مصادفة؟ وهل كان الشيوعيون مازالوا قادرين، رغم الضربة القاصمة التي تلقوها، على تنظيم مثل تلك الاتصالات التي لا شك إنها جرت بسرعة غير متوقعة؟

ولا ندري هل سرَّب الخبر السري للغاية بعثيون متعاطفون، وبذلك وفروا لغيرهم تنظيم آلية ردة الفعل؟ أم كان أُولئك أقرباء السجناء؟

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الذين وقفوا وراء التبليغات ووراء إثارة نخوة السائق، كانوا قد اتصلوا بمعارف وأقرباء ومتعاطفين في مدينة السماوة لاستقبال القطار واستغلال فرصة وصوله قبل الزمن المحدد، لتحضير الماء والمواد الغذائية لمساعدة السجناء العطشى، إذ سيصل القطار، بسبب سرعة سائقه غير المتوقعة، قبل أن تتهيأ السلطات المحلية للحضور لاستقباله.

وكان بين سجناء القطار ضابط صيدلي هو ابن "السيد طالب ..."، والأخير شخص ميسور ووجيه من أهالي مدينة السماوة، وعندما عَلِمَ الوالد، المتتبع لأخبار ولده، بخبر القطار اتصل من بغداد بأهالي مدينته (السماوة) واستنفرهم، فطبخت النساء وخبزت الخبازات، فأحضروا من الزاد ما يكفي عدة مرات للعدد المنقول في القطار قبل موعد وصوله، وقد استغل السيد طالب تأخر السجناء في محطة السماوة لساعات، فاستأجر شاحنة (لوري) وَحَمَّلَها مواد غذائية كالرز والسكر والشاي والسمن والدقيق والتمر وسيَّرها مع سيارات نقل السجناء إلى نقرة السلمان هدية منه إليهم.

---

[1] مظهر عبد عباس، مصدر سابق ١٩٩٩.

انتفاضة السماوة الصامتة

وهكذا وصل القطار إلى السماوة[1]، قبل الموعد الذي حددته تعليمات المديرية العامة لمصلحة السكك الحديدية بثلاث أو أربع ساعات، إذ اختصر السائق كثيراً من الترتيبات الروتينية كما لم يتوقف في بعض المحطات، بل كان كلما مرَّ بمحطة وشاهد عدداً من المستقبلين الذين تدل إشاراتهم على علمهم بمحنة قطاره، يشتد إصراراً على عدم التوقف وعلى السير بسرعة غير معهودة، وكان التوقف في المحطات وإجراءات الصيانة والترتيبات الفنية والرسمية تأخذ وقتاً لا يقل عن الزمن المطلوب لدوران العجلات وقطع المسافة.

وأخيراً توقف القطار، واحتاج المعتقلون إلى جهد كبير ليعلموا أنهم الآن في محطة مدينة السماوة فبدأوا مجدداً يقرعون أبواب العربات ويصرخون بشدة لجلب الانتباه إلى خطورة حالتهم.

وعلى عجل طلب سائق القطار من ناظر المحطة فتح العربات، وعندما فتح حرس القطار المرافقين المكلفين بحمايته أبواب العربة الحديدية الأولى المغلقة من الخارج، تكشفت عن حشرجات صادرة عن هياكل وأعماق وأجساد بشرية شاحبة زاحفة للخارج، و"تهاوى منها الأشخاص وهم أنصاف عراة على رصيف المحطة"٢، واحتاج غيرهم إلى معونة أيد تمتد إليهم، في حين غاب آخرون عن وعيهم، فقد ظل العقيد نادر جلال، على سبيل المثال، في مكانه غائباً عن الوعي حتى بعد رش الماء عليه، ونقلت سيارات الإسعاف سبعة كانوا في حالة خطرة، مات منهم شخص واحد على الأقل هو الرائد يحيى نادر الذي كان مصاباً أصلاً بمرض الربو.. وهو شقيق

---

١ ـــ السماوة هي واحدة من عواصم الفرات الأوسط الخمسة الحلة وكربلاء والنجف والديوانية. والسماوة، التي اشتهر أهلها بخصال الشهامة والوفاء، مدينة شبه صحراوية تماثل في طبيعتها مدينتي النجف والرمادي، وطريقها إلى نقرة السلمان لا يختلف عن طريقهما إلى الرحبة والرهيمة والرطبة، تقع في الصحراء رغم كثافة بساتين النخيل في الشريط المحاذي لنهر الفرات الذي يشقها إلى صوبين، الصوب الصغير وهو حي حديث تقطنه أسر مرفهة يفضي إلى طريق الرميثة حيث التجمعات العشائرية العربية الكبرى، التي تستمد منها منطقة الفرات الأوسط والسماوة الكثير من قوتها. أما الصوب الآخر الكبير، حيث يقطن ذوي الدخل المحدود والفلاحون المعدمون، وتقع فيه محطة القطار التي شهدت ملحمة إنقاذ سجناء، كلهم من أصحاب المعرفة والرأي، فيطل على الصحراء الواسعة، وتشقه طريق ترابية تصل إلى نقرة السلمان وبحيرة ساوة.
٢رسالة من مظهر عبد عباس، مصدر سابق.

اللواء محمد نادر مدير إدارة الشؤون الطبية في الجيش العراقي.

كان المشهد أشبه بمقطع مأخوذ من مسرحية يجري تصويرها داخل مقبرة أشباح، حيث تخرج الهياكل من قبور مظلمة زاحفة أو مترنحة. وقد أوحى رمق الموت والهزال الظاهر على الوجوه التي تحملها أخيلة مرتعشة ومنحنية، بضعفها فتركت تنزل بحرية دون رقيب ودون خوف من الهرب.

ويبدو أن الضابط المشرف على رحلة القطار من بغداد حتى السماوة لم يكن يدرك، لا هو ولا بقية الحراس المرافقين، سر حمولته أو مدى خطورة التلف الذي كادت الشمس الحارقة أن تسببه لركابه، والأخطار الجسيمة التي كان سيتحمّل مسئوليتها فيما لو أطبق الردى بفكيه على هذه النخبة من أبناء بلده.

وفي هذا السياق يقول الضابط الطبيب رافد صبحي أديب بابان: "كنا نسمع، خلال ذلك، الأوامر التي كان يطلقها الضابط الملازم الذي كان القطار بإمرته والتي كانت تدل على عدم إدراكه بما كنا عليه، فقد أمر أن تُفتح العربات واحدة واحدة ليتسنى نقل "بضاعة" كل عربة إلى الباصات المعدة خارج المحطة لنقلنا إلى الصحراء. ولكنه ما برح أن شاهد بعينيه ما حلّ ببضاعته في العربة الأولى حتى تولاه الرعب وقال: "هاي رادوا يخلّوها برأسي؟!". وأمر بفتح كافة العربات فوراً، فتساقطت منها الكتل البشرية التي كانت تحملها، واندفع مَنْ كانت لديه طاقة باقية نحو حنفية الماء على رصيف المحطة وكنت من هؤلاء.. إلا أنني أدركت أن شرب الماء دون تعويض ما فقدته أجسامنا من الملح خلال تعرّقنا الشديد سيؤدي بالبعض إلى هبوط نسبة الملح في الدم وقد يسبب ذلك هبوطاً في ضغط الدم والإغماء ثم الوفاة. فوقفت في سبيلهم وناشدتهم الامتناع عن شرب الماء حتى يتوفر لهم الملح وبدأت أصرخ قائلاً: ملح.. أرجوكم ملح"[1].

وبنفس الوقت كان الناس المستقبلون موجودين هناك أيضاً، ففزعوا، دون إذن من أحد، لمساعدة الحراس والأطباء الذين كانوا في العربات الأخرى على تقديم العون وإعطاء كل معتقل "لَهمَة" ملح، وكان بين الناس الذين هبوا للمساعدة أطفال ونسوة كثيرات كن قد خرجن من مساكن موظفي سكك الحديد المطلة على رصيف المحطة، وكل واحدة تحمل كيساً من الملح الخشن، فكان لهن دور مهم

[1] ـــ رافد أديب بابان، الجرشة.. مصدر سابق.

بتوزيعه بأنفسهن خصوصاً لأولئك الذين كانوا قد فقدوا الوعي أو غير القادرين على النهوض والخروج من العربات، قبل أن يسمحوا لهم بتناول ما شاءوا من المياه الدافئة. ويروي معتقلون وشهود عيان بأنهم كانوا يسمعون صوت الماء وهو يرتطم بأسنان وألسنة المعتقلين العطشى.

وبعدها سحب المعتقلون بعضهم بعضاً، إلى الرصيف. وتم إطعام غير القادرين بالملح وغسل رؤوسهم بالماء لتخفيف وطأة الحرارة. وبهذه الطريقة تمكنوا من إنقاذ كثيرين، باستثناء الرائد يحيى نادر الذي بقي في حالة إغماء عميقة، إذ لم يكن من سبيل لإنقاذه سوى "نقل الماء المملح (سيلاين) إلى أوردته مباشرة، وناشدْنا الملازم الذي كان ممتقعاً شاحب اللون لاستدعاء سيارة إسعاف لنقله إلى مستشفى السماوة حالاً وتوسلت إليه أن يمكنني من مرافقته". فأجاب الملازم: "لقد استدعيت الإسعاف وهي في الطريق، إلاّ أنني لا أملك صلاحية السماح لك بمرافقته"[1]. وبالفعل أخذته سيارة الإسعاف إلى المستشفى حيث توفاه الله.

ويذكر الملازم أول الطيار عبد النبي جميل: إن أحد أسباب تأخير بداية الرحلة الثانية إلى نقرة السلمان، كان انتظار السجناء السبعة الذين كانوا قد نقلوا وهم في حالة خطيرة إلى المستشفى، مما اضطر المسؤولين إلى انتظار عودتهم.

ويضيف: لم تمر دقائق حتى كان حوالي ٣٠٠ معتقل أكثرهم بملابسه الداخلية "اللباس والفانيلة"، يتمددون على أرض ساحة الرصيف الكونكريتية، وكان طول الرصيف أقصر من طول القطار، ولذلك استمر ولفترة ليست قصيرة تسرب المعتقلين زاحفين ومتسلقين الرصيف صوب الساحة العريضة، نسبياً، التي تتوسطه، ليعرضوا أجسادهم لرشاشات الماء المنهمرة من "صوندات" (أنابيب مياه مطاطية) الأهالي الذين استمروا يتوافدون على المحطة.

ووسط دهشة سيطرت على الجميع، تحركت أياد حانية سقت واعتنت بالجميع، بعد الاستماع وتنفيذ تعليمات الأطباء والصيادلة المعتَقلين، وخصوصاً الدكتور رافد صبحي أديب الذي وقف صارخاً آمراً بوقف سقي المعتقلين بالماء البارد، وبأهمية خلط الماء بالملح وإلا سيتعرض الجميع لخطر الموت.

ولو كان القطار قد تأخر وصوله بضع دقائق أخرى لمات نصف ركابه، أي

---

١ ـــ رافد أديب بابان، الحرشة، مصدر سابق.

لتحول القطار إلى ما يشبه أفعى من حديد تطحن في داخلها أجساداً ذابلة ومنهكة، قطار لا تقبل أبواب عرباته الكسر من الداخل، لأنها موصدة بمزلاج محكم (سير وربد) من الخارج.

وللمرة الثانية يلعب الأطباء المعتقلون وبعض الصيادلة و"المثقفين صحياً" دوراً عظيماً في إنقاذ حياة رفاق السجن، إذ قفزوا إلى الأمام وأمروا المستقبلين، الذين أحضروا معهم مياه مثلجة وحليب ومشروبات غازية وبعضهم كان يحمل الخيار والرقي (البطيخ الأحمر)، فمنعوهم من توزيعها ونصحوا المعتقلين بخطر شربها على حياتهم، وطالبوا المحتشدين باستبدالها بمياه دافئة وملح طعام، وهي متوفرة فوراً بحكم حرارة تموز إذ لا تعطي الحنفيات هناك غير مياه ساخنة، كما أن هناك، قريباً من السماوة توجد ممالح طبيعية كثيرة فهي بالتالي رخيصة ومتوفرة بكثرة، وبسرعة فائقة أحضر الناس المياه الدافئة في أوانٍ متنوعة لاسيما "السطل والطشت والمصخنة" وهي أكبر أنواع الآنية المنزلية التيّ يتوفر عليها كل بيت عراقي تقريباً، وتستخدم لحفظ ونقل الماء وغسل الملابس وحاجات منزلية أخرى، وسقوا ورشّوا منها المنكوبين، لكن ذلك لم يمنع بعضهم من التخلص من ملابسه لاجئاً إلى السواقي والارتماء على وجوههم في قعرها.

وفي هذه الأثناء وصلت قصة القطار، الموجود في المحطة، إلى جمهور مدينة السماوة فسارعوا إلى المحطة بالطعام وسلال الفاكهة، ولم تتمكن سلطات الأمن من منعهم، وكان ذلك تعبيراً عن عدم رِضا أبناء الشعب بمثل تلك الممارسات أو في أحسن الأحوال بمثل ذلك الإهمال.

جرى كل ذلك وسط حشد من الناس، تتعالى بينهم ولولة وبكاء النساء. وعندما حاول رجال الشرطة والحراس القوميون الاعتراض تحدث معهم بعض الضباط السجناء فعاتبوهم فشعروا بالخجل وابتعدوا احتراماً لذلك المشهد الإنساني الضميري المؤثر النادر الوقوع. وقد استجاب حراس القطار وحراس المحطة للعتاب السمُر:

أولاً: لأن الضباط المعتقلين كانوا من ذوي الرتب العالية والأسماء المعروفة..

وثانياً: لأن الناس الذين تعاونوا مع المنكوبين كان عدد كبير منهم مواطنين عاديين أعطوا انطباعاً صادقاً بأن همهم الوحيد هو القيام بعمل إنساني (غير سياسي) لإنقاذ أرواح مهددة بالعوق أو الموت، وقدموا مساعداتهم بصمت ودون كلام، رغم

أن المعتقلين أخذوا الأمر على محمل سياسي إذ أطلق حمدي أيوب العاني، وكان أحد ركاب القطار، على نجدة أهالي مدينة السماوة اسم "انتفاضة السماوة الصامتة"، كما أن عزيز الشيخ كان قد تجرأ وألقى خطاباً حماسياً قال سألقيه حتى لو أُقتل وراءه.

مشادة على الرصيف انتهت بسلام

ومثلما استفاد المعتقلون استفاد المستقبلون من وصول القطار قبل موعده لأنهم بكروا في الحضور إلى محطة قطار السماوة، وذلك أعطاهم فرصة ثمينة لاستقبال المعتقلين والعناية بهم في ظل غياب عدد كبير من المستقبلين الحكوميين ورجال الأمن والحرس القومي، إذ لا يخلوا الأمر إذا ما كثر عدد المستقبلين من زيادة نسبة وجود المتعصبين أو الرعاع والفضوليين الذين قد يؤثرون، بسبب تملقهم، على أن لا تؤدي النجدة وظيفتها الإنسانية.

ولذلك فوجئ المسؤولون عن الأمن، عند حضورهم، بأجواء وحالة خاصة كان المستقبلون المحايدون قد فرضوها بصورة تختلف عن تلك التي كان يرغب بها المسؤولون الحكوميون، الذين وجدوا أنفسهم، برغبة أو بدونها، يعملون وسط آلية لم توضع من قبلهم. إلى درجة أن بعض معتقلي القطار الذين ما زالوا أحياءً أكدوا بأن عملية مرتجلة وفورية للهرب الفردي والجماعي كان يمكن تدبيرها بسهولة بعد وصول القطار إلى السماوة، لولا حالة الضعف الجسدي للمعتقلين، ولولا عدم وجود تنسيق مسبق مع أشخاص مساعدين من أبناء المنطقة كي يدبروا الطريق أو المأوى أو المخبأ المؤقت. وربما تكون مثل تلك الصعوبات الطبيعية قد وقفت وراء اختيار قيادة الجيش لهذه المنطقة البعيدة، وللسجن الصحراوي الذي حتى لو فتحت أبوابه لمات الفارون منه تيهاً قبل الوصول إلى مدينة السماوة.

احتاج رجال الحرس القومي والمسؤولون عن المحطة، الذين لم يتوقعوا أن يتصرف سائق القطار ويتجاوز التعليمات، مدة نصف ساعة تقريباً كي يتجاوزوا الدهشة ويلملمون أنفسهم ويأخذون الشكل الرسمي الناشف، إذ كان بعضهم قد شارك في نجدة المعتقلين بعد أن فرض المستقبلون إيقاعهم، فتجمعوا وبدلاً من التهدئة تصرف قائد المفرزة، وكان سيئ الطبع، بطريقة لم يعط معها أي اعتبار للحالة الإنسانية المتجسدة أمامه، خصوصاً وإن الذين تعرضوا لخطر الموت الجماعي هم أبناء الوطن

المتعلمين، الذين أرادوا خدمته ولكن من وجهة نظر مغايرة ومختلفة، ولم يكونوا في أي حال من المجرمين، فأخذ يعطي أوامر فارغة ومتعسفة. فما كان من أحد الضباط المعتقلين الشباب "الملازم قيس محمد صالح" إلا أن يتقدم منه ويلطمه كف "راشدي" شديد جداً! فاستنفر الآمر جميع أفراد الحرس والشرطة الموجودين وسحبت الأقسام وساد توتر خطير، لولا تدخل بعض أفراد الحرس القومي الذي أوقف تدهور الموقف، فطالَب آمر الحرس المُعتَدى عليه تسليم قيس محمد صالح[1]، لكنه فوجئ بوقوف أكثر من خمسمائة سجين (غير مقيدي اليدين) بين ضابط وسياسي ضد تسليمه، وقالوا "سنموت جميعاً قبل تسليمه!"، وكانت هذه الحادثة وأمر انتظار عودة المسعفين من المستشفى، وراء تأخير بدء المرحلة الثانية من الرحلة الشاقة نحو سجن نقرة السلمان.

شيء من الفرح قبل السجن

وحتى لا تتفاقم ردود الفعل وتصل فضيحة القطار إلى بقية المواطنين، ولأن مدينة السماوة لم يكن لديها من المرافق العامة ما يكفي لاستيعاب والتحفظ على سجناء ليسوا من الفلاحين، ويربوا عددهم على الخمسمئة، فضلت السلطات ترحيلهم لسجن النقرة في اليوم نفسه، رغم بؤس حالتهم الصحية والنفسية وتعب أجسادهم.

بعد ارتياح المعتقلين اقتيدوا إلى مركز شرطة المحطة، وهناك حصلت مشادة بين بعض المعتقلين ومراتب الشرطة المحلية والحراس القوميين حول طريقة التعامل، وحول ما تسبب به سائق القطار من فوضى نظراً لعدم التزامه بلوحة المواعيد[2]. وفيها

١ ــ ويذكر إن الملازم الشاب قيس محمد صالح كان قد التحق، بعد إطلاق سراحه في عام ١٩٦٨، بقوات المقاومة الفلسطينية واستشهد في عملية فدائية بغور الأردن ضد قوات العدو الإسرائيلي وشيع جثمانه بصورة مهيبة في بغداد (الأعظمية)، ومازال المقاومون الفلسطينيون الأوائل يذكرون عمق إيمانه وشجاعته. وكنت شخصياً قد التقيت به في الأردن لفترة قصيرة حوالي عام ١٩٦٩، وعلمت أن عدداً من أقرب أصدقائه في المقاومة كانوا بعثيين يساريين عراقيين استشهد بعضهم هناك ومازال آخرون يعيشون في بغداد.

٢ ــ يقول سائق القطار: "ذهبت برفقة زميلي إلى دار الاستراحة وعدنا في اليوم التالي إلى بغداد ولم يمر يوم واحد حتى استدعيت على عجل إلى "المديرية" السكك، وتسلمت أمراً بفصلي لمدة ستة أشهر وإلغاء أمر ترفيعي (ترقيتي) الذي كان يجب أن أتسلمه في تلك الأيام... وتساهلوا معي كثيراً لأنني لم أكن شيوعياً أبداً." ويقول: "ورجعت إلى البيت مرتاح الضمير". راجع رسالة مظهر عبد عباس المفرجي١٩٩٩ في نهاية الكتاب.

استفاد المعتقلون كثيراً من وجود ضباط كبار وشخصيات معروفة، في حين كان أفراد الشرطة المحليين ليس بينهم ضابط واحد، فأخجلوهم وفرضوا عليهم معاملة متسامحة.

وهكذا جرى تعبئتهم مرة أخرى، ولكن هذه المرة بسيارات سجن متنقلة بلغ عددها خمس عشرة عربة، اتجهت بهم في رحلة صحراوية طويلة نحو نقرة السلمان. وكانوا في حالة نفسية أفضل نسبياً، وذلك بسبب أولاً خلاصهم من الموت المزدوج(من أيدي عبد السلام عارف واحمد حسن البكر وعبد الغني الراوي، ومن بطن الأفعى المصفحة المسماة بقطار الحمولة). وثانياً بسبب حرارة الوداع من قبل جمهور غفير من أبناء المدينة، جاء أغلبهم ليتفرج على "شخصيات مهمة" لم يسبق لهم في حياتهم الاعتيادية أن التقوا بمثلها، وكانت المدينة قد علمت عن بكرة أبيها بالحادث، إذ تناقل الناس أخبار المحطة بسرعة ونسجوا الحكايات المثيرة والمشوقة، وكان ذلك دافعاً كافياً للملأ من مثقفين وفضوليين وبسطاء ولغيرهم للفرجة.

عوامل ساعدت على بقاء معتقلي القطار أحياءً

لقد استغرقت أزمة المرحلين منذ بدء إطلاق النار في معسكر الرشيد حتى الوصول إلى النقرة ثلاثين ساعة تقريباً، واستغرقت الرحلة منذ خروج السجناء من معسكر الرشيد حتى وصولهم نقرة السلمان حوالي اثنين وعشرين ساعة، تحملوا خلالها ضغطاً متواصلاً ومصاعب كثيرة، ولأزمة موت مرتين على الأقل، لكنهم تماسكوا ليظلوا أحياءً أطول فترة ممكنة، وكانت أسباب صمودهم الذاتية والموضوعية كثيرة تداخلت مع بعضها لتعطيهم رغبة إضافية للبقاء، بينها:

أولاً: قدرة الإنسان على التحمل والصمود أثناء المحن، فضلاً عن رغبة البقاء التي تدعم المقاومة عنده، خصوصاً وإن ما تعرض له السجناء كان بسبب الرأي، أي كان مما يتفاخر به المرء، وذلك لا شك يخلق شعوراً بالرضا عن النفس وبالتقبل النسبي للنتائج، دون أن يعني ذلك قبول المعتقلين "الانصياع لموت أعمى"، فلجأ عدد كبير منهم إلى الصراخ والضرب على جدران العربات لكي يُعلموا الناس أنهم موجودون وعلى وشك الموت، رغم إن ذلك يستنزف منهم جهداً وطاقة كبيرة، لم يكن قد بقي منها إلاّ النزر اليسير. غير إن الإنسان عندما يصبح في قلب الموت تختلط عنده مشاعر اليأس والموت، فيناور مستعيناً بمشاعر سابقة من الأمل المضيع أو

الضائع فيقلب الموجة إلى كفاح داخلي يستسلم خلاله لصمت متأمل، ولذلك عـم عربات القطار في مرحلة معينة هدوء عميق، لم يشقه غير دندنات فردية لأغنيات من التراث الشعبي والوطني العراقي الغزير والحزين بصوت خفيض لكنه مسموع، مثل:

السجن ليس لنا نحن الأباة السجن للمجرمين الطغاة

ومثل: أغنية **أحمد الخليل: "هربجي هربجي كرد وعرب رمز النضـال"**، ليشد العرب والكرد أزر بعضهم في رحلة لا أحد يدري كيف ستنتهي؟

وأناشيد وأشعار ذات طبيعة سياسية وحزبية مثل:

سنمضي سنمضي إلى ما نريد وطن حر وشعـب سعيد

لعلهم بذلك يتحسسون أنفسهم، ويستشعرون وجـودهم ووجـود غيرهـم، ويحافظون على شيء من الأمل ببقائهم أحياء.

ثانياً: موقف سائق القطار الحاسم. الذي أقل ما يقال عنه إنه كـان في رفضه للظلم وشعوره بالمسؤولية، ممثلاً حقيقياً للضمير الشعبي العراقي المعـروف تاريخيـاً بالمبادرة والعفوية، رغم كل مظاهر الحدة البادية عليه، التي فرضتها محنته الدائمة مع سلطات بلده المتعاقبة.

ثالثاً: وجود عدد من الأطباء وأطباء الأسنان والصيادلة وأفراد مثقفين طبياً بـين الضباط المعتقلين الذين أقلّهم القطار إلى مدينة السماوة (محافظـة المـثنى لاحقـاً)، وهؤلاء زودوا رفاق الرحلة بنصائح صحية مفيدة جداً، مثل مصّ الأصـابع بعـد تمريرها على مناطق تصبب العرق، فضلاً عن لعق الأجزاء الظاهرة من الجسد باللسان وعصر الملابس الداخلية ووضعها على الوجه لترطيب البشرة، وذلك مـن أجـل استعادة جزء من الأملاح التي يتزايد طرح الجسم لها مع العرق إلى الخارج مع اشتداد الحرارة، وهي أملاح ضرورية لاستمرار مقاومة الجسم.

رابعاً: نجدة أولئك الذين أبلغوا السائق بسر حمولته، وأداروا شبكة الاتصالات مع مَنْ يعنيهم أمر انتظار ونجدة السجناء في محطة السماوة وغيرها كائناً من كان، فضلا عن شجاعة وشرف الكرم والنجدة التي أظهرها أهالي السماوة.

من السماوة إلى النُـقْـرة

حوالي الساعة الرابعة من عصر يوم ٤ تموز ٦٣ تحرك، انطلاقاً من محطة قطـار السماوة، عدد من الباصات تواكبها سيارات حراسة من الشرطة يتبعهم لوري المواد

الغذائية، هدية المتبرع "السيد طالب.."، عبر طريق صحراوية تجاه سجن النقرة.

ويربط بين السماوة والنقرة طريق صحراوي خال من أي أثر للحياة، وتقطعه السيارات بخمس ساعات، باستثناء مركز شرطة يقع على الطريق ويبعد مسافة ثلاثة أرباع الساعة في السيارة ويسمى "مركز شرطة العميِّد" ويتوقف عنده المسافرون للراحة.

وكانت تلك الباصات، رغم عناء وطول الرحلة، وسط عواصف التراب الذي ينفذ إلى الأجساد وداخل البيوت والسيارات، مهما كانت الإجراءات والاحتياطات، ووسط حرارة الجو الحارقة، أرحم من رحلة القطار بما لا يقاس. كما كان سجن "النقرة" أفضل وأقل خطراً من السجن "رقم واحد"، فهو أكثر أمناً، ويقع بعيداً عن نظر وأمزجة مراكز القوة في السلطة السياسية والعسكرية المتحكمة بالقرارات الأمنية، وذلك ربما سيقلل من إمكانية استغلال أطراف الأزمة الحكومية المشتدة للضباط والسياسيين المعتقلين، بعد أن اعتاد فرقاء السلطة توجيه التهم إليهم كلما أعلنت مظاهر عجزهم عن إدارة الدولة العراقية المتنوعة بلون واحد. وسيكون الأمان في سجن النقرة أكبر إذا ما علمنا أن من يقضي في بغداد لم يكونوا قضاة أقسموا على طاعة القانون، بل سياسيون لا يتوانون عن توجيه تهم العمالة والمشاركة في مؤامرات أجنبية ضد الدولة، تلك الدولة التي لم يحترمها حكام العراق على طول الخط، منذ الاستقلال الوطني، بل غالباً ما ألحقوها بالحكومة المتغيرة، أي جعلوا الثابت متضمناً في المتغير. وكثيراً ما استندت التهم الموجهة للمعارضة السياسية في أحسن الأحوال إلى اعترافات منتزعة تحت تعذيب مميت، كما حصل بعد حركة حسن سريع ٣ تموز ١٩٦٣.

عدم استثناء القاسميين من العقوبة

لم يستثن القاسميون الذين وردت أسماؤهم في التحقيقات وفي العقوبات التي تلت حركة ٣ تموز ٦٣. في حين استثنت حركة ٨ شباط ١٩٦٣ بعد نجاحها الغالبية العظمى من السياسيين المستقلين الذين كان يمكن أن يطلق عليهم اسم التيار "القاسمي" أو ممثلي الخط القاسمي المعروفين على مستوى السلطة والشارع، فقد تميز هؤلاء بالوسطية، وبوضع الوطنية المحلية (العراقية) أولاً وقبل أي اعتبار آخر، بما في

ذلك الفكرتين القومية والأممية، كما كانوا قد جعلوا من التنمية والإعمار ورفع حالة الفقراء إلى مستوى الأغنياء هدفهم الرئيسي، ورغم ثقافتهم العالية وقربهم من اليسار الوطني (المحلي) وتبنيهم الثابت لقضايا الفقراء واحتياجاتهم، لكنهم لم يتحدثوا عن الاشتراكية لا قناعة ولا على سبيل الدعاية (البروبوكاندا)، ودون أن يعني ذلك لهم أخذ ما لدى الأغنياء وتوزيعه على الفقراء، بل التركيز على مبدأ رفع شأن الفقراء بأن تأخذ الحكومة على عاتقها توفير الفرص لهم أكثر من غيرهم، في البداية على الأقل، ليتسنَّ لهم بعد ذلك دخول الحياة وفق مبدأ "تكافؤ الفرص" الليبرالي أو الرأسمالي المعروف.

نقرة السلمان:
من قلعة للرصد الحدودي إلى سجن للمنفيين

في بداية الخمسينات من القرن العشرين، وبينما كان العالم يتحرك ويحضر نفسه لقفزات سياسية واجتماعية واقتصادية وتكنولوجية، وعلى مستوى توسيع التطبيقات ذات الطبيعة الديمقراطية وبما يتناسب مع حاجات التطوير، كانت حكومات العراق منشغلة بتوسيع وتعميق الحفرة وبناء وتطوير السجون لقطع الطريق عن الوعي النامي الزاحف بسرعة مخيفة لهم، بسبب تطور وسائل الاتصال كالراديو ووسائل النقل والسفر وسرعة انتقال البريد.

أما "السلمان" فهي قرية صغيرة، ورغم عدم وجود أية قوات أو مراكز إدارية ذات طبيعة سياسية مهمة فيها، فضلاً عن كونها هي وقلعتها (السجن) منطقة صحراوية خالية تقريباً من السكان، وقريبة من حدود غير حضرية للمملكة العربية السعودية، لكنها سميت قضاءً لأنها اكتسبت أهمية استثنائية من:

أولاً: موقعها الإستراتيجي كواحدة من المراكز العراقية شبه الحدودية البالغة الأهمية، مثلها مثل مدن الرمادي والنجف والبصرة والموصل، إذ تطل منها الدولة على الصحراء، حتى أقصى نقطة في الجزيرتين العراقية السورية وأراضي المملكة العربية السعودية التي تتدفق منها وإليها بضائع ومنتوجات كثيرة.

ثانياً: من وجود سجن مشهور للسياسيين الذين تعتبرهم الدولة خطرين عليها.

أما قلعتها فقد أسسها الجنرال كلوب باشا (الملقب بأبي حنيك، وهو ضابط إنجليزي يتقن اللغة العربية وبعض لهجات البدو الرُّحَل، أصبح فيما بعد قائداً لجيش المملكة

الأردنية) لرد غزوات البدو على العراق وبشكل خاص ضد العتبات الإسلامية المقدسة في النجف الأشرف وكربلاء، وكان الناس يطلقون عليها قلعة "أبو حنيك"، وفيما بعد أضيف لخدماتها رصد أعمال التهريب والتسلل، ولذلك وضع في القرية مقر فوج شرطة البادية الذي عادة ما يرأسه ضابط برتبة عقيد شرطة.

ثالثاً: وجود مقر اللواء العسكري الحدودي ١٦، وهذا اللواء يتكون من ثلاثة أفواج. الفوج الأول ويراقب المنطقة الممتدة من مجمع الوليد (نقطة العبور مع سوريا) إلى منتصف المسافة مع الحدود الأردنية العراقية (طريبيل)، وهو بذلك يغطي مسافة ٥٤ كيلومتراً أي المثلث العراقي السوري الأردني. أما الفوجين الثاني والثالث فيراقبان المنطقة من طريبيل حتى عرعر في المملكة العربية السعودية، أي أن مهمة اللواء مراقبة المنطقة الوسطى والغربية المواجهة للرمادي والنجف والسماوة. ويوجد لواءان آخران أحدهما يراقب المنطقة الجنوبية حتى البصرة، والآخر المنطقة الشمالية حتى الموصل، وهي قوات وظيفتها فنية وغير سياسية.

وحينذاك كان السجناء يوضعون داخل القلاع ذات البناء التقليدي ويضطرون عند دخول السجن لأول مرة إلى صعود السلم الحجري المتدرج حتى أعلى القلاع ثم ينزلون مرة أخرى بواسطة سلم حديدي "ضيق وشديد التأرجح" إلى الأسفل ليفضي إلى ردهتين مستطيلتين يصعد إليهما بسلم خشبي متآكل، وفي كل منهما عشرات الكوى الصغيرة التي كانت تستخدم للمراقبة والرمي، وتحت كل مضجع يوجد سرداب، حيث الردهات.

وبعد سنوات ومع اشتداد الوعي السياسي الشعبي، تم بناء عشرة قواويش جديدة يصل عدد المعتقلين في كل واحد منها أحياناً إلى أكثر من خمسين معتقلاً، ينامون على فرش على الأرض (يطغات)، ويحيط بالسجن سياجان الأول يليه بعد حوالي ١٥ متراً، وسياج موازٍ آخر يرتفع عن الأرض بحدود ثمانية أمتار من الأسلاك الشائكة. وكان هدفُ التوسعة استيعاب الوعي المتنامي لدى المواطنين.

دشن هذا السجن لأول مرة في شباط ١٩٤٩ وكان يستقبل نزلائه مكبلين بسلاسل من حديد، يتناسب وزنها وشدتها، بحسب مستوى الشخص ومدة محكوميته[1]. كانت تلك حالة السجون في العهد الملكي، أما في العهد الجمهوري

---

١ ـــ عزيز الحاج، نقلاً عن مقال "الصحفي كردستاني" بعنوان من وثائق الحركة الوطنية العراقية، المنشور في صحيفة الاتحاد، عدد ٣٩٦ الصادر في ٢٠٠٠/٠٩/١٠.

نحدث ولا حرج، إذ لم يزدد عددها فقط بل أصبحوا يختارون لها مديرين وسجانين معقدين ومرضى نفسياً، يجدون راحتهم في إذلال مواطنيهم، ويستوردون لها أدوات تعذيب من أوربا لمساعدهم على كسر النفوس الأبية، وكان بين نـزلاء سجن نقرة السلمان البارزين المبكرين، حسين أحمد الرضي (سلام عادل) الذي قضى فيه حوالي السنتين وغادره في عام ١٩٥٢، وزكي خيري وعزيز محمد ومحمد حسين أبو العيس وعمر علي الشيخ وعزيز الحاج ومظفر النواب وغيرهم.

وفي هذا السجن تحسنت أحوال المعتقلين المنقولين من سجن الرشيد العسكري، وأصبح كل منهم يمارس اختصاصه أو هوايته تقريباً، فعمل بعضهم طباخين وخبازين ومعلمين للفلسفة والاقتصاد وأطباء وحلاقين..الخ كما كان لكل قاووش حانوت يملكه أحد المتطوعين أو مسؤول القاووش ويبيع فيه مواد محلية وأخرى مهربة من العربية السعودية، كالقيمر المعلب ولحم البقر (بيف) وأشياء أخرى، يشترونها عن طريق الشرطة.

وكان لكل سجين وعاء "جوت" ماء يشرب منه ماءً فراتاً بارداً، وتحميهم الجدران من حرارة الشمس حتى الساعة العاشرة حين تتوسط الشمس "رابعة النهار"، وغالباً ما يملأون أوقات الفراغ الطويلة بلعب كرة القدم والطائرة والشطرنج "والدومينو" لاسيما "الآزنيف والطيرة". فكان سجن النقرة رغم اسمه الرهيب أفضل سجون العراق، لكن عيبه الوحيد يكمن في صعوبة وصول عائلات وأصدقاء السجناء إليه، بل كانت زيارتهم شبه مستحيلة، لعدم وجود وسائط عامة لنقل المسافرين بين السماوة والنقرة، ويخاف أصحاب التاكسيات السير في طريق صحراوي مقفر وطويل، يستغرق أكثر من خمس ساعات، وتضيع فيه معالم الطريق بين حين وآخر بمجرد هبوب الرياح.

وكما لم يكن الحراس القوميون في السماوة عنيفين، لم يكن شرطة سجن النقرة عنيفين أيضاً، ولم يكونوا قساة عتاة مثل أندادهم البغداديين وهو أمر مُحَيِّر، لأن البغدادي، من حيث المبدأ، هو أرقي أبناء العراق مدنية، حلو الكلام ورقيق الحاشية، مهذب ومقبول من كل أبناء الجهات العراقية. فهل كان ذلك لأن مكاسب السلطة والتسلط في بغداد كانت كبيرة ومثيرة للأطماع والشرور؟ أم لأن السماويين كانوا بسيطين، ولم يروا في حياتهم كلها هكذا سجناء وبهذا القدر من الرتب، حتى إنهم ألغوا بعد فترة عادة إجراء التعداد اليومي احتراماً لهم، ويذكر أن الغالبية الساحقة من

الضباط وصلوا إلى سجن النقرة، بملابسهم العسكرية الأنيقة ورتبهم المصنوعة من ذهب خالص، وظلوا داخل سجن النقرة لفترة يرتدونها انتظاراً لأول زيارة من الأهل، الذين سوف يحملون معهم حتماً لوازم كثيرة أهمها "البيجامات" التي عادة ما تخيطها الأمهات والأخوات والزوجات، ومع كل لحظة فرح خفي وحسرة على الغالي.

أما في النقرة فقد ساعدهم كثيراً وجود سجناء آخرين سبقوهم إليه، يحمل أكثرهم نفس الأفكار والميول، كانوا قد بذلوا جهوداً كبيرة في ترتيب وتنظيم المعتقل، فأقاموا فيه إدارة ذاتية ووزعوا المهام بحسب الاختصاصات، من الخبز إلى المطبخ والحمام بما في ذلك غسل الملابس وتنظيف الرز والعدس، والمكتبة التي احتوت على عدد لا بأس به من الكتب العراقية والمترجمة، وأكثرها مستوحى من الأدب والفكر السياسي اليساري السوفييتي، وعلى نظام خاص للإعارة والقراءة، وتشكيل حلقات تثقيف تُعطى فيها دروس في الفلسفة والمجتمع والاقتصاد والثقافة العامة، وكان يجري إعداد نشرة أخبار يومية يعدها مكلفون بالإنصات للأخبار العالمية ولإذاعة "بكي إيران" و"صوت العراق الحر"، فضلاً عن الأخبار الواردة من خارج السجن ومن زيارات الأهل (المواجهات).

كما نُظِم المنام من حيث الزمن والضوضاء وإشعال النور، أما التطبيب فقد استُفيد من خبرات الأطباء الكثيرين حيث لا يعالج الطبيب المختص غير المرضى المحولين من أطباء أقل تخصصاً، فأصبح السجن أشبه بمدينة صغيرة ممتازة التنظيم، ولم يمر وقت طويل حتى اصبح لهم تنظيم حزبي يحكم تصرفاهم وطريقة تفكيرهم وفق أيديولوجيا نسقية تُبسطَ الأمور، لكنها تملك قدرة استثنائية على زرع الأمل واستعادة الحيوية والتحريض. ولا أرى إنهم كانوا قادرين على فعل كل ذلك، لو لم يكونوا مؤمنين تماماً بمستقبل سياسي مضمون، ويمثل إرادة التاريخ. وقد شكل السجناء منذ ما قبل عام ١٩٦٣، عدة إدارات بينها إدارة سامي أحمد وكاظم فرهود*. وكان بين السجناء، إضافة لركاب قطار الموت، عزيز سباهي وكاظم

---

*سامي أحمد، من أبناء مدينة البصرة كان مثقفاً وخلال انشقاق الحزب الشيوعي عام ١٩٦٧ صار عضواً في قيادة القيادة المركزية للحزب الشيوعي المنشق، ومسؤول خطها العسكري وأصبح فيما بعد يقدم برنامج "نفطنا لنا" للتلفزيون العراقي. أما كاظم فرهود فكان عضواً في اللجنة المركزية ثم في المكتب السياسي للقيادة المركزية، وكان خلال عهد عبد الكريم قاسم قائداً فلاحياً.

الصفار وجبار عبود ورشيد (أبو مقدام) وص.ب، ويوسف ومصطفى عبود وحامد أيوب وجاسم مطير ومظفر النواب ود. عبد الصمد نعمان ود. سالم سفر ويحيى الجنابي (أخو العميد داود الجنابي) وصاحب الحميري ود. فاضل الطائي.

ولم ينخفض اكتظاظ سجن النقرة منذ ٨ شباط ١٩٦٣ نسبياً، إلاّ بعد مجيء صبحي عبد الحميد وزيراً للداخلية، الذي شَرَّعَ علناً ولأول مرة في تاريخ العراق لموضوعة "البراءة"، وكان معمولاً بها منذ العهد الملكي حتى عام ١٩٦٤، ولكن ليس بصورة رسمية وقانونية، إذ كان يبدو على المتبرئ من عقيدته السياسية إنه إنما فعل ذلك متطوعاً ونشرها في الصحافة بناءً على رغبته الشخصية المحضة، في حين أعلن صبحي عبد الحميد بياناً رسمياً أَمَرَ بإطلاق سراح كل مَنْ تنتهي محكوميته، إذا لم يكن مطلوباً بقضية أخرى، وذلك بعد أن يعلن براءته من مبادئه "الهدامة" وعن انسحابه من الحزب أو الحركة والجمعية المنحلة التي كان ينتمي إليها.

ورغم أن إعلان صبحي عبد الحميد الرسمي كان مذلاً ومخجلاً

يا ابني !

لا تثلم شرفه

يا ابني !

يوليدي !

البراءه

تظل مدى الأيام غصه

تدري يا ابني ! تكل براءه..

كل شهيد من الشعب

يتعاد دفنه

وخلي ايدك عله شيبي

واطلب بطاهر حليبي

كطره ... كطره

ينقر عيني الحميه

كلي ما اهدم حزب بيدي بنيته

ومخالفاً للأخلاق الإنسانية العامة ولكل الشرائع الدولية، لكنه ساعد على إطلاق سراح أكثر من خمسمائة معتقل وسجين سياسي كدفعة أولى.

وكانت السلطات الديكتاتورية المتعاقبة قد اعتادت التحفظ على المعتقلين السياسيين حتى بعد انقضاء مدة أحكامهم. ويذكر أن العراقيين كانوا حينذاك ينظرون إلى مقدمي البراءة بخزي وتقبيح، ولا تلتمس لهم أحزابهم العذر بسبب قسوة التعذيب وشدة المعاناة، ومهما كانت الأسباب والدوافع الإنسانية. وكان هدف الحركات السياسية الأصلي في رفض مبررات البراءة هو الصيانة، والحيلولة دون انتماء مزدوجي الولاء والضعفاء وذوي الظروف الاجتماعية والعائلية الصعبة، التي تحول ربما دون صمودهم بوجه ضغوط السجن مدةً وقسوةً، لكن المجتمع العراقي ظل رغم ذلك قاسياً في حكمه على المتبرئين*.

المصائر

المضحك المبكي إن مقادير القسوة العراقية لم تنسحب وتترك أولئك المعتقلين الذين وصلوا إلى سجن النقرة يعيشون بقية حياتهم بأمان وسلام، فقد أُطلق سراحهم بعد سنوات، وآخرها كان قرار حكومة البكر ــ صدام عام ١٩٦٨ بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين. لكن ذلك القرار لم يكن سوى طريقة جديدة مبتكرة للتصفية الجماعية، وعلى طريقة البرابرة الجاهليين، لم تتحمل السلطة بعد

---

*وكان نموذج البراءة على الشكل التالي تقريباً: "يتهمني البعض بأنني من حملة المبادئ الهدامة كالشيوعية "أو لحزب البعث" وغيرها، لذا أعلن براءتي من هذه المبادئ، وأعلن إخلاصي وولائي للوطن وللحكم الوطني أو للجمهورية أو لمليكي". كان العهد الملكي يعمل بنظام البراءة دون أن يضعها بتشريع بل تبدو تطوعا ورغبة ذاتية، ولم تعمل بها حكومة عبد الكريم قاسم، كما لم يتم العمل بها من قبل حكومة البعث في ٨ شباط، ولكن عاد للعمل بها عبد السلام عارف، وبتصريح رسمي جعلها صبحي عبد الحميد أشبه بقانون. ويذكر أن العراقيين أحزاباً ومواطنين مستقلين كانوا قد تخلوا عن نظرتهم للمتبرئين منذ قيام سلطة (البكر - صدام) بسبب القسوة غير المعتادة والعقوبات التي يشمل أذاها الحرث والنسل والعرض، ولأن العقوبة الأولية للمعارض السياسي المتمسك بمبادئه كانت الموت. ورد الفعل الشعبي عليها جاء على لسان ويراع شاعر العراق مظفر النواب بقصيدة البراءة. وقد كتب الشاعر العراقي مظفر النواب من داخل سجن الحلة قصيدة أهداها لثوار معسكر الرشيد، وكانت بين أوراق كثيرة أخرى مخبأة في طاولة خشبية صادرتها إدارة السجن بسبب مشادة حصلت بين السجناء أعضاء جناحي الحزب الشيوعي (قيادة ولجنة) قبيل عملية الهرب الشهيرة منه

١٩٦٨ أن يعيش مثل هذا العدد من المثقفين وأصحاب الرأي داخل المجتمع المصادر، ففكرت بالمثل القائل: "تغدى بخصمك قبل أن يتعشى بك الخصم"، فأقدمت منذ اليوم الأول لإطلاق سراحهم على ملاحقتهم داخل العراق وخارجه، وقتلهم بلا رحمة إعداماً أو تعذيباً أو اغتيالاً ودهساً أو بالسيانيد والثاليوم أو ربما بقتل حياتهم الروحية كمداً وقهراً وتشريداً بعيداً عن الوطن الأم[1].

ولم يكن سجن النقرة وحده متخصصاً بشؤون المعتقلين السياسيين، بل كانت هناك، إضافة للسجون العسكرية التي تعتقل سياسيين مدنيين أيضاً، سجون ومعتقلات أخرى موزعة على كامل جغرافية البلاد كما أُنشئت أخرى جديدة:

ـ وكان سجن الكوت أول سجن متخصص بالنزلاء السياسيين، يفتتح مباشرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أي بالضبط عندما أرادت الفئة العراقية المثقفة مجاراة شعوب أوربا التي أدارت ظهرها للحرب وانشغلت بتحسين ظروفها المعيشية وحرياتها السياسية والاقتصادية. ويذكر أن المتظاهرين المؤيدين لنظام عبد الكريم قاسم كانوا قد هاجموا سجن الكوت صباح يوم ٨ شباط ١٩٦٣ وحرروا عدداً كبيراً من المعتقلين بينهم محمد الخضري وفخري كريم.

ـ سجن نقرة السلمان، حيث قامت السلطة بتحويل قلعة السماوة إلى سجن لعزل العقول السياسية المتنورة بعيداً عن الوسط الاجتماعي.

ـ سجن بعقوبة للسياسيين، بزنازينه الكريهة وسجانيه القساة الجهلة.

ـ تأسيس منفى في بدرة وإلحاق بيوت الموظفين به لتستوعب المنفيين السياسيين القادمين من جميع أنحاء العراق، وقد استمر ذلك المنفى يستقبل المنفيين السياسيين حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨.

---

١ ـ وهناك أمثلة من الكراسات والكتب الكثيرة حول ضحايا السموم وأحواض الأسيد وكواتم الصوت وحوادث المرور المدبرة واغتيالات الشوارع اليومية التي جرت، خصوصاً في نهاية الستينات والسبعينات ووسائل الموت الأخرى.... ويمكن في هذا المجال مراجعة الكراس الرائد في مجال حقوق الإنسان الذي أصدره اتحاد الديمقراطيين العراقيين، محمد الحبوبي وجبار (أبو أيوب) وعادل وصفي وعبد الحليم الرهيمي وغيرهم. ووثائق أخرى كثيرة ومتوفرة. وكتاب حسن العلوي، دولة الاستعارة القومية. وعلي كريم سعيد من حوار المفاهيم إلى حوار الدم. والكتب والكراسات التي أعدها وكتبها الدكتور أحمد الموسوي باسم الجمعية العراقية لحقوق الإنسان. والكتاب الصادر عام ٢٠٠٠ الموسوم "بشهداء الحزب الشيوعي العراقي. وإصدارات المنظمة العراقية لحقوق الإنسان للدكتور صاحب الحكيم.

ـــ سجون: البصرة المركزي، والحلة، والرمادي، والعمارة، وكلــها معــتقلات مختلطة للسياسيين وغير السياسيين.

ـــ تخصيص قسم من سجن شثاثة أو عين التمر للسياسيين أيضاً.

لكن كل ذلك لم يكن كافياً ليشفي غليل حكام البلاد من الشعب، الذي واجه إصرار السلطات، على بقائه محروماً ومغيباً بعناد ورفض قَلَّ نظيرهمـــا، فــأمرت في أواسط الخمسينات بتشييد سجن إضافي جديد وكبير مجاور لقلعة السلمان وسمــي باسمها، كما شيدوا بجانب سجن بعقوبة القديم سجناً جديداً كبيراً حرصوا أن يجعلوا زنـــزاناته مدمرة وحارقة لأعصاب زوارها.

موقف الحزب الشيوعي من رحلة القطار

أما الشيوعيون فقد نظروا إلى رحلة القطار على إنها كانت مدبــرة لقتل أكثر نـــزلاء السجن "رقم واحد"، ووافق عليها كل أفراد الطاقم الحاكم، ولا فــرق في ذلك بين موقف أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشـــتراكي وموقـــف ضباط مجلس قيادة الثورة، فكليهما من وجهة نظرهم، أراد الإبادة ولكن دون تحمل المسؤولية المباشرة في ذلك.

و لم يبدل الشيوعيون نظرهم، رغم إن قادة البعث المدنيين الذين شارك بعضهم في الإشراف غير المباشر على العملية، ظلوا يصرحون في منتدياهم، وأحياناً بمذكراهم، بأن تسيير القطار قد تقرر من أجل تفادي إبادة المعتقلين التي أضمرها كل من عبـــد السلام عارف وأحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وطاهر يحيى التكريتي ورشيد مصلح التكريتي وعدد محدود من المدنيين الذين ربطتهم دوامة الصــراع السياســي الشديد مع الشيوعيين بــرباط الثأر والانتقام، لكن الأقدار وشهامة سائق القطـــار "عبد عباس المفرجي" وتداخلات وتفاصيل أخرى صغيرة كثيرة قد فوتت الفرصة، وأعاقت خطة الإبادة الجماعية المزعومة، في حين يتفق كل من طالب شبيب وهاني الفكيكي الذي قال: لو عَلِم هؤلاء المعتقلون عن "سر القطار الذي أسرى بهم لـــيلاً إلى السلمان، لبحثوا عن اسم آخر غير قطار الموت"[١].

---

١ ـــ راجع هاني الفكيكي، أوكار الهزيمة، ص ٢٨٠، وراجع علي كريم سعيد، عراق ٨ شـــباط.... ص ٣٠٢.

ويذهب شيوعيون آخرون، أبعد خيالاً، إلى أنه لولا فشل عملية اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في بغداد برأس القرية عام ١٩٥٩، ولولا عدم نجاح حركة حسن السريع، لتغير مسار تاريخ العراق القادم بأكمله، أي لو مات الزعيم بأيد غير شيوعية لاستطاع الشيوعيون الذين ملئوا فعلاً الفراغ السياسي بعد إصابته ودخوله مستشفى السلام أن يحتفظوا بالسلطة، ولما حصل ما حصل، فيما بعد، من تغيير في تركيبة الجيش والدولة، ولو نجحت حركة حسن سريع لأقدمت على كسر الدولة العراقية القائمة المعادية للتطلعات الشعبية الاجتماعية، وعلى تغيير مسار العراق وإقامة دولة أو جمهورية أخرى مختلفة من حيث الأسس والقواعد المعتمدة، مثل تغيير بنية القوات المسلحة والإدارة السياسية والمدنية بعد إبعاد القوميين والبعثيين والرجعيين عنها!!!

لقد نظر عدد كبير من العراقيين وبصورة خاصة بسطاء الشيوعيين إلى التجربتين، محاولة اغتيال الزعيم وما أتاحته من فرصة لأخذ السلطة، ومحاولة حسن سريع ومحمد حبيب، بل ونظر بعضهم أحياناً إلى محاولات، ليست مما تهواها قلوبهم، مثل حركة ناظم كزار، على أنها أحلام وفرص ضائعة لإيقاف تطور الديكتاتورية التي وصلت ذروتها مع صعود صدام حسين بالسلطة في العراق.

ولا أتصور أن هؤلاء الناظرين كانوا سيتطلعون للمستقبل بهذه الصورة الضيقة اليائسة وينشدون خلاص البلاد من محاولات ستؤدي من الناحية الأيديولوجية والمنطقية أيضاً إلى إقامة أنظمة ديكتاتورية، لولا أنْ وضَعَتْهم السلطات المتعاقبة أمام أمرين أحلاهما مُـرّ.

ويقول جاسم مطير؛ إن السجناء السياسيين، وبصورة خاصة الشيوعيين، كانوا قد نظروا لجماعة حسن سريع كأبطال، ودار الحديث عنهم كرموز للثورة.

ويذكر إن كوادر الحزب الشيوعي، الذين شكلوا فيما بعد جناحي الحزب الشيوعي "اللجنة المركزية" و"القيادة المركزية"، كان أكثرهم موجودين في السجون المنتشرة في كل أنحاء العراق.

وقد تضمن تقرير المؤتمر الوطني الثالث للحزب الشيوعي: "انتفاضة الرشيد أعادت الثقة بالحزب وبقدرة الشعب في مكافحة الإرهاب".

خاتمة

ولا أحد يعرف لِمَ كل هذه القسوة بين أبناء البلد الواحد؟ ولماذا لا يعطي السياسيون والحكام منهم قبل غيرهم فرصة للتوقف والتأمل، وحساب النتائج؟ ألا يستحق بلدٌ مثل العراق المتفرد في أشياء كثيرة بذل الوقت الكافي للمقارنة بين المصالح الضيقة البائسة التي يدور الصراع حولها منذ عشرات السنين وبين الدمار الذي تلحقه تلك الصراعات ببنيته التاريخية الحضارية والأخلاقية الراهنة؟ وكم هي القيم الروحية والآلام النفسية، والنفوس والطاقات الإنسانية المهدرة التي كان يمكن توظيفها من أجل الخير والتطوير والاختراع وغيره؟ وكم هي الجهود العملية المبذولة، بسبب ذلك، في غير مكانها؟ وكم هي النفوس الذكية الموءودة كبتاً أو قتلاً؟ ألم يحن أوان المراجعة وتقديم قائمة حساب بخسائر وأرباح سياسة المصالح الضيقة التي تميَّز بها حكام العراق المستبدين.

ملحق رقم ١

نص التقرير المختفي

بحثت عن تقرير هاشم الآلوسي المرفوع إلى اللجنة المركزية عام ١٩٦٨ حول حركة حسن سريع، في كل مكان وعلى مدى سنوات، وسألت عنه باقر إبراهيم، وهو الشخص الذي كَلَف هاشم بكتابته، وسألت فخري كريم، وكان الجواب دائماً إنه مفقود. وكنت قد وجدت ذلك التقرير، فقط بعد أن أنهيت كتابة الكتاب، وهاأنا أضعه بين يدي القارئ.

وكان العثور عليه قد تم بعد مقارنة فقرات وجُمل عديدة وضعها زكي خيري في كتابه ونسبها إلى الآلوسي ، مع نص كنت قد قرأته في العدد الثاني من مجلة الغد العراقية المعارضة، فعدت وطابقت بين النصوص المتفرقة لزكي خيري في كتابه عن تاريخ الحزب الشيوعي، ونص مجلة الغد المنسوب إلى أحد قادة حركة حسن سريع، فوجدت تطابقاً تاماً بينهما وبما لا يقبل الشك بأن زكي خيري أقتطع كل ما ذكره عن الحركة من تقرير الآلوسي ، دون أن يشير لذلك التقرير رغم إشارته لهاشم في أكثر من مكان. أما مجلة الغد فقد نشرت نص التقرير دون أن تعلم إن التقرير الذي قدمه الآلوسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي. ولذلك أعتبر نفسي أول من حقق وكشف عن هذا الأمر.

نص التقرير الذي رفعه هاشم الآلوسي للجنة المركزية لحشع حول حركة ٣ تموز ١٩٦٣.

لمحة تاريخية :

بعد أن صفيت جميع الهيئات القيادية في بغداد، اتجه الكادر الحزبي إلى ضمان الصيانة أولا ... والاتصال بالرفاق الذين نعرفهم لجمعهم وصيانتهم والحفاظ على الصلات معهم. وفي نفس الوقت كانت المحاولات للاتصال بالحزب مستمرة رغم الخطورة الكبيرة في تلك المحاولات نتيجة الكمائن والإشاعات الكبيرة، ولابد أن قسماً منكم يتذكر تلك الظروف.

نتيجة المحاولات العديدة أتصلنا بإحدى المنظمات، وكنا في أول الأمر نعتقد أنها الحزب. وبعد ذلك اطلعنا بشكل مفصل على تلك المنظمة حيث تبين أنها تكونت من عدة رفاق، منهم من هو عضو محلية أو عضو تابعة وحتى خلية، ولم يكن هناك عزل بين التنظيمات العسكرية والمدنية ولا تسلسل هيئات أو تحديد مسؤولية، فالجميع بالمعركة أشبه بالفوضى. كان عملهم الرئيسي حشد الأنصار والمؤيدين و الاتصال بالمقطوعين للتحضير للثورة، دون التفكير بان الثورة لا يمكن قيادتها إلا بجهاز قوي تنظيمياً. هذا الاندفاع الكبير ونتيجة للمد الثوري الذي تحقق كرد فعل الإرهاب في البداية ، وللحرب الهستيرية التي شنها البعث على الشعب الكردي، والتي كان يذهب ضحيتها الجنود والكادحون. أقول، بسبب ذلك استطاعت هذه الهيئة أن تُكون صلات كبيرة على عموم قطاعات بغداد ، العمال، الثورة، الكاظمية، الكرخ، وكذلك من خارج بغداد ، الفرات، في المعسكرات، وكربلاء والكوت وأخيراً في البصرة، حتى استطاعت أن تقود وتكون صلات مع آلاف الثوريين الذين اخذوا يمارسون الضغط على الهيئة القائدة للاستعجال بالثورة بصور شتى، ولأسباب أخرى (سوف أناقشها فيما بعد) انفجرت الانتفاضة.

قوى الانتفاضة :

أن الذين قادوا الانتفاضة سياسيا وعملوا بتفاني لحشد قواها اغلبهم شيوعيون في هيئات حزبية قبل مؤامرة شباط، إلا أنهم كانوا جميعا ينتقدون سياسة الحزب السابقة، ويُحملون الحزب مسؤولية البلبلة. أما قواعد الانتفاضة وجنودها فاغلبهم شيوعيون أو مؤيدون للحزب، إلا أن هنالك نسبة كبيرة من المؤيدين والمشتركين لم تكن لهم علاقة سابقة بالحزب. أما من الناحية الطبقية فاغلبهم كادحون، حيث كان الثقل الرئيسي يعتمد على سكان الصرائف، والتي عقدت فيها اغلب الاجتماعات وتميئة اكثر الوسائل.

ارتباط الانتفاضة بالحزب :

لقد حاولنا مراراً عديدة الاستطلاع والاتصال بالحزب، ولو أننا كنا في شك من وجود قيادة له غيرنا، وكنا نراقب البيانات التي تخرج مخطوطة باليد، ونرسل عن طريقها رسائل نطلب الاتصال معهم ولكننا كنا نشترط الاتصال بأحد الرفاق الذين نعرفهم، حيث كنا نعرف بصورة جيدة الرفاق الذين وقعوا في قبضة العدو. إن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل، إلا أننا كنا نحس إن هناك جهة أخرى تعمل باسم الشيوعيين ولكننا لا نعرف هويتها. وفي أحد الأيام جاءنا أحد أعضاء الهيئة القيادية ليقول انه اتصل بأحد الرفاق وهو اتصل بهيئة قيادية، ويضمن أن أحدهم هو الشهيد أبو سعيد، وكلفت أنا بكتابة رسالة لهم توضح لهم عزمنا على القيام بالانتفاضة، ونطلب منهم إرسال أحد الرفاق، الذين نعرفه، وكتبت لهم مركزي الحزبي ومكان عملي [الحزبي] السابق، ولكنهم لم يحاولوا الاتصال بنا، بل كتبوا رسالة يطلبون منا فيها الالتحاق بالتنظيم والكف عن التنفيذ، ويعتبرون عملنا خروج عن المبادئ ونافي للضبط وهم القيادة الشرعية. رغم أننا لم نقم بعمل سابق يشير إلى كوننا نحن المركز ، بل وجود ما يخالف ذلك، حيث وصلتنا رسالة من البصرة باسم الرفيق فاضل يطلب الاتصال، ولقد أجيب بأن لم يعد للجنة المركزية وجود، أو على الأقل ليس لنا اتصال، بل نحن رفاق من هيئات متعددة قمنا بتهيئة الوسائل ، وسوف نقوم بعمل قريب. وهذا يدل على أننا لم نطلق على أنفسنا اسم "لجنة مركزية " أو ما شابه.

أن الوضع الذي كان سائدا، حيث الكمائن تعمل بصور عديدة وحتى قيل انهم

قد طبعوا جريدة باسم الحزب ووزعوها، والظروف الذاتية التي كنا نمر بها، والتي سوف أشير أليها، قد منعتنا من الانتظار والقيام بالتنفيذ. هنالك من قال أن قيادة الانتفاضة معادية للحزب، أو "منشقين"، وتنوي محاكمة بعض الرفاق. أنني أقولها للتاريخ بان البيانات، وحتى تشكيل الحكومة الأولى والتي أذيعت أسمائهم كانت اغلبها من الرفاق المعروفين البارزين. حيث كان الاتفاق قدتم على دعوة اللجنة المركزية في أول لحظة الانتصار واستلام الإذاعة، لتستلم زمام الأمور وقيادة الثورة ...على أي حال أن الانتفاضة، بكل ما فيها، هي ملك الحزب، وجزء من تاريخ نضاله، ومأثرة من مأثرة.

أسباب قيام الانتفاضة:

لقد تطرقت سابقا إلى سرعة تعبئة وحشد الأنصار والرفاق كانت عظيمة تستحق التقدير، حيث عُبئ اكثر من ألف مقاتل من اجل الثورة حتى شملت عموم المعسكرات في بغداد، وتعدا ذلك إلى الفرات، وحتى أن الانضمام إلى التنظيم كان بالجملة حتى بلغت في بعض الأحيان خمسون شخصاً. (ولكن هؤلاء لم تكن هناك خطة لتنظيمهم، حتى يمكن قيادتهم وزجهم بالمعركة بصورة جيدة وصحيحة. و لم يكن هنالك تنظيم بالمعنى الصحيح لا على الشكل السابق، ولا [على شكل] يتلاءم مع الظروف الجديدة، بل أشبه بالفوضى. فالصلات غير منظمة وأخذت طابع السعة، والصيانة غير متوفرة قطعاً .. و لم تكن هنالك سمات دمج التنظيم العسكري بالمدني الثوري، لتكوين جيش ثوري، ولا فصل بين التنظيم العسكري والمدني. ولقد حاولت عندما انضممت إلى اللجنة القائدة أن أعيد الصلات على أساس تنظيمي، إلا أنني فشلت بسبب الضغط الذي كان يعاني أفراد اللجنة من القواعد الداعية إلى السرعة، وكذلك الغير مؤمنة بأهمية التنظيم. ولكنني على أي حال استطعت أن، أعزل إلى حد ما، التنظيم العسكري عن المدني، وكذلك التنظيم العسكري إلى معسكرات، وتكوين قيادات لتلك المعسكرات، رغم أن الصلات القديمة ظلت خطر يهدد المنظمة باستمرار. وفي الوقت الذي جاءتنا فيه الرسالة، التي أشارت إليها (سابقا)، جاءنا خبر [مفاده] أن عريفين من العناصر القيادية قد القي القبض عليهما، وهما يعرفان أعداداً كثيرة من كل المعسكرات، نتيجة للصلات والنشاطات التي أشرت أليها. وأن اعتراف هذين الرفيقين يؤدي إلى تصفية هذه القوة الكبيرة دون

أي عمل إيجابي، (وأن إمكانية صمودهم أو احتمال ذلك كانت ضعيفة في تلك الفترة، ولذلك فنحن كنا على طريقين: إما أن تصفى هذه القوى، حيث لا يمكن إخفاء هذه الأعداد الكبيرة، وإما القيام بالانتفاضة التي كنا نقدر لها النجاح للأسباب التالية:

١ـ قواتنا كبيرة، وإن حركناها [ستكون] كافية لسحق العدو المعزول.

٢ـ حتى وإن فشلت، وهذا كان احتمال ضعيف، فأنها طعنة كبيرة لمؤخرة العدو. حيث كنا نعتقد أن الجبهة الرئيسية هي كردستان، وهذا طبعا خطأ تحليلنا السابق، لان عملنا من أجل الثورة رئيسي، وليس لضرب مؤخرة العدو. وأن ضرب مؤخرة العدو لا يعني المجازفة بكل القوى، بل يكون على أساس فصائل صغيرة للتخريب أو الضرب.

٣ـ الانتفاضة ستُلهِم الجماهير روح البطولة والكفاح، وتعيد إلى نفوسهم الأمل والثقة، لا اليأس والخيبة فيما لو صُفي التنظيم قبل أن نقوم بالانتفاضة. هذه هي الأسباب التي دفعت إلى الإقدام على العمل. وربما لا يراها البعض مبررات كافية، ولكن الأجواء التي كانت سائدة آنذاك تختلف تماما، وما توضح من حقائق تبلورت (الآن)، كانت غامضة (حينذاك).

الخطة:

قبل التطرق إلى الخطة وتفاصيلها ، لابد من الإشارة إلى بعض الأسباب التي فرضت على الحركة استخدام التحرك الجزئي بدلا من التحرك الشامل. واستخدام معسكر الرشيد بدلا من المعسكرات الأخرى، مع العلم أن الحركة كانت تمتلك قوى في معسكرات أخرى، وخاصة في أبي غريب ، اكثر من الرشيد ، وحتى أن تلك القوات أكثر كفاءة في المعركة من الناحية الفنية، رغم أن زخماً جماهيريا وانعطافا كبيرا قد تولد على الحركة، إلا أن هذا الزخم كان يحمل بذور الخوف الذي تولد نتيجة عنف الإرهاب، والأساليب البربرية التي استخدمت ضد المعارضين. إن هذه البذور كانت هي العامل [الرئيسي] في رفض قيادات كتائب هامة من المبادرة. وكانت تطالب بان تبادر كتائب أخرى، أو تشترط إذاعة بيان من الإذاعة. ولكنهم يرفضون التحرك والسيطرة على الإذاعة، رغم الهم يملكون الوسائل لذلك، مثلا: كانت الحركة تملك عددا من الدبابات في أبو غريب، وعددا من الفنيين من مواقف

نفس الكتائب تساندها كتيبة ٣١ المدفعية وكتيبة ٢٤ المدفعية الخفيفة ، واللتان نملك فيهما قوى ساحقة من الفنيين ، ومع ذلك لم نستطع التحرك الشامل.

وقد اختير معسكر الرشيد للأسباب [التالية] :

أولا ــ وجود قائد وحدة جريء مستعد للقيام بالتنفيذ في أية لحظة (وهو حسن سريع).

ثانيا ــ هذه الوحدات تملك عددا من السلاح والعتاد لأباس به وقد عزز من قبل الحركة.

ثالثا ــ وجود عدد كبير من القادة العسكريين والفنيين والطيارين في سجن رقم واحد. وقد بلغ عددهم حوالي ٩٠٠، والذي ثبت أن التقدير حولهم كان خاطئا.

رابعا ــ وجود مطار الرشيد الذي حسب له حساب في الخطة، كقوة ضاربة وكجهاز إشارة للاتصال بالوحدات في اللحظة المناسبة، وعند التنفيذ.

الخطة تنقسم إلى قسمين: عامة، وتشمل تحرك المعسكرات، وأخرى جزئية، وتشمل تحرك الوحدات في كل معسكر. وعلى نطاق المعسكرات كانت القوى ضعيفة في الوشاش ما عدى دبابتين يقود كل واحدة منهما عريف، وكذلك فوج التدريب. ولذلك حددت للقوى في هذا المعسكر مهمة عرقلة المعسكر عن الحركة. وقد خصص لهم عدد من المدنيين ليدخلوا المعسكر بملابس عسكرية، وبصورة تفصيلية حددت مهمة الدبابتين للتحرك وقطع جسر بين الجمهورية والأحرار. وحددت مهمة معسكر أبي غريب بالسيطرة على مخازن السلاح ومرسلات الإذاعة والتحرك نحو معسكر الوشاش لمحاصرته. وحددت مهمة معسكر الرشيد بالسيطرة على بغداد، وضرب مراكز الحرس القومي. وحددت مهمة معسكر المحاويل بالمساندة، والسيطرة على الفرات، حيث كانت به مدفعية قوس (مدفعية) بعيدة المدى.

الخطة الجزئية

في معسكر الرشيد شخصنا ثلاث نقاط هامة: كتيبة الدبابات، الطيران، سجن رقم واحد. وكنا نملك سرية للحراسة وفيها ١٥٠ سمينوف، وأكثر من ٣٠٠ جندياً. وقد زودت الوحدة بالعتاد بالإضافة إلى العتاد الذي كان [موجوداً] هناك. ونتيجة للإحصائية، كان أفراد هذه الوحدة جميعهم يعطفون على الحركة، ولذلك فقد

اتفقت على تقسيم هذه القوى إلى ثلاث وحدات، كل "وحدة" خمسون جندياً يباغتون النقاط الثلاث، ويتعاونون مع القوى الموجودة في نفس هذه الوحدات. حيث كان في سرية حراسة السجن، وفي سرية حراسة المطار، قوى أيضاً. وهناك قوة أخرى مكونة من ثلاث مدرعات واحدة منها برمائية كُلفت بالتوجه إلى مرسلات الحرية للسيطرة عليها وإذاعة البيان من هناك. مع العلم إنه كان هناك مهندس بالإذاعة وبعض الأفراد. هذه هي الحركة الأولى.

أما الحركة الثانية، فهي تحريك كتيبة الدبابات الأولى إلى بغداد. وإرسال الطيارين إلى المطار للتحليق، حيث كانت طيارات الخفر مجهزة بالعتاد بصورة دورية، بسبب الحرب في كردستان. هذه هي الحركة الثانية مع تسليم القيادة العسكرية إلى القادة الكفوئين في سجن رقم واحد لقيادة المعركة، وتسليم القيادة السياسية إلى اللجنة المركزية، التي كان مقرراً دعوتها عند نجاح الخطوات الأولى. هذا فيما يخص الحركة، وهو الجزء الرئيسي من الخطة.

أما الجزء الثاني فهو الصلات، (والذي يسمى في الجيش المخابرة)، فقد أُعطي لكل قائد وحدة اسم رمزي. ونتيجة للمعلومات التي توفرت لدينا، [وجدنا] إن جهاز الاتصال في المطار يمكن تحويله إلى جهاز صلة، حيث [يمكن] تحويل موجته حسب موجة إذاعة بغداد، ولذلك كُلف كل قائد كتيبة بحمل جهاز راديو "ترانسزتور" كي يستلم التوجيهات الأولى، وإعلان البدء بالحركة.

أما الجزء الثالث من الخطة، فقد كتب البيان، واتفق على جملة بيانات أخرى. واتفق على بعض الأشخاص لقيادة الفرق، وأخيراً أسماء الوزارة. وبصورة مبدئية حافظنا على ذكر أسماء [من القوى الوطنية في تلك الفترة، لأنها أيضاً تعادي الحكم وتسعى لإسقاطه. وقد أُذيعت هذه البيانات جميعاً من الإذاعة في المحكمة، ما عدا بيان الوزارة المقترحة، بسبب ذكر بعض الشخصيات الوطنية وغير الشيوعية.

نواقص الخطة:

١ ــ الاعتماد على الموجودة في سجن رقم واحد، بينما أغلبهم كان يعاني من اليأس والخيبة. (وهذا ثبت عند المعركة، حيث أقسم بعضهم بعد ذلك على أنهم كانوا يستطيعون كسر السجن إلا أنهم لا يعلمون مَنْ القائم بالحركة). وهذا العذر

مردود حيث أننا حرصنا على إخبارهم قبل فترة بأننا ننوي القيام بالحركة في موعد محدد.

٢ ـــ عندما لبس بعض المراتب ملابس الضباط، كان يجب تكليفهم بمهمات في غير وحداتهم، لأن معرفة مراتب "بهوية" القائد قبل حمل النجمات كان سبباً في إضعاف قيادتهم.

٣ ـــ إهمال كتيبة هامة وهي كتيبة الهندسة التي كانت عائقاً ومقاوماً للحركة، حيث استولى عليها العدو في البداية.

٤ ـــ خلو القيادة من عنصر ضابط، و لم نستطع تذليل هذا النقص رغم وجود صلات مع بعض الضباط، ولكنهم رفضوا المهمة.

٥ ـــ عدم تدريس الخطة لأعضاء احتياط يكلفون بمهمة القيادة عند جبن المسؤول أوقتله، كعامل في عدم تبديل الخطة.

٦ ـــ [كان] يجب تكليف قادة الوحدات المقاتلة بواجباتهم المحددة في الحركة الأولى، وهذا يساعد على تخفيف خطر ارتباك القيادة في المعركة.

التنفيذ

ـــ الحركة الأولى لم تنفذ بصورة صحيحة، حيث ركزت القوى على الباب و لم تنطلق القوى المكلفة بمهمات تتعلق بالحركة الأولى. مثلاً: كُلف أحد مسؤولي الوحدات والذي كان مكلفاً بالسيطرة على الإذاعة والمطار بالسيطرة على السجن. وهذا توجه إلى هدفه متأخراً، حتى بعد أن كثر إطلاق النار وتحذر العدو وتحصن. ولذلك لم يستطع السيطرة على السجن وفتحه. وأجبن القائد المكلف بالسيطرة على سرية حراسة السجن، حتى إنه لم يتعاون مع الذين جاءوا متأخرين وسيطروا على مقر السرية. و لم ترسل قوى إلى كتيبة الدبابات الأولى، إلا بعد دخول المعسكر والاستفسار عن ذلك والإلحاح على إرسال قوى استطلاع لتأخر وصول الكتيبة، ولكن عندما ذهب الشهيد كاظم لم يجد أحداً قد تأخر، ولكنه لم يعمل بجد على تحريكها لعدم وجود الفنيين الكافين. واكتفى باعتقال قائدها وبضعة ضباط وجلبهم إلى القيادة، وفي الطريق تصدت لهم كتيبة الهندسة المحصنة واعتقلتهم.

ـــ تمت السيطرة على مطار الرشيد ، ولكن ما الفائدة من ذلك و لم تكن هناك قوة فنية، أي طيارين.

ـ لم تتحرك القطعات الأخرى في باقي المعسكرات ، لعدم وصول الإشارة إليهم ، وعدم تبليغهم بقيام الحركة فعلا. و لم تتحرك قوانا في معسكر الوشاش للعرقلة ، بسبب جبنهم أو عدم تبليغهم. حيث لو تعرقلت قوى العدو فترة أطول، لكان من الممكن إتمام السيطرة على المعسكر وتحريكه.

ـ هوجمت الانتفاضة من قبل كتيبة الدبابات الرابعة المزودة بالذخيرة والمعدة لضرب أي حركة. وكانت المقاومة ضعيفة لعدم السيطرة على المعسكر.

أسباب الفشل:

آ ـ الأسباب التنظيمية:

١ ـ ضعف القيادة العليا: فهي لم تقدر عملاً كبيراً من هذا النوع. وهي أيضاً خليط من أعضاء لجنة محلية ولجنة تابعة وحتى أعضاء خلية. ولذلك لم تستطع الصمود أمام ضغط القاعدة.

٢ ـ عدم وجود ارتباط مع قيادة الحزب، وهذه بلا شك، نقطة هامة، فلو كانت هناك صلة لتوحدت القوى وازدادت، ولضمنا قيادة أكثر كفاءة، ولتحققت وسائل أكثر فنية.

٣ ـ الروابط التنظيمية: لم تكن هناك حدود تنظيمية، بل كانت مجاميع ثورية من شيوعيين وغير شيوعيين، و لم تكن هناك صلات موحدة وهي أشبه بالفوضى.

٤ ـ ضعف الضبط الحزبي: وهذا أدى إلى تكوين صلات متشعبة وخروقات عديدة، وحتى إلى تبديل الخطة دون علم اللجنة المسؤولة، وكذلك لم يجر التقيد الصارم بالتوجيهات.

٥ ـ عدم وجود روابط كافية بين المكلفين بإسناد قوات الجيش (من المدنيين)، وبين قيادات الوحدات العسكرية. وهذا أدى إلى ضعف المعنوية وفقدان الجرأة، نتيجة التخلف في التربية العسكرية، مما ولد صعوبة كبيرة في زج هذه القوى في المعركة في الوقت اللازم.

ب ـ الأسباب العسكرية:

١ ـ ضعف قيادة المعسكرات: لم تكن هناك فترة كافية لاختيار قادة للمعسكرات يتحلون بالشجاعة والضبط، بل إن هذه القيادات خلقتها طبيعة الصلات والعمل. وهذا أدى إلى ضعف هذه القيادات، فمنهم من جبن في المعركة

... وظهر منهم قادة لا يقدرون أهمية الضبط الحزبي، ويعملون بهواهم ... وهناك أمثلة عديدة [أخرى]. وبالمقابل برز مقاتلون شجعان قادوا [المعركة]، ولكن بعد فوات الأوان.

٢ ـــ عدم تنفيذ الخطة في التحرك الأول: حيث ركزت القوى جميعها على الباب، وتركت المراكز الاستراتيجية المهمة رغم دراسة الخطة أكثر من مرتين، وتبيان أهمية الباب عندما تكون الحركة في موقع دفاع. أما عند رسم الهجوم، فيجب أن تتكرس الجهود لتحريك القطعات، والتي تكمن في الدبابات، الطيران، ولسد نقص القيادة من السجن. ورغم الاتصال بالشهيد حسن ليلة التنفيذ الساعة العاشرة، وتدارس الخطة، لكنه بدّل الخطة وأعطى المهام الرئيسية، وهي الدبابات والسجن إلى قوى أخرى ثانوية.

٣ ـــ الاعتماد على التحرك الجزئي بدل الشامل: فلو استطاعت الحركة تحريك كل قواها لتغيرت النتيجة.

٤ ـــ عدم إشراك المدنيين بالإشراف على المعسكرات، وعلى نطاق الوحدات، والاكتفاء بإعطائهم مهمات تتعلق بالمخافر ومراكز الحراسة.

٥ ـــ ضعف خبرة الجنود القائمين بالحركة الأولى بالمسائل الفنية. إذ لم يستطع بعض الجنود حتى استخدام رشاش ضخم، أو استخدام نوع من الرمانات.

استنتاجات

١ ـــ المبادرة، لقد أثبتت المعارك إن المبادرة هامة في إضعاف وتشتيت العدو، حيث لا يعرف من أين يأتيه الخطر ولا مقداره، إلا بعد أن يُجرَد من الامكانيات. وحيث يستفاد لحظة التردد التي تصيب الفرد في اللحظة الأولى، وهو لم يحدد موقفه بعد. وهناك أمثلة عديدة ... استطاعت فرقة مكونة من بضعة أنفار السيطرة على سرية وكسر المشجب، دون أن يحمل أي منهم طلقة واحدة. (واستطاع بضعة أنفار من الحرس البعثي من السيطرة على معسكر الرشيد، ومنعوا الألوف من الجنود الدخول إلى المعسكر في ٨ شباط ..). وأمثلة أخرى يضيق المجال لذكرها.

٢ ـــ التحرك الشامل أكثر ضمانة: إن التحرك الجزئي يكون عرضة لمخاطر عديدة تؤدي إلى فشل الحركة الأولى، وفشل الحركة ككل. وربما تلاقي الحركة الجزئية مقاومة في البداية، فلا تستطيع إتمام حركتها، أو ربما يجبن أحد القادة

المكلفين، أو إن الحركة الأولى قد كشفت للعدو. وهناك احتمالات كثيرة تظهر في المعركة لا يمكن حسابها جميعاً في المقدمة. أما التحرك الشامل فهو يضمن تحرك واسع، وضربة قوية في كل الجهات بحيث يفقد العدو صوابه، وتنهي تردد بعض القطعات التي تعطف على الحركة، وترفع معنوياتها. ولقد استفاد انقلابيو شباط من ذلك، حيث أصبح تكتيك انقلاب تموز لا يصح الآن بعد تطورات الأحداث، واكتساب رجال الحكومة الخبرة.

٣ ــ الإذاعة: إن الإذاعة تحوز أهمية قصوى ، فهي عاملٍ رسمي هام تشل الأوساط الغير ملتزمة، وربما كسبهم إلى المعركة. وهي أيضاً عامل هام في تحقيق التحرك الشامل، ولو كانت الانتفاضة قد سيطرت على الإذاعة في البداية لضمنت تحرك شامل، ولكان النصر محققاً تقريباً. وفي حالة عدم القدرة على ضمانها فإن إسكاتها شيء هام.

٤ ــ الضبط: الضبط في الجهاز الصدامي ضروري جداً وهام، لأن الدقائق في المعركة ذات مفعول كبير، والتنفيذ الدقيق من عوامل النصر الهامة، وليس المقصود بذلك التنفيذ الأعمى.

٥ ــ المدنيين في المعركة: إن المدنيين عنصر هام في المعركة، حيث إن وجودهم يكسر السلبية التي قد تتولد عند الجنود بسبب تربية الجندية، وقد شُرِح ذلك بأمثلة عديدة.

٦ ــ السلاح: السلاح ضروري في الحركة الأولى، وذو أهمية خاصة. ولكنه بعد ذلك يصبح في متناول الثورة، وخاصة إذا حسب لأمر التأكد من إمكانها بصورة دقيقة، ولكن المهم أيضاً هو خبرة الجهاز الصدامي والجيش الثائر بالسلاح وأنواعه، وهذا لا يعني المبالغة في ذلك فإن المبادرة والتَسلل المحكم يساعد على تحقيق المهمة، ويضعف من كثرة السلاح. وهناك أمثلة: فقد استطاع الشهيد كاظم السيطرة على كتيبة دبابات واعتقال قادتها وهو لا يملك من السلاح إلا قليله. على أية حال الحساب لأي طارئ شيء مهم.

٧ ــ الشجاعة وضبط النفس: إن أهم ما يجب أن يتحلى به المهاجم هو الشجاعة والجرأة والإقدام. وعند اختيار العناصر يجب أن يركز على هذه الناحية، ويجب التأكد من هذه الصفة بالعمل والتجارب، ومن سيرة تاريخ الرفيق الثائر .. وإن ضبط النفس والهدوء يساعدان على تحديد عمل صائب، وعلى التفكير قبل اتخاذ

القرار.

٨ ـــ ضمان شل قوة العدو وخاصة قوته الضاربة الرئيسية والتي يجب تشخيصها في بداية كل خطة. وإن الدبابات تلعب دوراً حاسماً، وإن قوة العدو تتمركز كما أعتقد في القصر الجمهوري.

٩ ـــ الطيران: رغم إنه ليس حاسماً في المعركة، ولكنه ضمانة كبيرة لعرقلة تحرك القطعات الموجودة في كردستان مثلاً أو في الفرات.

١٠ ـــ القوى العددية الكبيرة التي يجب أن يضمها الجهاز الصدامي مهمة، فالأفراد القليلون رغم حملهم السلاح، لا يكسب المعركة طابع الشعبية والشمول، حتى وإن كان الجميع غير مسلحين.

النتائج

إن الفشل العسكري الذي كان نتيجة الانتفاضة، لا يعني إنها فشلت سياسياً، فهي قد حققت نتائج طيبة، حيث أنها حققت دفعاً جديداً وزخماً ثورياً، وأعادت الثقة إلى نفوس الآلاف، بعد أن كان اليأس مسيطراً على نفوسهم، وبعد أن فكر المتفائلون بأن الحركة لن تنهض قبل عشر سنوات على الأقل.

وهي بالتالي كانت عاملاً في تمزق العصابة والذي أدى إلى سقوطهم فيما بعد. وهي حققت وعياً ثورياً كبيراً في العراق. فلأول مرة ينطلق الكادحون والعمال لبناء دولتهم بأنفسهم، ويحددون بصورة ثورية أن وقتهم قد حان. وهي بالتالي لقنت الفاشست درساً بأن ليس هناك قوة على الأرض قادرة على تصفية الشيوعيين، طالما هنالك عمال وكادحين. وأخيراً كانت فعلاً عملاً لضرب الجيش من الخلف مسانداً الثورة في كردستان.

فهرس الأسماء

أ

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ص

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ



حسن سريع

الزعيم عبد الكريم قاسم في القيلولة يفترش أرضية مكتبة عام ١٩٥٩.. صوره أحد مرافقيه / جريدة المؤتمر



المشاركون في انتفاضة معسكر الرشيد يتوسطهم نائب العريف حسن سريع



اللواء الركن طاهر يحيى التكريتي



حازم جواد

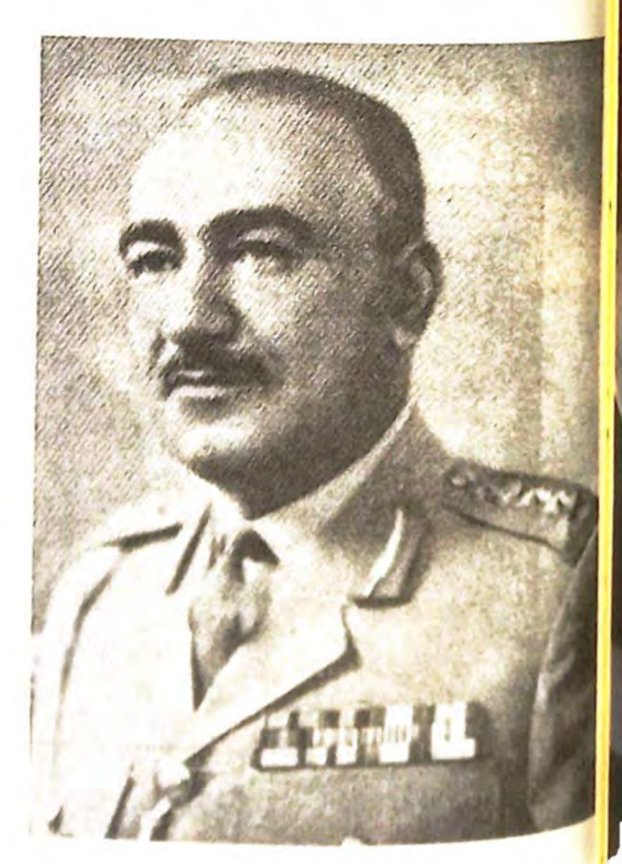
جمال عبد الناصر وعلي صالح السعدي أثناء توجههما إلى الأزهر لتأدية صلاة الجمعة، وتسير خلفها، سيارة أخرى تضم المشير عامر وطالب شبيب



الرئيس السابق أحمد حسن البكر محاطاً بصدام حسين وطه رمضان، ١٩٧٧، بغداد
ويظهر صباح مرزا في الخلف وفي وسط الواقفين أرشد ياسين

منذر الونداوي مهنئاً البابا يوحنا بولص الثاني بمناسبة توليه مهامه البابوية

خروشوف، السلال، عارف، عبد الناصر



وزير الدفاع صالح مهدي عماش



العميد الركن المظلي عبد الكريم مصطفى نصرت

الرئيس المصري الراحل مع الزعيم الكردي الراحل الملا مصطفى البارزاني في القاهرة خلال فترة الستينات/ جريدة المؤتمر



شمس الدين المفتي



الزعيم الكردي مسعود البارازني وعلي كريم سعيد

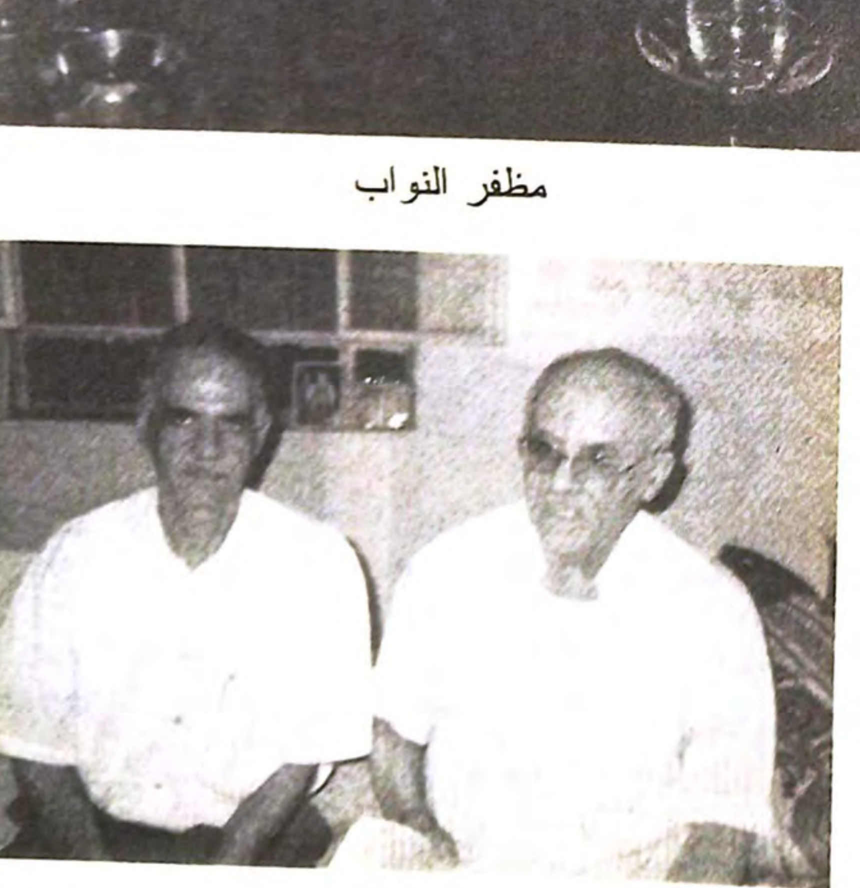


ضابط أعدم في معسكر سعد

مظفر النواب



تحسين علي الشيخلي (يحيى العراقي)



يونس الطائي وعلي كريم سعيد

صالح دگلة، رسمية سوفيتية، سلام عادل، جمال الحيدري، مسؤولان سوفيتيان



سلام عادل يتحدث
مع مسؤولين سوفيات



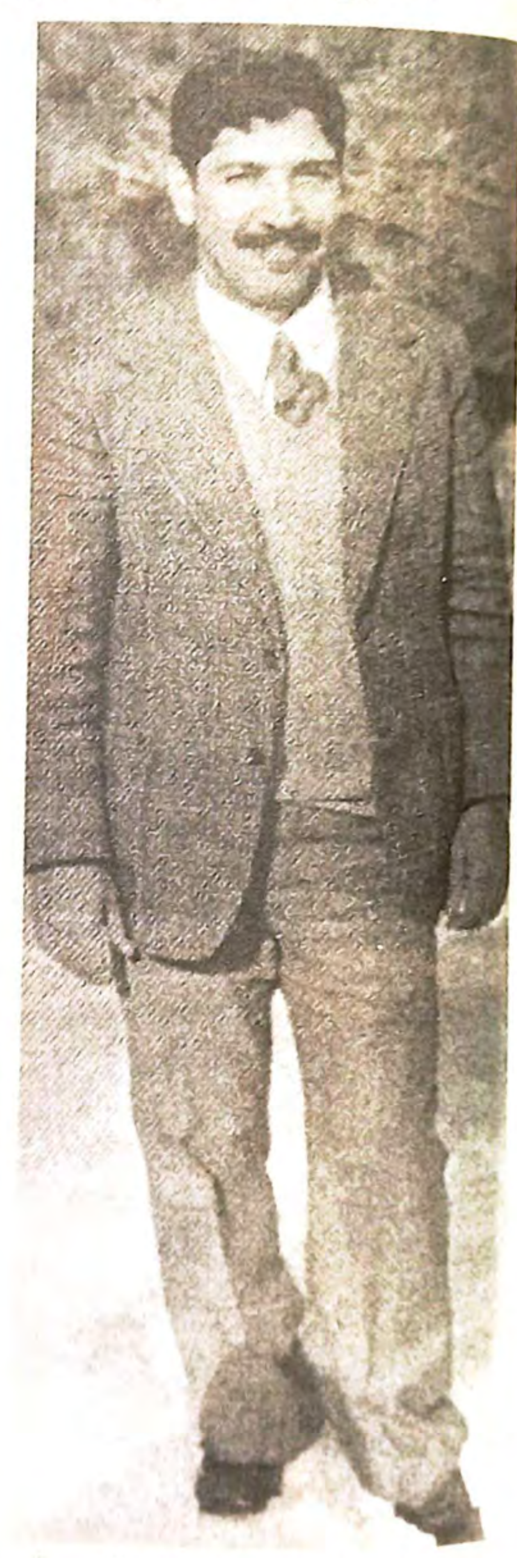
باقر إبراهيم الموسوي
وزوجته في موسكو



المشير عبد الحكيم عامر بين صالح السعدي ونهاد القاسم وعبد الرحمن البزاز



اللواء الركن حسن مصطفى النقيب



عضو قيادة حزب البعث القومية
أحمد العزاوي



عمار علوش
قتل على يديه عشرات الضحايا



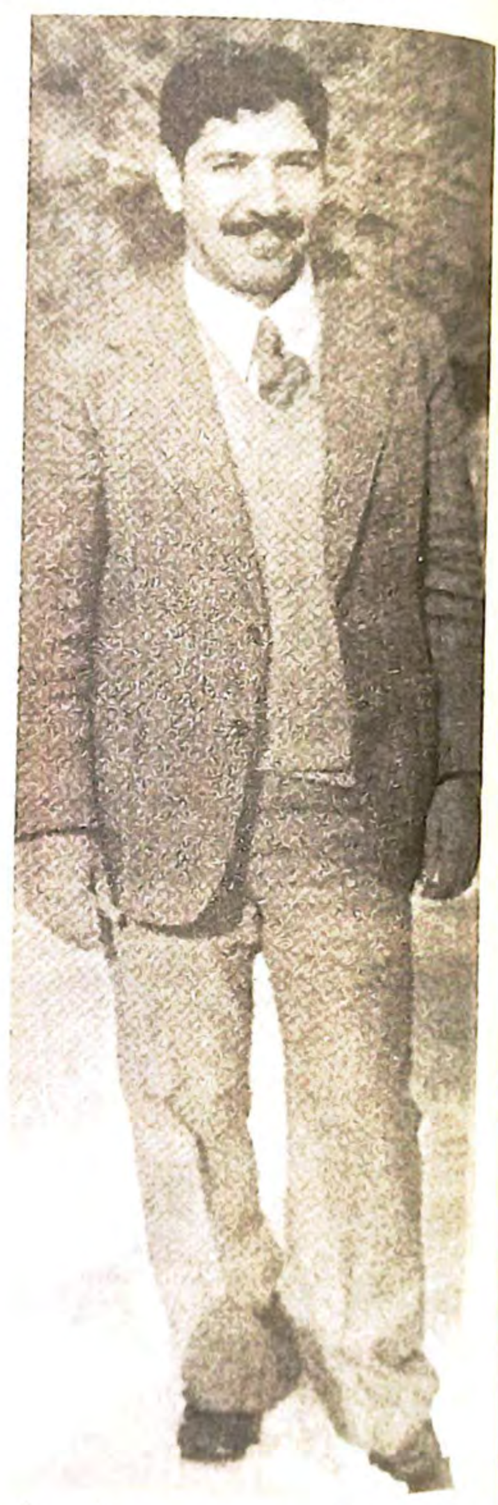
مهدي العبيدي



المشير عبد الحكيم عامر بين صالح السعدي ونهاد القاسم وعبد الرحمن البزاز



اللواء الركن حسن مصطفى النقيب



عضو قيادة حزب البعث القومية
أحمد العزاوي



عمار علوش
قتل على يديه عشرات الضحايا



مهدي العبيدي



كامل الجادرجي
هديب الحاج حمود



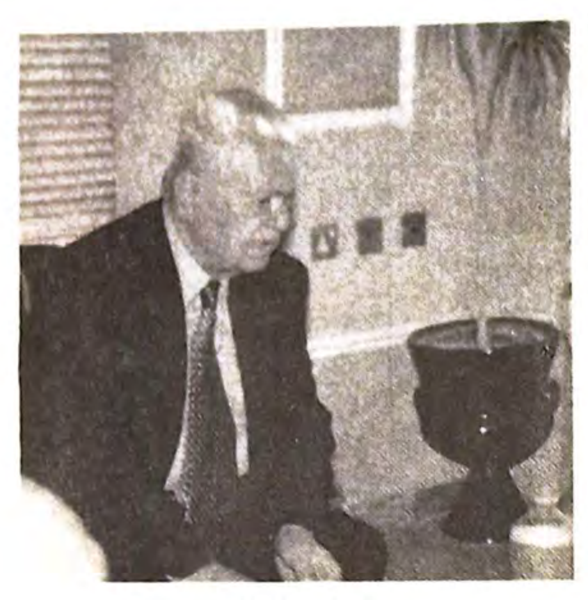
جلال الطالباني
مع حسن العلوي



هاني الفكيكي
وعلي كريم سعيد



إبراهيم الحريري وعلي كريم سعيد في أربيل



فؤاد عارف

أشرف مروان
سعد صالح جبر
شكري صالح زكي
في القاهرة

كان لهذا المشهد الثوري وقع شرارة نار على الهشيم فصاح احد الذين خلفنا ومن فوقهم ؟ علينا نقتلهم وسحب أقسام البندقية . لم يجبه احد ربما لسرعة والغريب ان احداً لم يجبه حتى المنشد . في تلك اللحظة تمنيت لو أنني فوق صاروخ لانطلق فيه الى السماء هرباً من وابل الرصاص الذي كان سيخترق ظهري . لكني ربما كنت مخطئاً لم اجاوبه أو اردعه أو اهرب فكلها امور كانت ستثير غريزته القتالية (او سمها القتلية) . كان خليل العزاوي هو ذاته ومن تبعه لو مني "لا يعمل شيئاً غير ما افعل"

شاء القدر وحسن الحظ ان تتقدم نحونا سيارة قيادة عسكرية مسرعة وتقف امامنا وينزل منها ملازم أول وكان يلبس بحوزته اثر خطين منزوعين من ذراعه وأبقى اللون الأصلي للبدلة بارزاً .. صاح بالجنود لماذا هذا العدد حلقه وما دخل "سامحنا مقدم فيدر هذه امرأة = ثورة" ... سألته الى أين هي ذاهبون فقال الى الموقع مؤقتاً واوصل بغرفة خاصة لي فاعتذرت لمعرفة قصدا الوقت وحدي وقد اوصل ان آكون ضمن المجموعة موافق فوراً . ناديته بالقول "اطلب لا تشك بانك تحب ان دافعت وتحرص على سلامتهم ... أود ان أخبرك بانكم لا تملكون فرصة كفاح وان قواتنا هائلة قادمة نحوكم فاسحب جماعتك واهرب بهم لتنجو وتنجيهم فقال انهم يتحملون المسؤولية وانهم أهل لها ... حلفت له اني ارحت ضميري وأود ان ابيد عليك الطلب وان تعتبره كل الصدق والتزامه ... فكر ستتحمل المسؤولية مهما كان الثمن . فقلت إذن خذونا الى السجن وكان السجن في رأيي هو الضمانة الوحيدة للبقاء قبل ان تصل قواتنا .

دخلنا السجن وهو بناية مدرسة التدريب المهني ربما كانت حديثة لانها كانت بدون أثاث وكان آمر السجن شاب ذو لحية سوداء يسمونه "كاسترو" وهو اسم يطلقه عليه جماعته أما اسمه الحقيقي فلا اعرفه . كان في السجن حوالي ٢٠ ثلاثون ضابطاً وضابط صف . أول عمل قمت به هو التخلص من رتبي العسكرية وجناح الطيران وحتى القبعة ... ثم تفحصت سريعاً طرق ومنافذ السجن الوقت فوجدت الا منفذ ولا مخرج الا من حيث دخلنا مقررين ان احول ذلك القفص الى فائدة . فاذا اعتقلنا من الداخل فاننا قد نستطيع الاعتصام في السجن حتى وصول آخر لم اعلمها فوراً ... لان دت

كل عام وانتم بخير

الأخ الدكتور علي كريم سعيد ... مع التحيات

عدد الأوراق بما فيها هذه ١١

منذر الونداوي


وصفي طاهر مرافق عبد الكريم قاسم
ورفعت الحاج سري مدير الاستخبارات العسكرية


معين حسن النهر



الزعيم عبد الكريم قاسم محاطا من اليسار محافظ البصرة عبد الوهاب عبد الرزاق، ستار الجنابي، مرافق العبدي، الرائد حافظ علوان، الرائد ساجد نوري، ثم هاشم جواد وزير الخارجية خلال زيارته أم قصر



الزعيم عبد الكريم قاسم

العـــراق الـبيريّـة المسلحة

حركة حسن سريع وقطار الموت 1963

بعد كتابي: أصول الضعف (دراسة في الميل العربي المشترك)، ومن حوار المفاهيم إلى حوار الدم (مراجعة في ذاكرة طالب شبيب)، نستمر في السعي لكتابة، جانب من، تاريخ ما لم يكتب تاريخه، فنقدم ما نظن أنها محاولة أخرى:

لوقف اغتيال الحقائق وتلاعب المتجرئين، ولتعديل الكفة المائلة منذ سنين، ولإعطاء المغيبين فرصة الدفاع عن أنفسهم، والتواجد على صفحات التاريخ الشفافة.

لإحباط مشاريع القتل والانتقام مستقبلاً، ولنقل السخط الساكن في أعماق النفوس المكبوتة، إلى العلن، بدلاً من تركه يعبر عن نفسه على شكل ثورات وانتفاضات مدمرة، في دورة لعينة، ما زالت تتكرر، بين النهرين، كل بضعة أعوام.

لكل ما تقدم، لابد من جعل المقتولين ظلماً، يحضرون في كل الفرص والمناسبات العامة، لينيروا بإشعاعهم درب فلسفة العناد العراقية المزدهرة، في الماضي كما في الحاضر، شعراً وروايةً وروحاً ورمزاً، ليتذكر القاتل، أياً كان لونه السياسي، فداحة جرمه، فقد نسي هؤلاء أنهم إنما يتحدثون إلى شعب، قامت بين نهريه أعرق وأخصب الحضارات، ومن العسير على أبنائه أن يتقبلوا بسهولة سخرية المزورين، وليس الكمون الظاهر، بين حين وآخر، سوى استعداد لجولة أخرى، بجيل آخر لم يشهد هزيمة الآباء.

المؤلـف


ISBN 978-9-9229131-9-3



العراق- بغداد- مدخل شارع السعدون- عمارة فاطمة
+964 (0) 770 0252 269
+964 (0) 771 3000 191
alnhtha_co@yahoo.com